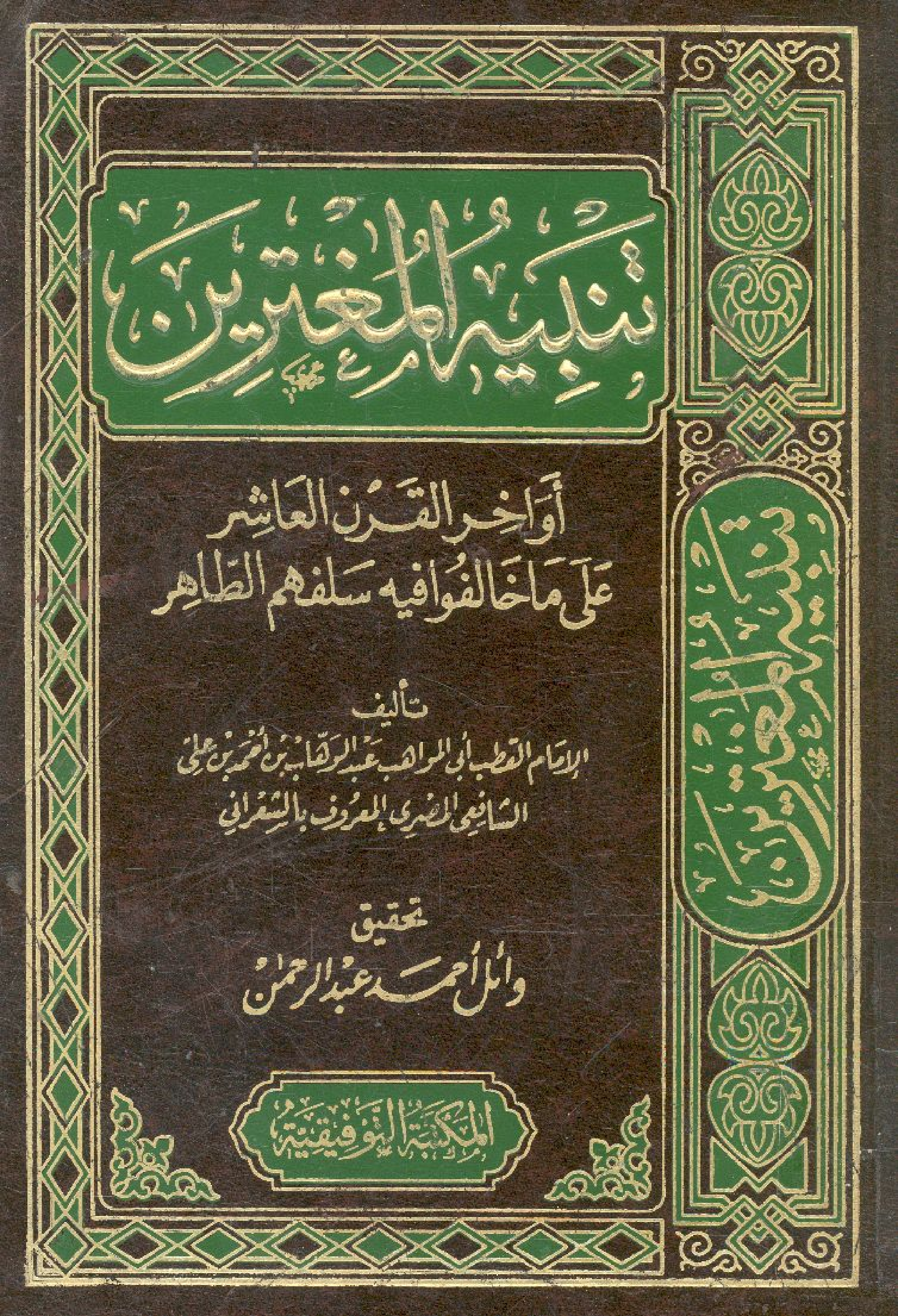

تنبيه المغترين
أواخر القرن العاشر
على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر
تأليف
الإمام القطب أبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي
الشافعي المصري المعروف بالشعراني
تحقيق
وائل أحمد عبد الرحمن
المكتبة التوفيقية
تنبيه المغترين

تنبيه المغترين

أواخر القرن العاشر
على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر

تأليف

الإمام القطب أبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي
الشافعي المصري المعروف بالشعراني

تحقيق

وائل أحمد عبد الرحمن



المكتبة التوفيقية

القاهرة - مصر
العنوان : أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
تليفون : ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠ (٠٠٢٠٢)
فاكس : ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo - Egypt
Add : In front of the Green Door Of El Hussen
Tel : (00202) 5904175 -5922410
Fax : 6847957
shalan@eltawfikiapress.com

إشراف
[signature]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد..

فسوف نقدم نبذة موجزة عن نشأة الفكر الصوفى، ومعنى الصوفية، وإلى ماذا يدعون، فبداية نقول: إنه يخطأ من يقول إن أهل السنة والجماعة على طرفى النقيض مع المتصوفة، بل إننا نرى كبار شيوخ الإسلام كابن تيمية، وتلميذه ابن القيم يأخذون ما عند المتصوفة فيثفون على حقه، ويردون على باطله، فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية يصنف كتاب الاستقامة فى الرد على الإمام القشيرى، فيثبت ما يراه موافقًا للكتاب والسنة، ويرد على ما يراه مخالفًا لهما، ثم يجيء تلميذه ابن القيم من بعده فيصنف كتابه الممتع «مدارج السالكين فى شرح إياك نعبد وإياك نستعين» مستفيدًا مما كتبه أبو إسماعيل الهروى، وهو من كبار شيوخ المتصوفة.

ومن يطالع مثلاً كتابًا مثل سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبى يجده قد ترجم لكثير من شيوخ الصوفية، فيثنى على ما عندهم من خير، وينتقد ما يراه مخالفًا للكتاب والسنة من قول بعقيدة الحلول والاتحاد وغير ذلك مما يخالف عقائد الإسلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيميـة فى مجموع الفتاوى (١١/ ١٧): ولأجل ما وقع فى كـثير منهم من الاجتـهاد والتنازع فيـه تنازع الناس فى طريقهم، فطائفة ذمت «الصـوفية والتصوف». وقـالوا: إنهم مبتدعـون، خارجون عن السنة، ونقل عن طـائفة من الأئـمة فى ذلك من الـكلام ما هو مـعـروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام.

وطائفة غلت فيهم، وادعوا أنهم أفـضل الخلق، وأكملهم بعد الأنبياء، وكلا طرفى هذه الأمور ذميم.

والصواب: أنهم مجتـهدون فى طاعة الله كما اجتـهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده وفيهم المقتصد الذى هو من أهل اليمين، وفى كل من الصنفين من قد يجتهـد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب.

ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاصٍ لربه.

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصـوف ليسـوا منهم: كالحلاج مـثلاً، فإن أكـثر مـشائخ الطريق أنكروه، وأخرجوه عن الطريق مثل: الجنيد بن محمد سيد الطائفة، كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى فى «طبقات الصوفية».

فهذا أصل التصوف، ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع، وصارت الصوفية ثلاث أصناف:

صوفـية الحقـائق، وصوفية الأرزاق، وصـوفية الرسم، فـأما صوفـية الحقائق فهم الذين وصفهم شيخ الإسلام كالجنيد وغيره، وأما صوفية الأرزاق فهم الذين وقفت عليهم الوقـوف، فلا يشترط فى هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق، **ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط:**

الأول: العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم.

والثانى: التأدب بآداب أهل الطريق، وهى الآداب الشرعية فى غالب الأوقات، وأما الآداب البدعية الوصفية فلا يلتفت إليها.

والثالث: أن لا يكون أحدهم متمسكًا بفضول الدنيا، فأما من كان جماعًا للمال، أو كان غير متخلق بالأخلاق المحمودة، ولا يتأدب بالآداب الشرعية، أو كان فاسقًا فإنه لا يستحق ذلك.

وأما «صوفية الرسم» فهم المقتصرون على النسبة، فهمهم فى اللباس والآداب الوصفية ونحو ذلك فهؤلاء فى الصوفية بمنزلة الذى يقتصر على زى أهل العلم وأهل الجهاد، ثم يظن الجاهل فى حقيقة أمره أنه منهم، وليس منهم.

أما عن أصل كلمة التصوف، فقد اختلف الناس فى أصلها: فقيل نسبة إلى «أهل الصفة» وهو خطأ، لأنه لو كان كذلك لقيل: صُفِّىّ، وقيل: نسبة إلى الصف المقدم بين يدى الله، وهو أيضًا خطأ، لأنه لو كان كذلك لقيل: صَفِّىّ. وقيل: نسبة إلى صوفة بن بشر بن أدّ بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم، ينسب إليهم النساك، وهذا وإن كان موافقًا للنسب من جهة اللفظ، فإنه ضعيف أيضًا لأن هؤلاء غير مشهورين، ولا معروفين عند أكثر النساك، ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب فى زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى، ولأن غالب من تكلم باسم «الصوفى» لا يعرف هذه القبيلة، ولا يرضى أن يكون مضافًا إلى قبيلة فى الجاهلية لا وجود لها فى الإسلام.

وقيل - وهو المعروف والصواب - أنه نسبة إلى لبس الصوف، فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد، وهو من أصحاب الحسن البصرى، وكان فى البصرة من المبالغة فى الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن فى سائر الأمصار، ولهذا كان يُقال: فقه كوفى، وعبادة بصرية.

وقد روى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قومًا يفضلون لباس الصوف، فقال: إن قومًا يتخيرون الصوف يقولون: إنهم متشبهون بالمسيح ابن مريم، وهدى نبينا أحب إلينا، وكان النبي -ﷺ- يلبس القطن وغيره.

تعريف التصوف:

أما تعريف التصوف، فنذكر بعض التعريفات المنقولة عن أهل العلم في ذلك الفن:

يقول معروف الكردي:

«التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف»[١].

ويقول أبو تراب النخشبي:

«التصوف لا يكدره شيء ويصفوبه كل شيء»[٢].

ويقول سهل بن عبد الله التستري:

«الصوفي من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله من البشر واستوى عنده الذهب والمدر»[٣].

ويقول ذو النون المصري:

«الصوفي من لا يتعبه طلب ولا يزعجه سلب»[٤].

---

(١) عوارف المعارف للسهروردي (ص ٤١).

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) تذكرة الأولياء (١/ ٢٦٤)، والعوارق (ص ٤٣).

(٤) عوارف المعارف (ص ٤٣).

ويقول الجنيد:

«التصوف تصفية القلوب حتى لا يعاودها ضعفها الذاتى، ومفارقة أخلاق الطبيعة، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة نزوات النفس».

أما كتابنا الذى بين أيدينا فهو كتاب نفيس فى بابه فهو يذكر الخلق ثم يأخذ فى ذكر أقوال وأحوال السلف الصالح عن هذا الخلق. فى أسلوب شيق ممتع، مع ورود بعض الأخطاء الشرعية التى قمنا بالتنبيه عليها.

ونسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم.

إنه ولى ذلك والقادر عليه

المحقق

وائل أحمد عبد الرحمن

ترجمة الإمام الشعراني

هو الإمام عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن موسى الشعراني الأنصاري الشافعي، الشاذلي المصري (أبو المواهب، أبو عبد الرحمن) فقيه أصولي محدث، صوفي، مشارك في أنواع من العلوم، ولد في قلشقندة بمصر في ٢٧ رمضان سنة ٨٩٨هـ، ١٤٩٣م، ونشأ بساقية أبي شعرة من قرى المنوفية.

قال الشيخ عبد الرءوف المناوي في طبقاته: هو شيخنا الإمام العامل العابد الزاهد الفقيه المحدث الأصولي المربي المسلك من ذرية محمد بن الحنفية.

ولد ببلده ونشأ بها ومات أبوه وهو طفل ومع ذلك ظهرت فيه علامة النجابة ومخايل الرياسة والولاية فحفظ القرآن وأبا شجاع والأجرومية، وهو ابن سبع أو ثمان، ثم انتقل إلى مصر سنة إحدى عشرة وتسعمائة وهو مراهق، فقطن بجامع وجدّ واجتهد فحفظ عدة متون منها المنهاج والألفية والتوضيح والتلخيص والشاطبية وقواعد ابن هشام بل حفظ الروض إلى القضاء، وذلك من كراماته وعرض ما حفظ على علماء عصره ثم شرع في القراءة فأخذ عن الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري قرأ عليه ما لا يحصى كثرة منها الكتب الستة، وقرأ على الشمس الدواخلي والنور المحلي، والنور الجارحي وغيرهم، وحبب إليه الحديث فلزم الاشتغال به والأخذ عن أهله، ومع ذلك لم يكن عنده جمود المحدثين بل هو فقيه النظر صوفي الخبر، له دربة بأقوال السلف ومذاهب الخلف، وكان ينهى عن الحط على الفلاسفة وتنقصيهم وينفر ممن يذمهم، ثم أقبل على الاشتغال بالطريق فجاهد نفسه مدة وقطع الخلائق الدنيوية، ومكث سنين لا يضطجع على الأرض ليلاً ولا نهارًا.

مؤلفاته ومصنفاته:

ألف عبد الوهاب الشعرانى كتبًا كثيرة، منها:

مختصر الفتوحات، وسنن البيهقى الكبرى، ومختصر تذكرة القرطبى، والميزان، والبحر المورود فى المواثيق والعهود، وكشف الغمة عن جميع الأمة والمنهج المبين فى أدلة المجتهدين، والبدر المنير فى غريب أحاديث البشير النذير، والجواهر فى عقائد الأكابر، وكشف الران عن أسئلة الجان، وغير ذلك من المصنفات.

وحسده طوائف فدسوا عليه كلمات يخالف ظاهرها الشرع، وعقائد زائفة، ومسائل تخالف الإجماع وأقاموا عليه القيامة، وشنعوا وسبوا ورموه بكل عظيمة فخذلهم الله وأظهره عليهم، وكان مواظبًا على السنة مبالغًا فى الورع، مؤثرًا ذوى الفاقة على نفسه حتى بملبوسه متحملاً للأذى، موزعًا أوقاته على العبادة ما بين تصنيف وإفاده ولم يزل مقيمًا على ذلك معظمًا فى صدور الصدور إلى أن نقله الله إلى دار كرامته.

ومن كلامه: «دوروا مع الشرع كيف كان لا مع الكشف فإنه يخطئ».

وقال: «ينبغى إكثار مطالعة كتب الفقه عكس ما عليه المتصوفة الذين لاحت لهم بارقة الطريق فمنعوا مطالعته وقالوا إنه حجاب جهلاً منهم.

توفى الإمام الشعرانى فى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة، ودُفن بجانب زاويته بين السورين[1].

---

(١) لمزيد من المعلومات انظر شذرات الذهب (٨/ ٣٧٢)، والأعلام (٤/ ١٨٠)، ومعجم المؤلفين (٢/ ٣٣٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾

الحمد لله رب العالمين، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين، وأقول: سُبحانك لا علم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

وبعد فهذا كتاب نفيس، صغير الحجم، كبير القدر ضمنته جملةصالحة مما كان عليه السلف الصالح من صفات معاملتهم مع الله تعالى ومع خلقه، وحررته على الكتاب والسنة تحرير الذهب والجوهر، وذلك بحسب فهمى حال التأليف، فهوكالكتاب المسمى «المنهاج» للإمام النووى فى الفقه فكما أن علماء العصر يفتون الناس بما فيه، وما حوى من الترجيحات كذلك علماء الصوفية -رضي الله عنهم- يفتون بما فى هذا الكتاب من النقول المحررات الجيدات، فإنى شيدت أخلاقه بأفعال السلف الصالح من الصحابة، والتابعين، والعلماء العاملين -رضي الله عنهم- وبما منَّ الله تعالى على بالتخلق به أوائل دخولى فى طريق محبة القوم خوفًا أن يقول بعض المتعنتين: كيف يأمرنا فلان بالتخلق بأخلاق القوم وهو نفسه لم يقدر على هذه الأخلاق.

فلذلك صرحت بكثير من الأخلاق التى مَنَّ الله تعالى بها على دون أقرانى بقولى: وهذا خلق غريب لم أجد من تخلق به فى هذا الزمان غيرى تنبيهًا للسامعين على تخلقى به، وأننى ما دعوتهم إلى التخلق به إلا بعد تخلقى به، ولولا ذلك لكان الأولى بنا كتم ذلك عن الإخوان كبقية أعمالنا التى لم نر من يطلب الاقتداء بنا فيها، إذ لا فائدة فى إظهار الأعمال إلا لأحد شيئين: إما ليقتدى الناس بالعبد فيها، وإما ليظهرها من باب الشكر لله تعالى، لا غير، وكأن لسان حالى يقول لكل متعنت: انظر يا أخى فى أخلاقى، فما وجدتني يا أخى متخلقًا به فتخلق به وما بقى لك عذر، وما

لم تجدنى متخلقًا به فعذرى عذرك فيه، وكثيراً ما أكرر الخلق مراراً بعبارات مختلفة اقتداء بالقرآن العظيم، وبصحيح الإمام البخارى وغيره من كتب الأدلة، وبيانًا للاعتناء بشأن ذلك الخلق، وكثرة تساهل الناس بتركه كما أقول فى بعض الأوقات: وهذا الخلق قد صار غريبًا فى هذا الزمان، ولا أعلم أحدًا من أقرانى تخلق به غيرى، إشارة لقلة من تخلق به الأقران لا ازدراء للإخوان كما قد يتوهم معاذ الله أن أقصد مثل ذلك.

وكان من الباعث الأعظم لى على تأليف هذا الكتاب ما رأيته من تفتيش جماعة مولانا السلطان سليمان بن عثمان فى النصف الثانى من القرن العاشر على ما اختلسه العمال وغيرهم من ماله نصرة له، وما رأيت أحدًا من علماء الشرع يفتش على ما اندرس من معالم أخلاق الشريعة المحمدية نصرة لرسول الله -ﷺ- كما فعل جماعة مولانا السلطان نصره الله، فأخذتنى الغيرة الإيمانية على الشريعة، وألفت هذا الكتاب كالمبين لما اندرس من معالم أخلاقها فى دولة علماء الظاهر والباطن، فهو نافع لكل فقيه وصوفى فى هذا الزمان لا يكاد أحد منهم يستغنى عن النظر فيه كما ستعرفه عند مطالعتك الكتاب إن شاء الله تعالى، وهو كالسيف القاطع لعنق كل مدّعٍ للمشيخة فى هذا الزمان، وبغير حق لأنه يفلسه حتى يرى نفسه منسلخة من أخلاق القوم كما تنسلخ الحية من ثوبها، وإنى أعرف بعض جماعة بلغهم أمر هذا الكتاب فتكدروا، ولو أمكنهم سرقته وغسله لفعلوا خوفًا أن ينظر فيه أحد ممن يعتقدهم، فيتغير اعتقاده فيهم حين يراهم بمعزل عن التخلق بأخلاق القوم الذين يزعمون أنهم خلفاؤهم، وكان الأولى بهم الفرح والسرور به، فإنه كله نصح، ولا يجد أحد منهم من ينصحه بمثله فى مثل هذا الزمان، وقد ألف أخى الشيخ أبو الفضل - رحمه الله - ميزانًا فى نصح إخوانه وغيرهم نحو خمسة أوراق فكتبوها بماء الذهب واللازورد، وفرحوا بها أشد الفرح، فرضى الله عن الصادقين آمين.

وكان تأليفى لهذا الكتاب بحسب الوقائع التى تقع منى ومن أصحابى،

وما من خلق ذكرته فيه إلا وهو وارد على سبب أعرفه، فرحم الله من رأى فيه خللاً فأصلحه مساعدة لى على الخير، فإنه ليس منقولاً من كتب بالأصالة، وإنما هو كالاستنباط من الكتاب والسنة وأقوال الأئمة، وجميع ما ذكرته فيه من النقول إنما هو كالاستشهاد لما ذكرت لا غير كما ستراه إن شاء الله تعالى.

وإذا كان المؤلف أول مستنبط كما ذكرناه احتاج كلامه إلى من يتعقبه ويستدرك عليه ضرورة كما استدرك العلماء من المتأخرين على من سبقهم، بخلاف من كان مؤلفه مجموعًا من نقول المتأخرين، فإن كلامه لا يحتاج إلى التعقب إلا فى النادر، وذلك لأنه يرى تنكيت العلماء على بعضهم، فيأخذ العبارة السالمة من التنكيت كما فعل شيخنا شيخ الإسلام زكريا الإنصارى فى مؤلفاته -رحمه الله- فلذلك من ألف كتابًا لم يسبق إليه فقد جعل كلامه هدفًا لجميع المفسرين، والمحدثين، والفقهاء، والأصوليين، والنحاة، والمتكلمين، والصوفية والبيانيين وغيرهم، فيحتاج فى كل قوله إلى جدال جميع هؤلاء العلماء قبل أن يضع تلك القولة. قال تعالى: ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**﴾ [النساء:٨٢]، وذلك لعسر استحضار المؤلف جميع ما قيل فى تلك المسألة وما يرد على منطوقها ومفهومها حال الكتابة، ولو أنه قدر على ذلك ما احتاجت الكتب إلى شروح، ولا احتاجت الشروح إلى حواش عليها، وهذا شأنى فى مؤلفاتى كلها ما عدا الحديث والمختصرات من أصول، فكلها مستنبطة من الكتاب والسنة.

وقد كان الإمام عمر بن الخطاب يفتى الناس ويقول: هذا قول عمر فإن كان صوابًا فمن الله، وإن كان خطأ فمن عمر انتهى.

وكذلك كان أبو حنيفة -رضي الله عنه- يفتى ويقول: هذا أكثر ما قدرنا عليه فى العلم، فمن وجد أوضح منه فهو أولى بالصواب، وكثيرًا ما كان يقول: هذه فتوى النعمان فإن كانت صوابًا فمن الله، وإن كانت خطأ فمن النعمان، والتبعة عليه فيها فى الدنيا والآخرة.

وهكذا يقول مؤلف هذا الكتاب: وأرجو من فضل الله أن يكون هذا

الكتاب كالمبين لما اندرس من أخلاق القوم -ﷺ- بعد الفترة التى حصلت بعد موت الأشياخ الذين أدركناهم فى النصف الأول من القرن العاشر، فقد أدركنا بحمد الله تعالى نحواً من مائة شيخ كان كل واحد منهم يستسقى به الغيث: كسيدى على المرصفى، وسيدى محمد الشناوى وسيدى محمد بن داود، وسيدى أبى بكر الحديدى، وسيدى عبد الحليم بن مُصلح، وسيدى أبى السعود الجارحى، وسيدى تاج الدين الذاكر، وسيدى محمد بن عنان، وسيدى على الخواص وغيرهم ممن ذكرناهم فى كتاب «طبقات العلماء والصوفية»، فكل هؤلاء كانوا على قدر عظيم فى الزهد والعبادة والورع، وكف الجوارح الظاهرة والباطنة عن استعمالها فى شىء مما نهاهم الله عنه، وكان أحدهم لا يقبل شيئًا من أموال الولاة ولو كان فى غاية الضيق، بل يطوى ويجوع حتى يجد شيئًا من الحلال، ولم يكن أحد منهم يعانى ركوب الخيل، ولا الملابس الفاخرة ولا الأطعمة النفيسة، ولا يتزوّج المنعمات، ولا يسكن فى القاعات المرخمات إلا إن وجد ذلك من حلال فى نادر من الأوقات، وكان الملوك يعرضون عليهم الرزق والجوالى والمساميح والمرتبات من بيت المال فيأبون ذلك، ويقولون مال السلطان إنما هو معد لصرفه فى المصالح، وإقامة شعائر الدين، وإنفاقه على الجند الذابين عن المسلمين، ونحن ليس فينا نفع لأحد.

وكان أحدهم يقنع بالكسرة اليابسة يفتها فى الماء، ويغمسها بملح ويكتفى بها، منهم: الشيخ أمين الدين الغمرى، والشيخ محمد المغربى شيخ الجلال السيوطى، ودخل عليه السلطان قايتباى مرة وهو يأكل رغيفًا يابسًا بلّه فى الماء، فعرض عليه ألف دينار فردها، وقال لا حاجة لى بها وأنشد السلطان يقول:

اقنع بلقمة وشربة ماء وليس الخيش　　　وقل لعقلك: ملوك الأرض راحوا بيش

فحصل للسلطان عبرة وبكى، وحمل الألف دينار، فأين حال هؤلاء المشايخ من مشايخ هذا الزمان الذين يسافرون من مصر أو الحجاز أو الشام إلى الروم أو العراق ليسألوا أن يرتب لهم السلطان جوالى، أو مسموحًا، أو

مرتبًا مع أن أحدهم يجد فى بلده ما يكفيه، وكان الأولى بهم لو عرض عليهم ذلك أن يردوه ولا يزاحموا جند السلطان فى مال المصالح كما درج عليه سلفهم الصالح، بل لم نر أحدًا من مريدى المشايخ الذين أدركناهم يسافر من بلده فى طلب الدنيا فضلاً عن المشايخ، لأن أول قدم يضعه المريد فى الطريق أن يخرج عما بيده من الدنيا، ويرميه فى بحر الإياس كما هو معلوم. وقد سافر مرة من مشايخ مصر شخص إلى الروم، فاجتمع بالوزير إياس باشا، فقال له: ما صنعتك؟ فقال: شيخ من أهل الطريق، فقال له إياس: فما حاجتك التى جئت فيها؟ قال: ترتبوا لى شيئًا من بيت المال، فقال له الوزير: هل تعلم أن أحدًا فى مصر مثلك فى الطريق؟ فقال: لا. فقال له إياس: أف لك من شيخ إذا كان هذا حالك، وأنت تزعم أنه ليس أحد فى مصر أعلى منك مقامًا فى الطريق، فكيف ببقية المشايخ؟ لقد أزريت بالفقراء وبهدلت الطريق، فإن آحاد المريدين لو فعل مثل ذلك وسافر من بلده إلى غيرها فى طلب الدنيا لخرج عن طريق الإرادة، فكيف تفعل أنت مثل ذلك فى حال نهايتك؟ وزجره وأمر بإخراجه من عنده، فرجع خاسرًا لما طلب. ووقع لشخص من الشام أنه سافر إلى الروم يطلب له زيادة مرتب من الجوالى، وكانوا أعطوه قبل ذلك أربعين نصفًا كل يوم، فلما بلغ إسلامبول جلس فى طريق البلد، وأرسل قاصده إلى الوزير، وكان إذ ذاك إياس باشا أيضًا يعلمه بقدوم سيدى الشيخ ليخرج إلى لقائه، فأبى الباشا وقال للقاصد: قل له: إن كان لكم عندنا حاجة فأتونا إلى البيت، فذهب القاصد للشيخ، وأخبره بمقالة الوزير، ثم قال الوزير: يا عجبًا؟ كيف يسافر هذا من الشام إلى الروم فى طلب الدنيا ويطلب من الأمراء أن يعظموه ويخرجوا إلى لقائه مع أنه يحتاج إليهم، وليس أحد منهم يحتاج إليه؟ وإذا كان هذا يزعم أنه ولى، وقد راض نفسه بأصناف المجاهدات وهو يرمى نفسه على الأمراء لأجل طلب الدنيا، فكيف بنا نحن مع عدم رياضتنا نفوسنا، وعدم حاجتنا إليه، ثم إن الباشا أرسل للشيخ ضيافة، ولم يأت إليه وقال: إنما فعلت ذلك مع الشيخ لأعلمه الأدب، فإن ذهاب مثلنا إنما يكون لمن تعرض عليه الدنيا فيردها علينا، وأما من يطلبها منا ويسافر من وطنه لأجل ذلك فلا يستحق أن أحدًا منا يمشى إليه.

وآخر الأمر أن الشيخ رد خائبًا إلى بلاده، وقال لى الأمير محمد دفتر دار مصر مرة: أنا لا أعتقد فى مشايخ مصر الآن ولو مشى أحدهم فى الهواء[١] فقلت له: لماذا؟ فقال: لأنى رأيتهم يجتهدون فى طلب الدنيا أكثر مما نجتهد نحن فيها.

قال: وقد دخل على شيخ منهم فى رمضان ليفطر عندى، فقلت له: هذا الطعام عندى فى حالة شك فلا تأكل منه، فقال قدمه لى وعلى حسابه فى الآخرة، فكيف أعتقد مثل هذا وأنا لا تطيب نفسى أن آكل منه أنى معدود من الظلمة. اهـ.

ولما مات الشيخ نور الدين الشعرانى رأيته فى المنام، وقال: أنا نادم على قبول الرزقة التى أعطاها لى خابر بيك، فإنى طول عمرى كنت حرًا.

فإياك يا أخى أن تظن بالمشايخ الذين أدركناهم أنهم كانوا مثل هؤلاء فى قلة الورع والقناعة فتسيء الظن بهم. وإياك يا أخى أن تتظاهر بالمشيخة فى هذا الزمان إلا إن كنت محفوظ الظاهر والباطن من التخليط كأكل أموال الكشاف، ومشايخ العرب والظلمة، فإن تظاهرت بذلك وظاهرك غير محفوظ فقد خنت الله ورسوله وأهل الطريق، وأتلفت دين من يتبعك، وكان عليك إثم الأئمة المضلين زيادة على إثمك لا سيما إن ادعيت أنك أعلى مشايخ مصر مقامًا، فلذلك وضعت هذا الكتاب كالميزان الذى يتميز به الرابح من الخاسر والمحق من المبطل، والصالح من الطالح، فاعرض يا أخى ما فيه من الأخلاق على كل من طلبت أن تصحبه من هؤلاء المشايخ الظاهرين فى هذا الزمان، فإن وجدته متخلقًا به فاصحبه واقتد به وقبل

---

(١) قلت: اعتقاد هذا الكلام خلاف ما أمرنا به رسول الله -ﷺ- من عدم الثناء على أحد، أو أن نقطع بصلاحه بل أمرنا صلوات الله وسلامه عليه فى الحديث المتفق عليه الذى قال فيه: «من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة، فليقل: أحسب فلانًا - والله حسيبه -، ولا يزكى على الله أحدًا، أحسبه، إن كان يعلم ذاك، كذا وكذا».
قال الإمام النووى فى شرح صحيح مسلم (٩/ ٣٥٥) ط. الحديث: قوله: «ولا أزكى على الله أحدًا»: أى لا أقطع على عاقبة أحد أو ضميره، لأن ذلك مغيب عنا، ولكن أحسب وأظن لوجود الظاهر المقتضى لذلك.

رجله، وإن وجدته غير متخلق به، فاضرب عنه صفحًا من غير ازدراء له، وكل أمره إلى الله تعالى، فأكرم به من كتاب جاء على حين فترة من أيام الرجال الصادقين مجددًا لما هدم من أخلاق القوم كما درج عليه العلماء العاملون فى كل عصر، فيأتى أحدهم مجددًا بمؤلفاته ما اندرس من معالم الطريق كالحارث المحاسبى، وأبى طالب المكى، وأبى نعيم، وأبى القاسم القشيرى، والإمام الغزالى، والشهاب السهروردى، وغيرهم -رضي الله عنهم-.

وقد كان من آخر المجددين فى القرن الثامن سيدى الشيخ أبو عبد الله محمد الغمري المدفون بالمحلة الكبرى ـ رحمه الله تعالى ـ فكانوا يسمونه فقيه الصوفية، فإنه ضبط فى مؤلفاته أخلاق رسول الله -ﷺ-، وأخلاق السلف الصالح، ولا أعلم أحدًا جاء بعده حذا حذوه فى ضبط أخلاق القوم غيرى بحمد الله تعالى كما ستراه إن شاء الله تعالى فى هذا الكتاب، ولو أن أحدًا فعل ذلك فى هذا العصر غيرى لكنت دللت الإخوان على مطالعة مؤلفه، وكنت لم أتعب نفسى فى تأليف هذا الكتاب، لأنه يصير حينئذ لا فائدة فيه، ولعل قائلاً يقول: إن مطالعة كتابك هذا تكشف عورات الفقراء من أهل العصر، فهلا أسبلت ذيل الستر على إخوانك، فإنه لا يعد أحدًا يعتقد فى أحد من مشايخ هذا العصر، فنقول لهذا القائل: إن جمهور العلماء والصوفية من السلف قد سبقونا إلى التأليف فى مثل ذلك، وبينوا أخلاق الصالحين من الطالحين، والصادقين من الكاذبين، والمتفعلين من المخلصين، ولم يلتفتوا إلى كون ذلك يلزم منه كشف سوأة من كان بخلاف الصفة من أخلاق السلف الصالح.

قال الله تعالى: ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [الكهف:٢٩]، فهو وإن لزم من بيان صفات الصالحين هتك أستار الكاذبين، فلا حرج عليهم فى ذلك لقصدهم بالأصالة الخير للمسلمين، ومعلوم أن الإثم إنما هو تابع للقصد نظير ما قاله العلماء فى الجنب يقرأ القرآن لا بقصد القرآن أنه لا يأثم، قالوا لأنه لا يكون قرآنا إلا بالقصد، ويؤيد ذلك ما ذهب إليه جمهور علماء الأصول من أن لازم المذهب ليس بمذهب، فعلم أنه يجب حمل أشياخ الشريعة والحقيقة الذين حطوا على أهل

زمانهم أنهم إنما قصدوا رفع همة إخوانهم إلى أرفع مما هم عليه من الأخلاق الحسنة لا غير محبة فى رسول الله -ﷺ- وفى إحياء شريعته، لا تشفيًا للنفس من الأقران، وطلبًا للرياسة عليهم، وانتشارًا للصيت عليهم بالصلاح حاشاهم -ﷺ- من قصد مثل ذلك، وأسأل الله تعالى من فضله أن ينفع بهذا الكتاب مؤلفه، وكاتبه، وسامعه، والناظر فيه، إنه سبحانه وتعالى سميع مجيب. وسميته:

تنبيه المغترين
أواخر القرن العاشر
على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر

جعله الله تعالى خالصًا لوجهه الكريم، وأعيذه بكلمات الله التامات من شر كل عدو وحاسد يدس فيه ما ليس من كلامى مما يخالف ظاهر الكتاب والسنة، كل ذلك لأجل أن ينفر الناس من مطالعته، ويحرمهم مما فيه من الفوائد كما وقع لى ذلك فى كتابى المسمى بـ «البحر المورود فى المواثيق والعهود»، وفى مقدمة كتابى المسمى «بكشف الغمة عن جميع الأمة»، وحصل بسبب ذلك فتنة عظيمة فى الجامع الأزهر وغيره، وظن غالب المتهورين أن ما دسوه من العقائد الزائغة، والمسائل الخارقة لإجماع المسلمين من جملة ما اعتقدته وتدينت به، وما سلم من الوقوع فى عرضى إلا قليل من الناس، ثم لم تخمد تلك الفتنة حتى أرسل النسختين الصحيحتين من العهود، ومن كشف الغمة إلى العلماء بالجامع الأزهر.

وكنت بحمد الله تعالى قد أطلعت عليهما مشايخ الإسلام، ووضعوا خطوطهم عليهما وأجازوهما ومدحوا تأليفهما، ففتشوهما فلم يجدوا فيهما شيئًا مما دسه الحسدة وأشاعوه، فعند ذلك سبوا من فعل ذلك وبرءوا ساحتى، من تلك العقائد الزائغة بحمد الله، وما تخلف بعد ذلك عن تبرئتى إلا من وقف مع حظ نفسه، ولم يستبرئ لدينه وكان من جملة من برأنى، وحماه الله من الوقوع فى عرضى سيدنا ومولانا شيخ الإسلام الشهاب ابن

النجار الحنبلي، وسيدنا ومولانا الشيخ ناصر الدين اللقاني، وسيدنا ومولانا الشيخ شهاب الدين الرملي، وسيدنا ومولانا الشيخ شهاب الدين الحلبي الحنفي، وسيدنا ومولانا الشيخ ناصر الدين الطبلاوي، والأخ الصالح الشيخ شمس الدين محمد الخطيب الشربيني، والأخ الصالح الشيخ نور الدين الطندتائي، والأخ الصالح الشيخ نجم الدين الغيطي، والأخ الصالح الشيخ سراج الدين الحانوتي الحنفي، والأخ الصالح الشيخ شمس الدين العلقمي، والأخ الصالح الشيخ عبد القادر الرشدي، والأخ الصالح الشيخ شمس الدين البرهمتوشي الحنفي، والأخ الصالح الشيخ زين الدين الجيزي، والأخ الصالح الشيخ أمين الدين بن عبد العال، وجماعة كثيرة ذكرناهم في طبقات الأخيار -رضي الله عنهم-.

فكل هؤلاء لم يبلغني أن أحدًا منهم صدق في شيئًا مما دسه الحسدة، وأعرف بعض جماعة من المتهورين في الوقوع في أعراض الناس يعتقدون فيّ سوء العقيدة بحكم تلك الإشاعة إلى وقتنا هذا، وما منهم أحد اجتمع بي قط، ولا فاوضني في علم، ولا رآني وأنا أؤلف، ولا قامت عنده بذلك بينة عادلة، فالله تعالى يغفر لهم ويسامحهم.

وقد بلغني عن شخص ممن ينسب إلى العلم صار يقول: ما هذه الأمور التي تواترت عن هذا الرجل، وسماها متواترة مع أن الدس والإشاعة لم يكن من سوى شخصين من أهل مصر خاصة، وهما معروفان بين أصحابنا ولا ينبغي ذكرهما خوفًا من سب الناس لهما، وقد ماتا ودرجا إلى رحمة الله تعالى، فطالع يا أخي كتبي وانتفع بما فيها من النصح، ولا تصغ إلى قول حاسد فإني حررتها بحمد الله على الكتاب والسنة قبل أن أضعها في الورق، وأنا رجل سني محمدي، وما ألفت شيئًا من الكتاب حتى تبحرت في علوم الشريعة، وحررت موادها على مشايخ الإسلام كالشيخ زكريا الأنصاري، والشيخ برهان الدين بن أبي شريف، والشيخ عبد الحق السنباطي، والشيخ نور الدين المحلي وأضرابهم -رضي الله عنهم-.

وإياك يا أخي أن تلتفت إلى قول أحد من أتباع هذين الشخصين

اللذين وقع منهما الدس فى كتبى، فربما كان يعتقد فىّ السوء تقليداً لشيخه، وكان سبب تحريك داء الحسد فى هذين الشخصين أنهما لما رأوا الناس بادروا إلى كتابة مؤلفاتى، دبرا تلك الحيلة، ودسا فى كتبى العقائد الزائغة المتعلقة بالباطن لعلمهما أنهما لو رميانى بالفسق والمعاصى الظاهرة لكذبهما الناس، ولم يحصل لهما ما قصداه من تنفير الناس عن مطالعة كتبى، وقد أبرأت ذمتهما فى الدنيا والاخرة وسامحت جميع من اغتابنى بسببهما، فالحمد لله رب العالمين الذى جعلنا من أهل العفو والسماح، إذا علمت ذلك، فلنشرع فى مقصود الكتاب هذا إن شاء الله تعالى، فأقول وبالله التوفيق والإعانة.

من أخلاق السلف الصالح رضي الله عنهم ـ ملازمة الكتاب والسنة كلزوم الظل للشاخص ولا يتصدَّر أحدهم للإرشاد إلا بعد تبحره فى علوم الشريعة المطهرة بحيث يطلع على جميع أدلة المذاهب المندرسة والمستعملة، ويصير يقطع العلماء فى مجالس المناظرة بالحجج القاطعة أو الراجحة الواضحة، وكتب القوم مشحونة بذلك كما يظهر من أقوالهم وأفعالهم:

وقد كان سيد الطائفة الإمام أبو القاسم الجنيد ـ رضي الله عنه ـ يقول: كتابنا هذا يعنى القرآن سيد الكتب وأجمعها، وشريعتنا أوضح الشرائع وأدقها، وطريقتنا يعنى طريق أهل التصوف مشيدة بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن، ويحفظ السنة، ويفهم معانيهما لا يصح الاقتداء به[١]، وكان ـ رضي الله عنه ـ يقول: ما نزل من السماء علم وجعل الحق تعالى لغير نبى إليه سبيلاً إلا وجعل لى فيه حظًا ونصيبًا.

وكان ـ رضي الله عنه ـ يقول لأصحابه: لو رأيتم رجلاً قد تربع فى الهواء فلا تقتدوا به حتى تروا صنعه عند الأمر والنهى، فإن رأيتموه ممتثلاً لجميع الأوامر الإلهية مجتنبًا لجميع المناهى فاعتقدوه واقتدوا به، وإن رأيتموه يخل بالأوامر، ولا يجتنب المناهى فاجتنبوه انتهى.

(١) قلت: يا ليت أهل التصوف اتبعوا ما ذكره الجنيد والتزموا بالكتاب والسنة، ولم يبتدعوا فى الدين ما لم يأت عليه دليلٌ من كتاب أو سنة.

قلت: وهذا الخلق قد صارغريبًا في فقراء هذا الزمان، فصار أحدهم يجتمع بمن ليس له قدم في الطريق، ويتلقف منه كلمات في الفناء والبقاء والشطح[1] مما لا يشهد له كتاب ولا سنة ثم يلبس له جبة، ويرخي له عذبة، ثم يسافر إلى بلاد الروم مثلاً، ويظهر الصمت والجوع فيطلب له مرتبًا أو مسموحًا، ويتوسل في ذلك بالوزراء والأمراء، فربما رتبوا له شيئًا فيصير يأكله حرامًا في بطنه لكونه أخذه بنوع تلبيس على الولاة واعتقادهم فيه الصلاح، وقد دخل عليّ شخص منهم فصار يخوض بغير علم ولا ذوق في الفناء والبقاء، ومعه جماعة يعتقدونه فواظبني أيامًا، فقلت له يومًا: أخبرني عن شروط الوضوء والصلاة ما هي؟ فقال لي: أنا ما قرأت في العلم شيئًا، فقلت له: يا أخي إن تصحيح العبادات على ظاهر الكتاب والسنة أمر واجب بالإجماع، ومن لم يفرق بين الواجب والمندوب، ولابين المحرم والمكروه، فهو جاهل والجاهل لا يجوز الاقتداء به لا في طريق الظاهر، ولا في طريق الباطن، فخرس ولم يرد جوابًا، ثم انقطع عني من ذلك اليوم، وكان قد دأباني شرًا من سوء أدبه، فأراحني الله منه.

وكان شيخنا سيدي علي الخوّاص ـ رحمه الله ـ يقول: إن طريق القوم ـ ﷺ ـ محررة على الكتاب والسنة تحرير الذهب والجوهر، وذلك لأن لهم في كل حركة وسكون نية صالحة بميزان شرعي، ولايعرف ذلك إلا من تبحر في علوم الشريعة.

قلت: فكذب والله وافترى من يقول: إن طريق الصوفية لم يأت بها

---

(١) الشطح: قال أبو حامد الغزالي: الشطح يعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض المتصوفة: أحدهما الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب فيقولون: قيل لنا كذا وكذا يتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي صُلبَ لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس.
والصنف الثاني: كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائعة وليس ورائها طائل وهي إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله لقلة إحاطته بمعني كلام قرع سمعه وهذا هو الأكثر ثم قال رحمه الله: ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول.

كتاب ولا سنة[1]، وقوله ذلك من أكبر العلامات الدالة على كثرة جهله، فإن حقيقة الصوفى عند القوم هو عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص لا غير، وغاية ما يطلبه القوم من تلامذتهم بالمجاهدات بالصوم والسهر والعزلة والصمت والورع والزهد وغير ذلك أن يصير أحدهم يأتى بالعبادات على الوجه الذى يشبه ما كان عليه سلفهم الصالح لا غير، ولكن لما اندرست طريق السلف باندراس العاملين بها ظن بعض الناس أنها خارجة عن الشريعة لقلة من يتخلق بصفات أهلها كما بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب (المنهج المبين فى بيان أخلاق العارفين) فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله عنهم-: توقفهم عن كل فعل أو قول حتى يعرفوا ميزانه على الكتاب والسنة أو العرف لأن العرف من جملة الشريعة. قال الله تعالى: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ**﴾ [الأعراف:١٩٩]، فعلم أن القوم لا يكفون فى أقوالهم وأفعالهم بمجرد عمل الناس بها لاحتمال أن يكون ذلك الفعل أو القول من جملة البدع التى لا يشهد لها كتاب ولا سنة، وفى الحديث «**لا تقوم الساعة حتى تصير السنة بدعة، فإذا تركت البدعة يقول الناس تركت السنة**» وذلك لتوارث الفروع البدع عن أصولهم، فلما طال زمن العمل بالبدع ظن الناس أنها سنة مما سنه رسول الله -ﷺ-.

ومن القوم طائفة إذا لم يجدوا لذلك العمل دليلاً من سنة النبى -ﷺ- الثابتة فى كتب الشريعة يتوجهون بقلوبهم إليه -ﷺ-، فإذا

---

(١) قلت: الغالب على ما يسمى بالطرق الصوفية الآن العمل بالبدع الشركية من دعاء وذبح واستغاثة وسؤال الأموات من دون الله وهذا من الشرك الأكبر - نسأل الله العفو والعافية - كما نقل عن بعضهم فى الاحتفال الذى يُقام سنويًا فى الاحتفال بالسيد البدوى فقال: «إننا اليوم فى الاحتفال بمولد السيد البدوى المهاب، الذى إن دُعِىَ فى البر والبحر أجاب» - نسأل الله السلامة ونعوذ به من الخذلان - ومن سلم من البدع الشركية، فلا يسلم من البدع القولية كقولهم: مدد يا سيدى واجتماعهم على الذكر الجماعى، وذكرهم الله بما لم يُسم به نفسه كقولهم: «هو هو»، ويقصدون أن «هو» من الأسماء الحسنى.

حضروا بين يديه سألوه عن ذلك، وعملوا بما قال لهم إلا أن مثل ذلك خاص بأكابر الرجال[١].

فإن قيل: فهل لصاحب هذا المقام أن يأمر الناس بما أمره به رسول الله -ﷺ- أم لا؟، فالجواب: لا ينبغي له ذلك لأنه أمر زائد على السنة الصحيحة الثابتة من طرق النقل، ومن أمر الناس بشيء زائد على ما ثبت من طريق النقل فقد كلف الناس شططًا، اللهم إلا أن يختار أحد ذلك فلا حرج كما هو شأن مقتدى المذاهب المستنبطة من الكتاب والسنة، والله أعلم.

وقد كان السلف الصالح -رضي الله عنهم- يحثون الناس لا سيما أصحابهم على التقيد بالكتاب والسنة، واجتناب البدع، ويشددون فى ذلك حتى إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- ربما كان يهم بالأمر، ويعزم عليه فيقول له بعض الناس: إن رسول الله -ﷺ- لم يفعل ذلك، ولم يأمر به فيرجع عما كان عزم عليه.

قال: وهمّ مرة أن يأمر الناس بنزع ثياب كانوا يلبسونها حين بلغه أنها تصبغ ببول العجائز، فقال له شخص: إن رسول الله -ﷺ- قد لبس منها، ولبسها الناس فى عصره، فاستغفر الله تعالى ورجع، وقال فى نفسه: لو كان عدم لبسها من الورع لما لبسها -ﷺ-.

وقد بلغنا أن الإمام زين العابدين -رضي الله عنه-: قال لولده: اتخذ لى ثوبًا ألبسه عند قضاء الحاجة، وأنزعه وقت شروعى فى الصلاة، فإنى رأيت الذباب يجلس على النجاسة ثم يقع على ثوبى، فقال له ولده: إنه لم يكن لرسول الله -ﷺ- إلا ثوب واحد لصلاته وخلائه، فرجع الإمام عما كان عزم على فعله.

---

(١) الأحكام الشرعية لا تثبت بمثل هذا التوجه القلبى، بل لها أصول وقواعد بعد القرآن والسنة كالإجماع والقياس والمصالح المرسلة والاستصحاب وغير ذلك مما هو معروف فى أصول الفقه ويكفى لرد ذلك قول الرسول الكريم -ﷺ- فى الحديث الصحيح: «من أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد».

قلت: المنقول أن رسول الله -ﷺ- لم يكن الذباب ينزل على ثوبه، ولا على بدنه، فلا يصلح ما ذكر دليلاً إلا أن يكون قال له ولده لم يأمر أحدًا فليتأمل، وأما ما نقل من أبي يزيد البسطامي - رحمه الله تعالى - من أنه كان له ثوب لصلاته، وثوب لخلائه، فليس ذلك من حيث وقوع الذباب كما وقع لزين العابدين، وإنما ذلك من باب الأدب أن لا يكون ثوب الخلاء هو ثوب الصلاة، نظير ما قالوا في تحريم استقبال القبلة واستدبارها في الغائط، فطلب الشارع أن لا تكون جهة قضاء الحاجة هي جهة الوقوف للصلاة فافهم.

فعليك يا أخي باتباع السنة المحمدية في جميع أفعالك وأقوالك وعقائدك، ولا تقدم على فعل شيء حتى تعلم موافقته للكتاب والسنة.

فكذب والله وافترى من يقول: إن طريق القوم بدعة[1]، وإذا كان من يهاب مخالفة الشريعة ويتوقف عن العمل حتى يعلم موافقته للشرع مبتدعًا فما بقي على وجه الأرض سني، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله عنهم-: كثرة تفويضهم إلى الله تعالى في أمر أنفسهم وأولادهم وأصحابهم: فلا يكون معولهم في أمر هدايتهم إلا عليه عز وجل، ولا يطلبون شيئًا قط بأنفسهم وهم غائبون عن الاستناد إلى الله تعالى.

وقد كان ولدي عبد الرحمن ليست له داعية إلى طلب العلم، وكنت في حصر عظيم من جهته، فألهمني الحق سبحانه أن أفوض أمره إليه ففعلت فأصبح من تلك الليلة يطالع في العلم بنفسه من غير أمري له بذلك، وحصلت له حلاوة العلم من تلك الليلة وصار فهمه يرجح على فهم من سبقه بالاشتغال بسنين، فأراحني الله تعالى بتفويضي إليه من التعب الذي كنت فيه، فالله تعالى يجعله من العلماء العاملين بما علموا آمين.

---

(١) قلت: واقع القوم الآن يشهد بذلك، ويكفي أن ترى أحد الموالد التي تقام سنويًا من انتشار الشركيات فضلاً عن الفواحش من زنا وخنا واختلاط بين الرجال والنساء، وشرب للمسكرات، وغير ذلك من الموبقات. ولقد شاهدت بعيني في مولد للحسين - برأه الله عما يحدث - كثيرًا من هذه الأمور.

وقد سمعت شيخنا سيدى عليًا الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما ثم أنفع لأولاد العلماء والصالحين من الدعـاء لهم بظاهر الغيب مع تفويض أمـرهم إلى الله تعالى، وذلك لأن أحدهم يتـربى فى الدلال على والده مع مساعدة أمه إن كانت، ويكتفى بتعظيم الناس له بحكم التبع لأبيه، فلا يصير عنده داعية لاكتساب الفضـائل غالبًا، ويقول فى نفسه: إن الذى كنت أتعب فى تحصيله من الجاه بالاشتغال بالعلم والرياضة قد حصل لى بواسطة والدى بخلاف أولاد العوام خصوصًا الفلاحين، فإن أحدهم يفتح عينه على الضرب والحـبس والإهانة من الحكام وأعـوانهـم، ويأخـذون منهم الخـراج بالإهانة الشديدة، فيصير يتفكر فى عمل حيلة تعتقه من ذلك، فيلهمه الحق تعالى أن يشتغل بالعلم والقـرآن فلا يزال كلـما عظمـه الناس يزداد رغبـة فى العلم والمجاهدة حتى يصير شيخ الإسلام أو شـيخ الطريق. وقد كان سيدى الشيخ أحمـد الزاهد ـ رحـمه الله ـ يخلى والده على كل خلوة أربعـين يومًـا، فلا يفتح عليـه فيقـول: يا ولدى لو كان الأمـر بيدى ما قـدمت أحدًا عليك فى معرفة الطريق. انتهى.

قلت: وقد خولفت هذه القاعـدة فى بعض أولاد العلماء والصالحين كـأولاد الشيخ تقى الدين السـبكى وأولاد الشـيخ سراج الدين البلقـينى، فجـاء أولادهم فى غاية الكمـال، وكذلك فى بعض جـماعة مـن علماء عصرنا وفـقرائه كسيدى مـحمد بن الرملى، وسيدى مـحمد بن البكرى، وسيدى عبد القدوس بن الشناوى، وسيـدى على بن الشيخ محمد المنير، وسيدى محمد ابن الشيخ أبى الحسن الغمرى وجماعة ذكرناهم فى طبقات العلماء والصوفـية التى سميناها (لواقح الأنوار فى طبقات الأخـيار) أكثر الله فى المسلمـين من أمثـالهم، ونفعنا بـبـركاتهـم آمين، والحـمد لله رب العالمين.

ومن أخـلاقـهـم - رضي الله عنهم -: كـثرة إخـلاصهم فى عـلمهم وعـملهم، وخوفهم من دخول الرياء فى ذلك، ونبسط لك يا أخى فى هذا المحل لكثرة حاجة الناس إلى ذلك فنقول: ثبت فى الأحاديث الصحيحة أن رسول الله -

ﷺ- قال: «لما خلق الله عز وجل جنة عدن خلق فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» قال لها: تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون ثلاثًا، ثم قالت: أنا حرام على كل بخيل ومراء[١]، وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: من طلب الدنيا بعمل الآخرة نكس الله قلبه، وكتب اسمه في ديوان أهل النار.

وكان الحسن البصرى - رحمه الله تعالى - يقول: كان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: من عمل بماعلم كان وليًا حقًا.

وكان سُفيان الثورى - رحمه الله تعالى - يقول: قالت لى والدتى: يا بنى لا تتعلم العلم إلا إذا نويت العمل به، وإلا فهو وبال عليك يوم القيامة، وكان الحسن البصرى - رحمه الله تعالى - كثيرًا ما يعاتب نفسه ويوبخها بقوله: تتكلمين بكلام الصالحين القانتين العابدين، وتفعلين فعل الفاسقين المنافقين المرائين، والله ما هذه صفات المخلصين، وكان الفُضيل بن عيَّاض - رحمه الله تعالى - يقول: من لم يكن فى أعماله أكيس من ساحر وقع فى الرياء، وقد قيل لذى النون المصرى - رحمه الله تعالى - متى يعلم العبد أنه من المخلصين؟ فقال: إذا بذل المجهود فى الطاعة، وأحب سقوط المنزلة عند الناس. وكان محمد بن المنكدر - رحمه الله تعالى - يقول: أحب للإخوان أن يظهر أحدهم السمت الحسن بالليل، فإنه أشرف من سمت النهار لأنه فى النهار يراه الناس، وفى الليل يكون لرب العالمين، وقد قيل مرة ليونس بن عُبيد - رحمه الله تعالى - هل رأيت أحدًا يعمل بعمل الحسن البصرى؟ فقال: والله ما رأيت من يقول بقوله، فكيف أرى من يعمل بعمله، كان وعظه يبكى القلوب، ووعظ غيره لا يبكى العيون.

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١١/ ١١٤٣٩) وفى الأوسط (١/ ٧٣٨) عن ابن عباس - ﷺ- مرفوعًا، وأخرجه أيضًا فى الكبير (١٢/ ١٢٧٢٣)، وفى «الأوسط» (٥/ ٥٥١٨) بلفظ آخر، وعزاه الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٩٧)، والمنذرى فى «الترغيب» (٤/ ٥٥٨) للطبرانى فى الكبير والأوسط وقالا: أحد إسنادى الطبرانى جيد وقال الألبانى فى الضعيفة (٣/ ٤٤٤) وفيما قالا نظر، وضعف الحديث كما فى الضعيفة (١٢٨٤)، وضعيف الجامع (٤٤٧١) ولفظ «قالت: أنا حرام على كل بخيل ومراء» ليست فى روايتى الطبرانى، وعزا هذه الجملة الزبيدى فى الاتحاف (٨/ ١٩٧) لابن عساكر.

وقيل ليحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ متى يكون العبد مخلصًا؟ فقال: إذا صار خلقه كخلق الرضيع لا يبالى من مدحه أو ذمه، وقد كان أبو السائب ـ رحمه الله تعالى ـ إذا طرقه بكاء فى سماع قرآن أو حديث أو نحو ذلك يصرفه إلى التبسم، وكان أبو عبد الله الأنطاكى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا كان يوم القيامة قال الله للمرائى: خُذ ثواب عملك ممن كنت ترائيه، وفى رواية عنه: إذا طلب المرائى ثواب عمله يوم القيامة يقال له: خُذ ثواب عملك ممن كنت ترائيه، وفى رواية يقال له: ألم توسع لك الناس فى المجالس لأجل عملك وعلمك؟ ألم تكن رئيسًا فى دنياك، ألم ترخص لك الناس بيعك وشراءك، ألم يكرموك ألم ألم؟ مثل هذا وأشباهه.

وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما دام العبد يستأنس بالناس، فلا يسلم من الرياء، وكان الأنطاكى يقول: المتزينون ثلاثة متزين بالعلم، ومتزين بالعمل، ومتزين بترك التزين، فهو أغمضها وأحبها إلى الشيطان. وكان إياس بن معاوية أخًا لإبراهيم التيمى، وكان كل منهما لا يثنى على الآخر من ورائه ويقول: الثناء معدود من الجزاء، وأنا لا أحب نقص ثواب أخى بالثناء عليه بين الناس. وكان أبو عبد الله الأنطاكى ـ رحمه الله ـ يقول: من طلب الإخلاص فى أعماله الظاهرة وهو يلاحظ الخلق بقلبه، فقد رام المحال لأن الإخلاص ماء القلب الذى به حياته والرياء يميته وقد كان يوسف بن أسباط ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما حاسبت نفسى قط إلا وظهر لى أننى مراء خالص.

وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من ذم نفسه فى الملأ، فقد مدحها وذلك من علامات الرياء، وكان ابن السماك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لو أن المرائى بعلمه وعمله أخبر الناس بما فى ضميره لمقتوه وسفهوا عقله.

وكان إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا تسأل أخاك عن صيامه، فإنه إن قال: أنا صائم فرحت نفسه بذلك، وإن قال: أنا غير صائم حزنت نفسه، وكلاهما من علامات الرياء، وفى ذلك فضيحة

للمسئول، واطلاع على عورته من السائل. وكان عبد الله بن المُبارك - رحمه الله تعالى - يقول: إن الرجل ليطوف بالكعبة وهو يرائي أهل خراسان، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: يحب أن يقول فيه أهل خراسان: إن فلانا مجاور بمكة على طواف وسعي فهنيئًا له، وكان الفضيل بن عيَّاض - رحمه الله تعالى - يقول: أدركنا الناس وهم يراؤون بما يعملون، فصاروا الآن يراؤون بما لا يعملون. وكان إذا قرأ قوله تعالى: ﴿ونبلو أخباركم﴾ [محمد:٣١]، يقول: اللهم إنك إن بلوتنا فضحتنا، وهتكت أستارنا، وأنت أرحم الراحمين.

وكان أيوب السختياني - رحمه الله تعالى - يقول: إن من الرياء بما لا تعمل تطاولك على غيرك بما تحفظه من كلام الناس وأقوالهم في العلم فإن ذلك الذي تتطاول به ليس من عملك ولا استنبطته. وكان إبراهيم بن أدهم - رحمه الله تعالى - يقول: ما اتقى الله من أحب أن يذكره الناس بخير. ولا أخلص له. وكان عكرمة - رحمه الله تعالى - يقول: أكثروا من النية الصالحة فإن الرياء لا يدخل في النية، وكان عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - يقول: لا يحتاج شيء من فروع الإسلام إلى نية بعد اختيار صاحبه الدخول في الإسلام، وكان أبو سُليمان الداراني - رحمه الله تعالى - يقول: كل عمل يعمله المؤمن من أعمال الإسلام مما لم تحضره فيه نية فنية الإسلام تجزيه.

قلت: وفي ذلك تقوية للحنفية. وكان نعيم بن حمَّاد - رحمه الله تعالى - يقول: ضرب الظهر بالسياط أهون علينا من النية الصالحة. وكان منصور بن المُعتمر - رحمه الله تعالى - وثابت البناني - رحمه الله تعالى - يقولان: طلبنا العلم وما لنا فيه نية، فرزقنا الله النية الصالحة بعد ذلك لأن العلم كله يبعث صاحبه على الإخلاص فيصير يطلبه حتى يحصل له.

وكان الحسن البصري - رحمه الله تعالى - يقول: دخول أهل الجنة وأهل النار فيهما يكون بالأعمال وخلودهم فيهما يكون بالنيات. وكان

أبو داود الطيالسي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ينبغي للعالِمَ إذا حرر كتابه أن يكون قصده بذلك نصرة الدين لا مدحه بين الأقران لحسن التأليف.

وفي التوراة: كل عمل قبلته فهو كثير، وإن كان قليلاً، وكل عمل رددته فهو قليل وإن كان كثيراً. وكان الفُضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا كان يُسأل الصادقين عن صدقهم مثل إسماعيل وعيسى عليهما الصلاة والسلام، فكيف بالكاذبين من أمثالنا؟ ولبس داود الطائي ثوبه مقلوبًا مرة فقالوا له: ألا تغيره؟ فقال: إني لبسته لله فلا أغيره[1]. وقد كان أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ يقول: إن للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، ويصلي النوافل جالسًا، وينشط إذا كان مع الناس، ويزيد في العلم إذا مدحوه كما ينقص منه إذا ذموه، وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كل شيء أظهرته من عملي لا أعده شيئًا لعجز أمثالنا عن الإخلاص إذا رآه الناس.

وكان إبراهيم التيمي يلبس لبس الفتيان، فكان لا يعرف أحد أنه من العلماء إلا أصحابه. وكان يقول: المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته. وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: قلّ عالم تكبر حلقة درسه إلا ويطرقه العجب بنفسه. وقد مرّ الحسن البصري على طاوس ـ رحمهما الله تعالى ـ وهو يملي الحديث في الحرم في حلقة كبيرة فقرب منه وقال له في أذنه: إن كانت نفسك تعجبك فقم من هذا المجلس، فقام طاوس فوراً، وقد مر إبراهيم بن أدهم على حلقة بشر الحافي ـ رحمهما الله تعالى ـ فأنكر عليه لكبر حلقة درسه وقال: لو كانت هذه الحلقة لأحد من الصحابة ما أمن على نفسه العجب.

وقد كان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ لا يترك أحداً يجلس إليه إلا نحو ثلاثة أنفس ففعل يومًا فرأى الحلقة قد كبرت فقام فزعًا، وقال:

---

(١) ليس هذا الفعل من الطاعات في شيء.

أخذنا والله ولم نشعر، والله لو أدرك أمير المؤمنين عمر -رضي الله عنه- مثلي وهوجالس في هذا المجلس لأقامه وقال له: مثلك لا يصلح لذلك، وكان - رحمه الله تعالى - إذا جلس لإملاء الحديث يجلس مرعوبًا خائفًا، وكانت السحابة تمر عليه فيسكت حتى تمر، ويقول: أخاف أن يكون فيها حجارة ترجمنا بها، وقد ضحك شخص مرة في حلقة الأعمش - رحمه الله تعالى - فزجره وأقامه وقال: تطلب العلم الذي كلفك الله تعالى به وأنت تضحك، ثم هجره نحو شهرين، وكان أبو هريرة -رضي الله عنه- يقول: لولا آية في كتاب الله تعالى ما حدثتكم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ [البقرة:١٥٩] الآية.

قال: ولما ترك سفيان الثوري -رضي الله عنه- التحديث قالوا له في ذلك فقال: والله لو أعلم أن أحدًا منهم يطلب العلم لله تعالى لذهبت إلى منزله ولم أتعبه، وقد قيل مرة لسفيان بن عيينة - رحمه الله تعالى - ألا تجلس فتحدثنا؟ فقال: والله ما أراكم أهلاً لأن أحدثكم، ولا أرى نفسي أهلاً أن تسمعوا مني، وما مثلي ومثلكم إلا كما قال القائل: افتضحوا فاصطلحوا.

وقد كان حاتم الأصم - رحمه الله تعالى - يقول: لا يجلس لتعليم العلم في المساجد إلا جامع للدنيا، أوجاهل بما عليه في ذلك من الواجبات، وكان عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- مع جلالته في العلم إذا فرغ من تفسيره للقرآن يقول: اختموا مجلسنا بالاستغفار. وكان شداد بن حكيم - رحمه الله تعالى - يقول: من كان فيه هذه الثلاث خصال فليجلس ليعلم الناس وإلا فليدع الجلوس: أن يذكرهم بنعم الله تعالى ليشكروه، وبذنبوهم ليتوبوا منها، وبعدوهم إبليس ليحذروا منه.

وكان ابن وهب - رحمه الله تعالى - يقول: سألت الإمام مالكًا -رضي الله عنه- عن الراسخين في العلم من هم؟ فقال: هم العاملون بالعلم، وليس شيء أعز من العلم لأن صاحبه يحكم به على الملوك. وقد قيل لابن المُبارك - رحمه الله - من الناس عندك؟ فقال: العلماء العاملون المخلصون. قيل له: فمن الملوك؟ قال: الزهاد في الدنيا. قيل له: فمن السَّفلة؟ قال: الذين

يأكلون الدنيا بعلمهم وعملهم ودينهم، وكان الحسن البصرى - رحمه الله تعالى - يقول: العلماء سرج الأزمنة، فكل عالم مصباح زمانه يستضىء به أهل عصره، ولولا العلماء لصار الناس كالبهائم.

وكان سفيان الثورى - رحمه الله - يقول: حياة العلم بالسؤال عنه، والعمل به، وموته بتركهما. وكان عكرمة - رحمه الله تعالى - يقول: لا تعلموا العلم إلا لمن يعطى ثمنه. فقيل له: وما ثمنه؟ قال: أن يضعه العالم عند من يعمل به. وكان سالم بن أبى الجعد - رحمه الله - يقول اشترانى مولاى بثلاثمائة درهم فاشتغلت بالعلم، فما مضى على سنة حتى جاءنى الخليفة زائرًا فلم أفتح له. وكان الشعبى - رحمه الله تعالى - يقول: من أدب العلماء إذا علموا أن يعملوا، فإذا عملوا شغلوا بذلك عن الناس، فإذا شغلوا فقدوا، وإذا فقدوا طلبوا، وإذا طلبوا هربوا خوفًا على دينهم من الفتن، وفى الحديث: «**أشد الناس عذابًا يوم القيمة عالم لم ينفعه الله بعلمه**»[(١)]، وفى الحديث أيضًا: «**سيأتى على الناس زمان يكون عبادهم جهالاً، وعلماؤهم فساقًا**»[(٢)]، وكان عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - يقول: من أفتى الناس فى المشكلات من غير تربص ولا تأمل فقد عرض نفسه لدخول النار. وكان يقول: من أفتى الناس فى كل ما يسألونه فهو مجنون. وكان الحسن البصرى - رحمه الله تعالى - يقول: لا تكن ممن يجمع علم العلماء ويجرى فيه مجرى السفهاء.

---

(١) ضعيف جدًا: أخرجه الطبرانى فى الصغير (١/ ٤٩٨)، والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة.
وذكره المنذرى فى المجمع (١/ ١٨٥) وقال رواه الطبرانى فى الصغير وفيه عثمان البرى، قال الفلاس: صدوق كثير الغلط، صاحب بدعة، ضعفه أحمد والنسائى والدارقطنى وقال الشيخ الألبانى فى الضعيفة (١٦٣٤): ضعيف الإسناد جدًا.

(٢) موضوع: أورده الألبانى فى الضعيفة ((٤٤٧٢) بلفظ «يكون فى آخر الزمان عباد جهال وقراء فسقة».
وقال: أخرجه ابن حبان فى المجروحين (٣/ ١٣٥)، والحاكم (٤/ ٣١٥)، وأبو نعيم (٢/ ٣٣١، ٣٣٢)، وعنه الديلمى (٤/ ٣١٩)، وأبو بكر الآجرى فى أخلاق العلماء (ص٦٢)، وذكره أيضًا فى ضعيف الجامع برقم (٦٤٤٠) وقال: موضوع.

وقد بلغنا أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يقول: ما أكثر العلوم وليس كلها بنافع، وما أكثر العلماء وليس كلهم برشيد. وكان إبراهيم بن عُتبة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أطول الناس ندمًا يوم القيامة عالم يتعاظم بعلمه على الناس، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: أخوف ما أخاف على هذه الأمة من عالم باللسان جاهل بالقلب، وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله ـ يقول: يهتف العلم بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل. انتهى.

وكان عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا يزال المرء عالمًا ما دام يظن أن فى بلده من هو أعلم منه، فإذا ظن أنه أعلمهم فقد جهل. وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إنى لأبكى على العالم إذا رأيت الدنيا تلعب به ولو كان لأهل القرآن. والحديث صبر على الزهد فى الدنيا ما تمندل بهم الناس، واسوأتاه من أن يُقال: فلان العالم أو العابد قد قدم حاجًا فى نفقة فلان التاجر. وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا طلب العالم الدنيا ذهب بهاؤه. وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: عقوبة العلماء تكون بموت قلوبهم، وموت قلوبهم يكون بطلبهم الدنيا بعمل الآخرة فيتقربون بذلك عند أبناء الدنيا، وكان سعيد بن المسيب ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا رأيتم العالم يغشى أبواب الأمراء فهو لص.

وقد كان الأوزاعى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما من شىء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً من العمال، وكان مكحول ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من قرأ القرآن وتفقه فى الدين ثم مشى إلى بيت أمير لغير حاجة ضرورية فقد خاض فى جهنم بعدد خطاه. وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: قرأت فى بعض الكتب المنزلة: إن أهون ما أنا صانع بالعالم إذا طلب الدنيا بعلمه أن أحرمه لذيذ مناجاتى.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه فى دينه، فإن كل محب يخوض فيما أحب. انتهى.

وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: واعجباه من ألسنة تصف، وقلوب تعرف، وأعمال تخالف. وقد كان حاتم الأصم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن من أشقى الناس يوم القيامة عالمًا عمل الناس بعلمه وهو لم يعمل به. وقد كان إبراهيم التيمى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما عرضت قولى على عملى إلا وجدت عملى مكذبًا لقولى. وكان إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أعربنا فى الكلام فلم نلحن، ولحنا فى العمل فلم نعرب. وكان الأوزاعى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا جاء الإعراب فى الألفاظ ذهب الخشوع من القارئ والسامع. وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: بلغنا أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يقول: مثل من يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت سرًا فجاءها المخاض فافتضحت، وكذلك من لم يعمل بعلمه يفضحه الله يوم القيامة على رءوس الأشهاد. وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «**إذا جاء الشيطان إلى أحدكم وهو يصلى فقال: إنك مراء فليزدها طولاً**»(١)، وكان الفُضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: العمل لأجل الناس رياء، وترك العمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

قلت: ومعنى ترك العمل لأجل الناس أن لا يحب أن يعمل إلا فى محل يحمده الناس فيه، فإن لم يجد من يحمده ترك العمل وكسل عنه. وقد كان بشر الحافى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا ينبغى لأمثالنا أن يظهر من أعماله الصالحة ذرة، فكيف بأعماله التى دخلها الرياء، فالأولى بأمثالنا الكتمان، وقد بلغنا أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يقول للحواريين ـ ﷺ ـ: إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لئلا يرى الناس أنه صائم. وقد كان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: خير العلم والعمل ما خفى عن الناس، وكان عكرمة ـ رحمه الله ـ يقول: ما رأيت أقل عقلاً ممن يعلم من نفسه

---

(١) أخرجه البيهقى فى الشعب (٥/ ٦٨٨٢) عن الحارث بن قيس موقوفًا عليه.

السـوء، ويحب من الناس أن يصفـوه بالعلم والصـلاح، ولابد لقلوب المؤمنين أن تطلع على سوء سريرته، ومثله مـثل من غرس شوكًا وطلب أن يحمل له رطبًا.

وكان قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا راءى العالم بعلمه وعمله يقول الله تعالى لملائكته عليهم السلام: انظروا إلى هذا يستهزئ بى، ولم يخش منى وأنا العظيم الجبار. وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إذا رأى أحدًا يطأطئ عنقه فى الصلاة يضربه بالدُّرَّة ويقول له: ويحك إن الخشـوع فى القلب. وقد مر أبو أمـامة ـ رضي الله عنه ـ يومًا على شخص سـاجد وهو يبكى فـقال: نعم هذا لو كـان فى بيتك حيث لا يـراك الناس، وقد كان الفضـيل بن عياض ـ رحمه الله تعـالى ـ يقول: من أراد أن ينظر إلى مراء فينظر إلىّ، وكان إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: مررت على حجر فرأيت مكتوبًا عليه أنت بما تعلم لا تعمل فكيف تطلب زيادة العلم.

وكان يوسف بن أسـباط ـ رحمه الله تعالى ـ يقـول: أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء عليهم الصلاة والسـلام: قل لقومك يخفوا أعمالهم عن الخلق وأنا أظهرهـا لهم. وكان أبو عبـد الرحمن الزاهد يوبخ نفـسه كثـيرًا، ويقول فى مناجاته: من أسوأ حالاً منى؟ عـاملت عبادك فى الظاهر بالأمانة، وعاملتك فى السر بالخيانة.

وكان الفضيل بن عياض يقول: من يدلنى على عابد بكاء بالليل صوّام بالنهار وأنا أدعو له. وكان ميمـون بن مهران ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن علانية بغير سريرة صالحة مـثل كنيف مزخرف من خارجه. وكان الفضيل بن عياض ـ رحـمه الله تعالى ـ يقول: لو صحت النيـة فى العلم لم يكن عمل أفضل منه، ولكنهم تعلموه لغير العمل به، وجعلوه شبكة لصيد الدنيا، وقد دخل سفيان الثورى على الفضيل بن عياض ـ رحمهما الله تعالى ـ يومًا فقال له: عظنى يا أبا على، فقال له الفضيـل: وبماذا أعظكم معاشر العلماء؟ كنتم سرجًا يُسـتضاء بكم فى البلاد فـصرتم ظلمة، وكنتم نجومًا يُـهتدى بكم فى

ظلمات الجهل، فصرتم حيرة يأتي أحدكم إلـى أبواب هؤلاء الولاة فيجلس على فرشـهم ويأكل من طعامـهم ويقبل هداياهم، ثم يدخـل بعد ذلك إلى المسجد فـيجلس فيه ثم يقول: حدثنا فـلان عن فلان عن رسول الله -ﷺ- بكذا، والله ما هكذا يطـلب العلم، قال: فبكى سـفيان حـتى خنقته العـبرة وخرج.

وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا رأيتم العالم أو العابد ينشـرح لذكره بالصلاح عند الأمـراء وأبناء الدنيا، فاعلمـوا أنه مراء، وكان سفيان بن عُيينة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا رأيتم طالب العلم كلما ازداد علمًا كلما رغب في الدنيا وشهواتهـا، فلا تعلموه، فإنكم تعينوه على دخول النار بتـعليمكم إياه. وكان كـعب الأحبار ـ رضي الله عنه ـ يقول: سـيأتي على الناس زمان يتعلم جهالهم العلم، ثم يغايرون به على القرب من الأمراء كما يتغاير النساء على الرجال، فذلك حظهم من العلم.

وكان صالح المرّى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من ادعى الإخلاص فى العلم، فليـعرض على نفسـه إذا وصفـه الناس بالجهل والرياء، فـإن انشرح صدره لذلك فهو صادق، وإن انقبض من ذلك فهو مراء، وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: احـذروا عالم الدنيا أن تجالسـوه فإنه يفتنكم بزخرفـة كلامه، ومدحه للعلم وأهله من غير عمل به، وكـان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من علامة المرائين بعلمهم أن يكون علمهم كالجبال، وعملهم كالذر. وكان يقول: لو أن حامل العلم عـمل به لتجرع مرارته ولم يفرح به لأنه كله تكاليف، وكلـما ازداد علمًـا ازداد تكاليف، فـلا ينبغى للعـالم أن يفرح بعلمه إلا بعد مجاوزة الصراط.

وكان سفيان الثورى ـ رحمـه الله تعالى ـ يقول: اطلبوا العلم للعمل، فإن أكثر الناس قد غلطوا فى ذلك، فظنوا النجـاة بعلمهم من غير عمل به، فأين الآيات والأخبار الواردة فى تعذيب من لم يعمل بعلمه؟ وكان ذو النون المصرى ـ رحـمه الله تعالى ـ يقـول: لقد أدركنا الناس وأحـدهم كلما ازداد علمًا ازداد زهدًا فـى الدنيا، وتقليلاً مـن متاعـها، ونراهم اليـوم كلما ازداد

أحدهم علمًا ازداد في الدنيا رغبة، وكثرة لأمتعتها من لباس ومطعم ومسكن ومنكح ومركب وخدم ونحو ذلك.

وكان سفيان بن عيينة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كيف يكون حامل القرآن عاملاً به وهو ينام الليل، ويفطر النهار، ويتناول الحرام والشبهات. وكان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لو أن هؤلاء القراء أحياء لوجدوا ألم النار في بطونهم إذا أكلوا الحرام ولكنهم أموات يرتعون في الجيف والنار. وقد كان منصور بن المعتمر ـ رحمه الله تعالى ـ يقول لعلماء زمانه: إنكم لستم علماء، وإنما أنتم متلذذون بالعلم يسمع أحدكم المسألة ويحكيها للناس، ولو أنكم عملتم بعلمكم لتجرعتم المرارات والغصص، ولحثكم علمكم على التورع حتى لا يجد أحدكم رغيفًا يأكله.

وكان الربيع بن خيثم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كيف يصح للعالم أن يرائي بعلمه وهو يعلم من نفسه أن تعلمه لغير الله وذلك حابط من أصله، فكيف يرى نفسه على الناس بما هو حابط. وقد كان الإمام النووي ـ رحمه الله تعالى ـ إذا دخل عليه أمير على غفلة وهو يدرس في العلم في المدرسة الأشرفية أو جامع بني أمية يتكدر لذلك، وإذا بلغه أن أحدًا من الأكابر قد عزم على زيارته في يوم درسه لا يدرس العلم ذلك اليوم خوفًا أن يراه ذلك الأمير وهو في محفله ودرسه العظيم، ويقول: من علامة المخلص أن يتكدر إذا اطلع الناس على محاسن عمله كما يتكدر إذا اطلعوا على مساويه، فإن فرح النفس بذلك معصية، وربما كان الرياء أشد من كثير من المعاصي، وكان الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: قبيح بالعالم أن يشبع في هذا الزمان من الحلال، فكيف بمن يشبع من الحرام؟ والله لو أني أكلت أكلة وصارت في بطني كالآجرة تكفيني حتى أموت، فقد قيل إنها تمكس في الماء أكثر من ثلاثمائة سنة. وكان يقول: ورع العلماء إنما هو في ترك تناول الشهوات. أما المعاصي الظاهرة فتراهم يتركونها خوفًا أن تذهب عظمتهم من قلوب الناس، وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: بلغني أنه يأتي في آخر الزمان رجال يتعلمون

العلم لغير الله تعالى كي لا يضيع، ثم يكون عليهم تبعة يوم القيامة، قلت: ويؤيده حديث: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[1] والله أعلم.

وكان بكر بن عبد الله المزني ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من علامة المرائي بعلمه أن يرغب الناس في العلم، ويذكر لهم ما فيه من الفضائل، ثم إن شاوره أحد من القراء على أحد من أقرانه لا يرغبه فيه كل الترغيب. وكان عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: قدغلب على القراء في هذا الزمان أكل الحرام والشبهات حتى غرقوا في شهوة بطونهم وفروجهم، واتخذوا علمهم شبكة يصطادون بها الدنيا. وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لولا نقص دخل على أهل القرآن والحديث لكانوا خيار الناس، ولكنهم اتخذوا علمهم حرفة ومعاشًا، ولذلك هانوا في ملكوت السموات والأرض. وكان بشر الحافي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من عقل العاقل أن لا يطلب زيادة العلم إلا إذا عمل بكل ما علم، فيتعلم حينئذ العلم كي يعمل به، وكان الشعبي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: اطلبوا العلم وأنتم تبكون، فإنه كله حجة عليكم عند ربكم.

قال: ولما ترك بشر الحافي ـ رحمه الله تعالى ـ الجلوس لإملاء الحديث، قالوا له: ماذا تقول لربك يوم القيامة؟ فقال: أقول يا رب إنك أمرتني فيه بالإخلاص، ولم أجد عند نفسي إخلاصًا.

وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا رأيتم طالب العلم يطلب الزيادة من العلم دون العمل، فلا تعلموه فإن من لم يعمل بعلمه كشجرة الحنظل كلما ازداد ريًا بالماء ازداد مرارة، وكان يقول: وإذا رأيتموه يخلط في مطعمه ومشربه وملبسه ونحو ذلك ولا يتورع، فكفوا عن تعليمه تخفيفًا للحجة عليه غدًا. وكان الحسن البصري ـ رحمه الله

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦/ ٣٠٦٢/ فتح)، ومسلم في الإيمان (١١١/ عبد الباقي) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

تعالى ـ يقـول: لو أن عبـدًا علم العلم كله، وعبـد الله حتى صار كـهذه السارية أو الشن البالى ثم إنه لم يفتش ما يدخل جوفه أحلال هو أم حرام ما تقبل الله منه عبادة. وكان بشـر الحافى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: والله لقد أدركنا أقـوامًا كانوا لا يعلمون أحـدًا العلم حتى يروضوا نفـسه سنين كثيرة ويظهر لهم صلاح نيته.

وكان عـبد الرحـمن بن القاسم ـ رحمـه الله تعالى ـ يقـول: خدمت الإمام مالكًا ـﷺـ عـشرين سنة، فكان منها ثمانيـة عشر فى تعليم الأدب، وسنتان منهـا فى تعليم العلم، فياليتنى جـعلت المدة كلها فى تعليم الأدب. وقد كـان الإمام مالك ـﷺـ يقـول: ليس العلم بكثرة الروايـة إنما العلم ما نفع وعمل به صاحبه.

وكان الإمام الشافعى -ﷺ- يقول: قال لى الإمام مالك -ﷺ- يا محـمد اجعل عـملك دقيـقًا، وعلمك ملحًـا. وقد كان عـبد الله بن المبارك ـ رحمـه الله تعالى ـ يقول: من حمل القرآن ثم مـال بقلبه إلى الدنيا فقد اتخذ آيات الله هزوًا ولعبًـا، وإذا عصى حامل القرآن ربه ناداه القرآن من جوفه والله ما لهذا حـملت، أين مواعظى وزواجرى وكل حرف منى يناديك ويقول: لا تعص ربك.

وكان الإمام أحمـد بن حنبل -ﷺ- إذا رأى طالب العلم لا يقوم من الليل يكف عن تعليمـه، وقد بات عنده أبو عصمة ليلـة من الليالى، فوضع له الإمام أحمد مـاء للوضوء، ثم جاء قبل الفجر فـوجده نائمًا والماء بحاله، فأيقظه وقال له: لم جئت يا أبا عصمة؟ فقال له: جئت أطلب منك الحديث يا إمام، فـقال له الإمام أحمـد: كيف تطلب الحديث وليس لك تهـجد فى الليل؟ اذهب من حيث جئت.

وكان الإمام الشـافعى -ﷺ- يقول: ينبغى للعالم أن يكون له خـبيئة من عمل صالح فيما بينه وبين الله تعالى، فإن كل ما ظهر للناس من علم أو عمل قليل النفع فى الآخـرة، وما رأى أحد أحدًا فى منامه بعـد موته، وقال غفـر الله لى بعلمى إلا قليل من الناس. وقد رؤى الإمام أبو حنيـفة ـﷺـ

بعد موته، فقيل له: كيف حالك؟ قال: غفر الله لى، قيل له: بالعلم؟ فقال: هيهات إن للعلم شروطًا، وآفات قل من ينجو منها. قال: ورأى بعضهم الجُنيد بعد موته ـ رحمه الله تعالى ـ فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: قد طاحت تلك الإشارات، وفنيت تلك العبارات، وما نفعنا إلا بعض ركيعات كنا نركعها في السحر. قال: ورأى بعضهم أبا سُهيل الصعلوكى بعد موته ـ رحمه الله ـ فقال له: ماذا صنع علمك؟ فقال: كل ما كان من دقائق العلوم وجدته هباء منثورًا إلا بعض مسائل سألنى عنها العوام. انتهى.

ففتش يا أخى نفسك فى علمك وعملك، وابك على نفسك إن رأيت عندها رياء أو سمعة مما ينهاك عنه هؤلاء السادة من العلماء العاملين المخلصين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله عنهم-: هجرهم لأخيهم إذا خالط الأمراء وتردد إلى أبوابهم لغير ضرورة شرعية ولا لمصلحة كقيامه بالأمر بالمعروف ونحوه عملاً بحديث: «**إن فى جهنم واديًا يُقال له: هبهب أعدّه الله للجبارين وللقراء المداهنين الذين يدخلون على أمراء الجور**»[1]. وقد قال والى البصرة يومًا لمالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ أتدرى ما الذى أجرأك علينا فى إغلاظك القول، وعدم قدرتنا على مقابلتك عدم طمعك فيما بأيدينا وزهدك فيه. وكان ابن السماك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: دخلت يومًا على والى البصرة، فقال لى: عظنى يا بن السماك، فقلت له: أف عليك وعلى من ولاك مظالم العباد، إنما تصلحون أن يسدّ بكم الجسور. وقد دخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم وعليه مدرعة صوف، فقال له قُتيبة: ما الذى دعاك إلى لبس مدرعة الصوف، فسكت محمد، فقال: ما لى أكلمك وأنت ساكت؟ فقال

---

(١) ضعيف: أخرجه الحاكم فى المستدرك (٥/ ٥٩٦)، والطبرانى فى الأوسط (٤/ ٣٥٤٨)، وأبى يعلى (١٣/ ٧٢٤٩) وابن عدى فى الكامل (١/ ٤٣٠) من حديث أبى موسى -رضي الله عنه- بلفظ «فى جهنم وادٍ، وفى الوادى بئرٌ يُقال لها: هبهب، حق على الله أن يسكنها كل جبار».

وضعفه الشيخ الألبانى فى ضعيف الجامع (ح ٤٠١١)، والمشكاة (ح ٥٦٨٩).

محمد: إن قلت زهدًا زكيت نفسي، وإن قلت فقيرًا شكوت ربي، وكان الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى - يقول: والله لو استأذن عليّ هارون الرشيد ما أذنت له إلا أن أغلب على ذلك، فكيف بمن يذهب هو إليه من هؤلاء الفقراء؟ وقد جاء محمد بن إبراهيم والي مكة يسلم على سفيان الثوري في المطاف، فقال: ماذا تريد بالسلام؟ إن كنت تريد أن أعلم أنك تطوف اذهب فقد علمت. وكان الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى - يقول: لا يصلح أن يدخل على الأمراء ويخالطهم إلا مثل أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - وأما أمثالنا فلا يصلح له الدخول عليهم لعجزه عن مواجهتهم بالنصح والإنكار عليهم فيما يراه منهم من الظلم والجور ونحوه كفرش الحرير والستائر وغير ذلك.

وقد ذكروا مرة عند مُعاوية - رضي الله عنه - كلامًا، وكان الأحنف بن قيس - رحمه الله - جالسًا فلم يتكلم، فقال له معاوية: مالك لا تتكلم يا أحنف؟ فقال: إني أخشى الله تعالى إن كذبت، وأخشاك إن صدقت، فرأيت السكوت أولى. انتهى.

وسيأتي زيادة على ذلك مفرقًا، والحمد لله رب العالمين.

أخذ علينا العهود في أخلاقهم: فمنها عملهم على ترك النفاق بحيث تتساوى سريرتهم وعلانيتهم في الخير، فلا يكون لأحدهم عمل يفتضح به غدًا في الآخرة. ومن وصية أبي العباس الخضر عليه السلام لعمر ابن عبد العزيز لما اجتمع به في المدينة المشرّفة، وسأله أن يوصيه بوصية فقال له: إياك يا عمر أن تكون وليًا لله في العلانية، وعدوًا له في السر، فإن من لم تتساوى سريرته وعلانيته فهو منافق، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار، فبكى عمرحتى بل لحيته، وفي الحديث: **«يخرج في آخر الزمان أقوام يحتالون[1] أي يطلبون الدنيا بعمل الآخرة: أي الدنيا بالدين، يلبسون جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول**

(١) الذي وقفت عليه في المصادر الحديثية لفظ «يختالون».

الله تعالي: أبي يغترون أم عليّ يجترئون؟ فبي حلفت لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم فيهم حيران»[1].

وكان المهلب بن أبي صفرة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إني لأكره الرجل يكون للسانه فضل على فعله. وكان عبد الواحد بن زيد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما بلغ الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ إلى ما بلغ إلا لكونه كان إذا أمر الناس بشيء يكون أسبقهم إليه، وإذا نهاهم عن شيء كان أبعدهم منه. وكانوا يقولون: ما رأينا أحدًا سريرته أشبه بعلانيته من الحسن البصري، وكان معاوية بن قرة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: بكاء القلب خير من بكاء العين. وكان يحيى بن مُعاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: القلوب كالقدور ومغارفها ألسنة أصحابها، فكونوا عبيدًا بأفعالكم كما أنكم عبيد بأقوالكم.

وكان مروان بن محمد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما وصف لي رجل قط إلا وجدته دون ما وصفوه به إلا وكيعًا ـ رحمه الله تعالى ـ فإني وجدته فوق ذلك. وكان عُتبة بن عامر ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا وافقت سريرة العبد علانيته، قال الله تعالى لملائكته: «هذا عبدي حقًا» وكان أبوعبد الله الأنطاكي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أفضل الأعمال ترك المعاصي الباطنة، فقيل له: ولم ذلك؟ قال: لأن الباطنة إذا تركت كان صاحبها للمعاصي الظاهرة أترك، فمن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، ومن تساوت سريرته وعلانيته فذلك العدل، ومن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور. وكان يوسف بن أسباط ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: أن قُل لقومك يخفوا إلى أعمالهم وأنا أظهرها لهم، وقد مر مثل ذلك في الخلق قبله.

---

(١) ضعيف جدًا: أخرجه الترمذي في الزهد، باب: ٥٩، (ح ٢٤٠٤)، وابن المبارك في الزهد (ح ١٧٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/ ١١٤٠). وقال الشيخ الألباني في ضعيف الترمذي (٤٢١): ضعيف جدًا.

وكان أبـو عبد الـرحمن الزاهد يقـول فى مناجاته: يا ويحى عـاملت الناس بالأمانة، وعاملت ربى بالخيانة، فليتنى عكست ثم يبكى، وكان مالك ابن دينار ـ رحـمه الله تعـالى ـ يقول: من أمـر الناس بشىء لـم يبلغه حـاله فهومنافق إلا أن يسـأله أحد عن حكمه.

وكان يقول: إياك أن تكون في النهار أبـا عبد الله الصالح، وفى الليل شيطان طالح، وتقـدم عن إبراهيم التيمى أنه يقول: مـا عرضت علمى على عملى إلا وجدت نفسى غيـر عامل بما علمت. وكان الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ يقول: اجعلوا لكم خـبيئة من العمل الصـالح كما أن لكم خبيـئة من العمل السـيئ. وتقدم قـول مـعاوية بن قـرة: من يدلنى على رجـل يبكى بالليل، ويبتسـم فى النهار أى أن ذلك لقليل.

وكان مـسلم الخولانى ـ رحمـه الله تعالى ـ يقول: من نعـمة الله على أننى منذ ثلاثين سنة ما فعلت شيئًا يستحيا منه إلا قربى من أهلى. وكان أبو عبـد الله السمرقندى ـ رحـمه الله تعـالى ـ إذا مدحه الناس يقـول: والله ما مثلى ومـثلكم إلا كمثل جارية ذهبت بـكارتها بالفجور، وأهلهـا لا يعلمون بذلك فهم يفرحون بها ليلة الزفاف وهى حزينة خوف الفضيحة.

وكان أبو أمـامة ـ رضي الله عنه ـ يعيب على الرجـل بكاءه فى المسجد بحـضرة الناس. وكان ميمون بن مهران ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: علانية بغير سريرة مثل كنيف من خارجه، ومن داخله النتن والخبث، ومن افـتخر بمال لم يصبه كذبه كسبه.

وكـان يحيى بن مُـعاذ ـ رحـمه الله تعـالى ـ يقول: من أراد أن يعـده الناس من الصالحين بالقول فقط دون موافقتهم فى الأعمال، فهو كمن دخل وليمة الملك لقوم خاصين بغـير إذن، ومن اكتفى بالقول دون العلم جازاه الله الوعد دون العطاء عقوبة له. وكان بلال بن سعد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا ادعى الفقير الزهد بغيرحق رقص الشيطان حوله يضحك عليه ويسخر به. وكان عبد الله بن عـمر ـ رضي الله عنه ـ يقول: لا يجد عبد صـريح الإيمان حتى يعلم بأن الله تعالى يراه، فـلا يعلم سرًا يفتـضح به يوم القيامة. وكـان مالك بن

دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لو علمتم ما أغلق بى عليه دونكم ماجلس أحد منكم حولي. وقلت: وهذا من باب الهضم لنا والاتهام له ـ رضي الله عنه ـ وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: قد غلب على القراء فى هذا الزمان الرياء يظهرون للناس النسك والعبادة وباطنهم مشغول بالغلّ والحقد والشحناء لبعضهم، وإذا كان لكم حاجة عند قارئ فلا تشفعوا عنده بقارئ مثله، فيقسو قلبه عليكم، ولكن تشفعوا عنده بأحد من الأغنياء، فإنه أقضى لحاجتكم. انتهى.

وسيأتى الكلام على هذا الخلق فى مواضع من هذا الكتاب، ففتش نفسك يا أخى هل تساوت سريرتك وعلانيتك أم لا؟ وأكثر من الاستغفار. واعلم أن من أظهر للناس خلاف ما فى باطنه فهو منافق يحشر غدًا من المنافقين، فافهم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم ـ رضي الله عنهم ـ: كثرة الصبر على جور الحكام، وشهودهم أن ذلك دون ما يستحقونه بذنبوهم، وكان صالح المرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا لم تتساو سريرة الناس وعلانيتهم فلا يستغربون ما يحل بهم من أنواع البلايا والآفات.

وكان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كان الحجاج الثقفى بلاء من الله وافق خطيئة. وكان الإمام أبوحنيفة ـ رضي الله عنه ـ يقول: إذا ابتليت بسلطان جائر فخرقت دينك بسببه، فرقعه بكثرة الاستغفار لك وله أيضًا. وقد كتب أخ لمحمد بن يوسف ـ رحمه الله تعالى ـ يشكو إليه من جور الولاة فى بلاده، فأجابه محمد بقوله: قد بلغنا كتابك، ولا يخفى عن علمك يا أخى أنه ليس لمن عمل بالمعصية أن ينكر وقوع العقوبة، وما أرى ما أنتم فيه إلا من شؤم الذنب والسلام. وقد حبس هارون الرشيد ـ رحمه الله تعالى ـ رجلاً ظلمًا، فكتب إليه الرجل: اعلم يا هارون أنه ما من يوم يمضى من حبسى وبؤسى إلا ويمضى من عمرك ونعيمك مثله، والأمر قريب، والحاكم بينى وبينك الله تعالى، قال: فلما قرأها الرشيد خلى سبيله وأحسن إليه.

قال: وجاءوا مرة بمال من السلطان لإبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ ليفرقه على الفقراء الذين يعرفهم، فرده إبراهيم عليهم وقال: إذا حاسب الله تعالى الظالم يوم القيامة على ما اكتسبه من المال يقول: أعطيته لإبراهيم، فيرجع يوم القيامة الظالم على بذلك، ولكن من جمعه فهو أولى بتفرقته.

وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: مكتوب فى التوراة: يقول الله تعالى: «قلوب الملوك بيدى، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، وتوبوا إلى أعطفهم عليكم». وكان عبد الملك بن مروان ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لرعيته: أنصفونا يا معاشر الرعية: تطلبون منا أن نسير فيكم سيرة أبى بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ ولا تسيرون أنتم بسيرة رعاياهم، فنسأل الله أن يعين كل واحد منا على صاحبه. وكان ابن السماك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كما ابتليتم بالأعمال التى لا ترضى ربكم، وقلتم: إن الله تعالى قدر ذلك، فأقيموا العذر لولاتكم، فإن الله تعالى هو المقدر عليهم ما ظلموكم به فإن أحدهم يود أن لا يظلم أحداً منكم، ولكن أعمالكم هى السبب فى ظلمكم. قال: ولما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ بكى ثم خير نساءه وجواريه، وقال: قد أتانى أمر شغلنى عنكن، فلا أتفرغ لكنّ حتى يفرغ الناس من الحساب يوم القيامة، فبكى عند ذلك أهل بيته حتى ظن جيرانهم أنه مات عندهم أحد.

وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا العلماء وهم يرون جلوسهم فى بيوتهم أفضل، فصاروا اليوم وزراء الأمراء وقهارمة الظلمة. وقد سئل عطاء بن أبى رباح ـ رحمه الله تعالى ـ عن شخص يكتب بقلمه عند الأمراء لا يجاوز ما جعلوه له من الرزق، فقال عطاء: أرى أن يترك ذلك، أما سمع قول موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص:١٧]، وكان وهب بن منبه ـ رحمه الله ـ يقول: إذا هم الوالى بالجور أدخل الله النقص فى أهل مملكته

حتى في الأسواق والأرزاق والزروع والثمار والضروع وفي كل شيء. وكان أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ يقول: سيأتي على الناس زمان تكون أعطيتهم من الولاة أثمان أديانهم. وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من تبسم في وجه ظالم، أو وسع له في المجلس، أو أخذ من عطائه فقد نقض عُرى الإسلام، وكتب من جملة أعوان الظلمة، والمراد بعُرى الإسلام هنا مخالفة قواعد السلف.

وقد كان طاوس ـ رحمه الله تعالى ـ يكثر الجلوس في بيته. فقيل له في ذلك، فقال: إنما اخترت ذلك لحيف الأئمة، وفساد الرعية، وذهاب السنة، فإن من فرّق بين ولده والعبد في إقامة الحق فهوجائر. وكان ميمون ابن مهران ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لم يكن أحد أحبّ إلي من عمر بن عبد العزيز، ولأن أراه متيًا أحب إلي من أن أراه ولي عملاً. وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا سمن الأمير بعد الهزال، فاعلموا أنه قد خان رعيته وخان ربه. قال: ودخل أبو العالية يومًا على الرشيد ـ رحمهما الله تعالى ـ فقال له: احذر دعوة المظلوم فإن الله لا يردها ولو من فاجر. وفي رواية: ولو كان من كافر. انتهى.

فتأمل يا أخي في نفسك، وانظر هل وفيت بحق رعيتك في زاويتك وحق جوارحك بحيث استعملتها في مرضاة الله تعالى، ومنعتها معاصيه، أو غششت نفسك وجوارحك، فإن كل راع مسئول عن رعيته، وإياك يا أخي والدخول على الأمراء، ولو بقصد أنك تأمرهم وتنهاهم فإن ذلك لا يتم لك معهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم ـ رضي الله عنهم ـ: غيرتهم لله تعالى إذا انتهكت حرماته نصرة للشريعة المطهرة، فكانوا لا يفعلون فعلاً، ولا يصحبون أحدًا إلا إن علموا رضا الله تعالى فيه، فلا يحبون أحدًا، ولا يبغضونه لعلة دنيوية، وقد ثبت في الحديث: **«الحبّ في الله، والبغض في الله من أوثق عرى الإيمان»**[1]

(١) حسن: أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٦) من حديث البراء، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (ح ٣٠٠٩).

فلو عبد الشخص ربه كعبادة الثقلين طلبًا للثواب وهوغافل عن كون ذلك من مرضاة الله تعالى فهو خارج عن الطريق، وقد أوحي الله تعالى إلى موسى -عليه السلام-: هل عملت لي عملاً؟ فقال: نعم يا ربّ صليت وصمت وتصدّقت وذكر أشياء، فقال الله تعالى: هذا لك ولكن هل واليت لأجلى وليًا، أو عاديت لأجلى عدوًا؟ فعلم عند ذلك موسى أن الحبّ فى الله، والبغض فى الله من أفضل الأعمال.

وكان على بن الحسين -رضي الله عنهما- يقول: لا يصطحب اثنان على غير طاعة الله إلا تفرقا على غير طاعة الله. وقد كان يوسف بن أسباط ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا دخلتم على الولاة فلا تخصوهم بالدعاء، فإنهم حاربوا الله ورسوله، ولكن ادعوا للمسلمين، فإن كانوا منهم لحقتهم الدعوة، وكان عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- يقول: إذا صحبت أحدًا لا تسأل عن مودته لك، ولكن انظر مافى قلبك له ونفسك فإن ما عندك مثل الذى عنده على حد سواء. انتهى.

وكان سُفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا أحدث الرجل حدثًا ولم يبغضه من زعم أنه أخوه، فمحبته لغير الله، إذ لو كانت لله لغضب على من عصاه. وكان أبو هريرة -رضي الله عنه- يقول: يؤتى بالعبد يوم القيامة بين يدى الله تعالى فيقول الله عزّ وجل له: هل أحببت لى وليًا حتى أهبك له؟. انتهى. فأحبوا الصالحين، واتخذوا عندهم أيادي، فإن لهم دولة يوم القيامة.

وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: مصارمة الفاسق قربة إلى الله تعالى. قلت: ومراده مصارمته بالقلب، أما فى الظاهر فلا ينبغى مصارمته لأجل تقويم عوجه، وتبغيضه فى صفات الفسق، فإن الفاسق ضالة كل داع إلى الله تعالى، فافهم ذلك والله أعلم.

وقد سُئل سُفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ هل نعزى الفاسق إذا مات له ميت؟ قال: لا. ، وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يذكر أبا بكر وعمر -رضي الله عنهما- ويبكى ويترحم على معاوية -رضي الله عنه- ويقول: إنه كان من أكابر العلماء إلا أنه ابتلى بحب الدنيا. انتهى.

قلت: الذى ينبغى حمل حبه للدنيا على أنه يحبها لعمل الآخرة كما عليه السلف الصالح بل هو أولى بقصد ذلك من الأولياء لأنه صحابى جليل -رضي الله عنه- والله أعلم. وكان الحسن البصرى - رحمه الله تعالى - يقول: من ادعى أنه يحب عبد الله تعالى ولم يبغضه إذا عصى الله تعالى فقد كذب فى دعواه أنه يحب لله. وكان محمد بن الحنفية -رضي الله عنه- يقول: من أحب رجلاً من أهل النار لخير ظهر منه آجره الله على ذلك، ومن أبغض رجلاً من أهل الجنة لشر ظهر منه آجره الله على ذلك. وقد كان مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - لا يطرد الكلب إذا جلس بحذائه ويقول: هو خير من قرين السوء، وكفى بالمرء شرًا أن لا يكون صالحًا ويقع فى الصالحين. وكان أحمد بن حرب - رحمه الله تعالى - يقول: ليس شىء أنفع لقلب العبد من مخالطة الصالحين والنظر إلى أفعالهم. وليس شىء أضر على القلب من مخالطة الفاسقين، والنظر إلى أفعالهم. وكان يحيى بن معاذ - رحمه الله تعالى - يقول: ولىّ الله ريحان فى الأرض، فإذا شمه المريدون ووصلت رائحته إلى قلوبهم اشتاقوا إلى ربهم. انتهى.

فتأمل يا أخى حالك هل أحببت أحدًا لله وأبغضته كذلك لله تعالى؟ أم أحببت بالهوى وأبغضت بالهوى؟ وابك على نفسك وأكثر من الاستغفار ليلاً ونهارًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله عنهم-: قلة الضحك وعدم الفرح بشىء من الدنيا بل كانوا ينقبضون بكل شىء حصل لهم من ملابسها ومراكبها ومناكحها ومناصبها عكس ما عليه أبناء الدنيا كل ذلك خوفًا أن يكون جملة ما عجل لهم من نعيم الآخرة، وكيف يفرح بشىء من هو فى السجن محبوس عن لقاء الله عز وجل، فكما يحزن المحبوس عن داره وعياله ويتكدر، كذلك يحزن أولياء الله تعالى على طول عمرهم وسجنهم فى هذه الدار عن لقاء ربهم عز وجل، وفى الحديث أن رسول الله -ﷺ- قال: **«والذى نفسى بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم**

كثيرًا، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل»[1] وقد كان عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول: عجبت من ضاحك ومن ورائه النار، ومن مسرور ومن ورائه الموت، وكان الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ لا يراه أحد إلا ظن أنه قريب عهد بمصيبة لما يراه به من شدة الحزن والخوف. وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: رب ضاحك، وأكفانه قد خرجت من عند القصار. وكان ابن مرزوق ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من ادعى أن الذنوب غمته وأحزنته ثم جمع في إدامه بين عسل وسمن فهوكاذب، وكان الأوزاعي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول في قوله تعالى: ﴿ **لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا** ﴾ [الكهف:٤٩]، الصغيرة هي التبسم في هذه الدار، والكبيرة هي القهقهة فيها. قلت: ولعل مراده ـ رحمه الله تعالى ـ بالتبسم هنا الضحك بصوت يسمعه من في مجلسه إذ التبسم كان ضحكه ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وكان ثابت البناني ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما ضحك مؤمن قط إلا وهو في غفلة عن الموت.

وكان عامر بن قيس ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أكثر الناس ضحكًا في الدنيا أكثرهم بكاء في النار، ومكث سعيد بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ لم يضحك منذ أربعين سنة حتى مات، وكذلك غزوان الرقاشي.

وكان أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يقول: مع كل ضحاك في مجلس شيطان. وقد مرت معاذة العدوية ـ رحمها الله تعالى ـ يومًا على شبان يضحكون وعليهم ثياب صوف فقالت: سبحان الله لباس الصالحين، وضحك الغافلين. وكان وهيب بن الورد ـ رحمه الله ـ يقول: الضحك الذي لا

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٤٦٢١/ فتح)، ومسلم (٤/ ٢٣٥٩/ عبد الباقي) بلفظ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيرًا» من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ.
وأما لفظ المصنف فقد أخرجه البيهقي في الشعب (١/ ٧٩٣) من حديث أبي الدرداء، وذكره السيوطي في «الجامع الصغير» وعزاه للطبراني في الكبير والحاكم، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (ح ٥٢٦٢).

إسراف فيه هو الذى يظهر به السن ولايسمع له صوت، واللباس الذى لا إسراف فيه هو ما وارى العورة، ووقاك من الحر والبرد، والطعام الذى لا إسراف فيه هو ما سد الجوع، وكان دون الشبع. وكان عون بن أبى زيد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: صحبت عطاء السلمى ـ رحمه الله ـ خمسين سنة فما رأيته ضاحكًا قط. وقد كان عبد العزيز بن أبى داود ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لما ظهر المزاح في أصحاب رسول الله -ﷺ- أنزل الله تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [الحديد:١٦]، فتركوا المزاح حينئذ وخشعوا ـ رضي الله عنهم ـ. انتهى.

والآثار فى ذلك كثيرة مشهورة فى كتاب الرقائق، وما تميز أهل الله عز وجل عن غيرهم إلا بالإقبال على الآخرة والتهيؤ لأحوالها فتأمل يا أخى فى نفسك وما أنت منطو عليه من الغفلة، والسهو عما يقربك إلى الله تعالى، وأكثر من الاستغفار، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله عنهم-: تمنى الموت إذا خافوا على أنفسهم الوقوع فى ما يسخط الله عز وجل عليهم، وذلك بأمارت تظهر لهم من أنفسهم هى كالمقدمات للمعاصى والقرائن معدودة من الأدلة فى كثير من المواضع.

وقد كان عبس الغفارىّ ـ رضي الله عنه ـ فى أيام الطاعون يقول: يا طاعون خذنى، ويكرر ذلك، فقال له ابن عم له كيف تقول ذلك يا عابس وقد سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «**لا يتمنى أحدكم الموت فإنه انقطاع لعمله**»[(١)] فقال عابس: نعم سمعته يقول ذلك، ولكنى أخاف ستًا سمعته -ﷺ-، يتخوفهن على أمته: إمارة السفهاء، وكثرة الشرط، وبيع الحكم، وقطيعة الرحم، والاستخفاف بالدم، ونشوا يتخذون القرآن مزامير يقدمون أحدهم ليس بأفصحهم فى الدين، ولكن يقدمونه ليغنيهم به غناء. انتهى.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (ح ٢٦٨٢) فى الذكر والدعاء، باب: كراهة تمنى الموت لغير نزل به، من حديث أبى هريرة -رضي الله عنه-، وأحمد (٢/ ٣١٦، ٣٥٠) بلفظ: «لا يتمنى أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات انقطع عمله، . . .».

وكذلك تمنى أبو بكرة الموت ـ رضي الله عنه ـ فقيل له فى ذلك، فقال: أخاف أن أدرك زمانًا لا أمر فيه بالمعروف ولا نهى فيه عن المنكر، وقد كان أبو هُريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول: سيأتى على الناس زمان يكون الموت أحبَّ إلى العلماء فيه من الذهب الأحمر حتى يأتى الرجل قبر أخيه فيقول: ليتنى كنت مكانك.

وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من أطاع الله لم يتمن الموت. وكان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ إذا رأى أحدًا فيه خير قال له: ادع لى بالموت. وكان أبوالدرداء ـ رضي الله عنه ـ يقول: ما من مؤمنٍ ولا كافرٍ إلا والموت خير له، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]، وقد كان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركت مشايخنا وهم يتمنون الموت ـ رضي الله عنهم ـ فكنت أعجب منهم حتى صرت الآن أتعجب مما لا يحب الموت. وكان عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول: ذهب صفو الدنيا وبقى كدرها، فالموت اليوم تحفة لكل مسلم.

وكان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما أحب أن يخفف عنى الموت لأنه آخر شيء يؤجر عليه المؤمن. وكان أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ يقول: ما أهدى إلى أخ هدية هى أحب إلى من السلام، ولا بلغنى خير عنه قط أحب إلى من موته. وقد كان عطاء السلمى ـ رحمه الله ـ يتمنى الموت، فقال له عطاء الأزرق ـ رحمه الله ـ كيف تتمنى ما نهى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه؟ فقال: إنما يريد الحياة من يزداد كل يوم خيرًا، وأما مثلى ومثلك فما يرجو بالحياة؟ وكان أبو عتبة الخولانى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كان من صفة أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن لقاء الله تعالى أحب إليهم من الشهد ولم يكونوا يخافون عوزًا من الدنيا، بل كانوا واثقين برزق الله، وكانوا يحبون الموت أكثر مما يحب أحدكم الصحة. وكان عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: قلت مرة لسهل التسترى ـ رحمه الله ـ أتحب يا سهل أن تموت غدًا؟ فقال: لا ولكن الساعة. وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا الناس وهم يخافون من الأمراض والبلايا خوفًا

على أنفسهم أن يقعوا فى كراهة قضاء الله تعالى، فلم يكن خوفهم من البلاء إلا لما فيه، ووالله ما أدرى ماذا يقع منى لو ابتليت فلعلى أكفر ولا أشعر.

وقد بلغنى أن لقمان عليه السلام قال لابنه: يا بنىّ إنى حملت الصخر والحديد، فلم أر شيئًا أثقل من الدين، وأكلت الطيبات، وعانقت الحسان فلم أر شيئًا ألذ من العافية، وذقت المرارات كلها، فلم أذق شيئًا أمرّ من الحاجة إلى الناس. وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ابكوا على أهل البلاء وإن كان جرمكم أعظم من جرمهم فيحتمل أنكم تعاقبون على ذنوبكم كما عوقبوا أو أشد. وكان كثيرًا ما يبعث إلى أهل السجن بما عنده من الطعام والدراهم، ويقول: إنهم مساكين. وكان سهل بن سعد التسترى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من أعظم ما يبتلى به العبد الفراغ من أعمال الدنيا والآخرة، ولكن لا يشعر به أنه بلاء إلا القليل من الناس. وكان مسلم بن قُتيبة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من أعظم المروءة الصبر على أذى الرجال، ولقد أدركنا الناس وهم يعدون الإمارة أعظم بلاء ونراهم اليوم يطلبونها، وكانوا إذا تولى صديقهم الإمارة يقولون: اللهم أنسه ذكرنا حتى يصير لا يعرفنا ولا نعرفه.

وكان يحيى بن الحسين ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من طلب السلامة احتمل الملامة، وكان يقول: البلاء كله ينشأ من العافية، ولو أن فرعون أصابه المرض ما قال الذى قاله، وهو قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وقد سمعت سيدى عليًّا الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من أعظم البلاء وقوع العبد فى الرياء بعلمه وعمله، ولكن لا يشعر بذلك إلا قليل من الناس. فاعلم ذلك وفتش يا أخى نفسك، وإياك أن تقول كما قال بعض المحبين حين ابتلى: اللهم إن كان فى هذا رضاك، فزدنى منه. فإن رجال البلاء إنما هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد كان الإمام الشافعى ـ رضي الله عنه ـ مبتلى بمرض البواسير، فكانت تنضح عليه دمًا ليلاً ونهارًا حتى كان ـ رضي الله عنه ـ يجلس للحديث، والطشت تحته يقطر فيه الدم، فقال يومًا: اللهم إن كان فى هذا رضاك فزدنى منه، فسمعه شيخه الإمام مسلم بن خالد الزنجى ـ

رحمه الله تعالى ـ فزجره وقال له: مه يا محمد، سل الله العافية فأنا وأنت لسنا من رجال البلاء.

وكان أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- يقول في خطبته: أيها الناس، سلوا الله العفو والعافية فإن المؤمن لم يعط بعد الإسلام أفضل من العفو والعافية، وسيأتي بسط الكلام على هذا الخلق مفرقًا في الباب إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله عنهم-: كثرة خوفهم من الله تعالى في حال بدايتهم وحال نهايتهم، لكن في حال بدايتهم من الذنوب، وخوف العذاب، وفي حال نهايتهم خوف الإجلال والتعظيم، ومن لازم خوفهم الندم ضرورة في الحالتين، وفي الحديث أن رسول الله -ﷺ- قال: «**يا صفية عمة رسول الله، ويا فاطمة بنت محمد أنقذا أنفسكما من النار فإني لا أغني عنكم من الله شيئًا**»[1]، وفي الحديث: «**البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يفنى، فكن كما شئت كما تدين تدان**»[2]. وقد كان أبو سعيد الخدري -رضي الله عنه- يقول: أربع إذا أفرط فيها الرجل أهلكته واستهوته: كثرة الجماع، والصيد، والقمار، والذنوب، وكان أبو تُراب النخشبي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا أجمع الرجل على ترك الذنوب أتته الإمدادات من الله تعالى من كل جانب. ومن علامة سواد القلب ثلاث: أن لا يجد للذنوب مفزعًا، ولا للطاعة موقعًا، ولا للموعظة منجعًا. وكان أبو محمد المرزوي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إنما شقي إبليس

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (ح ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦) في الإيمان، باب: في قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، من حديث أبي هريرة وعائشة -رضي الله عنهما-.

(٢) ضعيف: ذكره الشيخ الألباني في الضعيفة (ح ١٥٧٩) وعزاه للبيهقي في الأسماء والصفات (٧٩)، وابن الجوزي في ذم الهوى (٢١٠) من طريق عبد الرزاق قال أنبأنا معمر عن أيوب عن أبي قلابة قال: قال رسول الله -ﷺ-: فذكره.

ثم قال: وهذا إسناد ضعيف، من أجل أن أبا قلابة – واسمه عبد الله بن زيد الجرمي – تابعي وقد أرسله، ثم ذكر له علة أخرى وهي الوقف كما في زوائد الزهد (١٠٥٥) للمروزي فقد جاء بنفس الإسناد موقوفًا على أبي الدرداء.

بخمسة خصال لأنه لم يقر بذنبه، ولم يندم عليه، ولم يلم نفسه، ولم يبادر إلى التوبة، وقنط من رحمة الله تعالى.

قال: وعكس ذلك آدم عليه الصلاة والسلام فإنه سعد بخمس خصال: أقرّ بذنبه، وندم عليه، ولام نفسه، وبادر إلى التوبة، ولم يقنط من رحمة الله تعالى. وكان حاتم الأصم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا عصيت ربك فبادر بالتوبة والندم، ولا تعتذر للناس، فاعتذارك إليهم أعظم من معصيتك. وكان إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لأن أدخل النار وقد أطعت الله تعالى أحب إليّ من أن أدخل الجنة وقد عصيته[١]. وقد كان الأوزاعي ـ رحمه الله تعالى ـ إذا رأى أحداً من قرابة رسول الله -ﷺ- في معصية يقول له: لا تغرنّكم قرابتكم من رسول الله -ﷺ- مع مخالفتكم هديه وأمره، فإنه قال لابنته فاطمة ـ رضي الله عنها ـ **«أنقذي نفسك من النار، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً»**[٢].

وكان أحمد بن حرب يقول: ألم يأن للمذنب أن يتوب، فإن ذنبه في الديوان مكتوب، وهو غداً في قبره مكروب، وبه إلى النار مسحوب. وكان عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: لا ينبغي لعاقل أن يؤذي محبوبه، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: يؤذي الرجل نفسه بعصيانه ربه. وكان جعفر بن محمد ـ رضي الله عنهما ـ يقول: من أخرجه الله تعالى من ذل المعصية أغناه بلا مال، وأعزه بلا عشيرة، وآنسه بلا بشر.

وكان عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: العمل الصالح مع قلة الذنوب أحب إلى الله من كثرة العمل الصالح مع كثرة الذنوب. وكان يحيى بن معاذ - رحمه الله تعالى - يقول: على قدر الخروج من الذنوب تكون الإقالة للذنوب. وقد كان الحسن البصري - رحمه الله تعالى - يقول: من علامة من غرق في الذنوب عدم انشراح صدره لصيام النهار وقيام الليل. وكان

(١) قلت: لا يتحمل مخلوق عذاب جهنم، فكيف يُقال مثل هذا؟!. فهذا مخالف لهدي السلف الصالح.

(٢) صحيح: سبق تخريجه.

محمد بن واسع - رحمه الله تعالى - يقول لأصحابه: قد غرقنا في الذنوب، ولو أن أحداً منكم يجد مني ريح الذنوب لما استطاع أن يجلس إلي. وكان الحسن البصري - رحمه الله تعالى - يقول: مساكين قتلة الحسين - رضي الله عنه - ولو دخلوا الجنة بفضل الله تعالى، كيف يتجرأ أحدهم أن يمر بالنبي - صلى الله عليه وسلم -، وقد قتل ولده، ووالله لو أن لي مدخلاً في قتله وخيرت بن الجنة والنار لاخترت دخول النار خوفًا أن ينظر إليَّ النبي - صلى الله عليه وسلم - في الجنة نظرة غضب تؤذيني وتؤذيه.

وكان ابن السماك - رحمه الله تعالى - يقول: لو لم يكن في الطاعة إلا ظهور نور الوجه وبهاؤه، والمحبة في القلوب، والقوة في الجوارح، والأمن على النفس، والتجويز في الشهادة على الناس لكان في ذلك كفاية في ترك الذنوب، ولو لم يكن في المعصية إلا النكارة في الوجه، والظلمة في القلب، واللعنة في الذكر، والإسقاط في الشهادة، والخوف على النفس لكان في ذلك كفاية فيجعل الله تعالى لكل من الطائع والعاصي أمارات ليفرح هذا ويحزن هذا.

قلت: ولعل المراد باللعن المذكور السب له حال التعيين، أو دخوله في عموم العصاة إذ اللعن المعين لا يجوز إلا بنص والله أعلم.

وكان عطاء بن أبي رباح - رحمه الله - يقول في قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ**﴾ [الحج:٣٠]، هي المعاصي يعظمها حتى لا يقع فيها. وكان كعب الأحبار - رضي الله عنه - يقول في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**﴾ [التوبة:١١٤]، قال: كان يقول: أوه قبل الوقوع في النار، أوه قبل أن لا ينفع أوه. وكان الحسن البصري - رحمه الله تعالى - يقول: أبى الله إلا أن يذل من عصاه في الدنيا والآخرة بين الناس، وما أذنب عبد في الليل إلا وأصبح ومذلته على وجهه. وكان الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى - يقول في قوله تعالى: ﴿**لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا**﴾ [الكهف:٤٩]، صحوا من الصغائر قبل الكبائر. وكان العوام بن حوشب - رحمه الله تعالى - يقول: أربع بعد الذنب شر من الذنب، وهي

استغفار من غير الإقلاع، والاغترار بحلم الله، والإصرار والاستبشار بالمغفرة إذا عمل بعده طاعة فقد لا يغفره الله بها. وكان عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: من أطاع الله فقد ذكره. وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن، ومن عصاه فقد نسيه. ومن علامة العلماء العاملين بعلمهم أن لا يوجد أحدهم إلا فى عمل صالح.

وقد سئل سفيان بن عيينة ـ رحمه الله ـ عن الملائكة كيف تكتب ما هم به العبد ولم يعمله؟ فقال: الملكان الكاتبان عليهما الصلاة والسلام لا يعلمان الغيب، ولكن إذا هم العبد بحسنة فقد فاح منه رائحة المسك فيعلمان أنه قد هم بالحسنة، وإذا هم العبد بالسيئة فاح منه رائحة النتن، فيعلمان أنه قد هم بالسيئة. قلت: ولعل المراد بالهم هنا العزم المصمم ليوافق الأحاديث والقواعد الشرعية والله أعلم.

وكان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن الله أمر بالطاعة، وأعان عليها، ولم يجعل فى تركها عذراً، ونهى عن المعصية ولم يجعل لمن فعلها حجة، ولو أراد سبحانه أن لا يعصى فى الأرض أصلاً لما خلق إبليس، فإنه رأس الخطيئة. وكان أبو سليمان الدارانى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما أحب المتقون البقاء فى هذه الدار إلا ليطيعوه فيها. وكان يقول: أدخلهم الله الجنة قبل أن يطيعوه، وقدّر عليهم المعصية قبل أن يعصوه لما سبق فى علمه عز وجل. وقد كان بشر الحافى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا الناس ولهم أعمال صالحة كالجبال، ومع ذلك كانوا لا يغترون، وأنتم لا أعمال لكم ومع ذلك تغترون، والله إن أقوالنا أقوال الزاهدين، وأعمالنا أعمال الجبابرة والمنافقين. وكان حاتم الأصم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا عصيت ربك وأصبحت رأيت نعمه سابغة عليك فاحذره، فإن ذلك استدراج، ولقد أدركنا السلف وهم يستعظمون صغار الذنوب أكثر مما تستعظمون أنتم كبارها.

وكان الربيع بن خيثم ـ رحمه الله تعالى ـ إذا ضحى فى العيد يقول: وعزتك وجلالك لو علمت رضاك فى ذبح نفسى لذبحتها لك. قال: وقد

مكث كـهمش بن الحـسن ـ رحمـه الله ـ أربعين سنة يبكي على غسله يده بتراب جاره بغير إذنه. وكان يقـول: ربما كان أحدكم يظن أن الله تعالى غفر له ذنبه حين يتقادم عهده وذلك غرور.

وقد بلغنا أن الله تعالى أوحى إلى داود عليـه الصلاة والسلام: يا داود قل لبني إسرائيل بأى طريق وصل إلـيكم أنى قد غفرت لأحدكم ذنبه حتى يترك الندم عليه. وعزتي وجلالي لأوقفـنّ كل مذنب على ذنبه يوم القيامة. قلت: ولعل معنى وقوف العـبد على ذنبه ليريه تعالى فضله عليه، فلا يلزم من ذلك عدم المغفرة والله أعلم.

وكان يزيد الحميرى ـ رحـمه الله تعالى ـ يقول: قلت مرة لراهب: لم آثرتم لبس السواد على البياض؟ فقـال: لأنه شعار أهل المصائب. ونحن أهل الذنوب، وهى أعظم المصائب. قـال: ومر عتـبة الغلام ـ رحمـه الله ـ يومًا على مكان فـارتعـد ورشح عرقًـا. فـقالوا له فى ذلـك، فقـال: هذا مكان عصيت الله فيه وأنا صغير وقد حج مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ ماشيًا من البصرة، فقيل له: ألا تركب؟ فقـال: أما يرضى العبد العاصى الآبق أن يأتى إلى صلح مـولاه إلا راكـبًا، والله لو أنى أتيت مكـة على الجمـر لكان ذلك قليلاً. انتهى.

فـاعلم ذلك يا أخى، وإياك أن تتهـاون بالاسـتغـفار إذا تقـادم عهـد الذنب، فإنك مـن المعصيـة على يقين، ومن المغـفرة على شك، وأكـثر من الاستغفار ليلاً ونهاراً، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله عنهم-: كثرة الخوف من الله تعالى أن يعذبهم على ما جنوه من مظالـم نفوسهم، ومظالم العـباد، ولو عودخـلال لأحد أو إبرة يخيطون بها لا سيـما إن كان أحدهم يستقل أعماله الصـالحة فى عينه، فإنه يشتد خوفه وكربه لعدم أن يكون مـعه شيء من الحسنات يعطى منها الخصوم يوم القيامة، وربما شح أحـد المظلومين يوم القيامة فلا يرضى بجـميع أعمال الظالم الصالحة فى مظلمة واحدة من مال أوعرض أو لطمة. وفى الحديث أن رسول الله -ﷺ- قال: «**أتدرون من المفلس من أمتى يـوم القيامة؟ فـقالوا:**

المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار ولا متاع، فقال -ﷺ-: المفلس من يأتي يوم القيامة بصيام وصلاة وزكاة وحج، ويأتي وقد شتم هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم قُذف في النار»[1]. وكان عبد الله بن أنيس -رضي الله عنه- يقول: ينادي رب العزة يوم القيامة: أنا الملك الديان لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، ولأحد عنده مظلمة حتى أقتص له منه. وقد كان وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: تاب شاب من بني إسرائيل عن جميع المعاصي، ثم صار يتعبد فعبد الله سبعين سنة لا يفطر ولا ينام، ولا يستظل بظل، ولا يأكل سمينًا، فلما مات رآه بعض إخوانه في المنام. فقال له: ماذا فعل الله بك؟ قال: حاسبني، ثم غفر لي كل ذنب إلا عودًا خللت به أسناني بغير إذن صاحبه فأنا محبوس عن الجنة بسببه إلى وقتي هذا. قلت: ويؤيد ذلك حديث: **«إن الله تعالى أخفى ثلاثًا في ثلاث: أخفى رضاه في طاعته، وأخفى سخطه في معصيته، وأخفى أولياءه في عباده»** الحديث. فربما علق الحق تعالى سخطه على عبد بوقوعه في ذنب صغير في عينه كأخذه الخلال المذكور لأسنانه، أو غسل يده بتراب جاره بغير إذنه كما مر آنفًا، والله أعلم.

وكان الحارث المحاسبي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: بلغنا أنه تاب كيال عن الكيل، وأقبل على عبادة ربه عز وجل، فلما مات رآه بعض أصحابه في منامه. فقالوا له: ما فعل الله بك يا فلان؟ قال: أحصى عليّ خمسة عشر قفيزًا من أنواع الحبوب التي كنت أكتالها. فقال له: كيف ذلك؟ قال: كنت أغفل عن تعاهد الكيل بالنقص من الغبار فتراكم في قعره من التراب، فكان كل كيلة تنقص بقدر ما في القعر من التراب. قال: وكذلك وقع لشخص كان لا يتعاهد الميزان بمسحها من الغبار، فكان يعذب في قبره، ويسمع

(١) صحيح: أخرجه مسلم (ح ٢٥٨١) في البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، من حديث أبي هريرة.

الناس صياحه فى القبر حتى شفع فيه بعض الصالحين ـ رضي الله عنهم ـ وكان أبو ميسرة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: بلغنا أن ميتًا ضرب فى قبره ضربة التهب قبره منها نارًا، فقال: على ماذا تضربوني؟ فقالوا: إنك مررت على مظلوم فاستغاث بك فلم تغثه، وصليت مرة بغير وضوء أى وأنت متحقق. وكان شُريح القاضي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إياكم والرشوة فإنها تعمى عين الحكيم، وفى رواية: تعمى عين الحكم الحق.

وقد كان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ إذا رأى أحدًا من الولاة وأعوانهم يتصدق على أحد من الفقراء يقول له: أيها المتصدق على المساكين لترحمهم ارحم أنت الذى ظلمته، ورد إليه ظلامته فإنه أخلص لذمتك. وكان ميمون بن مهران ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من ظلم رجلاً مظلمة وفاته أن يخرج من مظلمته، فليستغفر له دبر كل صلاة فإنه يخرج من مظلمته إن شاء الله تعالى. وكان حُذيفة ـ رضي الله عنه ـ يقول: من اقتراب الساعة أن يكون أمراء فجرة، وعلماء فسقة، وأمناء خونة. وكان ميمون ابن مهران ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن الرجل ليلعن نفسه فى الصلاة ولا يشعر، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال يقرأ: ﴿ **أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾ [هود:١٨]، وهو قد ظلم نفسه بالمعاصى، وظلم الناس بأخذ أموالهم والوقوع فى أعراضهم. وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إياكم أن تكونوا أوصياء فإن الوصى قد لا يقدر على العدل فى وصيته ولو بالغ فى التحرز. وكان مالك ابن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أمين الخائن خائن، وأمين العشار عشار. وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إياك أن تكون وصيًا، فإن الوصى يريد أن يستصلح بك المال، ويفسد عليك دينك فكن على دين نفسك أحرص منك على حفظ ماله. وكان أبو يوسف صاحب أبى حنيفة ـ رضي الله عنهما ـ يقول: الدخول فى الوصية أول مرة غلط، والمرة الثانية خيانة ولا كلام، وقد رأى كعب الأحبار ـ رضي الله عنه ـ رجلاً يظلم الناس فى يوم الجمعة، فقال له: أما تخشى من ظلم الناس فى يوم تقوم فيه القيامة، وفيه خلق أبوك آدم عليه

الصلاة والسلام. وكان عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - يقول: من أعان ظالمًا على ظلمه، أو لقنه حجة يدحض بها حق امرئ مسلم فقد باء بغضب من الله. وكان الفضيل بن عياض - رضي الله عنه - يقول: بلغنا أن الله تعالى إذا أراد أن يتحف عبده سلط عليه من يظلمه. انتهى.

وفي الحديث: **«من دعا على من ظلمه فقد انتصر»**[1]، وكان يحيى ابن معاذ - رحمه الله تعالى - يقول: لو ظلمني أحد، ولم أكافئه كان أحب إلى. وكان أمير المؤمنين - رضي الله عنه - يقول: ما ظلم أحد أحدًا، ولا أساء أحد أحدًا حقيقة، لأن الله تعالى قال: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا**﴾ [الجاثية: ١٥]، وكان أحمد بن حرب - رحمه الله تعالى - يقول: يخرج من الدنيا أقوام أغنياء من كثرة الحسنات فيأتون يوم القيامة مفاليس من أجل تبعات الناس. وكان سفيان الثوري - رحمه الله تعالى - يقول: لأن تلقى الله تعالى بسبعين ذنبًا فيما بينك وبينه أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين العباد. انتهى.

فتأمل يا أخي في خوف السلف واقتد بهم في ذلك، فإنك على شفير الهلاك، ومن خاف سلم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم رضي الله عنهم: كثرة الخوف من الله تعالى إذا ذكروا أهوال يوم القيامة، وكثرة الغشيان، والصعق إذا سمعوا القرآن والذكر، وقد قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يومًا قوله تعالى: ﴿**إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا**﴾ [المزمل: ١٣]، وكان وراءه حمران بن أعين فخرّ ميتًا - رضي الله عنه -.

وقد دخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز - رحمهما الله تعالى - يومًا، فقال له: عظني يا يزيد، فقال له: يا أمير المؤمنين إنك أول خليفة يموت، فبكى عمر وقال له: زدني. فقال له: ليس بينك وبين أبيك آدم

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٥/ ٣٥٥٢) من حديث عائشة - رضي الله عنها - وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الجامع (ح ٥٥٧٨).

أب حى، فبكى عمر وقال له: زدنى فقال له: ليس بين الجنة والنار منزلة أخرى، فسقط عمر مغشيًا عليه، وكان الحسن بن صالح ـ رحمه الله تعالى ـ يؤذن مرة فقال: أشهد أن لا إله إلا الله فغشى عليه، فحملوه من المنارة ونزلوا به وصعد أخوه، فأذن وصلى بالناس والحسن فى غشيته. وكان أبو سليمان الدارانى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما رأيت أحدًا أكثر خشوعًا من الحسن ـ يعنى ابن صالح ـ رحمه الله ـ قام ليلة إلى الصباح بسورة ﴿ **عم يتساءلون** ﴾ [النبأ:١]، يرددها ويغشى عليه إلى الفجر ولم يتم السورة.

وكان كلما غشى عليه يجدد طهارة، وقد مر داود الطائى يومًا على امرأة تبكى على قبر لها وتقول: ليت شعرى بأى خديك بدأ الدود، فخر داود مغشيًا عليه. وقد كانت شعوانة العابدة ـ رحمة الله عليها ـ تقول فى مناجاتها: إلهى أنت أكرم الكرماء، وسيد السادات ورجاء المسلمين، فأسألك أن تغفر اليوم لكل من تعرض لمعصيتك بعد معرفته بعقوبتك، ثم تصرخ ويغشى عليها وتقول: هاه، وقد قرأ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يومًا: ﴿ **إذا الشمس كورت** ﴾ [التكوير:١]، حتى بلغ قوله تعالى: ﴿ **وإذا الصحف نشرت** ﴾ [التكوير:١٠]، فخر مغشيًا عليه وصار يضطرب على الأرض ساعة طويلة. قال: وسمع الربيع بن خيثم ـ رحمه الله تعالى ـ قارئًا يقرأ قوله تعالى: ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظًا وزفيرا** ﴾ [الفرقان:١٢]، فخر مغشيًا عليه، ثم حمل إلى بيته ففاته الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وكان هو الإمام فى حارته، وفى رواية: كان القارئ عبد الله مسعود.

وقد كان أبو سليمان الدارانى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: صلى سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ ركعتين خلف المقام، ثم نظر إلى السماء فانقلب مغشيًا عليه. قال الدارانى: وما فعل به ذلك مجرد نظره إلى السماء، وإنما ذلك من التفكر فى أهوال القيامة، وكان وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كان إبراهيم الخليل – عليه الصلاة والسلام – إذا ذكر خطيئته يغشى

عليه، ويسمع وجيب قلبه من مسيرة ميل. فيقال له: تفعل ذلك وأنت خليل الرحمن؟ فيقول: إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلتي.

قال: وصلى الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ الفجر يومًا فقرأ يس فلما بلغ قوله تعالى: ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون** ﴾ [يس:٥٣]، فسقط ابنه على ـ رحمه الله ـ فلم يفق حتى طلع الشمس. وقد كان على هذا إذا أراد أن يقرأ سورة لم يقدر أن يتمها، وكان لا يقدر أن يسمع سورة ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾، ولا سورة القارعة أبدًا. قال: ولما مات ضحك أبوه الفضيل فقيل له فى ذلك، وكان كثير الحزن فقال: إن الله أحب موته فأحببت ذلك لحب الله. وكان يقول لوالده: ادع الله لى أن يقدرنى على سماع سورة كاملة، أو على ختم القرآن ولو مرة قبل موتى.

وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كان أحدهم يقرأ القرآن فى الليل، فإذا أصبح عرف الناس ذلك فى وجهه من شدة التغير والاصفرار والنحول والذبول، فصار الناس اليوم يقرأ أحدهم القرآن كله فى الليل، فإذا أصبح لا يظهر على وجهه منه شىء وكأنه حمل رداءه. وكان ميمون بن مهران ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: سمع سلمان الفارسى ـ رضي الله عنه ـ قارئًا يقرأ قوله تعالى: ﴿ **وإن جهنم لموعدهم أجمعين** ﴾ [الحجر:٤٣]، فصاح ووضع يده على رأسه وخرج هائمًا لا يدرى أين يتوجه مدة ثلاثة أيام.

فتأمل يا أخى فى أحوال سلفك، فهل غشى عليك قط عند سماع كلام ربك عز وجل خالصًا، أم لم يغش عليك لا خالصًا ولا مرائيًا لقسوة قلبك؟ فخذ حذرك وعليك بالجوع فإنه يرقق القلب، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم ـ رضي الله عنهم ـ: انخلاع قلوبهم من أجسامهم فى كل مرضة يمرضونها لاحتمال أن تكون تلك المرضة إخراجًا لهم فلا يمكنهم التوبة، ولا تدارك الحقوق فيذهبون إلى الآخرة وهم عصاة كالعبد المجرم الذى فسق فى حريم سيده، وأتوه به حال اشتداد غضبه عليه ولله المثل الأعلى، وقد

مرض مرة حسان بن سنان ـ رحمه الله ـ فدخل عليه أصحابه يعودونه، فقالوا له: كيف نجدك؟ فقال: بخير إن نجوت من النار، فقالوا: ماذا تشتهي؟ فقال: ليلة طويلة أحييها بالصلاة والاستغفار قبل أن أموت. وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: دخلت على جار لي وهو في مرض موته، وكان مسرفًا على نفسه فقلت له: ألا تعاهد الله تعالى على أنك لا تعصيه فلعلك تموت على ذلك؟ قال مالك: فسمعت النداء من داخل البيت إن كان عهده مثل عهودك التي تعاهدنا عليها ثم تنقضها، فلا فائدة فيه بل يزاد به مقتًا وطردًا، فخر مالك مغشيًا عليه. وقالوا للربيع بن خيثم في مرض موته: ألا ندعو لك طبيبًا؟ فسكت ساعة ثم قال: أين عاد وثمود وأصحاب الرس وقرونًا بين ذلك كثيرًا. وكلاً ضربنا له الأمثال، وكلا تبرنا تتبيرًا ـ مع أنهم كان فيهم المعالجون والأطباء ومع ذلك ماتوا جميعًا، ثم قال: والله لا أدعو لي طبيبًا أبدًا.

ودخلوا على مغيرة الخراز في مرض موته، فقالوا له: كيف نجدك؟ قال: موقرًا بالذنوب. فقالوا: هل تشتهي شيئًا؟ فقال: نعم، أن يمن عليّ بالتوبة عن كل ما يكره قبل موتي. ولما مرض وهيب بن الورد سير إليه أمير مكة بطبيب نصراني، فقال له: ما تجد؟ فقال: معاذ الله أن أخبرك بما بي، فقال له القوم: أخبرنا ونحن نخبره. فقال: سبحان الله أين هذه العقول؟ أتأمروني أن أشكو ربي إلى عدو من أعدائه، قوموا عني أجمعون، وكان سفيان بن عيينة يقول: دخلنا على الفضيل بن عياض نعوده فقال: لو لم تجيئوا لكان أحب إلي من مجيئكم، إني أخاف أن أشكو لكم ربي، وكان يحيى بن معاذ يقول: عدنا مرة مريضًا فقلنا له: كيف نجدك؟ فقال: أخرجت إلى الدنيا وأنا راغم، وقد عشت فيها وأنا ظالم، وأفارقها وأنا نادم.

ودخل الحسن البصري على عطاء السلمي وهو مريض قد علاه الصفار، فقال له: يا عطاء لو خرجت إلى صحن الدار، فقال: إني أستحي أن يراني ربي أسعى في حظ نفسي، ولما مرض عمر بن عبد العزيز أتوه بطبيب فنظر إليه الطبيب وقال: هذا رجل قد قطع الخوف من الله كبده، فلا أقدر على دوائه.

ولما مرض أبو بكر بن عيَّاش، دخل عليه طبيب نصراني، فمنعه أن يمس يده، فلما قام النصراني أتبعه أبو بكر بصره، ثم قال: يا رب كما عافيتني من بلائه الذي هو الكفر، فافعل بي ما شئت. وكان سفيان الثوري يقول: قل أن ينفك مريض من غير الأكابر عن هذه الأربع: الطمع والكذب والشكوى والرياء. وكان شداد بن حكيم إذا حمّ بالمرض يتصدق بمائة درهم شكرًا لله تعالى على المرض.

وكان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- إذا مرض لا يتداوى بإشارة طبيب، وقالوا له مرة: ألا ندعو لك طبيبًا؟ فقال: تالله لو علمت أن شفائي في مس أذني ما مسستها، نعم ما يفعله ربي عز وجل[1]. ولما عادوا يحيى بن معاذ قالوا له: كيف نجدك؟ قال: عشت في الدنيا ظالمًا. وقيل للإمام الشافعي: كيف نجدك؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلاً ولسوء أعمالي ملاقيًا، وعلى فضل ربي معوّلاً. ودخل بعض الأمراء على داود الطائي في مرضه فوضع إلى جنبه ألف دينار فقال له: خذها عافاك الله. فقال له: ألك من حاجة؟ قال: نعم أن لا تأتيني بعد اليوم، ثم التفت للحاضرين، وقال: هذا يريد أن يزيدني دنسًا على دنسي قبل موتي، ودخلوا على الفضيل بن عياض يعودونه فقالوا له: ما تشتهي؟ قال: نظرة إلى أخي يوسف بن أسباط قبل موتي. وكان حاتم الأصم إذا رأى بخيلاً يتصدق في مرض موته يقول: اللهم أدم مرضه فإنه تكفير لخطاياه، وأفضل للفقراء. وقالوا لمحمد بن سيرين في مرض موته: كيف نجدك؟ فقال: أجدني في بلاء شديد أجوع، فلا أستطيع أن أشبع، وأعطش فلا أستطيع أن أروى، وأرقد فلا أذوق الكرى. وقالوا: وكان قليل الشكوى في مرضه، ولكنه اشتد عليه فلم يطق حمله فشكا إلى إخوانه ليدعوا له باللطف. ومرض الفضيل بن عياض مرة فقالوا له: كيف

---

(١) قلت: قد أمر النبي -ﷺ- بالتداوي في الحديث الصحيح الذي رواه أصحاب السنن الأربعة وأحمد وابن حبان والحاكم من حديث أسامة بن شريك أن رسول الله -ﷺ- قال: «تداووا عباد الله، فإن الله تعالى لم يضع داءً إلا وضع له دواء، غير داء واحد، الهرم». فالله أعلم أيصح نسب هذا القول إلى عمر بن الخطاب أم لا.

تجدك؟ فقال: بخير ولكن ادعوا لى بطول المرض حتى لا أرى الناس ولا يرونى. ودخلوا على أبى بكر بن عبد الله يعودونه فخرج إليهم يهادى بين رجلين فقالوا: ادع الله لنا، فقال: رحم الله من اشتغل بطاعة ربه قبل أن يصير إلى مثل حالى هذا. ودخلوا على المأمون فى مرضه الذى مات فيه فإذا هو قد أمر خدامه أن يفرشوا تحته جلّ الدابة، ويبسطوا عليه الرماد، وصار يتمرغ عليه وقال: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه، ودخلوا على عتبة الغلام فى مرض موته فقالوا: كيف تجدك؟ فأنشد يقول:

خرجت من الدنيا وقامت قيامتى غداة يقل الحاملون جنازتى

وعجل أهلى حفر قبرى وصيروا خروجى وتعجيلى إليه كرامتى

كأنهم لم يعرفوا قط صورتى غداة أتى يومى على وليلتى

قال عمر بن عبد العزيز: ولما طعن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- دعا بلبن فشرب منه فخرج اللبن من طعنته فقال: الله أكبر فجعل جلساؤه يثنون عليه خيرًا، فقال: والله لوددت أنى خرجت من الدنيا كفافًا كما دخلت فيها، ولو كان إلى اليوم جميع ما طلعت عليه الشمس وما غربت لافتديت به من هول المطالع.

ولما حضرت الوفاة سلمان الفارسى بكى وقال: إن رسول الله -ﷺ- قد عهد إلينا وقال: «**ليكن بلغة أحدكم من الدنيا كزاد الراكب**»[1] وها أنا قد جمعت هذه الأمتعة وأشار إليها، فلما مات قوموها بخمسة عشر درهما، ولما حضرت إبراهيم النخعى الوفاة بكى، فقيل له فى ذلك فقال: إنى أنتظر رسولاً يأتينى من ربى لا أدرى هل يبشرنى بالجنة أو بالنار.

ولما حضرت محمد بن المنكدر الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال:

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٨) واللفظ له، والترمذى (٤/ ١٧٨٠) من حديث عائشة، وابن ماجه (٢/ ٤١٠٤) من حديث سلمان.
وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح سنن ابن ماجه (ح ٣٣١٢)، وصحيح الجامع (ح ٥٤٦٥).

أبكى على ذنوبى التى رأيتها فى عينى هينة، وهى عند الله عظيمة. ولما حضرت محمد بن سيرين الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكى على تفريطى فى الأيام الخالية، وإدخالى النار الحامية. ولما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة قال: اللهم إنى أذنبت فإن غفرت لى فقد مننت، وإن عذبتنى فقد عدلت، وما ظلمت، لكنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم قضى نحبه -رضي الله عنه-.

ولما حضرت عامر بن قيس الوفاة بكى وقال: إنى لم أبك جزعًا من الموت ولا حرصًا على الدنيا، ولكنى أبكى على عدم قضاء وطرى من طاعة ربى، وقيام الليل فى أيام الشتاء. ولما حضرت عبد الله بن المبارك الوفاة قال لغلامه: اجعل رأسى على التراب، فبكى الغلام. قال: ما يبكيك؟ قال: ذكرت ما كنت فيه من النعيم، وأنت هو ذا تموت على هذا الحال فقال: إنى سألت ربى أن أموت على هذا الحال ثم قال: لقِّنِّى يا أخى لا إله إلا الله إذا الحال تغير، ولا تعد على ذلك إلا إذا تكلمت بعده بكلام.

وكان عطاء بن يسار يقول: وقف إبليس تجاه أحمد بن حنبل وقال: يا أحمد خرجت من الدنيا وأنت آمن منى، فقال له: ما أمنتك بعد. ودخل الحسن البصرى على رجل وهو يجود بنفسه فقال: إن أمرًا هذا آخره لحقيق أن يزهد فى أوله، ولما حضرت أبا ذر الوفاة قال: يا موت اخنق وعجل فإنى أحب لقاء الله. ودخل أبو الدرداء على محتضر فوجده يقول: الحمد لله، فقال له: أصبت يا أخى إن الله إذا قضى أمرًا أحب من عبده أن يحمده عليه. ودخل سفيان الثورى على ولد يجود بنفسه وأبواه يبكيان عنده، فقال لهما: لا تبكيا فإنى قادم على من هو أرحم بى منكما.

ولما حضرت معاوية بن أبى سفيان الوفاة قال: اللهم ارحم الشيخ العاصى ذا القلب القاسى، اللهم أقل عثرتى، واغفر ذلتى، وعد بحلمك على جهل من لم يثق بأحد سواك، ولم يرج غيرك، ثم بكى حتى علا نحيبه. ولما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة نظر إلى أولاده وهم يبكون حوله فقال: قد جاد لكم هشام بالدنيا، وجدتم عليه بالبكاء وترك لكم ما

جمع، وتركتم عليه ما اجترم، فما أعظم منقلب هشام إن لم يغفر الله له. ولما حضرت أبا هريرة الوفاة بكى فقالوا له: ما يبكيك؟ فقال: بعد السفر، وقلة الزاد، وضعف اليقين، وخوف الوقوع من الصراط فى النار. انتهى.

فتأمل يا أخى نفسك فإنك محتضر على الدوام ليس فى يدك نفس واحد يطلع أو ينزل وأكثر من الاستغفار آناء الليل، وأطراف النهار، فإنك على شفا جرف هار، والله يتولى هداك وهو يتولى الصالحين، والحمد لله رب العالمين وعليه الاعتماد.

ومن أخلاقهم -رضي الله عنهم- كثرة الاعتبار والبكاء والاهتمام بأمر الموت إذا رأوا جنازة. وقد كان أبو هريرة -رضي الله عنه- إذا رأى أحدًا يحمل جنازة يقول لها: امض إلى ربك فإنا على أثرك ماضون.

وكان مكحول الدمشقى يقول إذا رأى جنازة: اغدوا فإنا رائحون موعظة بليغة قليلة، وغفلة شنيعة، يذهب الأول والآخر لم يعتبر، وكان يظل كأنه لا عقل له مدة أيام. وكان أسيد بن حضير يقول: ما حدثتنى نفسى قط عند رؤية الجنازة إلا بما للميت صائر إليه، وربما ترك الأكل والشرب أيامًا، وخرج مرة فى جنازة فلما أدخلوا الميت القبر غشى عليه فما رجعوا به إلى بيته إلا فى النعش. وخرج مالك بن دينار فى جنازة أخ له فبكى وقال: والله لا تقر عينى حتى أعلم ما صار عليه أخى. وكان الأعمش يقول: كنا نشهد الجنائز ولا نعرف من يعزى لأن الحزن قد عم الناس كلهم. وكان ثابت البنانى يقول: كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متلفعًا باكيًا. ومر إبراهيم الزيات على جماعة يترحمون على ميت، فقال لهم: خافوا على أنفسكم خير لكم، فإن ميتكم قد جاوز ثلاثًا، رؤية ملك الموت، وذوق مرارة الموت، وأمن من سوء الخاتمة.

وحضر عمرو بن ذر جنازة رجل كان مسرفًا على نفسه وتحاشى الناس أن يحضروا جنازته من شدة إسرافه، فلما أدلوه فى القبر قال له عمرو: رحمك الله يا فلان حييت على التوحيد، وعفرت وجهك بالتراب وإن كانوا قالوا عليك: إنك مذنب كثير الخطايا. فمن هو منا لم يذنب ولم يخطئ

فبكى من كان حامل النعش. فاعلم يا أخى ذلك واعتبر كما اعتبر هؤلاء، وأكثر من البكاء والنحيب. فإن بين يديك من الأهوال ما لا يوصف، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -ﷺ-: كثرة الحزن والهم كلما تذكروا الموت وسكراته وخوف سوء الخاتمة حتى تزلزل عقولهم من شدة الألم. وقد كان كعب الأحبار يقول: لما أتى البشير إلى يعقوب عليه السلام قال يعقوب: ما عندى شيء أكافئك به، ولكن هون الله عليك سكرات الموت.

قلت: قد تقدم عن بعضهم أنه كان يقول: لعلى أكره تخفيف طلوع روحى، وإنما أحب التشديد لأنه آخر عمل يثاب عليه المؤمن، فما هنا فى حق من يخاف عليه السخط إذا شدد الله عليه والله أعلم.

وكان يقول: مثل الموت كشجرة الشوك أدخلت فى جوف ابن آدم، فأخذت كل شوكة بعرق، ثم اجتذبها رجل شديد الجذب، فقطع ما قطع، وأبقى ما أبقى. وكان سلمان الفارسى يقول: إذا رشح جبين المؤمن عند الموت، وذرفت عيناه، وانتشر منخراه فهو فى رحمة الله قد نزل، وإذا غط غطيط المخنوق، وخمد لونه، وأزبدت شفتاه فهو فى عذاب الله قد نزل. وكان الحسن البصرى إذا حضر قبض روح أحد من إخوانه يمكث أيامًا لا يذوق طعامًا ولا شرابًا، إنما هو البكاء والنحيب، وكان يقول: ثلاثة لا ينبغى للمؤمن أن يتساهنّ: الدنيا وتصرم أحوالها والموت. وكان سفيان الثورى إذا ذكروا بين يديه الموت لا ينتفع به أحد أيامًا، وإذا سأله أحد عن شيء يقول: لا أدرى. وكان شقيق الزاهد يقول: قد خالف الناس فى السنة أمورًا: قالوا: إن الله تعالى تكفل بأرزاقنا، ثم لم تطمئن قلوبهم إلا بشيء يجمعونه عندهم وقالوا: إن الآخرة خير من الأولى، وتراهم يجمعون المال ولا ينفقونه، فكأنهم لم يدخلوا الدنيا إلا ليحملوا الذنوب، وقالوا: لا بد لنا من الموت وهم يعملون أعمال من ليس على باله موت. ولما حضرت الوفاة عطاء السلمى نظر إلى أصحابه وهم يدعون له بالتهوين فقال: كفوا عن الدعاء فوالله إنى أود أن روحى تتردّد بين لهاتى وحنجرتى إلى يوم القيامة خوفًا مما

أهجم عليه بعد الموت. وكان يقول: من أراد أن ينظر إلى الأرض بعد أهلها، فلنيظر إلى منازل الحجاج حين يرتحلون عنها، وأنشد أبو العتاهية:

نفنى وتبقى الأرض بعد كمثل ما ... يبقى المناخ وترحل الركبان

وكان الحسن بن عمران يقول: الموت أشد من نشر المناشير، ومن طبخ القدور، ولو أن ألم شعرة واحدة من الميت وضع على أهل الدنيا لوجدوا من ذلك ألمًا يشغلهم عن الأكل والشرب. ومرّ الحسن بن علي -رضي الله عنهما- على باب دار فقال: ما لي أرى هذه الدار ساكتة بعد أن كانت ناطقة؟ فأجابته امرأة من وراء الباب: قد صار أهلها يتامى وأيامى، فبكى الحسن حتى بل حليته. ولما طعن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قالوا له: إنا لنرجو أن لا تمسك النار، فقال: والله إنكم لجاهلون إني لأخشى أن أصير فحمة من فحم جهنم. ودخل عليه جماعة وهو مطعون قالوا له: استخلف ولدك عبد الله بعدك فإنه عبد صالح، فقال: -رضي الله عنه- أما يكفي من آل الخطاب واحد يأتي يوم القيامة ويداه مغلولتان إلى عنقه.

وكان ابن أبي مليكة يقول: لما قبض الخليل عليه الصلاة والسلام رآه بعض ولده فقال: يا أبتِ كيف وجدت الموت؟ فقال إبراهيم عليه السلام: وجدت نفسي كأنها تنزع بالسلاسل وقد سألني ربي عن ذلك فأجبته بهذا، فقال الله تعالى: أما أنا قد هوّناه عليك. وكان ابن عباس يقول: لما جاء ملك الموت إلى موسى عليه الصلاة والسلام ليقبض روحه قال: يا موسى أشربت خمرًا اليوم؟ فقال: سُبحان الله إني صائم، فاستنكهه فقبض روحه في نكهته، فقيل له بعد موته: كيف وجدت الموت يا موسى؟ فقال: كشاة يسلخ جلدها وهي حية[1]، وكان الربيع بن خيثم يقول: تمنوا الموت في هذه الدار جهدكم قبل أن تصيروا إلى دار تتمنون الموت فيها، فلا تجابون يعني النار. وكان ابن سيرين إذا ذكروا الموت عنده مات كل عضو منه.

(١) كل هذه الأخبار من الإسرائيليات التي أذن لنا الرسول الكريم -ﷺ- في التحدث بها ولكن بدون أن تصدق أو تكذب.

وكان كعب الأحبار يقول: لما أحيا عيسى بن مريم سام بن نوح قال له عيسى: مذ كم أنت ميت؟ قال: منذ أربعة آلاف سنة. قال: كيف وجدت الموت؟ قال: إلى الآن لم تذهب عني سكرته ولا حرارته. وقيل لرابعة العدوية: أتحبين الموت؟ فقالت: لو عصيت آدميًا ما أحببت لقاءه خجلاً منه، فكيف وقدعصيت ربي عز وجل.

وسمع يحيى بن معاذ نائحة في دار رجل من الأغنياء فقال: ويح المغترين في الدنيا إلى متى يسمعون صيحة الآخرة في دورهم فلا يتنهون. وكان حامد اللفاف يقول: من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة النفس، والنشاط في العبادة وقال وهب بن منبه: لما مات موسى عليه الصلاة والسلام جاءت الملائكة في السموات بعضهم إلى بعض واضعي أيديهم على خدودهم وهم يقولون: مات موسى كليم الله فأي الخلق لا يموت. وكان ﷺ يقول: لا يموت عبد حتى يرى الملكين الكاتبين، فإن كان صحبهما بخير قالا له: جزاك الله من صاحب خير، فنعم الصاحب كنت، فكم أحضرتنا معك في مجالس الخير، وكم شممنا منك الروائح الطيبة حال طاعتك الخالصة، وإن كان قد صحبهما بسوء قالا له: لا جزاك الله عنا من صاحب خيرًا، فكم أحضرتنا معك حال معاصيك، وكم شممنا منك رائحة النتن. وكان ﷺ يقول: لا يقدر على رضا الله إلا من يعلم أن الله تعالى يراه على الدوام.

قلت: قد ذكر المحققون أن مراقبة الله تعالى مع الأنفاس ليست من مقدور البشر، فليتأمل ماهنا. وكان سفيان الثوري يقول: ما استعد للموت من ظن أنه يعيش غدًا، وكان يقول: الطاعات تتفرع عن ذكر الموت. والمعاصي تتفرع من نسيانه.

فاعلم يا أخي ذلك، وعليك بالوحدة، ومجالسة العباد والزهاد والعلماء العاملين، وإياك ومجالسة الغافلين والراغبين، فإن مخالطتهم ظلمة على القلب، وحجاب عن شهود أهوال يوم القيامة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله عنهم-: النظر إلى الدنيا بعين الاعتبار لا بعين المحبة لها وشهواتها كما قد درج عليه جمهور السلف الصالح -رضي الله عنهم- وقد جاء سعد ابن أبى وقاص يومًا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال له: «**أين كنت يا سعد؟ فقال: كنت عند قوم فى البادية همتهم لذات بطونهم وفروجهم، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ألا أخبرك بما هو أعجب من ذلك؟ فقال: بلي، فقال: من عرف مثل هذا الذى أنكر عليهم، ثم فعل كفعلهم**».

وكان سفيان الثورى -رضي الله عنه- يقول: من أعمل الفكرة والعبرة فى الدنيا لم ينقص له عمل صالح. وقيل لحاتم الأصم: متى يكون أحدنا من أهل الاعتبار فى الدنيا؟ فقال: إذا رأى كل شىء فى الدنيا عاقبته إلى الخراب، وصاحبه يذهب إلى التراب، وكان يحيى بن معاذ يقول: ليكن نظرك إلى الدنيا اعتباراً، وسعيك لها اضطراراً، ورفضك لها اختياراً. وكان حاتم الأصم يقول: من خرجت من داره جنازة ولم يعتبر لها لم ينفعه علم ولا حكمة ولا موعظة. وكان أحمد بن حرب يقول: تعجب الأرض من رجلين: ممن يمهد مضجعه للنوم ويوطئ فراشه، تقول له الأرض: يابن آدم لم لا تذكر طول بلاك فىَّ بلا فراش، وتعجب ممن تشاجر مع أخيه فى قطعة منها تقول له الأرض: لم لا تتفكر فى أربابها قبلك فكم مضى من الناس رجل ملكها ولم يقم فيها.

وكان مالك بن دينار يقول: كل من لم يعتبر ببصره وبصيرته من هذه الدار إلى الدار الآخرة فهو محجوب القلب قليل العمل. وقال إبراهيم بن أدهم: كان إبراهيم التيمى يبول فى صحن داره، فخرج ليلاً من حجرته ليبول فيه فلم يزل شاخصًا إلى الصباح، فقيل له فى ذلك، فقال: لما أردت أن أبول تذكرت أهل النار وما هم فيه لم يزالوا يعرضون علىَّ بسلاسلهم وقيودهم إلى الصباح فلم يأخذنى نوم.

وكانت فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز تقول: والله ما سم عمر ولا قتل كما قيل، وإنما مات فى خشية الله، وخوف النار، وكان ثابت البنانى يقول: مر داود عليه السلام بتنور يوقد، فتذكر النار الكبرى، فاضطرب

وصعق وكادت تخلص أعضاؤه وأوصاله، وكانوا يشدونها بالحبال حتى يقدر على أن يحركها فلا تزال كذلك مشدودة أيامًا. وكان يقول في أيام الحر: إلهي لا صبر لنا على حر شمسك فكيف نصبرعلى حر نارك؟ وكان يزيد بن مرثد لا يزال عيناه تهملان بالدموع، فقيل له في ذلك، فقال: لو أذن الله تعالى على أن يدخلني في ماء الحمام إن عصيته لكان يحق لي أن أبكي الدم، فكيف وقد وعد من عصاه أن يحرقه بالنار.

ومر عيسى عليه الصلاة والسلم على مقبرة فسمع قائلاً يقول: كم من بدن صحيح، ووجه مليح، ولسان فصيح بين أطباق الثرى يصيح. وكان أحمد بن حرب يقول: ما رأيت أسخف من عقولنا نؤثر الظل على الشمس ولا نؤثر الجنة على النار، فاعلم يا أخي، واجعل نظرك للوجود عبرة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -ﷺ-: تحذيرهم للناس أن يتبعوهم على أفعالهم الرديئة نصحًا للعباد في حياتهم، وبعد مماتهم لئلا يلحقهم الإثم بسبب من اتبعهم على تلك الصفات الرديئة التي ربما تقع منهم في غفلة أو سهو. وقد بلغنا أن السيل كشف عن قبر أيام إسكندر ذي القرنين من ذهب طوله عشرة أذرع وعرضه كذلك، فكشفوا الغطاء فإذا في ذلك القبر شخص نائم على سرير قوائمه من ذهب، وهو مغطى بالحرير، وفي عنقه لوح من زبرجد مكتوب فيه اسم واجب الوجود وعلة العلل، كل ماله ابتداء فله انتهاء، قد ملكت الربع المسكون من الدنيا ألف سنة ويلغ خراجي كل يوم زنة قبري هذا ذهبًا، وسخر لي الشمس والقمر والأفلاك، وأطاعني الريح والماء والنار والحديد، ثم صعدت إلى الجو العلوي، وتركت هذا الجسد بينكم يتلاشى ليعتبر به من بعدي، فلا مخلوق إلا سيفني، والباقي الله رب العالمين، ذكره الغزالي.

ففي ذلك تحذير هذا الملك للناس من أن يتبعوه في الغفلة عن الموت اشتغالاً بالدنيا: وكان وهب بن منبه يقول: دخل داود عليه السلام غاراً من أغوار بيت المقدس فإذا فيه سرير عليه رجل ميت، وعند رأسه لوح مكتوب

فيه: «أنا فلان الملك» ملكت الدنيا ألف عام، وتزوجت ألف بكر، وبنيت ألف مدينة، وهزمت ألف جيش، وهذا مصرعي فاعتبروا بي يا أهل الدنيا.

وكان الفضيل بن عياض يقول: كم أراد عدو الإنسان أن يضره، فيصرفه الله عنه، ولا يشعر ثم يقرأ قوله تعالى: ﴿**اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ**﴾ [المائدة:١١]، وكان أنس بن مالك يقول: لا تذهب الأيام والليالي حتى يكون سماع الشعر أحب إلى الناس من سماع القرآن. وكان يحيى بن معاذ يقول: عجبت من أقوام يعيبون على الصالحين المباح، ولم يعيبوا على أنفسهم الذنوب القباح، فترى أحدهم يقع في الغيبة والنميمة والحسد والحقد والغل والكبر والعجب، ولا يستغفر من ذلك، ثم ينكر على الصالحين لبس أحدهم الثوب المباح، أو أكل الحلاوة أو السكر المباح. وكان أبو حمزة البغدادي يقول: لا تنظروا لشكر العامة في العلماء إذا ماتوا، ولكن انظروا إلى شكر الزهاد والعباد لهم.

وقال صالح المري يومًا: من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له، فقالت امرأة: وهل أغلق بابه تعالى قط؟ فقال صالح: امرأة عقلت، وشيخ جهل. وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: لا يسب النبي والصالح إلا أهل مدينته أوجيرانه لأنه ينصحهم فيكرهونه ويسبونه. وكان يحيى بن معاذ يقول: إذا رأيت العالم في مكان من الأماكن التي تزري به فلا تعجل باللوم عليه، فربما كان أحذر منك في حضوره، وأقل لومًا منك على لومك.

قلت: وسيأتي في هذا الكتاب أن من الصالحين من لا يفارق مواضع المعاصي يشفع في أهلها، ويحوطهم من أن ينزل عليهم بلاء، ولا ينبغي المبادرة بالإنكار عليه إلا بعد الفحص عن حاله، والله أعلم.

وكان يحيى بن معاذ يقول: إذا صادفت النفس مالاً فقد صادف الذئب غنمًا في البرية، وكان أبو الدرداء يقول: لا تجعلوا عبادته تعالى بلاء عليكم فقيل: كيف ذلك؟ قال: يوقف أحدكم على نفسه العمل ثم لا يفي به. وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: كل كلام الله يرجع معناه إلى أن

الآخرة خير من الأولى، ولا ينبغي لأحد أن يشك في ذلك. قال: وكان حاتم الأصم يقول: من أحب الدرهم لذاته فقد أحبه للآخرة.

فاعلم ذلك يا أخي وقل: اللهم لا تجعلنا عبرة لغيرنا، وبصرنا بعيوبنا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -ﷺ-: رؤيتهم نفوسهم أنهم من أفسق الناس، وأن مثلهم لا يستحق أن يجيب الله له دعاء، ولذلك كان أحدهم يمتنع من أن يخرج مع الناس للاستسقاء ودفع الوباء.

وقد كان سعيد بن جُبير يقول: قحط الناس في زمن ملك من ملوك بني إسرائيل فاستسقوا، فلم يسقوا فقال الملك: إن لم يرسل اللهعلينا السماء وإلا آذيته. قيل: كيف تقدر أن تؤذيه وهو الحق تعالى مستحيل عليه أن يكون في السماء لأنه تعالى منزه عن المكان والزمان[1]. قال: أقتل أولياءه وأهل طاعته، فيكون ذلك له أذى، فأرسل الله تعالى عليهم السماء فضلاً منه وحلمًا. وقالوا لمالك بن دينار: ألا تخرج معنا للاستسقاء فقال: أخاف أن تمطر عليكم حجارة لأجلي، وكان يقول: إنكم تستبطئون المطر، وأنا أستبطئ الحجر.

وكان وهب بن منبه يقول: خرج عيسى -عليه السلام- يستسقي، فخرج فضجر ولم يسق، فقال: من أذنب منكم ذنبًا فليرجع فرجع الناس كلهم إلا واحدًا فقال له: أما لك ذنب، فقال: نعم. نظرت مرة إلى امرأة فلما ولت أدخلتُ أصبعي في عيني هذه فقلعتها، فقال له عيسى -عليه السلام-: فادع الله للقوم فدعا فجللت السماء لوقتها وأمطروا.

وخرج موسى -عليه السلام- ثلاثة أيام يستسقي فلم يسق، فأوحى الله إليه: إن فيكم رجلاً نمامًا فلا أستجيب لكم وهو فيكم، فقال موسى: يا رب من

---

(١) قلت: بل الله عز وجل في السماء كما ثبت ذلك في القرآن والسنة، وقد ذكر الإمام ابن القيم في كتابة الرائع «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» الأدلة على ذلك، فانظرها.

هو حتى نخرجه من بيننا؟ فقال: يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نمامًا؟ فقال موسى -عليه السلام-: توبوا كلكم عن النميمة، فتابوا فسقوا في الساعة، وكان سفيان الثوري يقول: قحط بنو إسرائيل سبع سنين حتى أكلوا الميتة والأطفال، فكانوا يخرجون إلى الجبال ويتضرعون فلا يجابون، فأوحى الله إلى موسى: أن قُل لهم لو عبدتموني حتى صرتم كالسوط البالي ما قبلت لكم دعاء حتى تردوا المظالم إلى أهلها. وأصاب بني إسرائيل مرة أخرى قحط فاستسقوا فلم يسقوا فأوحى الله تعالى إلى موسى -عليه السلام-: كيف أستجيب لهم وقد خرجوا بأبدان نجسة، ورفعوا إلى أكفًا قد أكلوا بها الحرام حتى ملئوا بطونهم فلا يزدادون مني إلى بعدًا وقحطًا، فليتوبوا وأنا أرفع عنهم القحط.

وقحطوا مرة أخرى حتى أكلوا الكلاب والميتة وكانوا يستسقون فلا يسقون، فأوحى الله تعالى إلى موسى: قل لهم: لو مشيتم بأقدامكم حتى تجثوا على ركبكم ويبلغ عملكم عنان السماء، وتكلّ ألسنتكم من الدعاء، فإني لا أجيب لكم داعيًا، ولا أرحم فيكم باكيًا حتى تردوا المظالم لأهلها، فقال موسى لهم ذلك فقالوا: نحن لا نحصى عدد المظالم حتى نردها، فماتوا عطشًا وجوعًا.

فانظر يا أخي إلى كثرة اتهام السلف أنفسهم، وإياكم والمبادرة إلى الخروج إلى الاستسقاء إلا إن كنت تظن أن الله غفر لك ذنوبك كلها، فإن لم تظن ذلك فتربص، ثم تب إلى الله تعالى واخرج، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله عنهم-: كثرة العفو والصفح عن كل من أذاهم بضرب أو أخذ مال، أو وقوع في عرض، أو نحو ذلك تخلقًا بأخلاق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فإنه -صلى الله عليه وسلم- كان لا ينتقم لنفسه، وإنما ينتقم إذا انتهكت حرمات الله.

وكان جعفر بن محمد يقول: لأن أندم على العفو أحب إلى من أندم على العقوبة. وكان حاتم الأصم يقول: من عدم إنصافك أن تبغض الناس إذا

عصوا ربهم، ولا تبغض نفسك إذا عصيت ربها. قلت: المراد ببغض الإنسان نفسه معاقبتها بالجوع والعطش، وعدم النوم على فراش ونحو ذلك فيعاملها معاملة الشخص لمن يكره بالغضب، وعدم الشفقة لا كمعاملة المحب لمحبوبه. وقد قال الشيخ أبو يزيد البسطامى -رضي الله عنه-: دعوت نفسي إلى العبادة مرة فأبت، فعاقبتها فمنعتها الماء[1] سنة، وكان المدايني يقول: أقبح المكافأة المجازاة بالإساءة، وكان التيمي يقول: كثرة الاحتمال تورث المحبة. قال: أدخلوا على ابن الزبير رجلاً: قد أحدث أى أذنب فدعا بالسياط ليضربه، فقال له الرجل: أسألك بمن تكون يوم القيامة بين يديه أذل مني بين يديك إلا عفوت عني، فنزل ابن الزبير عن سريره، وألصق خده بالأرض، وقال: قد عفوت. قلت: ولعل تركه للتأديب على من أقسم عليه لعذر شرعي كأن خاف من إقامته مفسدة أعظم من إقامته التأديب عليه والله أعلم.

وسُئل قتادة: من أعظم الناس قدراً؟ قال: أكثرهم عفواً.

وسرقت امرأة مصحف مالك بن دينار وملحفته فجعل يتبعها: أنا مالك خذى الملحفة وهاتي المصحف لا تخافي. وكان أبو سعيد المقبرى يقول: من تمام العفو ترك مكافأة الظالم والترحم عليه، وكثرة سؤال الله أن يعفو عنه. ولما ضرب الإمام مالك جعل ضاربه في حل من أول سوط ضربه به. وكذلك بلغنا عن الإمام أحمد لما ضرب، وكان يقول: وماذا على رجل أن لا يعذب الله أحداً بسببه. وكان كعب الأحبار يقول: من صبر على أذى امرأته أعطاه الله من الأجر ما أعطى أيوب عليه السلام، ومن صبرت على أذى زوجها لها أعطاها الله تعالى من الأجر مثل ما أعطى آسية بنت مُزاحم -رضي الله عنها- وسيأتي أواخر هذا الكتاب بسط الكلام على هذا الخلق إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) هذا الفعل ليس عليه دليل من كتاب ولا سنة، بل النبي -ﷺ- لما دخل المسجد وشاهد حبلاً ممدوداً بين ساريتين فقال: «ما هذا؟» قالوا: لزينب تصلي، فإذا كسلت أو فترت أمسكت به، فقال: «حلوه، ليُصَلِّ أحدكم نشاطه. فإذا كَسِلَ أو فتر قعد».

ومن أخلاقهم -رضي الله عنهم-: كثرة تعظيمهم حرمة المسلمين، ومحبة الخير لهم لأنها من جملة شعائر الله تعالى. وقد كان أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- يقول: لا يحقرن أحد أحدًا من المسلمين، فإن صغير المسلمين عند الله كبير.

وكان عبد الله بن عباس يقول: أفضل الحسنات إكرام الجليس، وكان ينظر إلى الكعبة ويقول: إن الله حرمك وشرفك وكرمك والمؤمن أعظم حرمة عند الله تعالى منك. وكان عكرمة -رضي الله عنه- يقول: إياكم أن تؤذوا أحداً من العلماء، فإن من آذى عالمًا فقد آذى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. وكان أبو هريرة -رضي الله عنه- يقول: المومن أكرم على الله تعالى من بعض الملائكة الذين عنده. وقيل لحاتم الأصم: لم كانت يد السارق المسلم تقطع في خمسة دراهم مع أن ديتها خمسمائة دينار؟ فقال: لهتكه الستر، وفعله الجور، وتركه الحرمة. فتأمل يا أخي في نفسك هل عظمت حرمات المسلمين فضلاً عن العلماء الصالحين، كما ذكرنا أم احتقرتهم، ووقعت في أعراضهم، وصرت من الفاسقين بذلك فاستغفر الله.

ومن أخلاقهم -رضي الله عنهم-: صبرهم على أذى زوجاتهم، وشهودهم أن كل ما بدا من زوجة أحدهم من المخالفات له صورة معاملته لربه: فلما خالف ربه كذلك خالفته زوجته وهي قاعدة أكثرية لا كلية، فخرج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من ذلك لعصمتهم. وكان عوام السلف إذا لم يشهدوا ما ذكرناه صبروا على أذاها لشهودهم أن نفعها أكثر من ضررها. وكانوا -رضي الله عنهم- يؤدون إلى المرأة حقها على الكمال ولا يمنعهم مخالفتها لهم عن ذلك عملاً بنحو حديث: «**أد الأمانة لمن ائتمنك، ولا تخن من خانك**»[1]، وإن كان كل من الزوجين الحق للآخر كما هو مقرر في كتب الحديث والفقه، وتقدم في الخلق قبله قول كعب الأحبار: من صبر على أذى زوجته له أعطاه من الأجر ما أعطى أيوب -عليه السلام-.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (ح ٣٥٣٥) في الإجارة، باب: في الرجل يأخذ حقه من تحت يده.

وكان على بن أبى طالب -كرم الله وجهه- يقول: من جهاد المرأة حسن التبتل لزوجها. وكان الحسن البصرى يقول: أربعة من الشقاء: كثرة العيال، وقلة المال، وجار السوء فى دار الإقامة، وزوجة تخون زوجها. وكان سفيان الثورى يقول: من تزوج فقد أدخل الدنيا بيته، ومن أدخل الدنيا بيته فقد تزوج ابنة إبليس، ومن تزوج ابنة إبليس أكثر إبليس التردد إلى بيته لأجل ابنته، فاحذروا من التزويج، قلت : كلام سفيان -رحمه الله- فى حق من تزوج بغير نية صالحة، فإن فى الحديث: «**من تزوج لله كفى ووقي**»[1] لا بد من هذا الحمل ليخرج من تزوج من الأنبياء والمحفوظين والأولياء والله أعلم.

وفي الحديث: «لولا أن الله ستر المرأة بالحياء لكانت لا تساوى كفًا من تراب»، وكان على بن أبى طالب يقول: من سعادة المرء خمسة أشياء: أن تكون زوجته موافقة، وأولاده أبرارًا، وإخوانه أتقياء، وجيرانه صالحين، ورزقه فى بلده. وقد كان -ﷺ- يقول: «**اللهم إنى أعوذ بك من صاحب غفلة، ومن جار سوء، ومن زوج يؤذى**»[2]، ولما ماتت زوجة مالك بن دينار لم يتزوج بعدها، وكان يقول: لو أنى قدرت على طلاق نفسى لطلقتها، وكان أحمد بن حرب يقول: إذا اجتمع فى المرأة ست خصال فقد كمل صلاحها: المحافظة على الخمس، وطواعية زوجها، ومرضاة ربها، وحفظ لسانها من الغيبة والنميمة، وزهدها فى متاع الدنيا، وصبرها عند المصيبة.

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، ولكن أخرجه الطبرانى فى الأوسط (ح ٨٧٨٩، ٧٦٤٣) بلفظ «من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله فى شطره الثانى» وحسنه الشيخ الألبانى فى الصحيحة (ح ٦٢٥).

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، ولكن أخرج الطبرانى عن عقبة بن عامر أنه قال: قال رسول الله -ﷺ-: «اللهم إنى أعوذ بك من يوم السوء، ومن ليلة السوء، ومن صاحب السوء، ومن جار بالسوء فى دار المقامة» وقد حسنه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع (ح ١٢٩٩).

وكان عبد الله بن المبارك يقـول: من فتنة النساء التي حذر النبي -ﷺ- منهـا، أنهن يدخلن على الأزواج القطيعـة للقرابـة، ويحوجـونهم لأدنى المكاسب الزائدة على فتـنة الشهوة والميل. وكان حـاتم الأصم يقول: المرأة الصـالحة عـماد الدين، وعـمارة البـيت، وعون على الطاعـة، والمرأة المخالفة تذيب قلب صاحبها، وهي ضـاحكة. وكان عبد الله بن عمر يقول: علامـة كون المرأة من أهل النـار أن تضحك لزوجـها إذا أقبل، وتـخونه إذا أدبر. وكان شقيق البلخي يقـول لامرأته: لو كان أهل بلخ كلهم معي وأنت عليّ ما قدرت على حفظ ديني.

وكان المدايـنـي يقول: شكا نبي من الأنبـياء إلى ربه سوء خـلق امرأته فأوحى الله إليه: إني جـعلت ذلك حظك من العقاب. وكـان عبد الملك بن عُمير يقـول: إذا طعنت المرأة في السن تعقم رحمها، واخـتل لسانها، وساء خلقهـا، وإذا طعن الرجل في السن استجمع رأيه، وذهبت حـدته، وحسن خلقه. وكان حاتم الأصـم يقول: من علامة المرأة الصالحة أن يكون حـسبها مخافة الله، وغناها القناعة بقسمة الله، وحـليها السخاوة بما تملك، وعبادتها حسن خدمة الزوج، وهمتهـا إلى استعداد الموت. وكان يقول: كن مع زوج ابنتك أو أختك تقم دينها بذلك، ولا تكن مع ابنـتك أو أختك على زوجها تفسد عليها دينها. وشكا أبو مُطيع البلخي إلى أيوب بن خلف زوجته، فقال له أيوب: من لم يصـبر على أذى زوجـته كيف يـدعي أن له درجة عليـها. وكان حـاتم الأصم في بيتـه كالدابة المـربوطة إن قدمـوا له شيئًـا أكل، وإلا سكت وطوى. وفي الحديث: «**المرأة الفاجرة كـألف فاجر**». وكان إياس بن معاوية يقول: اثنان لا أدري لهما دواء: حاقن البول، والمرأة السوء، وسيأتي بسط هذا الخلق في مـواضع من هذا الكتاب إن شـاء الله تعالـى. وقد درج السلف كلهم على الصبر على الزوجة وعدم مقـابلتها أو أدبها إلا لمصلحتها، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا به.

ومن أخلاقهم -ﷺ-: ترك طلب الرياسة حتى تفجأهم، وتقدمهم الناس على أنفسهم ويصيـر أحدهم يقول: ما أنا بأهل للإمامة مثـلاً، فيقول

الناس له: بل أنت أهل لذلك وزيادة. وقد كان سفيان الثورى -رضي الله عنه- يقول: من طلب الرياسة قبل مجيئها فرت منه وفاته علم كثير. وكان يقول: لا يطلب أحدكم الرياسة إلا بعد مجاهدة نفسه سبعين سنة.

وكان عيسى - عليه الصلاة والسلام - يقول: إذا جعلكم الناس رءوسًا فكونوا أذنابًا. وكان حجاج بن أرطأة يقول: قد قتلنى طلب الرياسة وحبها. وكان الأنطاكى يقول: الرياسة رأس حب الرياء، ومعشوق النفس، وقرة العين للشيطان، وكان إبراهيم بن أدهم يقول: كونوا أذنابًا ولا تكونوا رءوسًا فإن الذنب ينجو والرأس يهلك.

وكان الفضيل بن عياض يقول: ما أحب أحد الرياسة إلا أحب ذكر الناس بالنقائص والعيوب ليتميز هو بالكمال، ويكره أن يذكر الناس أحدًا عنده بخير. ومن عشق الرياسة فقد تودع من صلاحه. وكان سفيان الثورى يقول: ترك الرياسة، وترك محبة المرأة أمر من الصبر. وكان ميمون بن مهران يقول: إياكم أن تدعوا أحدًا يمشى معكم أو فى ركابكم إذا ركبتم لقضاء حاجة فإن ذلك معدود من الفتنة للمتبوع والمذلة للتابع. قال: وأول من مشى معه الرجال يشيعونه من المسجد إلى الدار الأشعث بن قيس، فكان يركب والغلمان بين يديه، فقال الناس: قاتله الله من جبار. فإياك يا أخى، وحب الرياسة فى شىء من أمور الدنيا أو ما يئول إليها، وسيأتى بسط ذلك فى مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله عنهم-: نصح بعضهم بعضًا، فكان الكبير لا يتكدر من نصح الصغير له وبالعكس، وهذا بخلاف ما عليه أهل الرعونات اليوم، وقد نصحت أنا مرة، شيخًا من مشايخ هذا الزمان فهجرنى إلى أن مات، وكان أنس بن مالك -رضي الله عنه- يقول: ما من شىء أحب إلى الله من شاب ينصح شيخًا، وشيخ ينصح شابًا، وبذلك صار الشاب التائب حبيب الله، وقال -صلى الله عليه وسلم-: **«أوصيكم بالشباب خيرًا فإنهم أرق أفئدة ألا وإن الله تعالى أرسلنى شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا فجالسنى الشباب وخالفنى الشيوخ»** وأنشدوا فى ذلك.

إن الغصون إذا لاينتها اعتدلت ولـن يـلين إذا لاينتـه الخشـب

قال أنس: وكان الشباب على عهد رسول الله -ﷺ- لا يتعبدون إلا قليلاً، فلما توفى رسول الله -ﷺ- زادوا فى العبادة، وقالوا: إنا كنا فى أمان من نزول العذاب بنا فى حياة رسول لله -ﷺ-، فلما مات رسول الله -ﷺ- ذهب ذلك الأمان. وكان أحمد بن حرب يقول: ينبغي للرجل أن يرتدع عن اللهو والمعاصى إذا بلغ الأربعين سنة، وإذا طلع الشيب فى رأسه، وإذا حج إلى بيت الله الحرام، وإذا تزوج فإن الزنا بعد التزويج أقبح من كل قبيح: قلت: والمعنى أن ما ذكر يشتد قبحه على من تخلق بهذه الصفات لا أنها كانت مباحة لمن يبلغ الأربعين نظير ما قالوا يستحب للصائم ترك الغيبة، وكان يحيى بن معاذ يقول: ما أمر الإنسان في هذه الدار ولو طال إلا كنفس واحد من جنب عيش الجنة، ومن ضيع نفسًا واحدًا يعيش به عيش الأبد إنه والله من الخاسرين.

وكان كعب الأحبار يقول: الشاب المتعبد أحبّ إلى الله من الشيخ المتعبد، ومرّ رجل على حُذيفة بن اليمان وحوله فتيان جلوس، فقال: ما لهؤلاء الأحداث حولك؟ فقال: وهل الخير إلا في الشباب أما سمعت قول الله تعالى: ﴿**قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ**﴾ [الأنبياء: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**﴾ [الكهف: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿**قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا**﴾ [الكهف: ٦٢]، وإن الله لم يبعث نبيًا إلا وهو شاب. وفى الزبور: ما بلغ أحد سبعين سنة إلا اشتكى من غير علة. وكان محمد بن حسان يقول: لا تطلب من نفسك العمل فى هذه السنة مثل عملها فى السنة التى قبلها، لأن الإنسان كل يوم فى نقص.

وقد قيل لشيخ: كيف حالك؟ فقال: صار يسبقنى من هو معى، ويدركنى من هو خلفى، وصرت أنسى كل شيء سمعته من الخير، وصرت إذا قمت دنت منى الأرض، وإذا قعدت تباعدت، وصرت أبصر الواحد اثنين واسود منى ما كنت أحب أنه أبيض، وابيض منى ما كنت أحب أنه

يسودّ، واشتد منى ما كنت أحب أنه يلين، ولان منى ما كنت أحب أنه يشتد. انتهى.

فتأمل يا أخى ما ذكرته لك واستغنم شبابك، ورقع مشيبك بكثرة الاستغفار، فلعلك تجبر ما انصدع من دينك، والحمدلله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله عنهم-: حسن أدبهم مع الصغير فضلاً عن الكبير، ومع البعيد فضلاً عن القريب، ومع الجاهل فضلاً عن العالم، وقد قال تعالى لموسى وهارون: ﴿**فقولا له قولا لينا**﴾ [طه:٤٤]، مع أن فرعون كان من أفسق الكفار. وأجمعوا على أن علو الدرجات إنما يكون بزيادة الأدب، والأصل فى الأدب شهوة النقص فى أنفسهم، والكمال فى غيرهم عكس من كان قليل الأدب. وقد كان -ﷺ- يكره الرجل أن يحد النظر إلى أخيه. وكان ميمون بن مهران إذا دعى إلى وليمة جلس مع الصبيان والمساكين من الرجال، وترك الأغنياء وكان سعيد بن عامر يقول: من وصف إنسانًا بما ليس فيه لعنته الملائكة، فقال له رجل يومًا وهو لا يعرفه: يا أصلع، فقال له: يا أخى إن كنت لغنيًا عن لعن الملائكة لك. وكان على بن أبى طالب -رضي الله عنه- يقول: أعلم الناس بالله أشدهم تعظيمًا لأهل لا إله إلا الله، وكان بكر بن عبد الله المزنى يقول: إذا رأيت من هو أكبر منك فعظمه وقل: إنه سبقنى إلى الإسلام والعمل الصالح، وإذا رأيت من هو أصغر منك فعظمه، وقل فى نفسك: إنى قد سبقته إلى الذنوب، وإذا كرمك الناس فقل: هذا من فضل الله علىّ لا أستحقه، وإذا أهانوك فقل: هذا بذنب أحدثته، وإذا رميت كلب جارك بحصاة فقد آذيته.

وكان وهب بن منبه يقول: لما أكثر بنو إسرائيل المسائل على موسى - عليه الصلاة والسلام - وأبرموه أوحى الله تعالى فى يوم واحد إلى ألف نبى ليكونوا أعوانًا له تكرمة لموسى، فمال الناس إليهم، فوجد موسى من نفسه غيرة، فأماتهم الله فى يوم واحد، قلت: غيرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام محمودة لخروجهم من حظ النفوس بالعصمة، وليست إماتة الله تعالى لهؤلاء الأنبياء عقوبة، وإنما ذلك لما سبق فى علمه تعالى فى انتهاء

آجالهم بعد معاونتهم لموسى عليه الصلاة والسلام. وكان محمد بن واسع يقول: لا يبلغ العبد مقام الإحسان حتى يحسن إلى كل من صحبه ولو ساعة، وكان إذا باع شاة يوصى بها المشترى، ويقول: قد كان لها معنا صحبة. وكان حاتم الأصم يقول: قد قلت أخلاق الرجال فى ثلاث: تعظيم أخلاق الإخوان، وستر معايبهم، واحتمال أذاهم.

وكان يحيى بن معاذ يقول: بئس القوم قوم إن استغنى بينهم المؤمن حمدوه، وإن افتقر أذلوه، وما مشى صغير قدام كبير إلا عوقب بحرمان الخيرات. ومدحوا عند الفضيل بن عياض رجلاً وقالوا له: إنه لا يأكل الخبيص، فقال: وما ترك آكل الخبيص؟ انظروا كيف صلته الرحم، انظروا كيف كظمه الغيظ، انظروا كيف عطفه على الجار والأرملة واليتيم، انظروا كيف حسن خلقه مع إخوانه؟ وكان أحمد بن حرب يقول: مثل الذى يعلم الناس الخير ويرشدهم إليه مثل من استأجر أجراء يعملون له بأبدانهم وأموالهم الليل والنهار فى حياته وبعد مماته.

وسمع يحيى بن معاذ رجلاً يتمنى مالاً، فقال له: ماذا تصنع به؟ فقال: أجود به على المقلين، فقال: دع المقلين تكون مؤنتهم على الله النصير تحبهم، فإنهم إذا صارت مؤنتهم عليك أبغضتهم، وثقلوا على قلبك. وكان يقول: من تعظيم أخيك المسلم إذا مات له ميت فى بلد أخرى أن تسافر إلى تعزيته وخرج أبو معاوية الأسود من الشام إلى مكة ليعزى الفضل فى ولده على، ولم يخرج لحج ولا عمرة، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول: من سره أن يظله الله تعالى من نار جهنم يوم القيامة، فليكن بالمؤمن رحيمًا رفيق القلب. وكان محمد بن المنكدر يقوم الليل، وإذا طلبت أمه أنه يغمز رجلها إلى الصباح يرى ذلك أفضل من صلاته. قلت: وقد قالوا مثل ذلك فى حق شيخ الإنسان، وكان كهمش بن الحسن يقول: كنت أخدم أمى، وأرفع القذر من تحتها، فأرسل إلى سليمان بن على بصرة وقال: اشتر بها خادمًا يخدم أمك فأبيت، وقلت: إن والدتى لم ترض غيرها لخدمتى وأنا صغير فكذلك لا أرضى غيرى لخدمتها وأنا كبير.

وكـان مورق العـجلي ـ رضي الله عنه ـ يفلي رأس أمـه، ولا يدع أحـداً يفليهـا غيره، وكان الحسن البـصري يقول في قوله تعالى: ﴿فَلا تقل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ [الإسراء:٢٣]، قال: إذا بلغا سن الكبر وولي من قذرهما ما كانا يليان من قذره في الصغـر، فلا يقل لهـما أف ولا ينهرهمـا، ولا يمسك بأنفـه من رائحة قذرهمـا كمـا كانا لا يمـسكان أنفهـما من رائحـة قذره، وسيـأتي في هذه الأخـلاق بسط الأدب مع الوالديـن في مـواضع، وأن من نادى أباه أو أمـه باسمهمـا فقد عقهما إلى أن يقـول: يا أبي أو يا أماه وإن من مشى بين يدي والديه فقد عقهـما إلا إن كان يُميط الأذى بين يديهما كما قـاله ابن مُحيريز ـ رضي الله عنه ـ فتأدب يا أخي مع جميع إخوانك المسلمين لا سيما الفقراء والمساكين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقـهم ـ رضي الله عنهم ـ: شدة خـوفهم من الله تعالـى أن يختم لهم بسوء، فيكونوا من المحجوبين عنه في النار. وكـان أحدهم يأخذ في التفكير والحزن حـتى يغيب عن الحاضريـن. وكان الحسن البصـري ـ رضي الله عنه ـ إذا سمع بحديث «**آخـر من يخـرج من النار رجـل يخـرج بعـد ألف سنة**»[1] يقول: الحسن: يا لـيتني كنت ذلك الرجل. وقـيل له يومًا في ذلك، فـقال: أليس يخرج من النار؟ وكان سـفيان الثوري ـ رضي الله عنه ـ يقـول: ما أمن أحد على دينه يعني غالبًا إلا سلبه. وكان الإمام أبوحنيـفة ـ رضي الله عنه ـ يقول: أكثر ما يسلب من الناس الإيمان عند الموت.

وكان بشر الحافي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا صعدت الملائكة بروح المؤمن وقد مات علـى الإسلام تعجبت الملائكة منه وقالـوا: كيف نجا هذا من الدنيا وقـد هلك فيـها خيـارنا؟ وكان الربيع بن خيـثم ـ رحمـه الله تعالى ـ

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، ولكن أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (ص ٢٠٥، ٢٠٦) من طريق سلام بن مسكين قال: ثنا أبو ظلال القسملي عن أنس بن مالك عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «يمكث رجل في النار فـينادي ألف عـام يا حنان يا منان، فـيقـول الله تبارك وتعـالى يا جبريل، أخرج عبدي فإنه بمكان كذا وكذا، فيأتي جبريل النار. . .» وقال الشيخ الألباني في الضعيفة (ح ١٢٤٩): ضعيف جدًا.

يقول: تطلع روح العبد على ما كان الغالب عليه قبل موته. قال: وقد دخلت على محتضر، فكنت كلما أقول: لا إله إلا الله يحسب الدراهم. وكان مطرف بن عبد الله يقول: إني لا أعجب ممن هلك كيف هلك؟ وإنما أعجب ممن نجا كيف نجا، وما منّ الله على عبد بنعمة أفضل من أن يميته على الإسلام. وكان زيد بن أسلم يقول: لو كان الموت بيدي لأذقته نفسي، وأنا محب للإسلام، ولكنه ليس بيدي. وبكى سفيان الثوري مرة حتى غشي عليه، فقيل له: علام تبكي؟ فقال: بكينا على الذنوب زمانًا، ونحن الآن نبكي على الإسلام أي خوفًا أن يذهب منا. وكان يقول: ربما يعبد الرجل الأوثان وهوفي علم الله سعيد، وربما يطيع وهو في علم الله شقي لحديث: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**»[1] الحديث، وهذا هو الذي أذهل العقول. وفي الحديث: «**أصدق المؤمنين إيمانًا أكثرهم تفكرًا في الدنيا، وأشد الناس فرحًا في الجنة أكثرهم بكاءً في الدنيا**».

وكان يحيى بن معاذ يقول: التفكر والاعتبار يخرجان من قلب المؤمن عجائب الحكمة، فتسمع منه أقوالاً ترضاها الحكماء، وتخضع لها رقاب العلماء، وتعجب منها الفقهاء، ويسارع إلى حفظها الأدباء. وكان سفيان الثوري يقول: خوف المؤمن وحزنه على قدر بصيرته، وكان وجه محمد بن واسع كأنه وجه ثكلاء فقدت ولدها، وكان لا يراه أحد إلا زالت من قلبه القسوة. وكان يقول: لا تصحب من الناس إلا من يفضلك برؤيته قبل كلامه. وكان وهيب بن الورد يقول: أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام اغسل قلبك، فقال: يارب الماء لا يصل إليه فكيف أغسله؟ فقال: اغسله بطول الهم والغم والحزن على ما فاتك مني وما يفوت. وكان إبراهيم بن أدهم يقول: إن الأسقام التي تصيب القلب أصلها من الذنوب كما أن الأسقام في البدن تنشأ من الأمراض، وقد جعل الله تعالى لكل داء

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في (ذكر الملائكة/ ٣٢٠٨/ فتح)، ومسلم في (القدر/ ٢٦٤٣/ عبد الباقي) من حديث أبي سعيد الخدري -ﷺ-.

دواء، فإذا اشتد حزن الرجل رجعت دموع عينيه إلى قلبه فانحلت بدنه. وقيل لإبراهيم: ألا تخضب شيب لحيتك؟ فقال: الخضاب معدود من الزينة، ونحن في مأتم وحزن ليلاً ونهارًا، وقالوا لبشر بن الحرث: ما لنا لم تزل نراك مهمومًا؟ فقال: لأني رجل مطلوب من الحاكم بالحقوق. وكان يقول: كل حزن سوف ينقضي إلا حزن الذنوب، فإنه يتجدد مع الأنفاس. وكان حاتم الأصم يقول في قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ [فصلت: ٣٠]، إنما يقال ذلك لمن طال خوفه وحزنه في الدنيا، وأما من أذنب وبطر ولم يندم فلا يُقال له شيء من ذلك، وكان معاذ بن جبل يقول: لا ينبغي لعبد أن يظهر الفرح حتى يجاوز جسر جهنم - يعني الصراط - وكان علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- يبكي ويقول: تستريح البهائم والطيور والحيتان وأنا مرتهن بعملي، وكان صالح بن عبد الجليل -رضي الله عنه- يجمع عياله وأهله في كل يوم عيد، ويجلسون فيبكون، فقيل له في ذلك، فقال: إني عبد أمرني الله تعالى بطاعته ونهاني عن معصيته، فلا أدري هل وفيت بهما أم لا، وإنما يليق الفرح والسرور يوم العيد لمن كان آمنًا من عذاب الله.

وقد كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: **«ما أتاني جبريل -عليه السلام- قط إلا وهو خائف يرعد من هيبة الله تعالى»**[1]. وكان وهب بن منبه يقول: إنما اتخذ الله إبراهيم خليلاً لكونه كان شديد الخوف منه، وكانوا يسمعون خفقان قلبه من مسيرة ميل. وكان موسى بن مسعود يقول: كنا إذا جلسنا عند سفيان الثوري، فكأنما نار أحاطت بنا لما نرى عليه من شدة الخوف والجزع.

وكان الفضيل بن عياض يقول: إن لله عبادًا إذا ذكروا عظمة الله تقطعت قلوبهم في بطونهم، ثم تندمل، ثم تنقطع، ثم تندمل، ثم تنقطع، ثم تندمل أبدًا ما عاشوا. وكان يقول: خوف العبد من الله على قدر معرفته

---

(١) ذكره الزبيدي في الإتحاف (٩/ ٢٤٥) وقال العراقي في المغني عن حمل الأسفار: لم أجده بهذا اللفظ، وروى أبو الشيخ في كتاب العظمة عن ابن عباس قال: إن جبريل -عليه السلام- يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترعد فرائصه فرقًا من عذاب الله... الحديث» وفيه: زميل بن سماك الحنفي يحتاج إلى معرفة. اهـ.

به. وكان إبراهيم بن الحرث لا يـرفع طرفه إلى السماء أبدًا خوفًا وحياءً من الله تعالى من حـيث إن السماء قـبلة الدعاء. قالوا: وكـان الخوف كثيـرًا ما يغلب على سفيان الثوري، ومالك بن دينار والفضيل بن عياض فـيخرجون على وجوههم لا يدرون أين يذهبون. وكان عـمران بن حصين يقول: والله إني لأود أن أصيـر رمادًا تنسفني الـريح في يوم عاصف. وكان إسـحاق بن خلف يقول: ليس الخائف الذي يبكي ويمسح دمـوعه، وإنما الخائف من ترك فعل الأمور التي يخـاف أن يعذبه الله عليها. وكان الحسن البـصري، يقول: قرأت قـوله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وصرت أرددها، فإذا بهاتف يهتف ويقول: كم تردّد هذه الآية وقد قتلت أربعة آلاف من الجن لما سمعوها، فلم يرفعوا طرفهم إلى السماء حتى ماتوا.

ووقف الفضيل بن عـياض في يوم عرفة قابضًا لحيته يبكي من الزوال إلى غروب الشـمس وهو يقول: واسوأتاه وإن غـفرت لي. وكان حـماد بن زيد لا يجلس قط إلا مستـوفزًا فقيل له في ذلك، فقـال: إنما يجلس مطمئنًا من كان آمنًا من عذاب الله، وأنا غيـر آمن من نزوله على ليلاً ونهارًا. وكان عمر بـن عبد العزيز يقـول: لولا الغفلة لمات الخلق كلهم من خشـية الله عز وجل، وكان مالك بن دينار يقـول: والله لقد هممت أن أوصى أهلي إذا أنا مت أن يقيـدوني ويغلوني ويدخلوني القبـر كذلك كمـا يفعل بالعبـد المجرم الآبق من سيده، وكـيف يمنى أحدكم نفسه بدخـول الجنة، والتنعم بالحور، والقصور، وهو مستـوجب للسعير والثبور. وكان الفضـيل بن عياض يقول: والله إني لا أغبط نبيًا مرسلاً، ولاملكًا مقربًا لأن كل هؤلاء يشاهدون أهوال يوم القيـامة، وإنما أغبط من لم يخلق بعـد، وتقدم قول سـفيان بن عـيينة: ينبغي للعبـد أن يكون عند الله من أجلّ عبيده، وعند نفسه من أشـر العبيد، وعند الخلق من أوسطهم. وكـان فـرقد السنجـي يقول: دخل بيت المقـدس خمسمائة بكر نغّص عليهن بعض الأحبار شيـئًا من أمور الآخرة فمتن جميعًا في ساعة واحدة، وكان لبـاسهن المسوح. وكان عطاء السلمي رحمه الله يقول: اللهم إني أسألـك العفو والصـفح، ولا يتجرأ قط أن يقـول: اللهم أدخلني

الجنة، قال فرقد السنجي: ودخلنا مرة على عطاء السلمي، فوجدناه قد وضع خده على الأرض في الشمس، فنظرنا إليه، فإذا مجرى دموعه في خديه قد انسلخ من البكاء، ورأينا ما تحت خده من الأرض قد صار طينًا ووحلاً، وكان كثيراً ما يتلقى دموعه بيده، ويرشها حوله حتى يظن الداخل أن ذلك ماء الوضوء. وبلغنا أنه مكث لم يرفع طرفه إلى السماء أربعين سنة. فرفع طرفه يومًا غفلة، ووقع على بطنه فانفتق في بطنه فتق، فلم يزل مريضًا به إلى أن مات. وكان إذا أصاب أهل بلده بلاء يقول: هذا بذنوب عطاء لو أنه خرج من بلادهم لما نزل عليهم بلاء.

وكان غالب الليل يمس جلده مخافة أن يكون قد مسخ، وكان يقول خرجنا مرة مع عتبة الغلام، فمررت على مكان فسقط مغشيًا عليه، فلما أفاق قال: هذا مكانٌ عصيت الله فيه وأنا دون البلوغ، وكان ذلك بعد أن صلى الصبح بوضوء العشاء نحو أربعين سنة هو وأصحابه، حتى نحلت أبدانهم، وتغيرت ألوانهم حتى صارت كأنها قشور البطيخ الهندى. وسيأتي في هذا الكتاب زيادة على ذلك، وأنه كان يغشى على أحدهم من البكاء، وبعضهم يبكى بكاء الميت إلى أن مات رحمه الله، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -ﷺ-: مواظبتهم على قيام الليل صيفًا وشتاءً، ورؤيتهم تأكده عليهم كأنه فرض حتى قالوا: كل فقير نام في الليل من غير غلبة، فلا يجيء منه شيء في الطريق وقد أغفل هذا الخلق كثير من الفقراء، فينامون في الليل على طراريح كما ينام العامة وأبناء الدنيا، وبعضهم يدخل كل يوم الحمام، فلا يخرج منه حتى تطلع الشمس من غير ضرورة بل ترفهاً، وما أقبح الشيخ وهو ذاهب إلى الحمام كل يوم بكرة النهار والعامة والمريدون يرونه. وكان آخر من أدركت من فرسان الليل الشيخ محمد بن عنان، وكان ورده كل ليلة خمسمائة ركعة وهي ورد المهدى[1] على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام.

---

(١) لم يرد شيئًا من ذلك عن المهدى في حديث صحيح.

وكان الشيخ الصالح ذو الأحوال والكرامات الشيخ فرج بناحية شان شلمون بالشرقية يجيء لسيدى محمد هذا ويقول له: أهلاً براعى الصهيب لأجل كونه كان مواظبًا على قيام الليل، وكان لا يتهجد ليالى الشتاء إلا فوق السطح -رضي الله عنه- وفى الحديث: **«عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، ومقربة إلى ربكم، وتكفير لخطاياكم، ومنهاة عن الإثم، ومطردة للداء على الجسد»**[1]. وقالت أم سليمان بن داود: يا بنى لا تنم الليل، فإن من نام الليل جاء يوم القيامة وهو مفلس من الحسنات.

وأوحى الله تعالى إلى داود -عليه السلام-: يا داود كذب من ادعى محبتى فإذا جنَّه الليل نام عنى، وفى الحديث: **«إن الله تعالى يباهى ملائكته بالعبد إذا قام يتهجد من الليل فى الليلة الباردة ويقول: انظروا إلى عبدى خرج من تحت لحافه، وترك الدنيا، وامرأته الحسناء يناجى بكلامى أشهدكم أنى قد غفرت له»**[2] قاله نافع.

وكان عبد الله بن عمر يقوم من الليل ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟ فيقول له: لا، فيقوم لصلاته، ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟ فيقول: نعم، فيقعد فيأخذ فى الاستغفار حتى يطلع الفجر. وكان الإمام زين العابدين -رضي الله عنه- يقول: نام يحيى بن زكريا عليهما السلام ليلة عن ورده، وكان قد شبع من خبز الشعير، فأوحى الله تعالى إليه: يا يحيى لو اطلعت على جنة الفردوس اطلاعة لذاب جسمك، ولبكيت الصديد بعد الدموع، وللبست الحديد بعد المسوح. وكان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- ربما تمر عليه الآية فى ورده من الليل، فيسقط مغشيًا عليه حتى يصير يعاد أيامًا كما يعاد المريض.

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٣٠٨)، والبيهقى (٢/ ٥٠٢)، وابن عدى فى الكامل، وقال الشيخ الألبانى فى (الإرواء) (ح ٤٥٢): الحديث حسن دون الزيادة (أى ومطردة للداء عن الجسد) وقال الحافظ العراقى فى تخريج الإحياء: «رواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى بسند حسن.

(٢) موضوع: ذكره السيوطى فى الجامع الصغير بنحوه وعزاه لابن السنى. وقال الشيخ الألبانى فى ضعيف الجامع (ح ١٦٨٢): موضوع.

وكان -رضي الله عنه- أيام خلافته لا ينام ليلاً ولانهاراً، وإنما هى خفقات برأسه وهو جالس. وكان يقول: إذا نمت فى الليل ضيعت نفسى، وإن نمت فى النهار ضيعت رعيتى وأنا مسئول عنهم.

وكان عبد الله بن مسعود يقوم للتهجد إذا هدأت العيون، فيسمع له دوى كدوى النحل حتى يصبح. وكان سفيان الثورى إذا غفل عن نفسه فأكل كثيراً يقوم الليلة كلها ويقول: إن الحمار إذا زيد فى علفه زيد فى تعبه فى بقية الأحمال الشاقة، وكان طاوس - رحمه الله - يفرش فراشه من العشاء، ويصير يتقلب عليه، ويئن إلى الصباح لا ينام، وكثيراً ما كان يقوم فى العشاء إلى الفجر شاخصاً، وكثيراً ما يمكث جالساً مطرقاً إلى الفجر لا يتكلم. وكان يقول: إن خوف جهنم أطار نوم العابدين.

وكان السلف الصالح -رضي الله عنهم- يعرفون وجه من نام عن قيام الليل، ويقولون: ما رأيناك فى الحضرة الإلهية، وقد حضر فلان وفلان، وفرقوا عليهم التحف، وكان يعيب بعضهم على بعض النوم على فراش وطئ له. وكان بعضهم قعد على فراش حين قدم من سفر، فنام عن ورده تلك الليلة، فحلف أنه لاينام على فراش حتى يموت. وكان عبد العزيز بن أبى داود يفرش له الفراش، فيضع يده عليه ويقول: ما ألينك ولكن فراش الجنة ألين منك ثم يقوم إلى صلاته، فلا يزال يصلى إلى الفجر. وكان الفضيل بن عياض يقول: إنى لأقوم الليل فيطلع الفجر فيرجف قلبى، وأقول: جاء النهار بما فيه من الآفات.

وكان بشر الحافى، وأبو حنيفة، ويزيد الرقاشى، ومالك بن دينار وسفيان الثورى، وإبراهيم بن أدهم يقومون الليل كله على الدوام إلى أن ماتوا، وقالوا مرة لبشر الحافى: ألا تستريح لك فى الليل ساعة؟ فقال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد قام حتى تورمت قدماه، وقطر منهما الدم مع أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف أنام أنا ولم أعلم أن الله غفر لى ذنبًا واحدًا. وكان الحسن البصرى يقول: ما ترك أحد قيام ليلة إلا بذنب أذنبه تفقدوا نفوسكم كل ليلة عند الغروب، وتوبوا إلى ربكم

لتقوموا الليل. وكان كثيراً ما يقول: إنما يثقل قيام الليل على من أثقلته الخطايا. وكان أبو الأحوص يقول: أدركنا العلماء والعباد وهم لا ينامون الليل. وكنت إذا طفت بدار أو بمسجد فى الليل سمعت فيه دويًا كدوى النحل، فما بال هؤلاء أهل زماننا يأمنون مما كان أولئك يخافون منه. وكان صلة بن أشيم -ﷺ- يصف قدميه للصلاة من العشاء إلى الفجر، ثم يقول: إذا فرغ من صلاته يا رب أجرنى من النار، فإن مثلى لا ينبغى له سؤال الجنة.

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: إنى لا أقدر على قيام الليل، فصف لى دواء؟ فقال له: لا تعصيه بالنهار وهو يقيمك بين يديه فى الليل، فإن وقوفك بين يديه فى الليل من أعظم الشرف والعاصى لا يستحق ذلك الشرف وكان عتبة الغلام يقول: إذا توضأ من الليل قبل أن ينتصب للصلاة: اللهم إنى قد حملت نفسى ما لا أطيق من المعاصى والقبائح حتى أستحق الخسف والمسخ، ودخول النار، وها أنا أريد أن أقف بين يديك خلف كل عارض على وجه الأرض رجاء أن تغفر لأحد منهم، فيصيبنى شىء من المغفرة.

وكان الحسن بن صالح يقوم الليل هو وجاريته فباعها لقوم فلما صلت العشاء افتتحت بالصلاة فما زالت تصلى إلى الفجر، وكانت تقول لأهل الدار كل ساعة تمضى من الليل، يا أهل الدار قوموا يا أهل الدار صلوا. قالوا لها: نحن لا نقوم إلى الفجر، فجاءت إلى الحسن بن صالح وقالت: بعتنى لقوم ينامون الليل كله، وأخاف أن أكسل من شهود نومهم فردها الحسن إليه رحمة بها ووفاء بحقها.

وكانت رابعة العدوية تتوضأ كل ليلة وتتطيب وتقول لزوجها: ألك حاجة؟ فإن قال لا: قامت إلى الصباح. وكانت تقول أول الليل: إلهى نامت العيون، وغارت النجوم، وأغلقت ملوك الدنيا أبوابها، وبابك لا يغلق، فاغفر لى، ثم تصف قدميها للصلاة وتقول: وعزتك وجلالك هذا موقفى بين يديك إلى الصباح ما عشت. وكان سفيان الثورى يقول: عليكم بقلة

الأكل تملكوا قيـام الليل. وكان ثابت البناني يصلي الليـل كله ويقول لأهله: قوموا فصلوا، فإن قيـام الليل أهون من مكابدة أهوال يوم القيامة، وكان أبو الجويرية يقول: صحبت الإمام أبا حنيفة لا أفارقه ستة أشهر، فما رأيته وضع جنبـه إلى الأرض في ليلة منهـا، قـالوا: ولم يكن لأبي حنيفة فـراش في الليل. وكان سفـيان الثوري يقول: ما رأيت أعبـد من أبي حنيفة، ولا أزهد ولا أورع منه. وكان الفضيل بن عياض يقول: بلغنا أن الله تعالى يقول حين يتجلى من الليل: أين المدعون لمحـبتـي في النهار؟ أليس كل مـحب يحب الخلوة بحـبيبـه؟ فها أنـا الآن مطلع على أحبـابي يكلموني على الحـضور، ويخاطبـوني على المشاهدة، وغـداً أقرّ أعـينهم في جنتي. وكان المغـيرة بن حبـيب يقول: رمقت عـيناي ليلة مالك بن دينار وقـد انتصب بين يدي الله تعالى من العشاء قابضًا عن لحيتـه، فما زال يبكي ويقول: يا رب ارحم شيبة مالك إلى أن طلع الفجر. قال: ورمقت عـبد الواحد بن زيد شهراً فرأيته لا ينام من الليل شيـئًا. وكان يقول لأهل الدار كل ساعـة مضت من الليل: يا أهل الدار انتبـهوا فمـا هذه دار نوم عن قريب يأكلكم الدود. وكان صُـهيب العابد رقيقًا لامرأة بالبصرة، وكان يقوم الليل كله، فقالت له سيدته يومًا: إن طول القيام بالليل يضرك بخدمتك بالنهـار فقال لها: ماذا أصنع؟ وإذا ذكرت جهنم طار نومي. وكان أزهر بن مُغـيث ـ رضي الله عنه ـ يقول: رأيت ليلة حوراء من أجمل النساء فقلت لها: لمن أنت؟ فقـالت: لمن يقوم الليل في ليالي الشتاء. وكان العلاء بن زياد يقوم الليل كله. فقالت له امرأته: ألا تستريح لك لحظة فأطاعها، فـأتاه آت في منامه، وأخذ بمقدم شعر رأسـه، وقال: قم فصل ولا تضع حظك من عـبادة ربك. فقـام فوجد تلك الشـعرات واقـفة، فلم تزل واقفة حتى مات.

ونام إبراهيم بن أدهم ليلة في بيت المقـدس، فـسمع صـوتًا من جانب الصخرة يقول: قيام اللـيل يطفئ لهب النهار، ويثبت الأقدام على الصراط، فلا تتسـاهل في قيام الليل، فمـا تركه بعد ذلك حتى مـات، فاعلم ذلك يا أخي واعمل به، والحمد لله رب العالمين.

الباب الثانى
فى جملة أخرى من الأخلاق

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: شدة هضمهم لنفوسهم بحيث يصير أحدهم يتبرك بتلميذه، ويحمله الحملة، ولا ينظر إلى كونه أعلم من مريده، أو أكثر عملاً منه بطريقة الشرعى إذا كان لا يخشى عليه فتنة بذلك.

قد بلغنا أن الإمام الشافعى - رضي الله عنه - لما أرسل قاصده للإمام أحمد بن حنبل بأنه سيقع فى محنةعظيمة، ويخلص منها سالمًا يعنى مسألة هل القرآن مخلوق أو غير مخلوق؟ فلما أخبره القاصد نزع الإمام أحمد له قميصه سرورًا بقدوم رسول الشافعى فلما رجع الرسول بالقميص، وأخبر الشافعى به قال له: هل كان هذا القميص على جسده من غير حائل؟ قال: نعم، قال: فقبله الإمام الشافعى، ووضعه على عينيه، ثم صب عليه الماء فى إناء وعركه فيه، ثم عصره ووضع غسالته عنده فى قارورة. فكان كل من مرض من أصحابه يرسل له شيئًا من تلك الغسالة، فإذا مسح به جسده عوفى من مرضه لوقته[1]. فانظر يا أخى تواضع الإمام الشافعى مع الإمام أحمد مع كونه من تلامذته، وهذا يدلك على أن القوم مع كثرة أعمالهم الصالحة كانوا - رضي الله عنهم - لا يرون نفوسهم على أحد من المسلمين عكس ما عليه المتمشيخون فى هذا الزمان.

وكان آخر من أدركته يعتقد فى تلميذه، ويتبرك به، ويرسل له الأرمد والمريض ليرقيه الشيخ محمد السرورى - رحمهما الله تعالى - فكان الشيخ محمد بن عنان يرسل من يريد الدعاء لمريضه إلى الشيخ يوسف الحريثى - رحمه الله - وكان الشيخ محمد السرورى يرسله إلى الشيخ على الحديدى - رحمه الله - مع أن الشيخ يوسف، والشيخ على المذكورين من

---

(١) لم تثبت مثل هذه الحكايات عن الشافعى وأحمد رحمهما الله ويظهر عليها لوائح الوضع.

تلامذة هذين الشيخين فرضى الله تعالى عن الصادقين. فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: كثرة الغيرة على ذكر الله تعالى أن يذكره أحد وهو غافل، وذلك كقصد الوالدة بالذكر تنويم ولدها إذا سهرت به فى الليل، فإن ذكر الله يجل عن مثل ذلك، وقد قال بعض الصالحين يومًا لمريض: قل يا لطيف وهو غافل عن كونه بين يدى الله تعالى، فعاتبه ربه عز وجل على ذلك فى المنام، وقال له: قد جعلت ذكر اسمى لعبًا ولهوًا. انتهى.

فاعلم ذلك يا أخى، واعمل عليه والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: أن يكون أحدهم هينا لينًا ينقاد للصغير كما ينقاد الجمل، وفى الحديث الذى فيه الأمر بتسوية الصفوف: «ولينوا فى يد إخوانكم»(١)، وفى القرآن العظيم: ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩]، إذا علمت ذلك فاعلم أن من جملة لين الفقراء أن أحدهم إذا دخل على جماعة يذكرون الله تعالى كذكر الأعجام، أو المغاربة، أو الشناوية، والمطاوعة، أو الرفاعية مثلاً أن يذكر معهم كهيئتهم فى الصورة بطريقه الشرعى وكذلك يوافقهم فى ذكرهم الذى لقنوه حين دخلوا فى الطريق من نفى أو إثبات(٢)، ولا يقول:

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٢) من حديث أبى أمامة -رضي الله عنه-، وأخرجه أيضًا أحمد (٢/ ٩٨)، وأبو دادود (ح ٦٦٦) من حديث ابن عمرو -رضي الله عنهما-، وصححه الشيخ الالبانى فى صحيح أبى داود (ح ٦٢٠)، وصحيح الترغيب والترهيب (ح ٤٨٨، ٤٩٢).

(٢) لم يثبت الذكر الجماعي عن الرسول الكريم -ﷺ-، أو عن أحد من صحابته الكرام. بل عندما بلغ ابن مسعود أن قومًا جلسوا فى المسجد حلقًا، وفى كل حلقة رجل يقول: كبروا مائة فيكبرون مائة فيقول: هللوا مائة، فيهللوا مائة. فأتى على حلقة منها فقال: ما هذا الذى أراكم؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد، قال: فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم بشىء، ويحكم يا أمة محمد، ما أسرع هلكتكم، هؤلاء أصحابه وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم =

إن هذه الكيفية ليست طريقة شيخنا كما وقع فى ذلك كثير من الناس فيفوتهم الأجر مع وقوعهم فى الجفاء، وغلظ الطبع. فاعلم ذلك واعمل عليه والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: شدة الجوع بطريقه الشرعى، وإن لم يجدوا شيئًا حلالاً يأكلوه طووا الأيام والليالى، وقد جربوا فوجدوا النور كله، والخير فى خلو البطن، حتى قالوا فى المثل السائر فى الطبل إنما كان صوته قويًا جهوريًا لكونه خالى الجوف. وقد قالوا: ينبغى للعالم أن لا يشبع قط لا سيما أيام التأليف، وذلك لئلا يحجب عن كمال الفهم فى القرآن والحديث والفقه وغير ذلك، وذلك لأن فهم الشبعان يكون ضعيفًا، ومن شك فليجرب وقد أدركنا جماعة كثيرة من الفقراء كانوا - ﷺ - على قدم الصدق فى الجوع حتى كان أحدهم لا يدخل الخلاء إلا كل سبعة أيام مرة حياء من الله تعالى أن يكثر تردده للخلاء، وهو مكشوف العورة.

وقد انتهى أمر سيدى الشيخ تاج الدين الذاكر - رحمه الله تعالى - إلى أن صار يتوضأ فى كل اثنى عشر يومًا مرة. وقد كان كسيدى على الشهاوى المشهوز بالذؤيب - رحمه الله تعالى - يأمر كل من لقيه بالجوع، ويقول: إنه سلاح المؤمن، وصاحب الجوع إن لم يطع الله لم يعصه لعدم وجود داع يدعوه إلى المعاصى.

وممن صام الدهر كله[1] أخى الشيخ عمر النبتيتى المكشوف الرأس، وولده عمه الشيخ عبد القادر المكشوف الرأس أيضًا، وصار كل منهما فى

= تكسر، والذى نفسى بيده إنكم لعلى ملة هى أهدى من ملة محمد، أو مفتتحوا باب ضلالة، قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير. قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه. . . الحديث.

وروى الدارمى أيضًا عنه بإسناد صحيح أنه قال: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم».

(١) قلت: قد نهى النبى - ﷺ - عن صيام الدهر، فقال فى الحديث المتفق عليه: «لا صام من صام الدهر».

غاية النورانية، وعلو الهمة ـ رحمهما الله تعالى ـ فاتبع يا أخي سلفك فى ذلك، ولا تأكل إلا بعد جوع شديد، وهو أن تشتعل أمعاؤك وتصير تلذعك لعدم وجود طبيعة تشتغل بطبخها. فاعلم ذلك يا أخي واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: إذا علموا بالقرائن عدم إخلاص من يتعلم منهم العلم أن يداوموا على تعليمه، ولكن يتوجهوا إلى الله تعالى فى الدعاء له بإصلاح النية، فيؤجرون هم وإياه ولا يتركون تعليمه فإن ذلك بمراد الشارع، وذلك لأن العلم يحمل لأمرين للعمل به ولإحياء الشريعة به، فصاحبه مأجور على كل حال إما أجراً كاملاً أو أجراً ناقصًا. وقد كان سيدى على الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما من حامل علم إلا وهو يعمل به، ولو فى حق نفسه إذا ارتكب المعاصى لأنه يتوب ويندم إذا وقع فيها، فلولا علمه بالحكم ما اهتدى لكون ذلك ذنبًا، ولا تاب منه فقد عمل هذا بعلمه من تلك الحيثية، وإن كان من ارتكب المعاصى لم يعمل بعلمه على مصطلح الناس فافهم، فالعلم نافع لصاحبه على كل حال، ولم يزل علم كل إنسان أكثر من عمله فى كل عصر، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: عزمهم على العمل بعلم كل عالم رأوه لا يعتنى بالعمل بما علم، فيعملون بعلمه، ثم يجعلون ثواب ذلك فى صحائف هذا العالم، ويطلبون أجرهم من الله تعالى من باب المنة والفضل كما أنهم إذا قرءوا فى علم من العلوم يجعلون ثواب ذلك للمؤلف ولا يزاحمونه فى ذلك لأن ثواب كل قول لقائله، فافهم ولكن هذا الأمر لا يتحقق به إلا من كان أشفق على المؤمنين من أنفسهم بحكم الإرث لرسول الله -ﷺ- كما بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: مخالطتهم لمن كان عدواً لهم فى السر، ويدعى محبتهم ظاهراً، وإيهامهم أن أحدهم صدقه فى

دعواه المحبة له، ولم يلحق لما عنده من عدم الصدق ولا يكذبونه قط فى دعواه، وكذلك لا يمتنع قط من تقريبه إذا طلب منه القرب، فإن ذلك يزيده عداوة وتعظيمًا للفتنة لكن يحتاج هذا المخالط للعدو إلى حفظ جوارحه من سائر المخالفات لأن العدو ربما كان قصده من المخالطة إطلاعه على عورة أخيه ليصير يهجوه بذلك فى المجالس أيام ظهور عداوته له كما هو واقع كثيراً، فليكن المخالط لعدوه على حذر، ولا يخالط إلا من يعتقد فيه الصداقة والمحبة، فإن البعد من العدو أولى لكل من لم يكن عنده كمال سياسة وكثرة دين. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: رؤية محاسن الناس، والتعامى عن مساويهم حتى إن أحدهم لا يكاد يرى فى أخيه المسلم عيبًا يهجوه به أبدًا، ويصير الناس كلهم عنده صالحين، فعلم أن الصالحين لا يعادون أحدا لحظ النفس، وإنما الناس هم الذين يعادونهم حسدًا وعدوانًا.

فإن قيل إن صاحب هذا المقام يقل نفعه لأصحابه من حيث عدم النصح، والتحذير من المنكر، فيصير هذا مرتكبًا للمعاصى على الدوام، ولا يهتدى لتحذيره عنها لعدم شهودها فيه إذ حمله على المحامل الحسنة، فالجواب أنه يهتدى للتحذير بالإلهام الصحيح بواسطة رابطته به، أو بقياسه على نفسه ويقول: كما أنى أرتكب المعاصى مثلاً، فكذلك أخى قد لا يخلو منها، فإن ما جاز فى حقى جاز فى حق غيرى، ومعلوم عند القوم أن ذكرهم نقائص إخوانهم لا يكون إلا على وجه التحذير دون التشفى لبراءتهم عن مثل هذا الفعل لأن الكامل يكنى عند القوم أبا العيون، فلكل شىء عنده عين يراه فيشهد سلامة أخيه من النقائص كالرياء والنفاق ونحوهما بعين، ويحتاط له كاحتياط من يتهمه النقائص فعلاً أو تقديراً بالعين الأخرى، ويحذره منها بالعين الأخرى والله أعلم.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: كثرة شكرهم لله تعالى إذا كثر حسادهم وأعداؤهم، ثم كثرة استغفارهم بعد ذلك، فيشكرون الله تعالى على تلك النعمة التى حسدهم الناس عليها ويستغفرونه عز وجل من

حيث إنه لولا وجودهم ووجود النعمة التى عليهم ما وقع أحد فى حسدهم المحرّم، فاستغفارهم المذكور إنما هو تورع من حيث اللازم للنعمة، وإلا فوجود النعمة ليس بيدهم، ويسمى هذا استغفار الأكابر، وكذلك كثرة استغفارهم لمن يحسدهم ورحمتهم له وشفقتهم عليه لكونه أهلك دينه بكثرة حسده لهم، فيقول أحدهم: اللهم اغفرلحاسدينا، فإنهم لما عندهم من الضيق لا يحتملون رؤية النعم التى علينا دونهم، ولوا اتسعت نفوسهم لم يقعوا فى حسدنا، وهذا الخلق لا يكاد يتخلق به إلا قليل من الناس بل غالبهم يتمنى لحاسده كل سوء. والله أعلم.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: إنصافهم لكل من سعى لهم عند الأكابر والأمراء فى تحصيل رزقه، أو حوالى، أو هدية ونحو ذلك فيقاسمونه بالنصف أو الربع بقدر ما يرونه يرضيه لاسيما إن وصف أحدهم بالصلاح والزهد والورع. حتى أعطوه ما أعطوه، فإن ذلك من باب النصب والتلبيس، فلا ينبغى للشيخ أن يشح عليه بما يطلبه من ذلك لأنه معدود من كسب ذلك الناصب حقيقة، فالأولى له عدم أخذ شيء منه مطلقًا إلا بطريق شرعى، وقد كثر النصب فى أهل هذا الزمان، فصار أحدهم يوقف النقيب مثلاً ينصب له عند الأمراء، أو مشايخ العرب، ثم إذا أتاه به يختص به، ولا يعطى النقيب الذى نصب وتعب شيئًا، وذلك حيف عظيم. وقد رأيت بعضهم رفع الشيخ إلى الحاكم وذكر فيه العجر والبجر حتى قال القاضى وجماعته للشيخ: إنك يا رجل طماع عظيم.

فإياك يا أخى أن تظن فى مشايخ العصور المتقدمة أنهم كانوا كذلك، فتسيء بهم الظن بل كانوا على جانب عظيم من الزهد والورع.

فاعلم ذلك يا أخى، والحمدلله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: عملهم بالسنة إذا خطبوا امرأة، فيرون منها الوجه والكفين، قال بعضهم: ويكون ذلك بغير شهوة لأنها ليست بمحل الاستمتاع بها الآن، ولكن الجمهور على خلافه لإذن الشارع له فى النظر، ولا يتعلل أحدهم بالحياء، فإن فى ترك النظر

مفاسد. وحصول شرور إذا لم تحجبه، ثم إذا رأى أحدهم المخطوبة لا يرى منها إلا بقدر الحاجة، فإن علم من نفسه الطغيان، فلينظر دون القدر المأذون فيه، ويفوض أمره إلى الله تعالى، أو يأذن لامرأة يثق بها تنظرها له بحكم النيابة، فعلم أن من ترك النظر، وتعلل بالحياء، فهو جاهل بالسنة جافى الطبع، وإن حياءه الذى تعلل به طبيعى لا شرعى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: كثرة أدبهم مع من علمهم سورة أو آية من القرآن، وهم أطفال، فلم يزل أحدهم يتأدب مع من علمه السورة أو الآية، أو الباب من العلم حتى إنه لا يقدر يمر عليه راكبًا، ولا يتزوج له مطلقة، ولو صار من مشايخ الإسلام، أو من الطريق ومن جملة أدبهم معه أيضًا افتقاده بالهدايا والكسوة له ولعياله، ومن يلوذ به إكرامًا له.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: عدم البخل على الفقيه الذى يعلم أطفالهم القرآن، ولا يستكثرون عليه شيئًا يعطونه له فى الدنيا.

وقد حكى عن أبى زيد القيروانى صاحب الرسالة ـ رحمه الله تعالى ـ أنه أعطى فقيه ولده لما علمه حزبًا من القرآن مائة دينار، فقال له الفقيه: أنا يا سيدى ما عملت شيئًا أستحق به هذا كله، قال: فحول الشيخ ولده من عنده إلى فقيه آخر وقال: هذا رجل مستهين بالقرآن. قلت: وقد عملت أنا هذا الخلق بحمد الله تعالى مع فقيهى الشيخ حسن الحلبى ـ رحمه الله تعالى ـ فكنت آكسوه هو وأولاده إلى أن مات، ولم أر أننى قمت بواجب حقه ـ رحمه الله ـ وقد كنت مارًا يومًا مع الشيخ شمس الدين الدمياطى ـ رحمه الله تعالى ـ فى سنة ثمان عشرة وتسعمائة، فرأى الشيخ رجلاً أعمى تقوده ابنته، فنزل الشيخ من على دابته وقبل يده وماشاه طويلاً، فلما رجع سألته عنه فقال: هذا رجل قرأت عليه، وأنا صبى شيئًا من القرآن، فلا أقدر أمر عليه وأنا راكب

مع أن الشيخ شمس الديـن المذكور كان قد أعطى من الجاه، والاعـتقاد والعلم والصلاح عند الملوك، فمن دونهم مـا لم نر أحدًا أعطى مثله من أقرانه حتى إنى رأيته بين القصرين يومًـا، والناس يزدحمون عليه لتقبيل يديه، ومن لم يصل إليه نشـر رداءه وحذفه عليه حتى يـصيب من ثياب الشيخ، ثم يصير يقبل ذلك الرداء كمـا يفعل الناس ذلك بكسوة الكعبة حين تمر عليهم بالقاهرة، فرضى الله تعالى عن أهل الأدب. فاعلم ذلك واقتد بهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخـلاقـهم - رضى الله تعـالى عنهم-: عدم شـهودهم فى نفوسهم أن لهم نوافل من العبادات، ولو قـاموا حتى تورمت أقدامهم، وإنما يرون ذلك كالجابر لبعض النقص الحاصل فى فـرائضهم إذ النوافل حقيقة إنما تكون لمن كملت فرائضـه كما أشار إليه قوله سبـحانه وتعالى: ﴿**ومن الليل فتهجد به نافلة لك**﴾، فذكر تعالى أنهـا نافلة له لكمال فرائضه -ﷺ- إذ هو معصوم من النقص فى عباداته كمـا ذكر الحافظ الجلال السيوطى - رحمه الله - فى الخصائص وغـيره أيضًا، وإن قدر أن أحدًا من الأوليـاء أتى بعبادته على الكمال، فـذاك بحكم الإرث لرسول الله -ﷺ-، وقد رأيت فى كلام بعض العلمـاء أن الملائكة عليهم الصـلاة والسلام لا تعرض علـى الله تعالى صلاة أحد إلا بعد تكملتها له من نوافله أدبًا مع الله تعالى، وقد فعل جماعة الملوك مثل ذلك فيمن كان ببدنه عـاهة مثلاً، فلا يعرضونه على السلطان أبدًا صيانة له أن يقع بصره علـى ناقص، وإن حدث ذلك فى وزير أو دفتردار أو نحوهما عـزلوه، واستنابوا غيره، وماجـعله الناس أدبًا مع الملوك، فهو أدب مع الله تعـالى، فإن الشـرع قد يتبـع العرف فى كـثير من المسائل كمـا هو معلوم.

فاعلم ذلك يا أخى، واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخـلاقـهم - رضى الله تعـالى عنهم-: عدم استشـراف نفوسـهم إلى هدية أحد جـاء من الحجاز أو من الشـام مثلاً، فـلا يحدث أحدهم نفسه بأن فلانًا سيهدى إليـه شاشًا أو مداسًا أو فاكهة أو نحو ذلك

أبدًا، بل هم غافلون عـن مثل ذلك، وكذلك إذا أهدوا هم إلى أحـد جاء من السفر المذكور شيئًا ابتداء لا تحدثهم أنفسهم بأنه سيكافئهم على ذلك، بل هم غـافلون عن ذلك بالكليـة، وليس ذلك من باب سـوء الظن منهم بأخيهم إنما هو من باب ترك الطمع، فهو وإن لزم من ظنهم بأخيهم أنه لا يكافئهم سـوء الظن فليس ذلك مقصودًا لهم، ولا يـؤاخذ الشخص إلا بما قصده.

وقد كان سيدى على الخواص ـ رحمه الله تعـالى ـ إذا سمع أحدًا يذكر أشعب الطماع وأنه كان يفـتش على الدخان يترحم عليه، ويقول: إنه كان حسن الظن بجيرانه، فجزاه الله تعالى خيرًا يعنى أنه محمود فى ظنه الخير بالجيران، وإن لـزم منه الطمع فافهم. واعلم أنه ينبغى لك إذا أرسلت هدية، وعلمت من أخيك المكافأة عليها لما هو عليه من المعروف أن تخبـره بذلك على لسان القاصد، تقـول له: قُل لأخى فلان إن هذا أمر يستحق مكافأة عليك، وقد أقسم عليك أخوك بعدم المكافأة فيه جبرًا لخـاطره، وذلك لأجل أن يستريح من تعب المكـافأة، ولو لحظة. وقـد أرسلت مرة لأخى الشيخ شمس الدين البرهمتوشى ـ رحمه الله تعالى ـ هدية قليلة، فأرسل إلـىّ أضعافهـا، فعلمت بذلك كبـر مروءته لكن لا يخفى أن البداءة بالهدية مطلوبة شرعًا لا سيما لمن بينهما عداوة فى السر لخبر «**تهادوا تحابوا**»[1] وخبر «**الهدية تذهب وحـر الصدر**»[2] أى غشه وشؤمـه فابدأ بالهـدية يا أخى بطريقه الشرعـى، واحذر من استـشراف نفسك إلى هدية ممن جاء من سفـر أو إلى مكافأة ممن أهديت أنت إليه، ومتى خالفت ذلك فقد خرجت عن طريق سلفك، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) حسن: أخرجـه البخارى فى الأدب المفرد (ح ٥٩٤) وحسنـه الشيخ الألبانى فى الإرواء (ح١٦٠١).

(٢) ضعيف: أخـرجه الترمذى (٤/ ٢١٣٠) من حديث أبى هريرة -رضي الله عنه- وضعـفه الشيخ الألبانى فى ضعيف الجامع (ح ٢٤٨٩).

ومن أخلاقهم - رضي الله تعالى عنهم-: أن يشددوا في العزومة على الضيف، فإنه لا يأكل بعد ذلك إلا رزقه الذى قسمه الله له. وقد كان الشيخ عبد الحليم بن مُصلح ـ رحمه الله تعالى ـ يحلف على الضيف أنه لا يأكل عند أحد غيره ما دام في بلده، فكان الضيف بعد ذلك لا يأتيه إلا نادراً، وقد قلت له مرة في ذلك، فقال لي: قد استفدنا في التشديد على العزومة بياض الوجه، ولم يأكل إلا ما قسم له، ولو أنى لم أشدد في العزومة لربما أكل عندى على رغم أنفي، وأكون مذمومًا عنده وعند الله وعند الخلق، وقد فعلت أنا بذلك مع أولاد سيدى الشيخ محمد الشناوى، وأولاد الشيخ عبد الرزاق البخارى ـ رحمهما الله تعالى ـ لما أقاموا عندى مرة نحو ثلاثة أشهر فكنت أغضب منهم إذا أكلوا عند غيرى. وكان يحصل لهم بذلك انشراح قلب، ويزول ما كانوا يتوهمونه من حصول ثقل عندي، أوحصول ثقل منهم.

فاعلم ذلك يا أخى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضي الله تعالى عنهم-: شدة ورعهم في أمر الطعام والشراب، حتى إن أحدهم كان لا يأكل إلا أن يرى سبعة أيد تداولت على ذلك الطعام، أو ثلاثة أيد في الحل، فإن لم يجدوا ذلك طووا حتى يجدوا حلالاً يناسبهم، وقد كان أخي الشيخ أفضل الدين ـ رحمه الله تعالى ـ من آخر من رأيته من المتورعين، فكان لا يأكل من طعام إلا إن تداولت عليه سبعة أيد في الحل، وكان إن لم يجد طعامًا على هذا الحكم طوى الأيام المتواليةحتى تأكل الأمعاء بعضها، ويخاف على عقله ودينه، فهناك يأكل كالمضطر. وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يعرف تداول تلك الأيدى من طريق الكشف، وقد من الله تعالى على باقتفاء أثره لكن بتداول ثلاثة أيد فقط، ثم إن حصل عندى شك في ذلك تقايأته وتارة يطلع هو بنفسه، فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضي الله تعالى عنهم-: تعقد نفوسهم كل ساعة ليخرجوا منها صفات المنافقين ويدخلوا فيها صفات المؤمنين لأنها

عكسها، فمن جملة صفات المؤمنين ما ذكره الله تعالي في كتابه العزيز بقوله عز وجل: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١٢]، . ومنها قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١، ٢]، ونحوهما من الآيات، وفي الحاديث: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[١]، وفي حديث آخر: «**لا يؤمن أحدكم حتى يأمن جاره بوائقه، قالوا: وما بوائقه يا رسول الله؟ قال: غشه وظلمه**»[٢].

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: إذا رأيتموني زغت عن الطريق، فقوموني وانصحوني فإن المؤمن لا يكون إلا ناصحًا لأخيه. وقد جمع يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالي ـ جملة من صفات المؤمن في بعض رسائله، فقال: أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الخير، قليل الفساد، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، كثير البر للرحم، وصولاً، وقورًا، شكورًا كثير الرضا عن الله إذا ضيق عليه الرزق، حليمًا رفيقًا بإخوانه عفيفًا شفوقًا لا لعانًا ولا سبابًا ولا عيابًا ولا مغتابًا، ولا نمامًا ولا عجولاً، ولا حسودًا ولا حقودًا، ولا متكبرًا ولا معجبًا، ولا راغبًا في الدنيا، ولا طويل الأمل، ولا كثير النوم والغفلة، ولا مرائيًا، ولا منافقًا، ولا بخيلاً هشاشًا بشاشًا، ولا خساسًا ولا جساسًا يحب في الله، ويرضى في الله، ويغضب لله، زاده تقواه، وهمته عقباه وجليسه ذكراه، وحبيبه مولاه، وسعيه لأخراه، وذكر نحو ثلاثمائة وصف.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (ح ١٣) في الإيمان، ومسلم (ح ٤٥) في الإيمان، باب: الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه.

(٢) أخرجه البخاري (ح ٦٠١٦) في الأدب، باب: إثم من لا يأمن جاره بوائقه، بلفظ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، فقيل: من يا رسول الله، قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه»، ومسلم (ح ٤٦) في الإيمان، باب: تحريم إيذاء الجار بلفظ: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه» كلاهما من حديث أبي هريرة.

وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله ـ يقول: لو نبت للمنافقين أذناب ما وجد المؤمنون أرضًا يمشون عليها يعنى لكثرتهم وكان حذيفة ـ رضي الله عنه ـ يقول: كان الرجل يتكلم بالكلمة الواحدة على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فيصير بها منافقًا، وإنى لأسمعها من أحدكم فى المجلس الواحد عشر مرات وهولا ينتبه لها، وفى الحديث: «**المنافق همته فى الطعام والشراب، والمؤمن همته فى الصيام والصلاة**». وكان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: قوة المؤمن فى قلبه، وقوة الكافر والمنافق فى يده. وكان حاتم الأصم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من علامة المؤمن أن يفعل الطاعات، ومع ذلك يبكى، ومن علامة المنافق أن ينسى العمل ثم يضحك. وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: المؤمن يزرع نخلاً، ويخاف أن يثمر شوكًا، والمنافق يزرع شوكًا، ويطلب أن يثمر رطبًا.

فاعلم ذلك يا أخى، وفتش نفسك قبل موتك، وابك عليها إن وجدت فيها أخلاق المنافقين، وأكثر من الاستغفار، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: عدم إمساك الدينار والدرهم فى بداية أمرهم، ثم جمعهما للإنفاق فى نهاية أمرهم، وذلك لأن الشخص فى بداية أمره فى الطريق حكم الطفل الرضيع فيحتاج عند الفطام إلى وضع الصبر ونحوه على الثدى ليصير يكره الرضاع من اللبن الذى يضره، فإذا وثقنا كراهية مصه لذلك صار هو يكره شرب اللبن، وتعافه نفسه وكذلك الفقير فى حال نهايته يصير يعاف الدنيا، وهناك يكون الكمال فى إمساكه لها ليعف بها نفسه عن سؤال الناس، وينفق منها فى سبيل الله كما أمره الله، وعلى هذا التقدير ينزل قول من نهى عن الدنيا من السلف، ومن أمر بإمساكها.

وقد كان مسلم النحات ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لما ضرب الدينار والدرهم وضعهما إبليس على جبهته وقبلهما وقال: من أحبكما فهو عبدى حقًا. قلت: لابد من استثناء من أحب الدنيا للإنفاق من هذا الإطلاق، والله أعلم، لأنه إطلاق فى محل تفصيل وقد كان كهمس بن الحسن ـ رحمه الله

تعالى - لا يمسك بيده ديناراً ولا درهمًا ويقول: والله لجراب بعر أحب إلى من جراب ذهب. وقد كان إبراهيم بن أدهم - رحمه الله تعالى - يقول: لا يكمل مقام الفقير إلا برفض الدنيا، وعدم تقديم نفسه فيها على إخوانه إلا أن يكون أحوج منهم، وقد طلب رجل صحبة إبراهيم بن أدهم - رحمه الله - فقال له: بشرط أن لا تكون أحق بمالك منى فقال: لا طاقة لى على ذلك ثم ذهب.

وفي التوراة: حرام على قلب يحب الدنيا أن يقول الحق. وكان يحيى ابن معاذ - رحمه الله تعالى - يقول: اعلموا أن الدرهم عقرب، فمن لم يحسن رقيته قتله سمه، فقيل: وما رقيته؟ قال: أن يؤخذ من حله ويوضع فى محله. وقد كان سميط بن عجلان - رحمه الله تعالى - يقول: الدراهم أزمة المنافقين يقادون بها إلى المهالك. وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: لا يكون الرجل صالحًا حتى يتساوى عنده الذهب والتراب.

وكان شقيق البلخى - رحمه الله تعالى - يقول: من انشرح لدخول الدنيا عليه فهو منافق - يعنى بذلك من تظاهر للناس بالزهد فى الدنيا - وأما من لم يتظاهر بذلك فلا والله أعلم.

وكان أمير المؤمنين علىّ - رضي الله عنه - يضع الدرهم فى كفه ويقول: أف لك من درهم لا تنفعنى إلا إن خرجت عنى. وكان سفيان الثورى - رحمه الله تعالى - يقول: إذا دخل الدرهم الحرام من الباب خرج الحق من الكون، فقيل له: فإن سدت الكوة؟ فقال: يخرج من حيث يأتى ملك الموت. وكان العلاء بن زياد - رحمه الله - يقول: لا يكمل العالم إلا إن عف عن الدنيا وعن النساء. وقد كان سفيان الثورى - رحمه الله - كثيراً ما ينشد قوله:

إن وجدت فلا تظنوا غيره ... أن التورع عند هذا الدرهم

فإذا قدرت عليه ثم تركته ... فاعلم بأن تقاك تقوى المسلم

فاحذر يا أخى من فضول الدنيا، واقتد بسلفك الطاهر فى الزهد تسلم من آفاتها، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: محبتهم لتقديم مريدهم خدمة الله تعالى على خدمتهم فإذا دعوا أحدًا إلى حاجتهم ولم يأت لاشتغاله بتلاوة القرآن مثلاً، أو بذكر الله تعالى كان ذلك أرجح عندهم من حاجتهم، ولو كانت ضرورية كطحن القمح، وطبخ الطعام، ونحو ذلك، وهذا الخلق لا يعمل به إلا من خلص من رعونات النفس، وصحت له محبة الله تعالى حتى صار يقدمها على جميع أهوية نفسه.

وقد كان لى ورد فى الصلاة على النبى -ﷺ- فطاب لى الذكر ليلة، واستمريت فيه حتى فاتنى وردى فى الصلاةعلى النبى -ﷺ- فخجلت بعد ذلك منه-ﷺ- حياء منه، فلما أصبحت عرضت ذلك على شيخنا سيدى على الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ فقال لى: لا ينبغى الخجل منه-ﷺ- لأجل ذلك، فإنه -ﷺ- يحب ربه سبحانه وتعالى أكثر من نفسه بيقين، فلا ينبغى أن يتوهم فيه -ﷺ- أنه يتكدر منك لأجل ذلك بل هو -ﷺ- أفرح بذكر الله عز وجل من الصلاة عليه مع أن الصلاة عليه -ﷺ- لابد فيها من ذكر الله تعالى والله أعلم.

وكذلك ينبغى أن يكون الشيخ ينشرح لاشتغال المريد بالصلاة على رسول الله -ﷺ- أكثر مما ينشرح إذا صار المريد يقول: اللهم ارحم شيخى واغفر له، ونحو ذلك لكون النبى -ﷺ- أحب إلى كل شيخ من نفسه ومن أهله، فافهم ذلك يا أخى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: تقديم أعمال الآخرة دائما على أعمال الدنيا، فيقدم أحدهم ورده بعد صلاة الصبح على سائر مهماته كما يقدم التهجد فى الليلة الباردة على نومه تحت اللحاف، وعلى ذلك درج السلف الصالح كلهم ـ رضي الله عنهم ـ فمن أصبح وهمته فى الدنيا فهوخارج عن طريقهم، قد رأيت مرة شيخًا أراد التنزه فى بستان، فترك ذلك اليوم الورد، وصلاة الصبح مع الجماعة، وكان له عمامة صوف وعذبة، فقلت له: يا أخى لو لبست لك عمامة مخططة، وثوبًا مخططًا مما يلبسه العياق، وصليت الصبح فى جماعة، وقرأت الورد لكان ذلك أفضل لك عند

الله تعالى، فلم يرد جوابًا، وكان يونس بن عُبيد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من لم تكن عنده تسبيحة أو تهليلة واحدة خيرًا من الدنيا وما فيها، فهو ممن آثر دنياه على آخرته.

وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ومن خطب الدنيا طلبت منه دينه كله فى صداقها لا يرضيها منه إلا ذلك، وكان سيدى الشيخ أبو الحسن الشاذلى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الدنيا ابنة إبليس، فمن خطبها كثر تردد أبيها إليه، فإن دخل بها أقام عنده بالكلية.

قلت: المراد بخطبته الدنيا تمنيها، وبالدخول بها إمساكها أى إمساك الفاضل منها عن حاجته لغير غرض شرعى، فاعلم أن من أراد أن إبليس لا يسكن عنده مع تزويجه ابنته، فقد رام المحال، ولذلك كان يتوسوس فى الصلاة والوضوء والنيات كلها كثير من الناس يحبون الدنيا بقلوبهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: عدم خوفهم من ضياع ذريتهم من بعدهم، ولذلك كانوا ينفقون كل ما دخل يدهم من الدنيا، ولا يدخرون شيئًا، ولو أنهم خافوا على ذريتهم الضياع لحكم عليهم الحرص والبخل والشح، وخرجوا عن صفات القوم، وفى الحديث: «**الولد مبخلة مجبنة**»[1]، أى يدع أباه بخيلاً جبانًا عن الجهاد وغيره، وفى الحديث أيضًا: «**مالك ما قدمت، ومال وارثك ما أخرت**»[2]. وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ يقول: أنفق يابن آدم ولا يغرنك من حولك من هذه السباع الضارية ابنك وحلائلك وكلالتك، وخادمك، فإن ابنك مثل الأسد ينازعك فيما فى يدك ليختص به دونك، فلا هو يتصدق به عنك، ولا هو

---

(١) ضعيف: ذكره الهندى فى كنز العمال (١٦/ ٤٤٥١٦) وعزاه للطبرانى عن خولة بنت حكيم، وأخرجه أبو يعلى (٢/ ١٠٣٢) عن أبى سعيد -رضي الله عنه-، وضعفه الشيخ الألبانى فى ضعيف الجامع (ح ٦١٦٥).

(٢) صحيح: أخرجه البخارى (ح ٦٤٤٢) فى الرقاق، باب: ما قدم من ماله فهو له، من حديث عبد الله بن مسعود، بلفظ: «إنما مال أحدكم ما قدّم، ومالُ وارثه ما أخرّ».

يدعه في يدك لتنفق منه في مرضاة الله تعالى، وأما حلائلك فهن مثل الكلبة في البصبصة والهرير، أما كلالتك فوالله لدرهم يصل إليهم بعد موتك أحب إليهم من حياتك، وأما خادمك فمثل الثعلب في الحيل والسرقة، فلا تطلب المحبة من هؤلاء، وتدخر مالك لهم، وتوفر ظهرك، فإنهم إنما هم معك على غلالة، فإذا وضعوك في اللحد رجعوا إلى بيوتهم، فبخروا الثياب، وعانقوا النساء، وأكلوا وشربوا وبطروا بمالك، وأنت المحاسب بذلك.

وكان أبو حازم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أنفقوا ولا تخشوا الضيعة على أولادكم، فإنهم إن كانوا مؤمنين فإن الله يرزقهم بغير حساب، وإن كانوا فاسقين، فلا تساعدوهم على الفسق بأموالكم، وكان سالم بن أبي الجعد ـ رحمه الله تعالى ـ ينفق كل ما دخل يده أولاً فأولاً، فلامته امرأته على ذلك، فقال لها: لأن أذهب بخير، وأترككم بشر أحب إلي من أن أذهب بشر، وأترككم بخير. وكان محمد بن يوسف ـ رحمه الله ـ يقول: أنفق على أخيك الصالح، فإنه خير لك من ورثتك، وذلك لأنه يدعو لك وأنت بين أطباق الثرى حتى ربما تخرج من قبرك، وليس عليك ذنب بدعائه وأما ورثتك فإنهم يقتسمون مالك وينسونك، ولا يرون لك فضلاً عليهم، ويقولون إن الله تعالى جعل لنا ذلك، وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ لا يقتني في بيته شيئًا سوى الحصير والمصحف والإبريق، وقد أعطاه شخص مرة ركوة جديدة، فلما أصبح أعطاها مالك لشخص من أصحابه، وقال له: خذها يا أخي فإنها أشغلت قلبي خوفًا أن يسرقها أحد من بيتي. وكان الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: دخلت يومًا على أخ لي أزوره، فرأيت عينيه قد غارتا من الجوع، فأخرجت له درهمين وقلت له: خُذهما واشتر لك بهما شيئًا تقتات به يقويك على العبادة، فأبى أن يقبلهما وقال: في قدرة الله تعالى أن يقويني على عبادة هذه الليلة بلا طعام ولا شراب، وإني أخاف أن آخذهما منك فيبيتا عندي

فأموت، ولم أشتر بهما شيئًا، وإن رسول الله -ﷺ- قبض، ولم يجدوا فى بيته دينارًا ولا درهمًا.

قال: ولما حضرت الوفاة محمد بن كعب القرظى ـ رحمه الله تعالى ـ أنفق ماله كله، فقالوا له: هلا ادخرت شيئًا منه لذريتك؟ فقال: ادخاره لنفسى أولى، وأما ذريتى فادخرت لهم فضل ربى، وقد كان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: يخاف أحدنا من فضيحة الدنيا وفقرها، ولا يخاف فضيحة الآخرة وفقرها مع أن فقر الشخص من الأعمال الصالحة فى الآخرة يكون به أشد خجلاً من الناس، فبئس ما فعلنا، وكان يقول: إن هم النفقة والأكل والشرب قد منع قلوب الغافلين عن كل خير، ولدرهم واحد يتصدق به العبد فى حياته خير له من ألف دينار بعد موته.

وكان المدايني ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: توريث الأولاد الأدب خير لهم من توريث المال، لأن الأدب يكسبهم المال والجاه، والمحبة للإخوان ويجمع لهم بين خيرى الدنيا والآخرة، وأما المال فإنه يعدم سريعًا، ويصيرون لا دينا ولا آخرة، وقد جربنا المال الموروث غالبًا، فوجدناه لا خير فيه ولا بركة لكونه ليس هو بكسب الوارث، وربما كان المورث بخيلاً به على ورثته وغيرهم، فاعلم يا أخى ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: زيارتهم لقبور المسلمين كل قليل عملاً بقوله -ﷺ-: **«زوروا القبور، فإنها تذكركم الآخرة»**(١) وهذا الخلق قل من يعمل به الآن من الناس، وإن وقع أنهم دخلوا تربة فليس فى دخولهم اعتبار، وإنما ذلك لأمر عادى كزيارتهم للميت فى أول جمعة، أو عند تمام الشهرخوفًا من تغير خاطر أهل الميت مثلاً لا سيما إن كان لهم عليه حق فى زيارتهم ولده أو والده لما مات، وهو غرض آخر أجنبى عما قلناه، وكان آخر من رأيته عاملاً بهذا الخلق سيدى الشيخ محمد بن عنان

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (ح ٩٧٦) فى الجنائز، باب: استئذان النبى -ﷺ- ربه عز وجل فى زياره قبر أمه.

كان ـ رحمه الله تعالى ـ يزور القرافة كل يوم جمعة، فكان يزور من عرف من الأموات، ومن لم يعرف، وكان عندما يرى القبور يبكي ويقول: الذكر الوارد في ذلك ثم يقول: ما منهم أحد إلا وهو يشتهي أن يصلي ركعتين، أو يقول: لاإله إلا الله ولو مرة واحدة، فاستغنموا عمركم، وكان يزيد الرقاشي ـ رحمه الله تعالى ـ إذا زار المقبرة يبكي ويقول: ليت شعري بأي أعمالكم اغتبطتم واستبشرتم، ثم يصرخ كما يصرخ الثور.

وكان هشام الدستوائي ـ رحمه الله تعالى ـ إذا زار المقابر ورجع إلى داره يمكث أيامًا لا يستضيء بسراج ويقول: أتذكر ظلمة القبر، وكان عمر ابن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ يزور قبور آبائه من بني أمية ويقول: كأنكم يا آبائي لم تشاركوا أهل الدنيا في لذة ولا نعيم، وكان يقول: ما أحسن ظواهر هذه القبور وإنما الدواهي في بوطانها، وقد رأى الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ رجلاً يضحك في المقابر، فقال له: أما يكفيك أن رسول الله -ﷺ- كان يكره ذلك.

وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن الميت يفتن في قبره سبعة أيام، ولذلك استحبوا التصدق عنه تلك المدة مساعدة له حتى يلقن حجته. وكان عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- يقول: مررت على مقبرة، فرأيت شخصًا خارجًا من قبر وهو يتلهب نارًا من فرقه إلى قدمه، فقال لي: يا عبد الله اسقني ماء، فلا أدري أعرفني باسمي أم ناداني كما ينادي الرجل من لا يعرفه، فأردت أن أسقيه، فقال لي الموكل به: لا تسقه، ولا زال يضربه بالسوط حتى رجع إلى قبره فانطبق عليه.

وكان عطاء السلمي ـ رحمه الله تعالى ـ كثيرًا ما يخرج بعد العشاء إلى المقابر، فلا يزال يناجيهم إلى الصباح ويرجع، وكان يقول: يا أهل المقابر متم فواموتاه، وعاينتم أعمالكم فواعملاه.

وقد مر عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- يومًا على مقبرة، ففرش رداءه وصلى ركعتين هناك، فقيل له في ذلك، فقال: ذكرت أهل القبور وقد حيل بينهم

وبين العبـادة، فأحببت أن أتقـرب إلى الله تعالى بركعتـين بينهم. وكان أبو الدرداء -رضي الله عنه- يقول: إن أعمالكم تعرض على موتاكم، فتارة يسرون، وتارة يحزنون. وكان كثيراً ما يقـول: اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً تخزى به أمواتي بين الأمـوات. وكان الحسن البصـرى - رحمه الله تعالى - إذا حـضر دفن ميت يكاد يغشى عليه ويقول: والله إن أمرًا هذا آخره لحقيق أن يزهد فى أوله، ويخـاف من آخـره. واعلم يا أخى أنه ليس من أخـلاق القـوم حفـر قبـورهم في حال حيـاتهم أدبًا مع الله سبحـانه وتعالى فى قـوله عز وجل: ﴿ وما تدرِى نفس بأيّ أرضٍ تموت ﴾ [لقمان:٣٤]، أى وتدفن، ولكن قد بلغنا أن عمر بن عبـد العزيز - رحمه الله تعالى - قد حفر قـبره بدير سمعان هو وفتيانه فجعل يحفر، والفتـيان ينقلون التراب حتى فرغ من حفره، فدفن فيـه يوم السابع، وكذلـك قد بلغنا عن رجلين من بنى خـولان أنهما حـفرا قبريهما بباب القرافة بمصر، ونقشا اسميهـما على لوح رخام هناك، وأنهما يشـهدان أن لا إله إلا الله، وأن مـحمـدًا رسول الله -ﷺ- وقد قـرأته أيام سياحتى، ولم يكن أحدهم يـبنى على قبره قبة[1]، ولا يعمل له مقصورة، ولا يزخرف له حائطًا، ولا يجعل له فى طبقات قبـته قمرية خلاف ما حدث من بعض متصوفة زماننا، وربما كان من مال بعض الظلمة.

فاحذر أيها الأخ الصالح من مثل ذلك، فقد قالوا: كم من ضريح يزار وصاحبه فى النار، وقد رأيت شيخًا من مشايخ العجم باع كتبه وثيابه وأمتعة داره، وعمل له قبة وتابوتًا وسترًا وشخاشيخ، ونحو ذلك صرف عليها جملة كثيرة، ثم كتب على بابها يقول:

قـف على الباب خاضعًا وأحسن الظـن وارتـج

---

(١) قلت: بناء القبـاب والمشاهد على القبـور وجعلها فى المسـاجد أمر قـد نهى عنه الرسول الكريم -ﷺ- فى أكثـر من حديث، وقد قال عـلى بن أبى طالب -رضي الله عنه- فى الحديث الصحـيح: ألا أبعثك على ما بعثنى علـيه رسول الله -ﷺ-، أن لا أدع قبرًا عـاليًا إلا سويتـه، ولا صورة إلا طمـستها، كما أنه قال قـبل موته: «لعن الله اليهـود والنصارى اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد».

فهـو بـاب مـجرّب لـقضـاء الحـوائـج

وصار كل من رأى تلك القبة وتلك الكتابة يضحك على ذلك الفقير ويقول: إنه خاف أن لا يعتنى به أحد بعد موته، فعلم هو ذلك حتى يُقال: شيخ، وهذا كله غرور، وفتح باب للاستهزاء بالصالحين، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: عدم غفلتهم عن ذكر الله تعالى، وعن الصلاة على رسول الله - ﷺ - فى كل مجلس جلسوه عملاً بقوله - ﷺ -: «**لا يجلس قومًا مجلسًا لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم محمد - ﷺ - إلا كان عليهم ترة**»[1]، أى تبعة ونقصًا يوم القيامة، وأيضًا عملاً بقوله - ﷺ -: «**ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله فيها**»[2] اهـ.

وكان الحسن البصرى - رحمه الله تعالى - يقول: قد خفف الله تعالى علينا بقوله عز وجل: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [البقرة: ١٥٢]، ولم يخص مكانًا دون مكان، ولو أنه تعالى عين لنا مكانًا نذكره فيه لكان الواجب علينا السعى له، ولو كان مسيرة مائة سنة كما صنع فى دعاء الناس إلى الكعبة، فله الحمد والمنة.

وكان الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى - يقول: إذا ذكرتم الخلق فى مجالسكم، فاذكروا الله تعالى، فإن ذكره دواء لداء ذكر الخلق. وقد كان إبراهيم بن أدهم - رحمه الله تعالى - يشترط على من يريد مجالسته أن لا يغفل عن ذكر الله سبحانه وتعالى.

وكان عطاء السلمى - رحمه الله تعالى - يقول: لا ينبغى لمن ظلم نفسه أن يذكر الله تعالى إلا بعد التوبة والاستغفار، فإن الله تعالى يلعن

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٤٥٣) من حديث أبى هريرة، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط.

(٢) أخرجه الطبرانى (٢٠/ ١٨٢)، والبيهقى فى الشعب (ح ٥١٢، ٥١٣) عن معاذ - رضي الله عنه -، وقال الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع (ح ٥٤٤٩): أقرب للضعف.

الظالم إذا ذكره مـا دام مصـراً. قلت: وهو يريد ما ذهب إليـه القوم من التوبة كلما أرادوا أن يذكروا ربهم عز وجل احتـياطًا لنفوسهم، ولاحتمال ظلمهم لهـا، ولو بارتكاب مكروه أو غفلة أو خاطر مذمـوم ونحو ذلك. اهـ. والله أعلم.

وكان داود الطائى ـ رحمه الله تعـالى ـ يقول: إن كل نفس تخرج من الدنيا عطشانة إلا نفس الذاكرين. وكان وهيب بن الورد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن أولى الناس بالله من افـتتح المجلس بالذكـر، وكان ثابت البنانى ـ رحمـه الله تعالى ـ يقـول: إنى لأعرف مـتى يذكرنى الله تعالـى، قيل له: وكـيف ذلك؟ قـال: إذا ذكـرته سـبحـانه وتعـالى ذكـرنى، قـال تعـالى: ﴿فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ﴾، وكان أبو المليح ـ رحمـه الله تعالى ـ إذا ذكر الله تعالى يحصل له طرب ويقول: إنما طربى بذكر الله تعـالى لى، فإنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَاذْكُرونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، وكان إذا مشى فى طريق وهوغافل عن ذكر الله تعالى رجع ثانيًا، وذكر الله تعالى فيها ولو مرحلة، ويقول: إنى أحب أن تشهد لى البـقاع التى أمر فيـها كلها يوم القيامـة. وقد كان داود - ﷺ - يقول: اللهم اجـعلنى من الذاكرين لك، وإذا رأيتنى جـاوزت مجلس الذاكرين إلى مـجلس الغافلين فكسر رجلى، فـإنها نعمـة منك علىّ. وكان يحيى بن مـعاذ ـ رحمه الله تعـالى ـ يقول: حادثوا القلوب بذكـر الله تعالى فإنها سريعة الغفلة. وكان وهب بن مُنبـه ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: واعجبًا من الناس يبكون على من مات جسـده، ولا يبكون على من مات قلبه وهو أشد.

وقد كان بشر بن منصور ـ رحمـه الله تعالى ـ يقلل من مجالسة الناس ويقول: الاجـتماع بالناس مـحل الغفلات، ووالله مـا جلس عندى أحد إلا ورأيت ترك مجالسـتـه أفضل لأنها تصيرخيـراً لى وله. انتهى. فاعلم ذلك يا أخى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: عدم وضع جنبهم فى الأرض إلا عند العجز عن الجلوس، وعلمهم بالقرائن أن الله سبحانه وتعالى

يسامحهم بمثل ذلك، وكان آخر من أدركته على هذا القدم سيدى الشيخ تاج الدين الذاكر ـ رحمه الله تعالى ـ فإنه أخبر أصحابه ليلة وفاته أن له سبعًا وعشرين سنة ما وضع جنبه إلى الأرض، وكذلك سيدى الشيخ أبو السعود الجارحى ـ رحمه الله ـ وقد كان على هذا القدم من السلف عمر بن عبد العزيز، وبشر الحافى، ومحمد بن إسماعيل البخارى، والإمام أحمد بن حنبل، والإمام أبو حنيفة، ورابعة العدوية، والأوزاعى، وجماعة ذكرناهم فى الطبقات ـ رضي الله عنهم ـ وكان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ إذا غلبه النوم يقوم فيجول فى الدار وينشد قوله:

وكيف تنام العين وهى قريرة ولم تدر فى أى المحلين تنزل

وكذلك كانت رابعة العدوية، وشعوانة، وفاطمة الرملية ـ رحمة الله عليهن ـ كن يقلن: نخاف أن نؤخذ على بغتة، فعلم أن كل من ادعى الصلاح، ونام فى الأسحار بلا عذر فهو كاذب، فاعلم ذلك. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: رقة قلوبهم، وكثرة بكائهم على تفريطهم فى حقوق الله تعالى لعل الله أن يرحمهم، وكان على هذا المقام الإمام أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وعمر بن الخطاب، وأبو الدرداء ـ رضي الله عنهم ـ وكان لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ خطان أسودان فى وجهه من مجرى الدموع، وكذلك عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وكذلك كان لعمر بن عبد العزيز ويزيد الرقاشى، والفضيل بن عياض، وبشر الحافى، ومعروف الكرخى ـ رضي الله عنهم ـ.

وكان يزيد الرقاشى ـ رحمه الله ـ إذا دخل بيته يبكى، وإذا قدم إليه الطعام بكى، وإذا جلس إليه إخوانه بكى وأبكاهم ويقول: وهل خلقت النار إلا لمثلى، وكان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ طول ليله يبكى، ويجول فى داره، ويصرخ إلى الصباح، وكثيرًا ما يقع مغشيًا عليه، وكان يصلى فى سطح غرفته فيبكى فى سجوده حتى تجرى دموعه وتتقاطر من الميزاب على النائمين تحته حتى كانوا يظنون أنها سحابة مارة فأمطرت عليهم.

وقد كانت رابعة العدوية ـ رحمة الله عليها ـ تبكى وترش دمعها حولها حتى كان يظن الداخل إليها أن ذلك من ماء الوضوء، وكان ابن السماك ـ رحمه الله تعالى ـ إذا حمى مجلسه وتباكى الناس يذكر لهم بكاء داود عليه الصلاة والسلام، وبكاء سفيان الثورى، وداود الطائى، والفضيل ابن عياض، وعمر بن عبد العزيز وأضرابهم، فيستصغر الناس عند ذلك بكاءهم، وذلك كعب الأحبار ـ رضي الله عنه ـ يقول: لأن أبكى من خشية الله حتى تخرج من عينى قطرة واحدة أحب إلى من أن أتصدق بجبل من ذهب، وأنا غليظ القلب، وكان على ـ رضي الله عنه ـ يقول: علامة الصالحين صفرة الألوان، وعمش العيون، وذبول الشفاه - أى من كثرة سهرهم وبكائهم وجوعهم -، وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ليس البكاء بكاء العين إنما البكاء بكاء القلب، فإن الرجل قد تبكى عيناه، وقلبه قاس لأن بكاء المنافق يكون من رأسه لا من قلبه.

وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: البكاء عشرة أجزاء فواحد منها لله تعالى، والتسعة كلها رياء، فإذا جاء ذلك الجزء الذى لله تعالى فى السنة مرة واحدة نجا صاحبه من النار إن شاء الله تعالى. قلت: لا يكمل مقام الرجل فى البكاء إلا ببكاء عينيه وقلبه. وأما الباكى بأحدهما ناقص لا سيما إن كان له أتباع، فإن بكاءه بالقلب لا يذوقه أتباعه فيحتاج إلى بكاء العين ضرورة وإن كان مقامه قد ارتقى عن ذلك والله تعالى أعلم.

وقد بكى رجل رياء فى مجلس صلة بن أشيم فرحمه الناس فقيل له فى المنام: خُذ أجر بكائك ممن أحببت أن يراك باكيًا.

وكان سميط بن عجلان ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كان سفيان بن عيينة ـ رحمه الله تعالى ـ إذا بكى يردد الدمع فى عينه ويقول إنه أبقى للكمد، وكان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ إذا بكى بكت زوجته وعياله وخدمه، ولا يدرون لم ذلك البكاء، وكان صالح المرىّ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الذنوب تطمس القلوب، ولا يزيل ذلك إلا البكاء، وقد بكى شعيب بن حرب ـ رحمه الله تعالى ـ فى مجلس طاوس ـ رحمه الله

تعالى ـ حتى أبكى الناس، وظن أنه فعل أمرًا عظيمًا، فقال له طاوس: اعلم يا أخي أنه لو بكى معك أهل السماء، وأهل الأرض لأجل ذنب واحد فعلته لكان ذلك قليلاً، فكيف تظن أن ذنوبك تمحى لبكائك وحدك، وقد قيل لمالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ ألا نأتيك بقارئ يسمعك القرآن؟ فقال: الثكلى لا تحتاج إلى نائحة، وكان الضحاك ـ رحمه الله تعالى ـ يبكى كل عشية حتى يغشى عليه ويقول: إنى لا أدرى ما صعد اليوم من عملى القبيح هل غفر لى،أو هو باق فى صحيفتى حتى أقف عليه غدًا، وكان مكحول الدمشقى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا رأيتم أحدًا يبكى، فابكوا ولا تظنوا به الرياء، فإنى ظننت ذلك مرة برجل فحرمت البكاء سنة. اهـ.

فعلم أن كل من ادعى الصلاح، ولم يبك بقلبه عند سماع القرآن فهو كاذب، لأن قسوة القلب تنافى أخلاق الصالحين، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: ظنهم بنفسهم الهلاك بسبب تقصيرهم فى الطاعات فضلاً عن وقوعهم فى المعاصى ويقولون: الرجاء فى الله سبحانه وتعالى أن يعفو عنها هو تحصيل الحاصل، وإنما الشأن فى ظن أحدهم أن الله تعالى يؤاخذه على النقير والقطمير ليخفّ وقوفه للحساب يوم القيامة، فإن من لم يحاسب نفسه هنا يطول وقوفه للحساب هناك، نسأل الله تعالى اللطف، وقد كان عبد الرحمن بن هُرمز الأعرج ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: فتشوا أنفسكم فيما هى عليه من القبائح فإن كل أحد يحشر غدًا مع جنسه، فمن وقع فى سائر المعاصى فله مع كل قوم حشر، وكان ـ رحمه الله تعالى ـ كثيرًا ما يعاقب نفسه ويوبخها ويقول لها: إن المنادى ينادى يوم القيامة: يا أهل خطيئة كذا قوموا، فتقوم يا أعرج معهم، ثم ينادى: يا أهل خطيئة كذا قوموا فتقوم يا أعرج معهم، ثم ينادى: يا أهل خطيئة كذا قوموا، فتقوم يا أعرج معهم فأراك يا أعرج تقوم مع كل طائفة. وقد كان سيدى على الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا يكمل الفقير حتى يكون ليلاً ونهارًا كأن أهوال القيامة نصب عينيه لأجل أن يستعد

لها من هذه الدار، وكان رحمه الله تعالى كثيراً ما يقول: من أراد هدوء السر فى القبر، فلا يجعل له سريرة يفتضح بها يوم القيامة، وما دام له سريرة سيئة، فالرعب من لازمه إلى أن يُبعث من قبره مرعوبًا، ولذلك كان لقمان عليه السلام يقول لابنه: يا بنى كما تنام كذلك تموت، وكما تستيقظ كذلك تبعث، فاعمل عملاً صالحًا لأجل أن تنام، وتستيقظ كالعروس، ولا تحمل سوء فتنم، وتستيقظ مرعوبًا كالمجرم الذى طلبه السلطان ليسفك دمه.

وكان أويس القرنى - رحمه الله - يقول: استعمل الخوف فى هذه الدار فإنه أنجى لك من العذاب. وكان سيدى على الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: اعمل لنفسك ولا تعول على غيرك من صاحب وشيخ، فإن لكل منهم يومئذ شأن يغنيه، وصف أعمالك من الرعونات، فإن نورها يوم القيامة على قدر إخلاصك فيها، واعلم أنه لا يستضىء منافق فى نور مؤمن كما لا يستضىء الأعمى بنور البصير.

وكان كعب الأحبار - ﷺ - يقول: من أغلق بابه وعصى الله تعالى واستحيا من المخلوقين دونه عز وجل حاسبه الله تعالى حسابًا شديدًا، ووبخه توبيخًا منكرًا، ثم نظر إليه نظر الغضب، ويقول لملائكته: خذوه فيبتدره ألف ملك، أو يزيدون ويسحبونه على وجهه، قال: فيتفتت فى أيديهم، فانظر يا ابن آدم هل وقعت فى ذلك، وتشفع بأنبياء الله ورسله عسى أن يغفر لك لأجل من استشفعت بهم. وكان الربيع بن خيثم - رحمه الله تعالى - يقول لنفسه: كيف بك يا ربيع إذا حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة؟ وقد كان أبو عمران الجونى - رحمه الله تعالى - يقول: إن البهائم إذا رأت ما يصنع ببنى آدم يوم القيامة تقول: الحمد لله الذى لم يجعلنا من بنى آدم. وكان يحيى بن معاذ - رحمه الله تعالى - يقول: لا تكن ممن يفضحه الميزان والحساب يوم القيامة، فقد بلغنى أن أهل الجمع يعضون كلهم أناملهم خجلاً وحياء من الله تعالى كل واحد حزنه عن قدر ما فرط فى جنب الله. وقد سمعت سيدى عليًا الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: يسهل الله تعالى

على العبد طلوع روحه بقدر ما ذاق من الغصص فى مرضاة الله تعالى، فقلت له يا سيدى: إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أكثر الناس بلاء، ومع ذلك فقد ورد أن أحدهم يشدد عليه المرض وغيره، فقال: تشديد المرض على الأكابر قد يكون تعظيمًا لأجورهم لا لعلاقة دنيوية تجذبهم إليها، بل لا يجوز حملهم على ذلك، وبعضهم يصعب عليه طلوع روحه لأجل تلامذته، فيريد عدم الخروج من الدنيا حتى يكملهم ويرشدهم إلى كمال مقام المعرفة مع محبته للقاء الله تعالى أيضًا، فلما تجاذب عنده الأمران حصل بذلك صعوبة طلوع الروح، ولولا ما عنده من كمال الشفقة على تلامذته لكان أسرع الناس خروجًا لروحه طلبًا للقاء الله تعالى. اهـ.

وكان وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: سأل بنو إسرائيل عيسى -ﷺ- أن يحيى لهم سام بن نوح عليهما الصلاة والسلام، فقال: أرونى قبره، فذهبوا به إليه، فوقف على قبره وقال: ياسام قم بإذن الله تعالى، فقال: فقام حيا وإذا برأسه ولحيته بيضاء، فقال له عيسى: يا سام إنك قد مت وشعرك أسود؟ فقال سام: نعم، ولكن لما سمعت النداء ظننت أنها القيامة، فلذلك شابت رأسى ولحيتى الآن، فقال له عيسى: كم لك من السنين ميت؟ فقال له: خمسة آلاف سنة، وإلى الآن لم تذهب عنى حرارة طلوع الروح.

وقد كان عيسى -ﷺ- إذا ذكر يوم القيامة بين يديه يصيح كصياح الثكلاء ويقول: لا ينبغى لابن مريم أن يسكت عند ذكر القيامة. وكان وهيب المكى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كيف ينبغى لأحد أن يضحك فى الدنيا وهو يعلم أن بين يديه يوم القيامة صرخات وجولات ووقفات يكاد الإنسان أن تنقطع مفاصله من شدة الرعب والخوف. وكان عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول فى قوله تعالى: ﴿**فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ [المعارج:٤]، قال: هو من طلوع شمس يوم السبت إلى نصف النهار، فلا ينتصف النهار حتى يفرغ الخلائق من الحساب، ويستقر أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار.

وكان سيدى على الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من وجد فى نفسه داعيه للتفرج فى البساتين، والنوم مع النساء الحسان فى الفرش الوطيئة، ولبس فى الثياب المبخرة، فهوغافل عن أهوال القيامة إلا أن يكون من كمل الأولياء الذين لا يشغلهم عن الله تعالى شاغل فى الدارين، فاعلم ذلك يا أخى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: عدم الاعتناء ببناء الدور ونحوها، ثم إن وقع أن أحدهم بنى داراً اقتصر منها على ما يدفع الضرورة من غير زخرفة، وذلك لعدم وجود ما يكفى ذلك من الحلال، وعدم طول أمل، فلا يدعهم قصر أملهم يفعلون ذلك.

وقد بنى سيدى أحمد الزاهد ـ رحمه الله تعالى ـ جامعه وداره بطين وطوب وسقف ذلك بالجريد، فعلم أن كل من ادعى الصلاح وبنى البناء المحكم فرحًا بالدنيا فهو كاذب فى دعواه لا سيما من ادعى الانقطاع إلى الله تعالى، فإن ذلك لا يليق به بحال إلا إن كان يرصد ذلك على جهات بر وصدقة ونحو ذلك فيكون الباعث له على أحكام البناء دوام الصدقة بعد موته كما وقع لسيدى مدين، وسيدى أبى العباس الغمرى وأضرابهما ـ رحمهما الله تعالى ـ فلا حرج على مثل ذلك. اهـ.

وقد مر سيدى الشيخ عبد القادر الجيلى ـ رحمه الله ـ على شخص يبنى داراً ويحكمها، فأنشد يقول:

أتبنى بناء الخالدين وإنما مقامك فيها لو عقلت قليل

لقد كان فى ظل الأراك كفاية لمن كان يومًا يقتفيه رحيل

وممن أدركته على هذا القدم شيخنا سيدى على الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ: كان يعيب على الفقير إذا رآه يبنى داراً ويقول له: إن الذى تصرفه على هذا البناء لا تلحق تسكن به، ولما بنى أخى أبو العباس ـ رحمه الله ـ له بيتًا فى جامع البشير صرف عليه سبعمائة دينار فزجره الشيخ وقال له: لو سكنت بأجرة لكفاك العشر مما صرفته فى هذا البناء، وكنت تتصدق بالباقى،

ثم مات أخى أبو العباس بعد سبع سنين أو نحو ذلك، وكان الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا عمر الفقير بيتًا من أموال إخوانه، فمن الأولى له نصحهم فى عدم صرفهم مالهم فى ذلك، وإرشادهم إلى ما يكون أثقل فى ميزانهم يوم القيامة هذا لو أنهم سألوه فى ذلك، فكيف لو فعلوا ذلك عن سؤال منه تعريضًا أو تصريحًا، وقد درج السلف الصالح كلهم على عدم الحرص، وطول الأمل حتى إن رسول الله -ﷺ- بلغه أن أسامة بن زيد -رضي الله عنه- اشترى وليدة إلى شهر، فصار -ﷺ- يقول: **«ألا تعجبون من أسامة المشترى إلى شهر، والله إن أسامة لطويل الأمل»**، ثم قال -ﷺ-: **«والله ما رفعت قدمى وظننت أنى أضعها حتى أقبض، ولا فتحت عينى وظننت أنى أغمضها حتى أقبض، ولا لقمت لقمة وظننت أنى أسيغها حتى أقبض»**[1]، وفى رواية **«حتى أغص بالموت»**. وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من جاع وقصر أمله لم يجد الشيطان محلاً من قلبه.

وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: يابن آدم إنما أنت أيام، فكل يوم يمضى فقد مضى بعضك، وقد أقاموا الصلاة مرة بحضرة معروف الكرخى ـ رحمه الله تعالى ـ فقدموا فقيرًا ليصلى بهم، فأبى وقال: أخاف أن أموت فى الصلاة، فأشوش على الناس صلاتهم فعزموا عليه، فقال: بشرط أن لا أصلى بكم صلاة أخرى. فقال له معروف عند ذلك: تأخر يا أخى فإنك رجل مخلط تخاف أولاً أنك تموت فى الصلاة، ثم تحدثك نفسك أنك تعيش إلى صلاة أخرى، ثم قدم غيره فصلى بالناس.

وكان داود الطائى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من لازم من طال أمله أن ينسى العمل غالبًا، ويسوف بالتوبة. وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من شأن قصير الأمل أن يظن فى كل شىء أكله أنه لا يخرج

(١) ذكره المنذرى فى الترغيب (٤/ ٢٤٢) وعزاه لابن أبى الدنيا فى كتاب قصر الأمل، وأبو نعيم فى الحلية (٦/ ٩١)، والإتحاف (١٠/ ٢٣٨) وقال العراقى فى المغنى عن حمل الأسفار (٤/ ٤٣٧): رواه ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل والطبرانى فى مسند الشاميين وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف.

من بطنه إلا على يد الغاسل بعد موته، وأن ما جمعه لا ينتفع به إلا غيره، ومتى ظن خلاف ذلك فهو طويل الأمل، وكان أبو عثمان النهدى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن عمرى الآن مائة وثلاثون سنة فما من شيء إلا وقد تغير على إلا أملى، فإنى أجده كما هو فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الدنيا مطلقة الزهاد لا تنقضى عدتها منهم أبداً، وكل من طلق الدنيا تزوجته الأخرى على الفور.

وقد سمعت سيدى عليًا الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا يسلم إنسانًا منا من طول أمله لكن كل بمقامه، فأعلاهم من كان أمله نفسًا واحدًا، فطول الأمل من رحمة الله لكل أحد، ولولاه ما هنأ أحدًا منهم العيش. وكان عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: مكتوب على ظهر الحوت فى البحر، وعلى ظهر النواة من الثمر: هذا رزق فلان بن فلان لا يأكله غيره، ومع ذلك فالحريص يجتهد ويخاف على رزقه أن يأخذه غيره. فاعلم ذلك يا أخى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: كثرة الشفقة على المسلمين الطائع والعاصى، وعلى سائر الحيوانات، والعمل على حصول عدم نقص لدين أحد بسببهم، وهذا من أشرف أخلاقهم ولا يقدرعلى العمل به إلا من نور الله تعالى بصيرته، وكان أشفق على الناس من أنفسهم بحكم الإرث لرسول الله - ﷺ -، وهناك يرغب الناس فى القرب منه حتى ربما زادوا فى الدار المجاورة له أكثر من المجاورة لأهلهم، وكان عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول: يزاد فى ثمن الدار إذا كان جارها طلق الوجه، حلو اللسان، وقد كان أبو مسلم الخولانى ـ رحمه الله تعالى ـ من المبالغين فى التخلق بالرحمة، حتى أنه ربما كان يمر بالقوم فلا يسلم عليهم، ويقول: أخاف أن يحتقرونى فلا يردوا على السلام، فيأثموا بسببى.

وكان أبو عبد الله الأنطاكى ـ رحمه الله ـ يقول: إذا علمت من الناس الوقوع فى عرضك إذا رأوك، فلا تجتمع بهم رحمة لهم إلا فى أوقات

الصلاة، وكان أبو عبد الله المغاربي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من لم ينظر للعصاة بعين الرحمة فقد خرج عن الطريق. وقد كان معروف الكرخى ـ رحمه الله تعالى ـ إذا رأى عاصيًا دعا له بالمغفرة ورَجَالَهُ بالرحمة ويقول: إن الله تعالى أرسل محمدًا -ﷺ-، وبعثه لنجاة الناس والرحمة لهم، والشيطان لعنه الله بعث لإهلاكهم والشماتة فيهم، قال: ومر على معروف ـ رحمه الله ـ قوم في زورق فى الدجلة، وبين أيديهم الخمر ونحوه، فقيل له: ألا تدعو الله على هؤلاء القوم العصاة؟ فقال: اللهم كما فرحتهم فى الدنيا ففرحهم فى الآخرة.

فقالوا: إنما سألناك أن تدعو عليهم وها أنت تدعولهم، فقال: معاذ الله أن أدعو على مسلم، وإن الله تعالى لا يفرحهم فى الآخرة إلا إن تاب عليهم فى الدنيا، وغفر لهم، وهذا من حسن سياسته رحمه الله، وكان إبراهيم التيمى ـ رحمه الله ـ لا يدعو قط على من ظلمه، ويقول: يكفيه ما حل عليه من وزر ظلمه، وكان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ إذا نزل بفناء داره رفقة وناموا يسهر يحرس متاعهم إلى الصباح من غير علمهم بذلك، وقد روى أن موسى عليه الصلاة والسلام قال: يا رب دلنى على أحب الخلق إليك؟ فقال الله تعالى: يا موسى أحب الخلق إلى من إذا سمع بأن أخاه المؤمن شاكته شوكة حزن لها كأنها شاكته هو. اهـ.

وكان سالم بن الجعد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: بلغنا أن رسول الله -ﷺ- جلس يومًا فى الظل، وأصحابه -ﷺ- فى الشمس، فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال يا محمد: تجلس فى الظل وأصحابك فى الشمس، أى عاتبه -ﷺ- على ذلك تشريعًا لأمته، وكان أبوعبد الله بن عوف ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أول ما يرفع من هذه الأمة الرحمة والشفقة، وقد كان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ إذا حصل لأحد من المسلمين أمر يهتم به سفيان حتى ربما يبول الدم من شدة الحصر، وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من علامة الأبدال كثرة الشفقة والرحمة لعامة المسلمين، وكان معروف الكرخى ـ رحمة الله تعالى ـ يقول:

من قال كل يوم: اللهم ارحم أمة محمد، اللهم أصلح أمة محمد، اللهم فرج عن أمة محمد كتبه الله من الأبدال. اهـ.

فاعلم ذلك يا أخي، واقتد بسلفك في الرحمة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضي الله تعالى عنهم -: موافقة الفقيه إذا أنكر شيئًا من أحوال أهل الطريق أو أمرهم بشيء، ولا يقيم أحدهم عليه الحجة إلا إن علم أنه يرجع إلى قوله، وذلك لأن الفقيه في دائرة لا يعرف غيرها، فإذا قال: إن القطب مثلاً، أو البدل، أو الوتد لا حقيقة له فقل له: نعم واقصد بذلك أنه ليس له حقيقة عنده، وإذا قال: إن الأولياء قد انقرضوا، ولم يبق منهم أحد فقل له: صدقت أي على معتقده هو، وكذا إن قال: الخضرلا وجود له، فقل له: نعم لا سيما إن أتى بكلام أحد ممن ينكر ذلك كابن تيمية، وقد خالف جماعة هذا الخلق، وخالف الفقيه، فوقع بينهم شرور، وقذف أعراض، وسب للطائفة وما هكذا كان الأشياخ السابقون[1]، وكان أخي الشيخ أفضل الدين ـ رحمه الله تعالى ـ إذا جلس إليه فقيه، وأراد أن يبحث معه في علم يقول له: قال الإمام الغزالي كذا وكذا، فقلت له في ذلك، فقال: إنما ننقل لهؤلاء الفقهاء عن الغزالي لأنه من دائرتهم في الأصل

---

(١) قلت: مسألة الأبدال هذه لا يصح فيها حديث.

قال الشيخ الألباني في الضعيفة (٥/ - ٥٢) أحاديث الأبدال لا يصح منها شيء وألفاظها مختلفة جدًا، كما يتبين للقارئ بالاطلاع عليها في رسالة السيوطي المطبوعة في «الحاوي للفتاوي» بحيث لا يمكن القول بأن متنًا معينًا منها بعينه حسن لغيره، غاية ما في الأمر أن هذه الروايات وغيرها مما روي تلتقي كلها على الاعتراف بوجود الأبدال، ويشهد بذلك استعمال أئمة الحديث كالشافعي وأحمد والبخاري وغيرهم لهذا اللفظ، فنجدهم كثيرًا ما يقولون: فلان من الأبدال، ونحو ذلك وأما عددهم ومكانهم، فالروايات مضطربة جدًا، لا يمكن الاعتماد على شيء منها أما معنى الأبدال فقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوي أنهم فسروه بمعان منها: أنهم أبدال الأنبياء، ومنها: أنه كلما مات منهم رجلاً أبدل الله مكانه رجلاً، ومنها: أنهم أبدلوا السيئات من أخلاقهم وأعمالهم وعقائدهم بحسنات، وهذه الصفات لا تختص بأربعين ولا بأقل، ولا بأكثر، ولا تحصر بأهل بقية من الأرض.

قبل التصوف، ولو أنى نقلت لهم شيئًا عن أحد ممن ليس هو من دائرتهم لما قبلوه منا.

قلت: ومما يدل على وجود الأبدال قوله -ﷺ-: **«إن بدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بكثرة صوم ولا صلاة، وإنما دخلوها بسخاوة النفوس، والنصح للأمة»**(١)، وكان أمير المؤمنين على -رضي الله عنه- يقول: الأبدال بالشام، والنقباء بالعراق، والنجباء بمصر. وقد سُئل الإمام أبو عبد الله بن ماجد الجريمى - رحمه الله تعالى - أيكون من النساء أبدال؟ قال: نعم.

وكان الحسن البصرى - رحمه الله تعالى - يقول: لولا الأبدال لخسفت الأرض بمن فيها، ولولا الصادقون لفسدت الأرض، ولولا العلماء لكان الناس كالبهائم، ولولا السلطان لأهلك الناس بعضهم بعضًا، ولولا الحمقى لخربت الدنيا، ولولا الريح لأنتن ما بين السماء والأرض، وكان الفضيل بن عياض - رحمه الله - يقول: ما من نبى إلا وله نظير من أمته. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: كثرة رياضة نفوسهم حتى يصير أحدهم ينظر الذي عليه بادئ الرأي دون الذى له، فإذا سمع نحو قوله تعالى: ﴿**هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾ [الزمر:٩]، يرى نفسه جاهلاً، ويرى جميع أقرانه علماء ببادئ الرأى، وأنه لا يستوى مع واحد منهم، ولا يقاربه فى مقام، ولا حال عكس ما يتبادر إلى الذهن لا سيما ذهن من لم يجاهد نفسه، فاعلم ذلك، واعمل عليه تجد فيه راحة عظيمة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: كثرة عملهم على رقة الحجاب حتى يروا كل شيء فى الوجود حيًا، ويعاملونه معاملة الأحياء، فلذلك كانوا لا يجد لأحدهم خلوة يعصى الله فيها أبدًا لأنه يرى

---

(١) ضعيف جدًا: أورده الشيخ الألبانى فى الضعيفة (ح ١٤٧٧، ١٤٧٨) وقال: ضعيف جدًا.

كل شىء ناظرًا إليه بعينيه يستحى منه، ويصير يعطيه حقه من الأدب، وذلك لأن كل أحد يعلم أن المكان الذى عصى الله تعالى فيه لابد أن يشهد عليه بين يدى الله يوم القيامة، فإذا عصى فى محل، فقد عرضه لوجوب الشهادة عليه، ولو ذكر أحدهم كلامًا قبيحًا يكاد أن يذوب من شدة الحياء، ويود أن الأرض ابتلعته، ولا يكاد يتلفظ بذلك، وهذا خلق غريب والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: أنهم لا يطلبون من الله تعالى إجابة دعائهم فى حق أنفسهم أو فى حق أحد من الخلق إلا إن كان أحدهم مستقيم القلب مع الله تعالى الاستقامة الممكنة فى حقه بحيث لا يصير له سريرة يفتضح بها فى أحد الدارين، أو فيهما ليأتى للإجابة من بابها. وكان سيدى على الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من أراد أن لا يرد له دعاء، فليكن على قدم الملائكة عليهم الصلاة والسلام فى عدم العصيان. وقد كان أبو نجيح ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لو أن المؤمن لم يعص ربه عز وجل لكان إذا أقسم على الله تعالى أن يزيل له الجبل لأجابه.

وكان خالد الربعى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كان إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ جالسًا فى ظل الكعبة يومًا، فقام إليه رجل وقال: يا أبا إسحاق، ما علامة المستقيم؟ فقال: علامته، وأومأ إلى جبل أبى قُبيس أن زل عن مكانك لأزاله الله تعالى له، قال: فعند ذلك تحرك أبو قبيس للإزالة، فأومأ إليه إبراهيم أن قف، فإنه لم أعنك بهذا فوقف. وقد بلغنا عن الجنيد ـ رحمه الله تعالى ـ أنه كان يقول: شهد شخص على الوليد زورًا، فقال الوليد: اللهم إن كان كاذبًا على، فأمته الساعة، قال: فانكب الرجل على وجهه ولا زال يضطرب حتى مات فى الوقت.

وكان الأعمش ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: نعم الرب ربنا عز وجل لو أنا أطعناه فى كل ما أمرنا لأجابنا فى كل ما سألناه سبحانه وتعالى، قال: وكان إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ يومًا جالسًا تحت قنطرة تسمى

مرو الروز، فـوقع رجل من أعلى القنطرة، فقال إبراهـيم: اللهم أمسكه فى الهواء حـتى يأتى من ينقـذه من الهلاك، قـال: فوقف فى الهواء حـتى أتاه الناس فأنزلوه سالمًا. اهـ.

ضرب رجل من أعـوان الولاة مالك بن دينار بالسـوط، فقـال مالك: اللهم اقطع يده، فقطعت يد الرجل من الغد، ومر عـليه وهى معلقة. قال: وكذب رجل على مطرف بن عبد الله ـ رحمه الله تعالى ـ فقال مطرف: اللهم إن كان كـاذبًا فأمته السـاعة، قـال: فوقع الرجل مـيتًا فى الحـال، والناس ينظرونه، فـتعلق الناس بمطرف، وأخـذوه إلى والى البصـرة، وقصوا عـليه القصة، فلما سمع الوالى بـذلك قال: إن هى إلا دعوة رجل صالح صادفت منية الرجل، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: أن لا يدعى أحد منهم محبة أحـد إلا بعد أن يعرض على نفسه مقاسمـته فى ماله، وإذا أصابه بلاء فى جسده، يتـألم كما يتألم المصاب، فإن طابـت النفس بما ذكر، فليقل له: إنى محب، وإلا فليـكف عن الكذب فإنه نفاق، وهذا الخلق قـل من يتخلق به الآن، وقـد تخلقت أنا به فى حق بعض أصـحابـى دون البعض، فـاعلم ذلك يا أخى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: رحمة العصاة، وعدم ازدرائهم، وفداؤهم بأنفـسهم حتى يود أحدهـم أن جلده يقـرض بالمقاريض، ولا يعصى أحد منهم ربه، وكانوا يرون كثرة الشـفقة على العصاة أفضل من الدعاء عليهم، وكـان مطرف بن عبد الله ـ رحمـه الله ـ يقول: من لم يجد عنده رحمـة للعصـاة، فليدع لهم بالتوبة والمغـفرة، فـإن من أخلاق الملائكة عليهم الصلاة والسلام أنهم يستغفرون لمن فى الأرض، وكان زهير بن نعيم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: وددت والله أن جلدى يقرض بالمقاريض ولا يعصى أحد ربه تبارك وتعالى، وكان حبيب العجمى ـ رحمه الله تعالى ـ إذا قرأ آية فيـها أن الله غـضب على قوم يبكى على قـراءتها، ويقـول: يا رب إنك قد أدخلت قلبى الرحمة لهم، فإن شئت فـاغفر لهم، وإن شئت عذبنى عنهم.

قلت: ولعل مراده ـ رحمه الله ـ بالرحمة التى دخلت قلبه فتح باب سؤاله ربه أن يرضى عنهم لا التحجير على الحق تعالى فى غضبه عليهم، فإن الكامل من شأنه أن يغضب لغضب الحق، ويرضى لرضاه عز وجل، وقد كان حبيب هذا ـ رحمه الله ـ معدوداً عند التابعين ممن غلبت عليه أحوال الفقراء، وأرباب الأحوال لا يقتدى بأفعالهم عند أهل الطريق، فإن الله تعالى أرحم بعباده من حبيب هذا، والله أعلم.

وكان منصور بن محمد ـ رحمه الله تعالى ـ يرحم الرجل أن يأمره بأمر، ويقول: أخاف أن يخالف أمرى فيأثم ويقع فى العقوبة، وأكون أنا السبب، وكان سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى ـ يقول: لولا أن يأثم الناس فىَّ لقلت: إن من يغتابنى ويذمنى أحب إلى ممن يمدحنى، لأن المادح لى قد يكذب، وقد كان شفيق البلخى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من لم يرحم الرجل السوء، فهو أسوأ حالاً منه، ومن ذكر عنده رجل صالح فلم يجد لذكره حلاوة، فهو رجل سوء، وكان ميمون بن مهران - رحمه الله تعالى - إذا سمع بقوم ظلموا فى بعض أقطار الأرض يمرض لأجلهم حتى يصير يعاد كما تعاد المرضى، فإذا قيل له: قد فرج الله عنهم يزول مرضه لوقته، وقد كان ثابت البنانى ـ رحمه الله تعالى ـ إذا سأله أحد حاجة يصير لا يصلى صلاة إلا دعا له فى سجوده حتى تقضى حاجته، وقد رد شريك ـ رحمه الله تعالى ـ نملة فارسية رآها فى سفرته من مقدار أربعة فراسخ رحمة لها، وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يفت الخبز للنمل، ويدر لهم الدقيق على بيوتهم، وكان أبوالدرداء ـ رضي الله عنه ـ يشترى العصافير الصغار التى يمسكها الأطفال، ويرسلها إلى عشها، وكذلك الأمهات يرسلها إلى أولادها إذا صيدت.

قلت: وليس هذا من باب تسييب السوائب وإنما الغرض رحمة الأم أو الولد والله أعلم، وكان معاوية إذا سأله أحد فى حاجة فقضى بعضها يحس بتخفيف الهم بقدرها من شدة ارتباطه بإخوانه ـ رحمه الله تعالى ـ. اهـ.

ففتش يا أخى نفسك هل وجدت شيئًا من ذلك لأجل إخوانك، وابك على نفسك حيث لم يكن لكِ نصيب فى مقام الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: القناعة بالموجود وعدم طلبهم الزيادة فى الدنيا من مطعم، أو مشرب، أو ملبس، أو مركب، أو منكح، أو مسكن، أو غير ذلك، وكان وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: خرج الغنى والعز يجولان يطلبان من يقيمان عنده، فلقيا القانع فاستقرا عنده، وكان محمد بن واسع ـ رحمه الله تعالى ـ يأكل الخبز بالملح أو الخل ويقول: من رضى من الدنيا بمثل هذا لم يذل نفسه للناس، وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من لم يقنع بخبز الشعير فى هذا الزمان ابتلى بالذل والهوان، وقد استأذنه مرة شخص فى جمع المال، فقال له: من جمع المال ابتلى بخمس خصال: طول الأمل، وشدة الحرص، وكثرة الشح، ونسيان الآخرة، وقلة الورع.

وقد كان حامد اللَّفاف ـ رحمه الله تعالى ـ يقول من طلب الغنى بالقناعة فقد أصاب الطريق. ومن طلبه بالمال فقد أخطأ الطريق، وقد أدركت بحمد الله تعالى من أصحاب هذا المقام خلقًا كثيرًا: منهم شيخنا شيخ الإسلام زكريا، وشيخنا الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمرى، والشيخ عبد الحليم بن مصلح، والشيخ على النبتيتى، والشيخ على البحيرى، والشيخ محمد بن عنان، والشيخ محمد المنير، والشيخ محمد العدل وغيرهم -رضي الله عنهم- ورأيتهم يفتون الخبز اليابس فى الماء ويكتفون به، وكان الشيخ تاج الدين الذاكر ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ليس القناعة بأن يأكل الشخص كل ما وجد من غير كلفة، وإنما القناعة أن يكون عنده المال الكثير والطعام، ومع ذلك لا يأكل إلا كل خمسة أيام أكلة صغيرة، أو ثلاثة أيام، وقد كان سيدى على الخواص ـ رحمه الله ـ إذا أكل لا يجاوز تسع لقم، ويقول: قال رسول الله -ﷺ-: «**حسب ابن آدم لقيمات يقمن**

صلبه»[1]، واللقيمات من الثلاث إلى التسع، وقوله -ﷺ- حق وصدق، فمن آمن به -ﷺ- الإيمان الكامل كفته التسع لقم ولا يحتاج إلى زيادة عليها. وقد سمعته ـ رحمه الله ـ مرة يقول: من لم يكتف بالتسع لقم في اليوم والليلة فهو لم يؤمن الإيمان الكامل، لقوله -ﷺ-: «**حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه**». قلت: وينبغي حمل ذلك على غير أصحاب الأعمال الشاقة، أما أصحابها كالحراث والحصاد والتراس والنوتي والفاعل ونحوهم، فلا يكفيه مثل ذلك إلا إن كانت تصير قوّته ملكية، وغلبت روحانيته على جثمانيته، كما قلع جبريل عليه الصلاة والسلام مدائن قوم لوط عليه الصلاة والسلام، ورفعها إلى نحو السماء، حتى سمع أهل السماء صياح الديكة، ونباح الكلاب كما ورد مع أن جبريل عليه الصلاة والسلام لا يأكل ولا يشرب فافهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضي الله تعالى عنهم -: شدة عملهم على رقة حجابهم حتى يصير أحدهم يرى الآخرة ونعيمها بعين قلبه، وذلك ليصح زهده في الدنيا، ويتفرغ للآخرة، وإلا فمن حجب رؤية الآخرة فبعيد عليه الزهد في الدنيا، وكان عبد الله بن سلام -رضي الله عنه- يقول: من أراد أن يزهد في الدنيا من غير أن يرى الآخرة بين يديه، فقد رام المحال، وكان أبو واقد الليثي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد كابدنا الأعمال فلم نجد في أعمال الآخرة عملاً أبلغ من الزهد في الدنيا، وقد سمع مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ رجلاً يقول: لو أعطاني الله تعالى في الجنة بيتًا صغيرًا لرضيت به فقال له مالك: ليتك يا أخي زهدت في الدنيا كما زهدت في الجنة. وقد سمعت سيدي عليًا الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما طلب سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده إلا ليتحقق بمقام الزهد، لأن الزهد مع وجود الدنيا أعظم ممن كان زهده فيها مع الفقد، وكان

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٨٠) في الزهد، باب: ما جاء في كراهية كثرة الأكل، وابن ماجه (ح ٣٣٤٩) في الأطعمة، باب: الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، وأحمد (٤/ ١٣٢).

أبو الدرداء - رضي الله عنه - يقول: لو حلف حالف أن الزاهد فى الدنيا خير الناس، لقلت له: صدقت لا تكفر عن يمينك.

وكان الإمام الشافعى - رضي الله عنه - يقول: لو أوصى رجل بمال إلى أعقل الناس لصرفته إلى الزاهد في الدنيا. وكان الحسن البصرى - رحمه الله تعالى - يقول: يحشر الناس كلهم عراة إلا الزاهد فى الدنيا، وكان شقيق البلخى - رحمه الله تعالى - يقول: الزاهد الصادق يقيم زهده بفعله، والمتفعل يقيم زهده بقوله من غير فعل، وقد قال رجل لسفيان بن عيينة - رحمه الله تعالى - أشتهى أن أرى عالمًا زاهدًا فى الدنيا، فقال له: تلك ضالة لا توجد الآن، لأن الزهد لا يكون إلا فى الحلال المحض، وأين يوجد ذلك حتى إن الإنسان يزهد فيه؟ قلت: إن الحلال موجود، والمقامات موجودة ولكن حلال كل إنسان ومقامه على قدر حاله، ولذلك طلب الشارع - ﷺ - منا أن نأكل حلالاً، ونتأسى به فى الأخلاق والمقامات، ولولا وجود الحلال وإمكان الترقى لبطلت الأحكام الشرعية من قرون متعددة. فما ثم إلا من يأكل حلالاً، ويخاف الله عز وجل ويزهد ويتورع، ولكن على قدر حظه ونصيبه، فلعل قوله لم يوجد الحلال على سبيل المبالغة والله أعلم.

وقد كان عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - يقول: من كان أكثر الناس زهدًا فى الدنيا فهو أكثرهم عملاً صالحًا. وكان إبراهيم بن أدهم - رحمه الله تعالى - يقول: من ادعى الزهد فى الدنيا ثم غضب ممن ينقصه عند أهلها فهو كاذب في دعواه، وكان ابن زيد - رحمه الله تعالى - يقول: ليس شىء أقطع لظهر إبليس من الزهد فى الدنيا، وكان ابن السماك - رحمه الله - يقول: قد صار الزهد فى الدنيا مذكوراً فى الكتب، ولا نجد له فاعلاً. وقد سُئل يونس بن عبيد - رحمه الله تعالى - عن غاية الزهد فى الدنيا، فقال: هوعدم الراحة فيها بالكلية. قلت: وممن أدركته من رجال هذا المقام شيخنا سيدى على الخواص، والشيخ عبد الله الفيومى المدفون بتربة الأمير يشبك خارج مصر، والشيخ على المفتى بالصالحية بمصر والشيخ شمس الدين

السمنودى، والشيخ محمد المنير، والشيخ أبو الحسن الغمرى، والشيخ عبد الحليم بن مصلح، والشيخ محمد بن داود، وشيخنا الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمرى، فكل هؤلاء - رضي الله عنهم - كانت الدنيا فى أيديهم لا فى قلوبهم، وكانوا لا يردون سائلاً ولو طلب عمامة أحدهم أعطاها له، وقد لقى الشيخ محمد المنير - رحمه الله تعالى - شخصًا هرب جماله فى طريق الحج، فأعطاه خمسمائة دينار، فلما وصل الرجل إلى مكة أتاه بعوضها، فأبى الشيخ أن يأخذها، وقال له: إنى لم أعطها لك وآخذ بدلها مع أنه لم يكن بينهما معرفة قبل ذلك.

فانظر يا أخى فى فقراء زمانك هل يفعل أحد منهم مثل ذلك مع صاحبه الأكيد فى طريق الحج من غير رجوع عليه، مع أن أحدهم ربما يقول: ويظن أن الشيخ محمداً المنير دونه فى المقام، فابك على نفسك فى تخلفها عن مقامات الصالحين، والحمدلله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: سرعة المبادرة للإحرام خلف الإمام إن كان فى الصلاة، إذ فى ذلك تعظيم لأمر الله عز وجل أن يتهاون أحد منهم فى تأخيره لكن لا لعلة ثواب ولا للذة مجالسة للحق عز وجل فى تلك الصلاة، فإن المبادر لأجل ذلك إنما هو ساع فى حظ نفسه بخلاف من كان الباعث له على تلك المبادرة تعظيم أمر الله سبحانه وتعالى، وعدم التهاون به، ولذلك لما أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالاختتان ولم يجد الموسى اختتن بالقدوم، فقيل له: هلا صبرت حتى تجد الموسى، فقال: إن تأخير أمر الله عز وجل لعظيم، فاعلم ذلك يا أخى واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: هوان الدنيا عندهم وشدة رفضهم لها عملاً بقول رسول الله - ﷺ -: «**إن للدنيا بنين، وللآخرة بنين، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا**»، وقد روى الطبرانى وغيره عن أنس - رضي الله عنه - قال: «**دخلت على رسول الله - ﷺ - يومًا فوجدته**

يدفع شيئًا بيديه، فقلت: يا رسول الله ما هذا الذي تدفعه؟ فقال: الدنيا تطاولت لي، فقلت لها: إليك عني».

وفي الحديث أيضًا: أن رسول الله -ﷺ- وقف على مزبلة قوم، فرأى شاة ميتة، فمسك بأذنها وقال: «**أترون هذه هانت على أهلها؟ قالوا: من هوانها عندهم ألقوها يا رسول الله، فقال -ﷺ-: للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها**»[١]، وفي حديث آخر: «**لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»[٢] وكان محمد بن المنكدر ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: تجيء الدنيا يوم القيامة تتبختر في زينتها، فتقول: يا رب اجعلني لأحسن عبادك دارًا، فيقول الله تعالى: لا أرضاك له اذهبي يا لا شيء كوني هباءً منثورًا، وفي رواية فيقول لها: اذهبي إلى النار، فتقول: يا رب، ومن يحبني معي؟ فيقول لها: ومن يحبك؟ فتأخذهم جيمعًا إلى النار، وكان أبو حازم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: يوقف من يعظم الدنيا بين يدي الله، فيقال له: هذا الذي عظم ما حقره الله، فيسقط لحم وجهه من الخجل، فمن ادعى أنه يحب الله تعالى وهو يحب الدنيا فهوكاذب، لأن من شرط المحب أن يكره ما كرهه محبوبه، وإن الله يكره الدنيا. وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: بلغنا أن الله تعالى يقول: إن أهون ما أنا صانع بالعالم إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي. وقد كان وهب ابن منبه ـ رحمه الله ـ يقول لأصحابه: تعالوا بنا نتوب من الذنب الذي ترك الناس التوبة منه، فيقولون: وما هو؟ فيقول: حُب الدنيا، وسوف يحب الدنيا رجال حتى يعبدوها ويعبدوا أهلها.

وكان الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من لم يجعل حب الدنيا من الكبائر فقد أخطأ الطريق، وذلك لأن الكفر ينبني على الرغبة

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (ح ٢٩٥٧). من حديث المستورد بن شداد -رضي الله عنه-.

(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه (ح ٤١١٠) في الزهد، باب: مثل الدنيا، من حديث سهل ابن سعد -رضي الله عنه- وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (ح ٣٣١٨).

فى الدنيا. قلت: وذلك لأن سبب الكفر بالله تعالى عصيان ماجاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام حسدًا أو كبرًا، وكلاهما من حب الدنيا. والله أعلم. وقد كان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول للحواريين بحق أقول لكم إن حب الدنيا رأس كل خطيئة. وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: اتقوا السحارة التى تسحر قلوب العلماء وتلهيهم عن الله تعالى، - يعنى الدنيا - وهى أسحر وأقبح من سحر هاروت وماروت، لأن ذاك يفرق بين المرء وزوجه، وهذا يفرق بين العبد وربه. وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا الناس وهم يرون الدنيا عندهم كوديعة يؤدونها إلى صاحبها ليس لهم فيها ملك، ولذلك ذهبوا إلى الآخرة خفافًا.

وكان أبو سليمان الدارانى ـ رحمه الله ـ يقول: كل الخبز الحاف وأنت خائف من الدنيا، وإياك أن تعد نفسك بعد ذلك أنك من الزاهدين فإن صغير الدنيا يجرّ إلى كبيرها من حيث لا يشعر العبد. وكان سفيان بن عيينة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إنما أكثر القوم من ذكر الله تعالى لتبعد عنهم الدنيا، فإنهم إذا ذكروا الله بعدت، وإذا تفرقوا عن الذكر أخذت بأعناقهم فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: استحياؤهم من كثرة ترددهم إلى الخلاء، وذلك بدوام الجوع المشروع مع الجدة اقتداء برسول الله -ﷺ-، فقد كان -ﷺ- يشد الحجر على بطنه الشريف من الجوع، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ ولو شاء -ﷺ- لأكل، ولكنه كان يؤثرعلى نفسه. قلت: قد كان له-ﷺ- مقام آخر أكمل من هذا، وهو أنه كان يبدأ بنفسه ولا يجوع إلا اضطرارًا، لأن الكامل من شأنه أن يوفى طبيعته حقها لأنه مسئول عنها، فما جاع -ﷺ- اختيارًا، وآثر على نفسه إلا ليُقتدى به فى ذلك فافهم.

وكان عبد الرحمن بن أبى نعيم ـ رحمه الله تعالى ـ لا يأكل إلا كل خمسة عشر يومًا أكلة، فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف، فدعاه ثم أمر به

فوضع في بيت، وأغلق عليه الباب خمسة عشر يومًا، ثم فتح عليه فإذا هو قائم يصلي. وكان عبد الله بن الزبير -رضي الله عنه- يطوى الأسبوع، فكان لا يأكل إلا يوم السبت. وكان الإمام أبوحنيفة -رضي الله عنه- مقللاً في الأكل جدًا كان يأكل كما يأكل الطير في القلة، ولم يكن في بيته إلا الحصير. وقد كان أبو سليمان الداراني - رحمه الله تعالى - يقول: أحلى ما تكون لي العبادة إذا ألصقت بطني بظهري، فإن الحكمة كالعروس تطلب البيت الخالي تنام فيه لتخلو فيه بصاحبها. وكان الحسن البصري - رحمه الله تعالى - يقول: لا تجمعوا بين أدمين، فإنه طعام المنافقين. وقد رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- رجلاً قد تدلت جلدة بطنه فعلاه بالدرة وقال: إن هذه تشبه جلدة بطن كافر. وكان -رضي الله عنه- إذا رأى رجلاً يشترى اللحم كثيرًا يضربه بالدرة ويقول له: أما علمت أن لهذا اللحم ضراوة كضراوة الخمر. وقد كان الإمام الأوزاعي - رحمه الله تعالى - يدخل الخلاء كل شهر مرة، فصار يدخل في الشهر مرتين، فكانت أمه تقول لأصحابه: ادعوا لعبد الرحمن فإنه صار مبطونًا. وكان مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - يقول: والله لقد استحييت من ترددي إلى الخلاء كل ثلاثة أيام مرة، وكذلك كان الإمام مالك بن أنس، والإمام البخاري - رضي الله عنهما-. وكان مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - يقول: بلغنا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: **«شرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة، ووالله لقد خلطت دقيقي بالرماد وأكلته مدة حتى ضعف جسدي، ولو أني قويت عليه ما تركته أبدًا»**[1]، وكان سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم -رضي الله عنهما- إذا لم يجدا طعامًا حلالاً استفا الرمل الخمسةعشر يومًا أو أكثر.

وكان سفيان الثوري - رحمه الله تعالى - يقول: بت عند الحجاج بن فرفطة - رحمه الله تعالى - أحد عشر يومًا فما رأيته ذاق طعامًا ولا شرابًا، ولا قام لشيء سوى الصلاة. فإن قيل: إن ما ذكرتموه في هذا الخلق من الطي

---

(١) ذكره الزبيدي في الإتحاف (٧/ ٤١٢) وقال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٣/ ٨٩): لم أجد له أصلاً.

أكثر من ثلاثة أيام لم يفعله النبي -ﷺ-، وقد قيدتم هذا الخلق أولاً بالجوع الشرعي، فما وجه الزيادة على ثلاثة أيام؟ فأجاب بعضهم بقوله: إن رسول الله -ﷺ- كان رحمة على أمته، وكان يقول: «**اقدروا القوم بأضعفهم**»[١] مع أنه-ﷺ- قد ورد أنه كان يواصل الصوم فيحتمل أن هؤلاء القوم الذين جاعوا تلك المدد الطويلة كانوا من الورثة له -ﷺ- ويحمل نهيه -ﷺ- عن الوصال على من لم يطق ذلك، فنهاه عن أن يحذب نفسه لئلا تصير نفسه تكره العبادة، وقد بلغنا أن أبا عقال المغربي ـ رحمه الله تعالى ـ كان يأكل في كل ستة أشهر أكلة. وقد سمعت سيدي عليًا المرصفي ـ رحمه الله ـ يقول: قد وقع لسيدي عيسى بن نجم المدفون بساحل بحر البرلس ـ رحمه الله تعالى ـ أنه مكث سبعة عشر سنة لا يأكل ولا يشرب ولا ينام وهو على وضوء واحد. اهـ.

وقد أجاب أيضًا بعض المحققين أن هؤلاء الذين كانوا يطوون تلك المدد الطوال أن أحدهم كان يتناول نحو الزبيبة ونحو القطرة من الماء يخرج بذلك عن الوصال المنهي عنه، وذلك هو الظن بهم والله أعلم. وقد أجمع القوم على أن الجوع من أعظم أركان الطريق حتى قالوا: إذا طلب المريد الأكل بعد خمسة أيام، فأمروه بالكسب فإنه لا يصح منه في الطريق. وكان أبو عثمان الجيزي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كنت أمكث السنة كاملة في بداية أمري وسياحتي لا يخطر الأكل على بالي إلا إن حضر بين يدي. اهـ.

فانظر يا أخي جوعك تجده لا شيء بالنسبة لجوع هؤلاء القوم -رضي الله عنهم- مع أن جوعهم لم يخرج عن السنة كما مر تقريره لقوتهم عليه. وما نهي عن الجوع بالأصالة إلا لخوف الضرر على النفس. وكان سهل بن عبد الله التستري ـ رحمه الله تعالى ـ يقسم عقله وقوته ومعرفته إلى سبعة أجزاء،

---

(١) حسن صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٢١٨) وابن ماجه (ح ٩٨٧) في كتاب إقامة الصلاة، باب: من أمّ فليخفف، من حديث عثمان بن أبي العاص، وقال الشيخ الألباني في صحيح ابن ماجه (ح ٨٠٦): حسن صحيح.

فكان لا يأكل حتى يذهب من كل واحد ستة ويقول: لولا أخاف الهلاك كنت لا آكل حتى تفنى السبعة أجزاء، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: تقديمهم السلامة على الغنيمة من حيث رفض الدنيا وفراغ يدهم منها، فكانوا يقدمون فراغ يدهم من الدنيا على جمعها وإنفاقها فى سبيل الله تعالى خوفًا أن يمنعوا منها حقها حتى كان أحدهم يقول: يا طالب الدنيا لتبر بها غيرك تركك لهما أبر وأبر.

وكان الجنيد ـ رحمه الله ـ يقول: تجديد العبد من الدنيا أفضل من جمعها وإنفاقها. وقد كانوا إذا قيل لأحدهم: خذ هذه الدراهم ففرقها على المساكين يأبى ذلك ويقول: إن من جمعها أولى بتفريقها، وربما يكون فيها حرام وشبهة، فتكون الهنأة للفقراء، والتبعة على من فرق. وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن من تفرغ لعبادة ربه أفضل ممن تركها وسعى على عياله، وقد كان إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن بينكم وبين القوم بعدًا أقبلت عليهم الدنيا ففروا منها، وأدبرت عنكم فتبعتموها، وكان الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى ـ يقول: تجرع مرارة الدنيا أشد من تجرع مرارة الصبر.

وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا يبلغ أحد منازل الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة وأولاده كأنهم يتامى. وقد بلغنا أن عيسى عليه الصلاة والسلام مر ليلة على شخص نائم والناس قائمون يصلون فقال له: قم فصل، قال له: إنى قد عبدت الله تعالى بأفضل العبادة، فقال له عيسى: وما هى؟ قال: قد عبدت الله بأفضل العبادة وهو أنى زهدت فى الدنيا، فقال له عيسى: نم فقد فقت العابدين. ومن أدلة القوم فى هذا الخلق ما ورد أن رسول الله -ﷺ- خرج يومًا على أهل الصفة ـ رضي الله عنهم ـ فقال: **«أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان فيأتى بناقتين كوماوين؟ فقالوا: كلنا نحب ذلك يا رسول الله، فقال -ﷺ-: لأن يترك أحدكم ذلكم ثم**

يذهب إلى المسجد فيتعلم آيتين من كتاب الله خير له من اثنتين وثلاث خير من ثلاث وأربع خير من أربع من أعدادهن من الإبل»[1].

ولكل مقام رجال، ومن شأن الشارع أن يرغب كل أحد فيما أقامه الله تعالى فيه لئلا تتعطل المراتب، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: إذا رأوا شخصًا انقطع عن الناس في الجبل مثلاً ثم رأوه صار ينزل للناس، ويحضر ولائمهم، ويزور أمواتهم أن لا يحملوه على علة فاسدة كأن يقولوا عنه إنه لا يقدر على الوحدة التى شهر نفسه بها، أو يقولوا إنه يفعل ذلك مع الناس لأجل أن يصيروا يحضروا مولده أو نحو ذلك، بل يجب حمله على أنه يفعل ذلك خالصًا لوجه الله من باب حسن الظن، وحسن الخلق مع إخوانه المسلمين.

فإياك يا أخى أن تظن فى أحد من عباد الله المنقطعين فى تربة أو جبل سوءًا إذا رأيت أحدهم خالط الناس، وتقول: إن هذا قد انقطع عن الناس، فما له ولمخالطتهم، بل الواجب أن تظن به خيرًا، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: عدم اهتمامهم بأمر الرزق، وانشراح صدورهم إذا لم يبت عند أحدهم دينار ولا درهم، وكانوا يكرهون ادخار قوت غد، وإذا وقع أن أحدهم ادخر قوت الغد أو الجمعة أو الشهر أو نحو ذلك كان ذلك على اسم العائلة لا على اسم نفسه تسكينًا للاضطراب الذى ربما يقع فى قلب العائلة إذا لم يكن عندهم شىء يأكلونه، فربما وقع أحدهم فى سوء الظن بربه عز وجل.

وقال بعضهم: ربما ادخر القوت الذى علم من طريق كشفه أنه رزقه، ولايصح لأحد غيره أن يتناول منه شيئًا، ولكن قد سمعت سيدى عليًا

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (ح ٨٠٣) فى صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه، وأبو داود (ح ١٤٥٦) فى تفريع أبواب الوتر، باب: فى ثواب قراءة القرآن، من حديث عقبة بن عامر -رضي الله عنه-.

الخواص ـ رحـمه الله تعـالى ـ يقول: من كـمال العـارف إذا اطلع على أن الشيءالفـلانى من رزقه أن لا يخـزنه بل يصبـر حتى يأتيـه فى الوقت الذى جعله الله تعـالى فيـه إيثارًا لفراغ اليـد من الدنيا على إمـساكهـا إذ لا فائدة للادخار.

وقد سمعت الشيخ عليًا النبتيتى البصير ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من شرط من يجتـمع بالخضر -عليه السلام- من الأولياء أن لا يدخر قـوت غد، فمن خبأ قوت غـد لم يجتمع به، ولو كان على عبادة الثـقلين. قال: ومن شأن الخضـر عليه السلام أن يأتى للعارفـين فى اليقظة وللمـريدين فى المنام لأن المريد لا يقـدر على صحـبتـه يقظة، ولذلك يأتيـه منامًا يعلمـه الآداب التى جهلها. وقد كان أبو عبد الله اليسرى أحد رجال الرسالة ـ رحمه الله تعالى ـ يجتـمع به يقظة ويحادثه طويلاً، ثم انقطع عنه بعد ذلك فى اليـقظة، وصار يأتيه فى المنام، قـال: فسأله عن سـبب انقطاعه عنه يقظة فـقال له: نحن لا نصحب من يخبأ رزق غد وأنت قد قلت لزوجتك: فى الوقت الفلانى خذى هذا الدرهم، فاجعليه على الرف إلى غد، فـقال أبو عبد الله: صحيح ذلك ولكنى تبت إلى الله تعالى عن الادخار، قـال: وبعد ذلك لم يأته فى اليقظة إلى أن مات كما أخبر عن نفسه فى مرض موته ـ رحمه الله تعالى ـ.

وكان أويس القرنى ـ رحـمه الله تعالى ـ يقول: لا يقـبل الله من عبده عملاً وهو يهتم بأمر رزقه إذ المهتم بأمر رزقه متهم لله عز وجل، والمتهم لربه لا يرفع له عمـل. قلت: قد يهتم العـبد لرزقـه ويسعى فى طلبـه بكل وجه اهتمـامًا بأمـر الله تعالى بالكـسب لا شكا فى أنه يضـيعـه، وعلى ضد ذلك يحمـل كلام أويس -رضي الله عنه- وقد قـيل مرة لأبى يزيـد البسطامى ـ رحـمه الله تعـالى ـ أنت من أين تأكـل وتشـرب؟ فـقال: مـن حيث يرزق الله الذبابة والبعـوضة افتـراه يطعمهـا وينسى أبا يزيد. قال: وصلى خلف إمـام مدة، فسأله الإمـام يومًا وقال له: إنى أراك لا كسب لك فـمن أين تأكل؟ فقال له أبو يزيد: دعنى أعيد الصلاة التى صليتها خلفك، ثم أجيبك فإنك لا تعرف الله تعالى ولاتصح صـلاة من لم يعرف الله سبحـانه وتعالى قلت: وهذا لا

ينافي حديث: «**صلوا خلف كل بر وفاجر**»[1] لأن الحديث ورد في سد باب الخروج على الأئمة، وهذا في مقام الكمال للإمام واعلم أن دليل القوم في عدم الادخار ما روى أن شخصًا أهدى إلى رسول الله -ﷺ- ثلاث طوائر، فأطعم خادمه طائرًا منها، فلما كان الغد أتته بها فقال -ﷺ-: «**ألم أنهك أن ترفعي شيئًا لغد فإن الله يأتي برزق كل غد**»[2]. اهـ.

فامتحن نفسك يا أخي بعدم ادخار شيء لغد. فإن رأيتها مضطربة، فقل لها: ليس لك في مقام الصالحين نصيب، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: اختيارهم الشدة والبلاء على النعمة والرخاء لأن بذلك يدوم توجههم إلى الله تعالى، ومن أحب الله أحب ما يقربه إليه ويذكره به. وكان وهب بن منبه - رحمه الله - يقول: من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة، فليس هو بفقيه. وقد دخل جماعة على مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - وهوجالس في بيت مظلم وفي يده رغيف فقالوا له: يا مالك، ألا سراج ألا شيء تضع عليه الرغيف؟ فقال: دعوني، فإني والله نادم على ما مضى، وكان الحسن البصري - رحمه الله تعالى - يقول: من وسع الله عليه في الدنيا، ولم يخف أن يكون ذلك مكرًا به، فقد أمن مكر الله تعالى، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يقول: من وجد كل ليلة كسرة يابسة يأكلها، فليس هو بفقير إنما الفقير من لم يجد شيئًا، وقد كان الربيع بن أنس - رحمه الله تعالى - يقول: إن البعوضة تحيا ما جاعت، فإذا شبعت سمنت وإذا سمنت ماتت، وكذا ابن آدم إذا امتلأ من الدنيا مات قلبه. وكان حفص بن حميد - رحمه الله تعالى - يقول: أجمع العلماء والفقهاء والحكماء والشعراء على أن كمال النعيم في الآخرة لايدرك إلا بنقص النعيم في الدنيا.

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (ح٢٥٣٣) في الجهاد، باب: في الغزو مع أئمة الجور، وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الجامع (ح ٣٤٧٨).

(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ١٩٨)، وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الجامع (ح ١٢١٩).

واعلم أن من أدلة القوم على هذا الخلق ما ورد أن رسول الله -ﷺ- قال: «**كيف أنعم وصاحب الصور قد التقمه، وأصغى بسمعه، وحنى بجبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ**»(١).

فاعلم أن الكاملين ينظرون إلى أهوال يوم القيامة من هذه الدار، فذلك هو الذى منعهم لذة الأكل والشرب والنوم والجماع وغير ذلك فافهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: إذا سألهم أحد فى حاجة وهو فى حارة شيخ من مشايخ عصرهم أن يردوا صاحب تلك الحاجة إلى ذلك الشيخ الذى هو فى حارته، ويحسنوا اعتقاد صاحب تلك الحاجة فيه، ومتى قضوا لذلك المحتاج حاجته فقد أساءوا الأدب مع ذلك الشيخ، وقد كان ذلك دأب شيخنا سيدى على الخواص: كان ـ رحمه الله تعالى ـ إذ جاءه أحد وسأله فى حاجة يقول له: أنت من أى حارة؟ فإذا أخبره قال له: ارجع إلى شيخ حارتك فإن الله تعالى لم يجعله فى حارتك إلا ليتحمل هموم أهلها، فاعلم ذلك يا أخى، واعمل عليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: انشراح صدورهم إذا صرف الله تعالى عنهم الدنيا وذلك لأنهم يحبون الله ورسوله، ومن أحب الله تعالى ورسوله -ﷺ- كره الدنيا ضرورة لأنها تشغل عن كمال العبادة، فلذلك كان من أكبر أخلاقهم انقباض قلوبهم من إقبال الدنيا عليهم، وتأمل يا أخى لما كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أكثر الناس محبة لرسول الله -ﷺ- كيف كان أكثرهم يبيت ويصبح، وليس عنده دينار ولا درهم، وقد دعا -ﷺ- لأهل بيته ـ رضي الله عنهم ـ لشدة محبته لهم، ومحبتهم له، فقال:

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذى (ح ٢٤٣١) فى صفة القيامة، باب: ما جاء فى شأن الصور و(ح ٣٢٤٣)، وأحمد (٣/ ٧، ٧٣) من حديث أبى سعيد الخدرى، وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع (ح ٤٥٩٢)، والصحيحة (ح ١٠٧٨، ١٠٧٩).

«**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا**»[1] وذلك ليكون العبد مقبلاً على الله تعالى لا يعوقه عنه عائق لا سيما إن كان ليس عنده صبر على الجوع مثلاً، فإنه يصير مقبلاً على الله تعالى ليلاً ونهارًا يسأله قوته لا يفتر عن ذلك، وكان عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الدنيا سجن المؤمن، وأعظم أعماله فى السجن الصبر، وكظم الغيظ، وليس للمؤمن فى الدنيا دولة، وإنما دولته غدًا فى الآخرة. وقد كان عبد الله بن مسعود ـ ﷺ ـ يقول: سيأتى على الناس زمان يكون المؤمن فيه أذل من الأمة، فيعيش كدود الخل فى الخل، وكان عبد الله بن عباس ـ ﷺ ـ يقول: من حبس الله عنه الدنيا ثلاثة أيام وهوعنه راض وجبت له الجنة، وكان عبد الله بن بكر المزنى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن الله عز وجل ليجرع عبده المؤمن، ويذيقه مرارة الدنيا محبة فيه كما تجرع المرأة ولدها الصبر لأجل العافية.

ومن أدلة القوم فى هذا الخلق ما ورد: أن رجلاً قال لرسول الله ـ ﷺ ـ: إنى أحبك يا رسول الله، فقال له النبى ـ ﷺ ـ: «**إن كنت تحبنى فأعدّ للفقر تجفافًا، فإن الفقر أسرع إلى من يحبنى من السيل إلى منتهاه**»[2]. وقد كانت عائشة ـ ﷺ ـ تقول: ما زالت الدنيا علينا عسرة كدرة حتى قبض النبى ـ ﷺ ـ، فصبت علينا الدنيا صبًا أى لأنا كنا ببركته ـ ﷺ ـ، فى حماية من الدنيا، فلما توفى النبى ـ ﷺ ـ ذهبت تلك الحماية، ودخل علينا النقص، وقد سمعت سيدى عليًا الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا ترقى العبد فى مقامات العرفان صارت الدنيا تزداد منه نفرة، ولو أنه طلبها لما أجابته، وذلك لعدم رؤيتها محلاً من قلبه تمكث فيه. اهـ.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخارى (ح ٦٤٦٠) فى الرقاق، باب: كيف كان عيش النبى ـ ﷺ ـ، ومسلم (ح ١٠٥٥) فى الزكاة، باب: فضل التعفف والصبر، من حديث أبى هريرة ـ ﷺ ـ.

(٢) منكر: أخرجه الترمذى (ح ٢٣٥٠) فى الزهد، باب: ٣٦، وقال الشيخ الألبانى فى الضعيفة (ح ١٦٨١): منكر.

فاعلم أن من علامة من ادعى الفقر كذبًا أن يزداد من أمتعة الدنيا وزينتها كلما طعن فى السن، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: شدة الفرح فى الدنيا كلما حيل بينهم وبين الوصول إلى شهواتهم فيها، فيقولون: لولا أن الله تعالى يحبنا ما حال بيننا، وبين ما يحجبنا عنه. وكان مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - يقول: قال لى معلمي عبد الله الرازى - رحمه الله تعالى - إن أردت القرب من الله تعالى، فاجعل بينك وبين الشهوات حائطًا من حديد. وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: حرام على قلب أحب الشهوات أن أجعله إمامًا للمتقين. وكان عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - يقول: أميتوا الشهوات فى أنفسكم، ولا تميتوا أنفسكم فى الشهوات فإن من جعل شهوته تحت رجليه فر الشيطان من ظله كما أن من جعلها فى قلبه ركبه الشيطان، فصرفه كيف شاء بتسليط الله تعالى.

وقد كان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: الجنة ترجع بجملتها إلى شيئين الراحات والشهوات، ولا يدخل أحد الجنة إلا بترك الراحات والشهوات فى الدنيا، وكان عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - يقول: سيأتى على الناس زمان يكون همة أحدهم بطنه، ودينه هواه، وسيفه لسانه. وكان الحسن البصرى - رحمه الله تعالى - يقول: ليست الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام من نفسك. وكان سفيان الثورى - رحمه الله - يقول: ما عالجت شيئًا أشد من نفسى مرة معى ومرة علىّ، وكان يقول: كفوا أنفسكم عن الشهوات قبل أن يخاصم بعضكم بعضًا، ومن أدلة القوم فى هذا الخلق قول النبى - ﷺ -: «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»[1]، وقد ورد أنه قدم إلى رسول الله مرة سويق اللوز، فرده وقال: «**هذا طعام المترفين فى الدنيا**»،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخارى (ح ٦٤٨٧) فى الرقاق، باب: حجبت النار بالشهوات، ومسلم (ح ٢٨٢٣) فى الجنة وصفة نعيمها وأهلها، من حديث أبى هريرة، وأخرجه مسلم (ح ٢٨٢٢) من حديث أنس - رضي الله عنه -.

وكان أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول: ما زاد على لون واحد، فهو طعام الفسّاق. اهـ.

وسيأتى زيادة على ذلك فى محله إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: عدم التغالى فى الثياب، بل كانوا يلبسون ما وجدوا من الحلال ولو خيشة، وإذا لبس أحدهم جبة أو عمامة صوف لا يتغالى فى ثمنها عكس ما عليه فقراء هذا الزمان، فربما تكون جبة أحدهم أو عمامته الصوف أغلى ثمنًا من ثياب التجار. اللهم إلا أن يكون أحدهم ممن لا تدبير له مع الله تعالى، فهذا يلبس ما شاء من المباح، وقد كان حاتم الأصم وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ لا يلبسون من الدنيا إلا ما خلق من الثياب، وصارت فيه رقع كثيرة.

وقد كان أويس القرنى ـ رضي الله عنه ـ يلتقط الخرق من المزابل، ثم يخيطها بعد غسلها ويلبسها. وكان إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ يلبس الجبة السوداء حتى تنشق عليه، وقالوا له مرة: كم لهذه الجبة عليك؟ فقال: تسع سنين ما نزعتها قط. وقد كان الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ يلبس الثوب حتى يتسخ جدًا، فإذا قيل له: ألا تغسل ثوبك؟ يقول: الأمر أعجل من ذلك، وقد قال على بن أبى طالب لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ إن أردت اللحوق بصاحبيك فرقع قميصك، واخصف نعلك، وقصر أملك، وكل دون الشبع.

وقد كان أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ بيته خال من المتاع ليس فيه سوى المطهرة التى يتوضأ منها فقيل له يومًا: ألا تجعل فى بيتك متاعًا؟ فقال: إن رب البيت لا يدعنا نقيم فيه، وإن لنا بيتًا آخر سنوجه إليه صالح أعمالنا إن شاء الله تعالى. وكان أبو إدريس الخولانى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لأصحابه: لا تعتنوا بغسل ثيابكم فلقلب نقى فى ثوب دنس أحب إلى الله تعالى من قلب دنس فى ثوب نقى. وكان عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول: كان أصحاب

رسول الله -ﷺ- أخشن منكم ثيابًا، وأرق قلوبًا، وسيأتي زمان يكون أهله أرق ثيابًا وأخشن قلوبًا. وكان أبو عبيدة -رضي الله عنه- يقول: رب مبيض لثيابه مدنس لدينه. وقد قيل مرة لأبي سليمان الداراني - رحمه الله تعالى - ألا تسرح لحيتك؟ فقال له: إني إذا لفارغ القلب. وقيل لإبراهيم بن أدهم - رحمه الله تعالى - ألا تخضب لحيتك؟ فقال: الخضاب زينة، وما نحن من أهلها الآن. وكان ثابت البناني - رحمه الله تعالى - يقول: ربما أريد أن أغسل ثوبي، فأفكر في قلبي فأتركه، وكان يغسل ثوبه بالأشنان فقط دون الصابون.

وكان مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - لا يزيد على العباءة صيفًا وشتاءً ليلاً ونهارًا، وكان أبو إسحاق السبيعي - رحمه الله تعالى - يقول: كانت طيالس الناس قعر بيوتهم ولم يكن يلبس الطيلسان على عمامته إلا شهر بن حوشب فقط رحمه الله. وقد كان أنس بن مالك -رضي الله عنه- يقول: ما شبهت الناس اليوم في المساجد، وعليهم الطيالسة إلا بيهود خيبر. اهـ.

قلت: المطلوب من الطيلسان على الرأس إنما هو كف النظر عن فضول النظر للحيطان وغيرها. وليس هو بكبير أمر، وإنما الشأن أن يلبس على قلبه طيلسانًا يمنعه أن يمد بصره إلى شيء من شهوات الدنيا، قال تعالى: ﴿**ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم**﴾ [طه:١٣١]، ولكل مقام رجال والله أعلم. وقد كان عروة بن الزبير -رضي الله عنهما- يقول: رأيت رداء رسول الله -ﷺ- الذي كان يخرج به إلى الوفود طوله أربعة أذرع، وعرضه ذراعان وشبر، فكان عند الخلفاء بعده -ﷺ- حتى خلق كانوا يلبسونه يومي العيدين.

وكان مالك بن دينار - رحمه الله - يقول: يا قارئ ما لك وللطيلسان؟ إنما ينبغي لك مدرعة صوف، وعصا كراع تفر من الله إلى الله، وتشوق إخوانك إلى الله. وقد كان يوسف بن أسباط - رحمه الله تعالى - يقول: رأيت سفيان الثوري - رحمه الله تعالى - في طريق مكة فقومت ما عليه من الثياب حتى نعله، فوجدت ذلك يساوي درهما واحدًا وأربع دوانق.

واعلم يا أخي أن دليل القوم في هذا الخلق قوله: «**البذاذة من الإيمان**»[1] والبذاذة لبس الخلق من الثياب، فلا يبالي الشخص بأي ثوب لبس، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضي الله تعالى عنهم -: عدم إسرافهم في الحلال إذا وجدوه، وذلك لأن الحلال غريب في كل زمان بحسب تفاوت أهله في المقام، فربما كان حلالاً عند قوم، وغير حلال عند قوم آخرين. وقد كان السلف يقدمون كسب الدراهم الحلال على سائر مهماتهم، وذلك لأنهم من أبناء الآخرة بيقين، والأعمال الأخروية الخالصة لا تقع على يدي من أكل حرامًا أو شبهات، فإن من أكل حرامًا نشأ عنه فعل الحرام، ومن أكل شبهة نشأ عنه فعل الشبهة حتى لو أراد من أكل الحرام أن يطيع الله لما قدرعلى ذلك، وكان يونس بن عبيد - رحمه الله تعالى - يقول: ما ثم اليوم أقل من درهم طيب، ولو وجدناه لاستشفينا به مرضانا. وكان سفيان الثوري - رحمه الله تعالى - يقول: إن الرجل حيث رغيفه من حل، وإن أهل بيت يوجد على مائدتهم الآن رغيف من حل لغرباء في هذا الزمان، وكان عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- يقول: كسب الحلال أشد على المؤمن من نقل جبل إلى جبل. وقد كان وهيب بن الورد رحمه الله تعالى - يقول: إن لم ير العبد الحلال في زمانه كالميتة للمضطر وإلا هلك. وقد سمع الحسن بن علي -رضي الله عنهما- شخصًا يقول: اللهم ارزقني حلالاً صافيًا فقال له: يا هذا سل ربك رزقًا لا يعذبك عليه فإن الحلال الصافي إنما هو رزق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكان إبراهيم بن أدهم - رحمه الله تعالى - كثيرًا ما يعمل إلى آخر النهار، فإذا أعطوه أجرته نظر إليها وقال لأصحابه: إني أخاف أن أكون لم أبذل قوتي كلها التي طلبها مني صاحب الزرع، ثم يتركها ويذهب طاويًا تلك الليلة، وكان يرى الحضور مع الله تعالى في عمل الحرفة شرطًا للحل، وكل شيء عمله بلا حضور لا يأخذ له أجرة.

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (ح ٤١١٨) في الزهد، باب: من لا يؤبه له، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (ح ٣٣٢٤)، وانظر الصحيحة (ح ٣٤١).

وكان سعد بن كدام ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا أعرف اليوم بقى من الحلال إلا ما يشربه الرجل من الدجلة أو النيل بكفه. قال: وطلب رجل الحلال فما صفا له إلا الحشيش الذى على حافات الأنهار، فصار يأكل منه حتى اخضر جلده ثلاثين سنة، فإذا هو بهاتف يقول له: الآن قد صفا لك أكل الحلال، وخلصت من الحرام. قال: وامتنع بعضهم من الأكل مما يدخل أيدى بنى آدم، ثم ذهب إلى البرية يأكل من حشيشها فنودى فى سره هب أنك تتورع من اليوم، فما تفعل فى القوة التى اكتسبتها حتى مشيت إلى هنا، فانظر من أين حصلتها.

وقد سُئل مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ عن نبيذ الجرار فقال: للسائل ويحك انظر إلى الثمر من أين هو قبل أن ينبذ فى الماء. وكان إبراهيم ابن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: رأيت عابداً يقوم إلى الصلاة بثقل، فنظرت فإذا هو من عدم صفاء مأكله، ولو أنه أكل حلالاً لم يحصل له ثقل. وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله ـ إذا ذهب إلى وليمة أخذ معه رغيفًا يأكل منه، فإذا قال له صاحب الوليمة: هل لا تأكل من خبزى يا سيدى؟ يقول له: إنك تدرى خبزك من أين هو؟ وأنا أدرى خبزى من أين هو، فكل واحد يأكل مما يدرى.

قلت: وممن أدركته من أصحاب هذا المقام سيدى الشيخ محمد بن عنان كان ـ رحمه الله تعالى ـ إذا دعى إلى وليمة يأخذ معه رغيفًا يأكل منه إذ نصب السماط. وقد سُئل سفيان الثورى عن فضل الصف الأول؟ فقال: انظر رغيفك من أين هو، فكله وصلِّ فى أى صف شئت ولا حرج عليك، وكان عبد الله بن عباس ـ ﷺ ـ يقول: لا يقبل الله صلاة العبد وفى جوفه شىء من الحرام، وكان السرى السقطى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: النجاة فى الثلاث، سبيل الهدى، وكمال التقى، وطيب الغذاء، وكان وهيب بن الورد ـ رحمه الله ـ يقول: لو صمت وصليت حتى صرت مثل هذه السارية ما ينفعك ذلك إلا بعد أن تنظر ما يدخل جوفك، واعلم أن دليل القوم فى هذا الخلق قوله تعالى: ﴿كلوا من الطَّيِّبات واعملوا صالحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]،

وهوخطاب للرسل. وقد صرح في الحديث بأن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين. اهـ. ومن أدلتهم أيضًا ما ورد أن رسول الله -ﷺ- قال: «**لا يكتسب عبد مالاً من حرام فيبارك له فيه، ولا يتصدق منه فيؤجر عليه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان دافعًا له إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو الخبيث بالطيب**»[1].

فانظر يا أخي إلى طعامك في هذا الزمان، وعليك بالجوع المفرط، وإياك أن تأكل من طعام أمير أو مباشر أو قاض فضلاً عن أطعمة الظلمة والمكاسين من غير تفتيش، فإنك تهلك في دينك، ولوكان على رأسه عمامة صوف وجبة ولك عذبة. فافهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: كثرة الوصايا من بعضهم لبعض، وقبولهم المواعظ وشكرهم الواعظ، وعدم رؤية أحدهم في نفسه أنه قام بواجب حق من نصحه ولو أحسن إليه مدى الدهر، وذلك لأن الأمور الأخروية لا تقابل بالأعراض الدنيوية. وقد قال رجل للحسن البصري - رحمه الله تعالى - أوصني، فقال له: أعز أمر الله حيثما كنت يعزك الله حيثما كنت، وقال رجل لعمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - أوصني، فقال له: احذر أن تكون ممن يخالط الصالحين ولاينتفع بهم، أو يلوم المذنبين، ولا يجتنب الذنوب، أو ممن يلعن الشيطان في العلانية، ويطيعه في السر، وقال رجل للفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى - أوصني، فقال له: هل مات والدك؟ قال: نعم، فقال له: قم عني، فإن من يحتاج إلى من يعظه بعد موت والده لاتنفعه موعظة، وقال رجل لمحمد بن واسع - رحمه الله - أوصني، فقال له: كن ملكًا في الدنيا والآخرة، قال: كيف ذلك؟ قال: ازهد في الدنيا، فقال له الرجل: زدني، قال له: اجعل نفسك ذنبًا، واجلس إلى الناس، ولا تجعل نفسك رأسًا، وتطلب منهم أن يجلسوا إليك، وقد دخل عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - يومًا على عابد، وقال

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (١/ ٣٨٨) وضعفه الشيخ الألباني في غاية المرام (ح ١٩).

له: جئتك لأجل أن تعظني، فقال له العابد: لو علمت أنك ممن يخاف الله تعالى لوعظتك، فغشي عمر من كلامه.

وكان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: رأيت أبا العباس الخضر عليه السلام بالمدينة المشرفة فقلت له: أوصني، فقال: إياك يا عمر أن تكون وليًا لله تعالى في العلانية، وعدوًا له في السر وقال رجل لعيسى عليه الصلاة والسلام: عظني يا روح الله، فقال له: إلى كم يوعظ أحدكم ولا يتعظ، لقد كلفتم الواعظين شططًا وتعبًا، وقال رجل للحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ أوصني، فقال له: لا تذنب فتلقي نفسك في النار مع أنك لو رأيت أحدًا يلقي برغوثًا في النار لأنكرت عليه، وأنت تلقي نفسك في النار كل يوم مرات كثيرة، ولا تنكر عليها، وقال رجل لعبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ أوصني، فقال له: اترك فضول النظر توفق للخشوع، واترك فضول الكلام توفق للحكمة، واترك فضول الطعام توفق للعبادة، واترك التجسس على عيوب الناس توفق للإطلاع على عيوب نفسك، واترك الخوض في ذات الله توق الشك والنفاق. وقال رجل لمحمد بن سيرين ـ رحمه الله تعالى ـ أوصني، فقال: لا تحسد أحدًا، فإنه إن كان من أهل النار فكيف تحسده على دنيا فانية سيصير بعدها إلى النار، وإن كان من أهل الجنة فاتبعه في أعمالها، واغبطه عليها، فإن ذلك أولى من حسدك له على الدنيا.

وقال رجل للحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ عظني؟ فقال: واعجبًا من ألسنة تصف، وقلوب تعرف، وأعمال تخالف. وقال رجل لأبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ أوصني؟ فقال له: اذكر يومًا تصير السريرة فيه علانية. وقال رجل لسفيان بن عيينة ـ رحمه الله تعالى ـ أوصني؟ فقال له: إياك أن تتكبر أو تأكل شيئًا من أموال الناس بغير حق، فإن من تكبرعلى الناس ذل، ومن اغتنم أموال الناس افتقر. وقد سمع الحسن

البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ مرة رجلاً يقول: «**المرء مع من أحب**»[1] فقال له: لا يغرنك يا أخى هذا القول، فإنك لن تلحق بالأبرار إلا إن عملت بمثل أعمالهم فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم، وليسوا معهم فى الجنة لتخلفهم عنهم فى الأعمال، ومخالفتهم لهم، ثم قال: واعجبًا من قوم أمروا بالزاد، ونودوا بالرحيل وهم جلوس يضحكون، فإن من كان الليل والنهار مطيته فهو يسار به ولا يشعر. وكان شقيق البلخى ـ رحمه الله تعالى ـ يأمر أصحابه بالتهيؤ كل وقت للموت، ويقول: ربما يتهيأ الواحد منا خمسين سنة للموت، ولا يصح له تهيؤ إنما التهيو لمن زهد فى الدنيا كعمر بن الخطاب ـ ﷺ ـ فإنه كان يقول: للموت كل صباحًا ومساءً: يا ملك الموت خذنى فى أى وقت شئت. اهـ.

ومن أدلة القوم فى هذا قوله -ﷺ-: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**»[2]، فاعلم ذلك يا أخى، وانتبه لنفسك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: أنهم لا ينصحون ولا يوصون إلا من علموا منه بالقرائن قبول النصح والوصايا منهم، وأما من علموا منه أنه تتحرك نفسه إذا نصحوه ونحو ذلك، فالأولى الإعراض عنه، وتأخير ذلك حتى يجد أحدهم طريقًا شرعيًا يدخل إليه منها، وكان حامد اللفاف ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ولا تنصح أحدًا إلا إن علمت منه

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخارى (ح ٦١٦٧) فى الأدب، باب: ما جاء فى قول الرجل: ويلك، و(٦١٧١، ٧١٥٣)، ومسلم (ح ٢٦٣٩) فى البر والصلة والآداب، باب: المرء مع من أحب، من حديث أنس -ﷺ- وأخرجه البخارى (ح ٩١٧٠)، ومسلم (ح ٦٤٤١) من حديث أبى موسى.

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٣٠٦) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى، والبيهقى فى شعب الإيمان (ح ١٠٢٤٨) من حديث ابن عباس -ﷺ-، وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع (ح ١٠٧٧).

القبـول، وإلا فربما أعـقبك ذلك النصح ضـرراً لا تطيقـه. وإياك أن تطلب الرياسة على أحد فى هذا لزمان، فإن كل أحـد قد عد نفسه أبا فلان، وإياك أن تقتدى بكل أحد فإن الأهواء قد انتشـرت انتشاراً عظيمًا، وإياك أن تفشى سرك إلى أحد، فإن الأمانة قد ارتفعت.

قلت: وقد صدق ـ رحمه الله ـ فإنه قد وقع لى أنى نصحت مرة شيخًا من مشـايخ العصر بأنـه لا يأكل من بيوت الظلمة، وكـان ذلك بينى وبينه، فمكث سبع عشرة سنة لا يكلمنى وما صالحته إلا بجهد عظيم، فكيف حالى معه لو كنت نصحته فى الملأ لعله كان يسعى فى قتلى، فاعلم ذلك يا أخى، واعرف زمانك، وانصح إخوانك بسياسة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخـلاقـهم - رضى الله تعـالى عنهم-: تقليل أعـمالهم فى عيونهم من حيث كسبهـم لها، ولو كانوا على عبادة الثقلين، فكانوا لا يرون أنهم قاموا بذرة واحدة من حقوق الله عز وجل، وقد قام رسول الله -ﷺ- حتى تورمت قدماه الشريفان، وقطر منهما الدم.

فقالوا له: تفـعل ذلك يا رسول الله، وقد غفـر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أفلا أكون عـبداً شكوراً**»[1]. وقد كانت امـرأة مسروق ـ رحمهما الله ـ تقول: كان مسروق ـ رحمه الله ـ يصلى حتى تنتفخ ساقاه من طول القيام حتى كنت أجلس خلفه أبكى رحـمة له. وكان الحسن البصرى ـ رحمـه الله تعالى ـ يقـول: لقد أدركت أقـوامًا كان أحـدهم أشح على دينه وعمـره من أحدكم على ديناره ودرهمه. وكـان عمر بن عـتبة ـ رحـمه الله تعالى ـ يخـرج إلى المقابر كل ليلة فيصلى تجـاهها من العشاء إلى الـفجر ثم يرجع فيصلى الصبح فى المسجد. وكـان يقول لأهل المقابر: إذا أقبل عليها: يا إخوانى قـد طويت صفحتكـم. وكان أويس القرنى ـ رحمـه الله تعالى ـ

(١) متفق عليـه: أخرجه البخارى (ح ١١٣٠) فى التهجـد، باب: قيام النبى -ﷺ-، و(ح ٤٨٣٦، ٦٤٧١)، ومـسلم (ح ٢٨١٩) فى صـفات المنافـقين، باب: إكـثـار الأعمـال والاجتهاد فى العبادة.

يحيي الليل كله في سجدة واحدة، فكان لا يرفع رأسه حتى يحس بعظمه قد ذاب من شدة البكاء بين يدى ربه عز وجل.

قال: ولما تاب عتبة الغلام ـ رحمه الله تعالى ـ كان لا يهنأ بأكل ولا شرب ولا نوم حتى مات. قال: ولما حج مسروق ـ رحمه الله تعالى ـ كان لا يضع جنبه إلى الأرض أبدًا، وإنما كان يغفل وهو جالس فى بعض أوقات. وكان مجاهد ـ رحمه الله ـ يقول لعباد أهل زمانه: أنتم لستم عبادًا، ولكنكم متلذذون بالعبادة، ولقد أدركنا أقوامًا كانوا إذا بلغ أحدهم أربعين سنة طوى فراش النوم حتى يموت ـ رضي الله عنه ـ وكان كهمس بن الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ يصلى كل يوم ألف ركعة، فما يفرغ منها حتى يصير يزحف من الضعف ثم يقول لنفسه بعد ذلك: قومى لهذه العبادة الأخرى يا مأوى كل شر، فلما ضعف آخر عمره كان يصلى كل يوم خمسمائة ركعة، ثم يبكى ويقول: يا ويلى من ربى عز وجل، وقد نقصت نصف عبادتى. وقد كان أويس القرنى ـ رحمه الله تعالى ـ إذا غلبه النوم انتبه فزعًا مرعوبًا، ثم يقول: اللهم إنى أعوذ بك من عين نوامة، ونفس لوامة، وبطن لا تشبع، وكان ابن الجويرية ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: صحبت أقوامًا كابدوا الليل، فما رأيت أحسن مكابدة من أبى حنيفة ـ رضي الله عنه ـ أقمت عنده ستة أشهر فما رأيته وضع جنبه إلى الأرض ليلة من الليالى. وكان ابن مُقاتل ـ رحمه الله ـ يقول: صلى أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ الصبح بوضوء العشاء عشرين سنة، وفى رواية أربعين سنة، وفى رواية سبعًا وأربعين سنة، وفى رواية خمسين سنة، ولعل كل واحد أخبر عنه بما فى زمنه.

وكان يوسف بن خالد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كان أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ يحيى نصف الليل فقط فمرّ يومًا على قوم فسمعهم يقولون: هذا يحيى الليل كله وأشاروا إليه. فقال: أرانى أوصف بما لا أفعل، ثم قام الليل كله من ذلك الوقت حتى مات، وكان أبو مُطيع ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لم يكن لأبى حنيفة ـ رضي الله عنه ـ فراش فى الليل إنما كان يغفل وهو جالس غفلة يسيرة. وكان سفيان بن عيينة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما رأيت أورع من

أبي حنيفة، ولا أعبد منه ـ رضي الله عنه ـ وكان أبو مسهر ـ رحمه الله تعالى ـ لا يضع جنبه إلى الأرض لا ليلاً ولا نهاراً لدوام شهوده أنه في حضرة ربه عز وجل.

وكانت وسادته ركبته، فكان ينام لحظة يسيرة بين الظهر والعصر، ، وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما نمت قط إلا وخفت أن ينزل علي عذاب وأنا نائم، ولو قدرت أن لا أنام ما نمت أبداً. وكان الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أدركت سبعين رجلاً من أهل بدر ـ رضي الله عنهم ـ لو رأوكم لقالوا: هؤلاء مجانين، ولو رأوا ما فعله الناس اليوم لقالوا: هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب، أو ليس لهم في الآخرة من نصيب. وكان أحدهم لا يخرج من بيته إلا للوضوء وصلاة الجماعة في المسجد. وكان المغيرة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: رمقت مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ ليلة فتوضأ بعد العشاء ثم قام يريد أن يصلي، فقبض على لحيته وصار يبكي ويتضرع إلى الفجر، ولم يقدر يركع شيئًا. وقد كان أحدهم يحن إلى الليل إذا أقبل ليخلو فيه بحضرة ربه عز وجل، ويتكدر من النهار إذا أقبل خوفًا من الناس أن يشغلوه عن عبادة ربه. وكانوا قد بلغوا من العبادة الغاية القصوى بحيث لو قيل لأحدهم: إن القيامة تقوم غداً لا يجد زيادة على ما هو فيه. وكان إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ كثيراً ما يصلي العشاء، ثم يضطجع إلى الصباح ويقول: إن خوف النار لم يدعني هذه الليلة أنام ولا أصلي، ولا أتكلم، ثم يقوم لصلاة الصبح بوضوء العشاء. وكان شداد بن أوس ـ رحمه الله تعالى ـ كأنه حبة قمح في مقلاة إلى الصباح ويقول: إن خوف النار منعني أن أنام أو أصلي أو أتكلم هذه الليلة.

قلت: إنما خاف الأكابر من النار لما فيها من الحجاب عن الله تعالى لا لذاتها لأنهم لا يخافون إلا من الله تعالى وحده، كما أن من أحب الجنة من الأكابر لم يحبها لنعيم الأكل ونحوه وإنما أحبها لكونها دار المشاهدة لله تعالى والله أعلم.

وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركت أقوامًا كان أحدهم يصلي حتى يأتي إلى فراشه زحفًا. وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله

تعالى ـ يقول: لو كانت العبادة طائـرًا لكان جناحها الصوم والصلاة، وكانوا لا ينامون في الشـتاء إلافوق الأسطحة كمـا أنهم كانوا يلبسون رقـاق الثياب حتى يبرد أحدهم فلا ينام. وقد كانت فاطمة بنت عبد الملك تقول: ما أعلم أن عـمر بن عـبد العـزيز ـ رحمـه الله تعالـى ـ اغتـسل من جنابة منذ ولى الخلافة. وكان الأسود بن يزيد ـ رحمه الله ـ يصوم فى شدة الحر حتى يصفر بدنه تارة ويخضـر أخرى، فقيل لـه: إلى كم تعذب هذا الجسد؟ فـقال: إنما أطلب راحته ونعيمه، وكان مـالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ قد حفر فى بيتـه قبرًا، فكان ينزله كل ليلة فـيصلى فيـه إلى الصباح. قـال: ولما أفضت الخلافة إلى أمـير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كـان لا ينام ليلاً ولا نهارًا ويقول: إن نمت فى الليل ضيعت نفسى، وإن نمت فى النـهار ضيعت رعيتى وأنا مسئول عنهم.

فـانظر يا أخى إلى حالك، وتأمـل قول بعض هؤلاء الجـماعـة الذين برزوا فى هذا الزمان فـأكلوا الحرام والشبـهات، ولبسـوا الثياب المبـخرات، وصار أحدهم أكثر ما يجرى على لسانه فضل الله تعالى واسع يعنى أن أكلنا الحرام لا يـنقص لنا مقـامًا. فـاعلم يا أخى ذلك، وناقش نفسك إن قـبلت النصح، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخـلاقـهم - رضى الله تعـالى عنهم-: كثـرة خوفـهم من دخول الآفات فى علمـهم وعملهم، وفى إرشادهم الأمة إلى ما فـيه صلاح الدنيا والآخرة، فلا تظن يا أخى أن أحدًا منـهم كان يحب التقدم فى أمر من أمور الدنيا، بل كل أحدهم يكره الفـتيا ويقول: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «**إن المفتى يدخل فيما بين الله وبين عباده**».

وقد كان عبد الرحمن بن أبى ليلى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أدركت مائة وعشرين من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فما كان منهم ـ رضي الله عنهم ـ محدث إلا ويود أن أخاه كـان كفـاه الحديث ولا مفت إلا ويود أن أخـاه كان كـفاه الفتـيا. وكان يزيد بن أبى حـبيب ـ رحمـه الله تعالى ـ يقـول: إن من فتنة العالم فى دينه أن يكون الكلام أحب إليه من السكوت والاستماع، وقد قيل

للإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ إن فلانًا كثير العبادة، فقال: نعم ولكنه يتكلم كلام شهر في جمعة، وفي رواية في يوم: وقد كان الشعبي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: جهدنا كل الجهد في إبراهيم التيمي ـ رحمه الله تعالى ـ أن يجلس للناس في المسجد ليحدثهم فأبى. وكان إذا دخل المسجد لا يستند إلى سارية ولا إلى جدار. وكان الزهري ـ رحمه الله تعالى ـ مع وفور علمه لا يفتي وكان يقول من أفتى بغير وفور كان للإمام معاقبته لأن المفتي على شفير جهنم. قلت: ولذلك لم يتصدر غالب القوم للفتيا احتياطًا لأنفهسم. وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: بذل الدنانير للناس أحب إلى من بذل الحديث لهم وأهون على نفسي.

وكان الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن خفق النعال حول الرجال قلما تثبت معه قلوب الحمقى من أمثالنا. قال: والتفت عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يومًا، فرأى الناس يمشون خلفه. فقال: والله لو رأيتم ما أصنع إذا أغلقت بابي من الغفلة عن الله تعالى واشتغالي بالعيال ما تبعني منكم أحد. وقد نظر عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلى أُبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ والناس حوله، فعلاه بالدرة وقال: إنها فتنة للمتبوع، وذلة للتابع.

وكان سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ إذا رأى الناس يمشون خلفه يقول: هذا خير لكم وشر لي، فإن شئتم فارجعوا عني. وكان الربيع بن خيثم ـ رحمه الله تعالى ـ إذا مشى خلفه أحد يقول: والله لو لا أتقي ألسنتكم ما حدثتكم. فقيل له: يا أبا محمد لعل الله أن ينفع بك ويعلمك الناس؟ فقال: هذا بعيد فإني إذا لم أنتفع أنا بعلمي، فكيف ينتفع به غيري؟ وكان يقول: من أحب أنكم تجلسون إليه فلا تجلسوا إليه، كما أن من أحب أنكم تقومون له فلا تقوموا له. وكان يحيى بن سعيد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول لأصحابه: إذا استحلى أحدكم الحديث فلا يحدث. وكان الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا أقوامًا كانت الكلمة من الحكمة تبدو لأحدهم فيكتمها خوف الشهوة، ولو أنه كان نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه، وكان الناس إذا اجتمعوا يكره أحدهم أن يخرج أحسن ما عنده من الكلام، وقد

كان عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- يقول: إن لله تعالى عباداً أسكتهم خشية الله تعالى، وإنهم لفصحاء. وقد كان حاتم الأصم - رحمه الله تعالى - يقول: لا يجلس في الجامع لا جامع للدنيا، وقد قال إسماعيل بن خلف لسفيان الثوري - رحمهما الله تعالى - يومًا: إني أراك لنشطًا إذا حدثت الناس، يعلو صوتك، وإذا كنت لا تحدث أراك كالميت. فقال له: يا أخي أما علمت أن للكلام فتنة، ووالله ما جلس إلى أكثر من ثلاثة أنفس إلا وتنكرت على نفسي. وقد كان أنس بن مالك -رضي الله عنه- يقول: همة السفهاء الرواية: وهمة العلماء الدراية، وكان إبراهيم النخعي - رحمه الله تعالى - يكره القصص: يعني الوعظ، ويقول: بلغنا أن أمير المؤمنين عليًا -رضي الله عنه- دخل مسجد الكوفة فرأى قاصًا يقص على الناس. فقال: ما هذا؟ قالوا: شخص يحدث. فقال: هذا رجل يقول: اعرفوني أنا فلان.

وقد مر إبراهيم بن أدهم على حلقة الأوزاعي - رحمهما الله تعالى - فرأى ازدحامًا كثيراً. فقال: لو كان هذا الازدحام على أبي هريرة -رضي الله عنه- لعجز عنه فبلغ ذلك الأوزاعي، فترك الجلوس من ذلك اليوم، قال: ولما قدم عيسى بن يونس - رحمه الله تعالى - إلى مكة فأحاط به الناس في المسجد الحرام، وازدحموا عليه فمر به الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى - فدنا منه وقال له: يا أخي انظر إلى قلبك فلعله تغير من كثرة الازداحم عليك فنظر عيسى إلى نفسه ساعة، ثم قام فوراً وترك المجلس من ذلك اليوم، وقد كان سفيان الثوري - رحمه الله تعالى - يقول: إن استطعت أن تكون عالماً لا يعرفك الناس فافعل، فإن الناس لو عرفوا ما في نفسك لأكلوا لحمك. وقد طلب الناس من سفيان بن عيينة - رحمه الله تعالى - أن يجلس يحدثهم فأبى وقال: ما أنا بأهل أن أحدث ولا أنتم بأهل أن تسمعوا، وما مثلي ومثلكم إلا كما قال القائل: افتضحوا فاصطلحوا.

وقد قيل لعلقمة - رحمه الله تعالى - ألا تجلس فتحدث الناس فتؤجر على ذلك؟ فقال: أما يرضى المتكلم أن ينجو كفافًا، يعني لا له ولا عليه. قال: ولما ترك بشر الحافي - رحمه الله تعالى - الجلوس للحديث قالوا له:

ماذا تقول لربك يوم القيامة إذا قال لك: لم تركت تحديث الناس بأحاديث نبي محمد -ﷺ-؟ فقال: أقول يا رب إنك أمرتني فيه بالإخلاص، ولم أجده عند نفسي. وقد كان سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ يحدث فكان إذا وجد لذة في نفسه من حسن كلامه وكبر حلقته مثلاً قام فزعًا مرعوبًا، وترك التحديث وقال: أخذنا والعياذ بالله تعالى ولم نشعر. وكان ميمون بن مهران ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا يخلو القاص من إحدى ثلاث: إما أن يسمن قوله بما يهزل دينه، وإما أن يعجب بقوله، وإما أن يقول ما لا يفعل.

قلت: وما قاله ـ رحمه الله تعالى ـ محمول على الغالب وإلا فالعارف مطلوب منه أن يسمن قوله، وأن يعجب به من حيث كونه شرعًا لغيره، ويتهم نفسه لأنه يقول ما لا يفعل، إذ لا يخرج أحد عن اللوم ولو بالغ في الإخلاص في عمله، وذلك محمول عن الخلق، وكان أبو مسلم الخولاني ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كثير من الناس يعيش الناس بعلمهم، ويهلكون في نفوسهم يعني بالعجب ورؤية النفس.

وكان الحسن البصري ـ رحمه الله ـ يقول: لا تكن ممن يجمع علم العلماء ويفعل أفعال السفهاء. وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كنت آتي أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنا وثابت البناني، ويزيد الرقاشي نسمع منه الحديث، فكان يقول لنا: ما أشبهكم بأصحاب رسول الله -ﷺ-، ثم يقول: رءوسكم والحاكم، وقد كان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: مثل الذي يحمل العلم، ولا يعمل به كمثل الأعمى يحمل سراجًا ليستضيء به غيره.

وكان وهيب بن الورد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لو أن العلماء إذا لم يعملوا بعلمهم قالوا للناس: خذوا علمنا ولا تقتدوا بنا في ترك الأعمال الصالحة لتنجوا كان ذلك خيراً، ولكنهم لبسوا على الناس وادعوا العمل، فجروا الناس إلى أعمالهم الخبيثة. وقد كان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: إن كنتم علماء حكماء فلا تجعلوا أسماعكم غرابيل تمسك النخالة، وترسل الطحين. وقد كان أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله تعالى ـ يقول:

إذا ناظرت عالمًا فغضب، فلا تخف منه، فإنه لم يبق له رأس مال من دين. وقد كان عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول لعلماء زمانه: لقد أزريتم العلم وأذهبتم قدره، ووالله لو رأى عمر - يعني أباه - أحدًا مثلي وهو يحدثكم لأوجعني وإياكم ضربًا.

وكان الأعمش ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن لي نحو عشرين سنة ما رأيت مخلصًا في علمه إنما صار العلم حرفة للمفاليس. وكان شعبة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما رأيت أحدًا طلب الحديث خالصًا إلا هاشم الدستوائي - رحمه الله تعالى - وكان أبو حازم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: قد رضى علماء زمانتا هذا بالكلام، وتركوا العمل. وقد كان السلف ـ رضي الله عنهم ـ يفعلون ولا يقولون، ثم صار الذين بعدهم يفعلون ويقولون، ثم صار الذين بعدهم يقولون ولا يفعلون، وسيأتي زمان أهله لا يقولون ولا يفعلون وقد كان عبد الرحمن السلمي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا الناس وهم يتعلمون القرآن عشر آيات عشر آيات، فلا ينتقلون من عشر حتى يعملوا بها. وقد قيل للشعبي ـ رحمه الله تعالى ـ مرة أفتنا أيها العالم، فقال: لا تقولوا لمثلي عالم، فإن العالم هو الذي تقطعت مفاصله من خشية الله تعالى. وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: العالم طبيب الدين ما لم يجلب الدنيا بعلمه فإذا جلب الدنيا بعلمه، فقد جلب الداء إلى نفسه، وإذا جلب الداء إلى نفسه فكيف يطب غيره. وقد كان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لن تهلك أمة إلا من جهة علمائها السوء، جلسوا على طريق الرحمن فقطعوا الطريق على عباد الله بأعمالهم الخبيثة.

وكان مالك بن مغول ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أي الناس شر؟ فقال: «**العلماء إذا فسدوا**». وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من علامة من يطلب العلم لله تعالى أن يتخلق بالزهد والورع والخشية من الله، ويحتمل الأذى من الناس. وقد كان محمد ابن سيرين ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: قد ذهب العلماء ولم يبق من علمهم إلا غبرات في أوعية سوء. وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول:

إن العالم إذا لم يكن زاهداً، فهو عقوبة لأهل زمانه وفتنة، وكان يقول: يا أهل العلم قد صارت بيوتكم كسروية، وأخلاقكم شيطانية فأين المحمدية؟ وكان أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ يقول: إنى أخاف أن يقال لى: يا عويمر ماذا صنعت فيما علمت؟ وقد سُئل الإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ عن الراسخين فى العلم من هم؟ فقال: هم العاملون به المتبعون لآثار من قبلهم. وقد سُئل مرة الشعبى ـ رحمه الله تعالى ـ عن مسألة فقال: لا أدرى، فقالوا له: ألا تستحى من قولك: لا أدرى وأنت عالم العراق؟ فقال: إن الملائكة عليهم الصلاة والسلام أكثر أدبًا وعلمًا منا، ولم تستحى من قولهم: ﴿ **سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا** ﴾ [البقرة:٣٢]. وكان كعب الأحبار ـ رضي الله عنه ـ يقول: يكون فى آخر الزمان علماء يتغايرون على القرب من الأمراء كتغاير الرجال على النساء أولئك شرار خلق الله سبحانه وتعالى.

وكان المعتمر بن سليمان ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إياكم أن تقولوا: إن أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعبوا الشطرنج، أو لبسوا المعصفر، أو شربوا النبيذ المثلث، فتكونوا فاسقين، إنما فعل أحدهم ذلك قبل بلوغ النهى، فأين أنتم منهم، وأنتم تفعلون بما يخالف كتاب ربكم عز وجل، وسنة نبيكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ؟ وكان حاتم الأصم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد والفقه تزندق، ومن اكتفى بالزهد دون الفقه والكلام تبدع، ومن اكتفى بالفقه دون الزهد والكلام تفسق، ومن جمع بينها تخلص.

وقد كان الإمام الأوزاعى ـ رحمه الله تعالى ـ يتكلم بالكلام العارى من الإعراب ويقول: إذا جاء الإعراب ذهب الخشوع ولقد أعربنا فى الكلام ولحنا فى العمل، وكان أبو حفص الحدَّاد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول لعلماء زمانه: إلى متى تكتبون الكراريس والدواوين، إنما العلم آلة، فإذا حضر العدو وأنت تجمع الآلة، فمتى تقاتل؟ وكان الإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ يقول: إذا أحب العالم أن يعرف بالعلم فهو شر من إبليس. قلت: ولعل مراده ـ رضي الله عنه ـ أن يعرف لغير غرض شرعى. وكان ابن السماك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول:

لعلماء زمانه: كم من مذكـر لله تعالى منكم وهو له ناس، وكم من مخوف من الله تعالى منكم وهو جرىء على معاصيه، وكم من مقرب إلى الله تعالى وهو بعيد منه، وكم من داع إلى الله وهو فار منه. وقد وقفت امرأة يومًا على إبراهيم بن يوسف ـ رحمه الله تعالى ـ تنظر إليه فـقال لها: هل لك حاجة؟ فقـالت: لا غير أنكم ترون أن النظر إلى وجـه العالم عبـادة فأنا أنظر إليك لأجل ذلك. قال: فبكـى إبراهيم حتى خنقته العـبرة، ثم قال: إن هذه المرأة قد غلطت فىّ، إن الذين كان النظر إلى وجوههم عـبادة قد صاروا فى المقابر بين أطباق الثـرى منذ أربعين سنة مثل أحـمد بن حنبل، وخلف بن أيوب، وشقيق البلخى وأضرابهم ـ رضي الله عنهم ـ فسيرى إلى مقابرهم وتأملى فيها.

وكان بشـر بن الحرث ـ رحمـه الله تعالى ـ يقول: مـا رأيت أحدًا فى زماننا هذا أوتى العلم إلا أكل بدينه ما عدا أربعة: إبراهيم بن أدهم، ووهيب ابن الورد، وسليـمان الخـواص، ويوسف بن أسبـاط ـ رضي الله عنهم ـ وكان سـفيـان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من أبكاه علمـه فهو العالم، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا** ﴾ [الإسراء:١٠٧]، وقال تعالى: ﴿ **إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا** ﴾ [مريم: ٥٨].

فـانظر يا أخى نفـسك: هل وفيت بـحق علمك وعمـلك كمـا وفى هؤلاء؟ أم أنت عنهم بمعزل وأكثر من الاستغـفار ليلاً ونهارًا، والحمدلله رب العالمين.

ومن أخـلاقـهم - رضى الله تعـالى عنهم-: كـثـرة الحط على أصحابهم إذا خـالطوا الأمراء وكثرة شكرهم لمن نصـحهم، وكثرة اعـتقادهم الفسق فى نفوسهم كلما كثر علمهم، وذلك لعلمهم بعجز الإنسان غالبًا عن العمل بكل مـا علم، وإذا لم يعمل الإنسان بكل ما علم انسـحب عليه اسم الفسق فـيما لم يعـمل به، فإن من العمـل بالعلم البعد عن الأمـراء، وعدم اتخاذ العلم شـبكة يصطاد أحدهم به الدنيا، والمناصب، وعدم الـفرح بكبر حلقة درسه، وعدم اللذات بقول الناس: فلان عامل، أوفلان أعلم أهل هذا

البلد ونحو ذلك. كما أن من عدم العمل بالعلم أن يغتم من أضداد هذه الصفات.

وكان سيدى على الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من علامة عدم العمل بالعلم محبة الصيت بالصلاح والاشمئزاز من قول الناس فلان محب فى الدنيا، أو مراء بعلمه وعمله ونحو ذلك مما ذكرناه فى كتابنا (البحر المورود فى المواثيق والعهود)، فعلم بذلك أن من فرح بما ذكرناه أو انقبض خاطره من ضده، فهو لم يعمل بعلمه،فليبك على نفسه، وقد روى عن رسول الله -ﷺ-: «أكثر منافقى أمتي قراؤها»، وكان وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كان فى بنى إسرائيل قراء فسقة، وسيكون فى هذه الأمة أمثالهم، وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله ـ يقول: استعيذوا بالله من أمور تحدث فى القراء بعد مائتى سنة. واعلموا أن من يدخل النار تفسقًا أخف ممن يدخلها تبدعًا، وأخف ممن يدخلها تقربًا وهو مراء بعلمه وعمله. وكان عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من دخل النار بالمعاصى الظاهرة أخف ممن دخلها بالرياء والسمعة.

وقد كان حبيب العجمى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما كنا نظن أن نعيش إلى زمان صار الشيطان يلعب بالقراء فيه كما يلعب الصبيان بالكرة. وكان عبد العزيز بن أبى روّاد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كان فسقة الجاهلية أكثر حياء من قراء زماننا. وقد كان سفيان الثورى - رحمه الله تعالى - يقول: والله إنى لأخشى إذا قيل يوم القيامة: أين القراء الفسقة أن يقال: وهذا منهم فخذوه، وقد قال رجل لحماد بن زيد ـ رحمه الله تعالى ـ أوصنى، فقال له: إياك أن تجعل لك اسمًا مع القراء فى صحيفة. وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: احذروا القراء، واحذرونى معهم، فإنى لو خالفت أكثرهم ودّ إلى فى زمانه، فقلت: هى حامضة،وقال: هو بل حلوة لا آمن أن يسعى فى قتلى عند سلطان جائر.

وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أشتهى أن تكون دارى بعيدة عن القراء، مالى ولقوم إذا رأونى فى نعمة حسدونى، وإن رأونى

فى زلة هتكونى. وقد كان ذو النون المصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إياك والقرب من القراء، فإنهم ربما حسدوك فرموك بالزور والبهتان، وقبل ذلك منهم، وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما أقبح قلة ورع العالم، وما أقبح قول الناس: إن العالم الفلانى قدم حاجًا بمال الأمير الفلانى، أو بمال المرأة الفلانية، وفى الحديث: «**سيأتي على أمتى زمان يكون سماعكم باسم الرجل خيراً من أن تلقوه، ولو لقيتموه خيراً لكم من أن تجربوه، فإنكم إن جربتموه أبغضتموه وأبغضتم عمله**». وقد كان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كيف تحمدون القراء مع غلظ رقابهم ورقة ثيابهم وأكلهم مخ الحنطة، والله إن سف الرماد كثير على من يخشى الله ويتقيه.

وكان يوسف بن أسباط ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لما مات سفيان الثورى ـ رحمه الله ـ قال الناس للقراء: معاشر القراء كلوا الآن الدنيا بالدين، فقد مات الثورى لكونه كان أشد الناس حظًا على القراء ولكثرة مناقشته لهم ـ رحمه الله تعالى ـ وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لن تزال العلماء فى كنف الله تعالى ما لم يمل قراؤهم إلى أمرائهم بالمحبة، فإذا مالوا إليهم رفع الله تعالى يده عنهم، وسلط عليهم الجبابرة فساموهم سوء العذاب، وقذف فى قلوبهم الرعب، وكان فرقد السبخى ـ رحمه الله تعالى ـ لم يزل يلبس الكساء فقال له الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ أتحب أن لك فضلاً على الناس بكسائك هذا إنه قد ورد أن أكثر أهل النار أصحاب الأكسية.

وقد قيل مرة لمالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ ما لنا نراك تعرض عن الشاب القارئ الناسك؟ فقال: إنما أعرض عنه لكثرة تجريبى للقراء، وقد كان حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ يقول: إنى لأكره للعالم أن يقرب من أبواب الأمراء فإنها مواقف الفتن فى دار الدنيا. وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى يقول: كنا نتعلم اجتناب أبواب السلطان كما نتعلم السورة أو الآية من القرآن، وكان سعيد بن المسيب ـ رحمه الله تعالى ـ

يقول: إذا رأيتم العالم يغشى أبواب السلطان فهو لص، وكان ميمون بن مهران ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: صحبة السلطان مخاطرة عظيمة، فإنك إن أطعته خاطرت بدينك، وإن عصيته خاطرت بنفسك، فالسلامة أن لا تعرفه ولا يعرفك. وقال: ولما خالط الزهرى ـ رحمه الله تعالى ـ السلطان قام عليه الزهاد وقالوا: قد آنست وحشته، وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من يأتي بالفرائض فقط ولا يدخل على السلطان خير ممن يصوم النهار، ويقوم الليل، ويجاهد ويحج ويدخل على السلطان، وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا رأيتم العالم يأتي القاضي لغير حاجة، فلا تشهدوا فيه بالخير، ولا تسلموا عليه، واتهموه في دينه، وكان الضحاك بن مزاحم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: مكثت ليلة كاملة أتفكر في كلمة ترضى السلطان، ولم تسخط الله تعالى فلم أجدها، وكان الأصمعي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: شرار الأمراء أبعدهم من العلماء وشرار العلماء أقربهم من الأمراء، وقد ذكرنا جملة من الأحاديث المحذرة من قرب الأمراء في كتاب العهود المحمدية، فراجعها وتأمل في نفسك هل أنت متخلق بالأخلاق الحسنة كما كان سلفك، والحمدلله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: إذا لم يكن لهم مال، وكان إخوانهم يكسونهم وينفقون عليهم أن لا يكثروا من إعطاء الناس الثياب والطعام، بل يحملون كلفتهم عن إخوانهم ما أمكن، وذلك لأنهم لا يدعون أحداً عرياناً ولا جوعاناً، وقد كنت سلكت هذا المسلك، فوبخني عنه شيخي سيدى محمد بن عبد الله، وشيخي سيدى نور الدين السنوسي ـ رحمه الله تعالى ـ فقلت له: يا سيدى فإن أقسم على السائل بالله أو برسوله - ﷺ -، فقال: لا تعطه وقل: بدل ذلك جلّ الله العظيم، أو صل على رسول الله - ﷺ -، فإن القسم إنما يستحب للعبد إبراره إذا كان له مال، وأما من ينفق عليه الناس، فلا يؤمر بإبرار القسم إلا بطريقه الشرعي، كأن لا يكون في إعطائه مانع أشد ضرراً من إبرار القسم، ولما علم إخواني أني أعطى السائل

جوختى، أو فروتى، أو عمامتى، ولا أتوقف صار أحدهم يوقف على ما يعيطه لى من الثياب، وبعضهم يجعله عارية عندى، وبعضهم يعلق طلاق زوجته على إعطاء ذلك لأحد بغير إذنه، فلهذا العذر تجدنى أشح فى بعض الأوقات على السائل ولا أعطيه، ولو أنه كان سألنى ما هولى لم أشح عليه بحمد الله تعالى، ولو كان جوختى الجديدة، أو صوفى الجديد فى أول يوم لبسته.

فإياك يا أخى والمبادرة إلى سوء الظن بأحد من أشياخ الطريق إذا دخل عليه عريان وسأله ثوبًا من ثيابه مثلاً فلم يعطه، ويقول: هذا خروج عن طريق الفقراء، بل افحص قبل ذلك عن القضية، فربما كان ذلك الشيخ له عذر بما قدمناه، ولم يمنع ذلك السائل لشح عنده، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: كتمانهم عن أهل عصرهم كل ما ينكرونه من الكرامات، فإن إظهارها لا فائدة فيه اللهم إلا أن يترتب على ذلك مصلحة شرعية فلا حرج على الوالى فى إظهارها وفى حال كتابتى لهذا الموضع رأى شخص رسول الله -ﷺ- فى المنام، وأرسل إلىّ السلام معه بأمارة صحيحة، وسأله الرائى عن مسألة، فأجابه -ﷺ- عنها، فلم يفهم الرجل الجواب، فلما رآه -ﷺ- قد توقف فى فهمها قال له: اذهب إلى مصر واسأل عن الشعرانى، فإنه يشرحها لك، وكان ذلك الرجل فى ناحية جرجة، فسافر على أثر الرؤية إلى مصر وسأل عنى، فاجتمع بى وقال لى: لم يكن لى فى مصر حاجة إلا الاجتماع بك امتثالاً لأمره -ﷺ-، ثم قال لى على المسألة ففسرتها له بحمد الله تعالى، وقد كنت ذكرت فى هذا الكتاب أن من أخلاق القوم -رضي الله عنهم- أنهم يصلون الصلوات الخمس خلف رسول الله-ﷺ- فى قبره الشريف، وأنهم يسمعون ردّه عليهم السلام حين يقولون فى تشهدهم السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته فتوقف فى ذلك بعض أصحابنا من طلبة العلم، وقالوا: ما من كرامة إلا وهى موروثة من أحد ممن سبق، ولم يصل إلينا

أن أحداً من الصحابة -رضي الله عنهم- ولا من التابعين أنه رد عليه السلام من النبى -صلى الله عليه وسلم- من القبر الشريف بعد موته، فلما وقع ذلك التوقف ولم أر أحداً يطلب الوصول إلى هذا المقام بالمجاهدة والرياضة رفعت ذلك من الكتاب على أنه ما من عام إلا ويصح أن يخص منه أمر كما هو مقرر فى علم الأصول إلا ما استثنى شرعًا.

وقد نقل العلامة ابن زهرة في تفسيره أن من الكرامات التى لم تورث، ولم يقع مثلها لأحد قبل صاحبها إتيان آصف بن برخيا بعرش بلقيس، وقال: هذه كرامة لم تكن موروثة عن أحد قبله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا غيرهم، وقد سمعت سيدى عليًا الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: لا يحق لأحد قدم الولاية المحمدية حتى يجتمع برسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبالخضر وإلياس عليهما السلام، وقد درج الصادقون كلهم على ذلك، فلا يقدح فيه إنكار بعض المحجوبين عنه. وقد كان سيدى الشيخ أبو العباس المرسى - رحمه الله تعالى - يقول لأصحابه: هل فيكم أحد إذا سلم على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يسمع رده عليه بأذنه، فيقولون: لا ليس فينا أحد يقع له ذلك، فيقول: ابكوا على قلوب محجوبة عن الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- ثم يقول: والله لو احتجبت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لحظة من ليل أو نهار لما عددت نفسى من المسلمين. قلت: ولكن بين الفقير وبين مقام الآخذ عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وسماع صوته بالرد على من سلم عليه مائة ألف مقام، وسبعون وأربعون ألف مقام، وتسعمائة وتسعة وتسعون مقامًا، فمن ادعى ذلك طالبناه بهذه المقامات، فإذا رأيناه لا يعرفها كذبناه فى دعواه ذلك. وقد ادعى هذا المقام جماعة من أهل العصر فى حياة سيدى على المرصفى - رحمه الله تعالى - فأمر بحضورهم إلى عنده، فلما رآهم قال لهم: مقصدى أسمع منكم الكلام على بعض مقامات مما ذكرتم أن الله تعالى خصكم بها، فلم يدر أحدهم ما يقول، فزجرهم عند ذلك وأمر بإخراجهم من حضرته فماتوا على أسوأ حال، والعياذ بالله.

فإياك يا أخي أن تدع شيئًا من المقامات التي تصل إليها، فتعاقب بحرمانها، قلت: وقد أخذ جماعة من أهل عصرنا بجانب عن هذا المقام بالكلية، وجعلوا علو مقامهم بالاجتماع على الباشا، والدفتردار، وقاضي العسكر ونحوهم، وصار أحدهم إذا كان في مجلس تراه يقول: قلت للباشا، قال لي الباشا، قال لي الدفتردار، ونحو ذلك، ولكن على كل حال هم أخف ضررًا ممن يقول قال لي رسول الله -ﷺ- كذا وكذا، وهو غير صادق، فاعلم ذلك يا أخي، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضي الله تعالى عنهم-: أن لا يمكنوا أحدًا ممن ينقاد لهم أن يلي القضاء، أو شيئًا من الأمانات التي لا خلاص فيها غالبًا إلا إن تعين عليه ذلك بطريق شرعي لما ورد من التحذير في مثل ذلك. وقد كان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا تكن في هذا الزمان إمامًا ولا مؤذنًا ولا عريفًا، ولا تأخذ من أحد مالاً لتفرقه على الفقراء، وكان محمد ابن واسع ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أول من يدعى للحساب يوم القيامة القضاة، فلا ينجو منهم إلا القليل وكل من ساعدهم فهو شريكهم في الشدة.

وقد استقضى هرم بن حيان ـ رحمه الله تعالى ـ مرة فأوقد حوله نارًا، فمنعت الناس أن يأتوه في ذلك اليوم حتى عزل نفسه، قال: ولما أكرهوا الإمام أبا حنيفة ـ رضي الله عنه ـ على القضاء وحبسوه كانوا يخرجونه من السجن فيضربونه أيامًا ليدخل في أمرهم له بالقضاء، فلم يفعل حتى إنه بكى في بعض الأيام كبكاء الأطفال، ثم صار يقول: كم من حق يبطله القاضي، وكم من باطل يحققه. وكان الحابس له ابن هُبيرة الوزير. وكان سفيان بن عيينة ـ رحمه الله ـ يقول: سمعت مناديًا ينادي على جبل أبي قُبيس: أمان الله تعالى على كل أسود وأبيض ما عدا اثنين سفيان وفلانًا الزنديق. وكان مسروق ـ رحمه الله ـ يقول في قوله تعالى: ﴿ **أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ** ﴾ [المائدة:٤٢]، إنها الهدية للقاضي، ومن أراد أن لا تستعبده الولاة فليقنع بالخل والملح.

وقد سمعت سيدى عليًا الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: صارت الولايات في هذا الزمان غالبها جور وظلم حتى لو أراد الشخص أن يعدل لا يقدر على العدل لعدم استحقاق الناس ذلك. وقد ولى القضاء رجل من معارف الشيخ ـ رحمه الله ـ فلامه الشيخ على ذلك، فقال له: يا سيدى ما وليت ذلك إلا لآمر بالمعروف، وأنه عن المنكر، فقال له الشيخ: إن هذا من غرور إبليس لك، فإن من كان قبلكم من القضاة لم يصح لهم ذلك مع أن زمانهم كان قابلاً للنصح، وأما فى هذا الزمان، فقد صار الولاة يدعى أحدهم الولاية والصلاح ويقول: نحن الأولياء لأن الناس يحتاجون إلينا، ونحن لا نحتاج إلى أحد منهم.

وقد سمعت أنا أن بعض الولاة دخل إليه شيخ من مشايخ العصر شفع عنده شفاعة، فردها ولم يقبلها، ثم جعل يقول: إنما يشفع عندنا هؤلاء المدعون للصلاح طلبًا للشهرة لا مصلحة ومحبة للمشفوع فيه، فتسول لأحدهم نفسه أنه إذا شفع وقبلت شفاعته يصير الناس يقولون ما فى مصر الآن إلا فلان، فإنه هو الذى يحمل هموم المسلمين، ويشفق عليهم، فإذا اشتهر بذلك تسامع به الملوك والوزراء، فرتبوا له الجوالى، والأرزاق، فهذا هو سبب ردى شفاعته، وفى ذلك مصلحة له خوفًا عليه من الإعجاب الذى فيه هلاك دينه.

وقد رأيت بعض القضاة يبيع أمتعة داره فى اليوم الذى لا يأتيه فيه محصول كثير، ويقول: أخاف أن يعزلنى من أنا تحت حكمه حتى صار فقيراً من أمتعة الدنيا، وقد سمعت عن بعض قضاة الأرياف أنه إذا لم يأته محصول فى بعض الأيام سلط على من يراه ذا مال الدعاوى الباطلة ليأتيه المحصول من ذلك، فمثل هذا كيف يصح له أن يحق الحق ويبطل الباطل، فالسلامة في هذا الزمان أن لا يتولى الإنسان الولايات إلا إن تعين عليه ذلك شرعًا أو يكون مكرهًا فى ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: كثرة سؤالهم عن أحوال أصحابهم، وذلك لأجل أن يواسوهم بما يحتاجون إليه من الطعام

والثياب والنقود، ووفاء الديون، وتحمل الهموم لا مجانًا، وهذا الخلق صار أهله غرباء فى هذا الزمان، فإن الناس اليوم على خلاف ذلك، وربما يقول أحدهم لصاحبه. إيش حالكم؟ فيقول: طيب ويكتم أمره لعلمه بفراغ قلب صاحبه منه، وأن قوله: إيش حالكم كلام بحكم العادة من غير ثمرة كما هو مشاهد، بل وكثيراً ما يقول المار على أخيه، إيش حالكم؟ ولا ينتظر الجواب، فلا السائل يتربص حتى ينتظر الجواب، ولا المسئول يكلف نفسه النطق بالجواب.

ومن هنا كان سيدى على الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن لم يكن أحدكم عازمًا على موساة أخيه، أو تحمل همومه، أو الدعاء له، وإلا فلا يقولن له: إيش حالكم لأنه يصير نفاقًا، وكان حاتم الأصم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا قلت لصاحبك: كيف أصبحت وقال لك: إنى محتاج إلى شيء فتلاهيت عنه ولم تعطه حاجته فقولك له: كيف أصبحت سخرية به، وهذا هو الغالب على أحوال إخوان هذا الزمان. وقد سمعت سيدى عليًا الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إنما كانوا يسأل بعضهم بعضًا عن أحوالهم لينبهوا الغافل على شكر الله تعالى فيشكره فيحصل له ولهم الخير بذلك. وفى الحديث: أن رجلاً قال للنبى -ﷺ-: كيف أصبحت يا رسول الله؟ فقال -ﷺ-: **«أصبحت خيراً من أناس لم يعودوا مريضًا، ولم يشيعوا جنازة»** وقد قيل لأبى بكر الصديق -رضي الله عنه- كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت عبدًا ذليلاً لرب جليل، أصبحت مأموراً بأمره، وقد قيل للحسن البصرى ـ رحمه الله ـ كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت حنيفًا مسلمًا لا أشرك بالله شيئًا وقيل لمالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت لا أدرى أأنقلب إلى جنة أو إلى نار. وقيل للإمام الشافعى -رضي الله عنه- كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت آكل رزق ربى، ولا أقوم بشكره، وقد قيل لعيسى عليه الصلاة والسلام: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت لا أملك نفع ما أرجو، ولا أستطيع دفع ما أحاذر، وأنا مرتهن بعملى والأمر كله بيد غيرى، ولا فقير أفقر منى، وقيل للربيع بن خيثم ـ رحمه الله تعالى ـ كيف

أصبحت؟ فقال: أصبحت ضعيفًا مذنبًا آكل رزق ربي، وأعصى أمره. وقيل لأبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت بخير إن نجوت من النار. وقيل لمالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت في عمر ينقص، وذنوب تزيد. وقيل لحامد اللفاف ـ رحمه الله تعالى ـ كيف أصبحت؟ قال: سليم معافى، فقال له حاتم الأصم: يا حامد السلام والعافية إنما يكونا بعد مجاوزة الصراط ودخول الجنة، فقال حامد: صدقت، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: عدم الغفلة عن محاربة إبليس، والتجسس على معرفة مكائده ومصايده، وهذا الخلق قد أغفله اليوم غالب الناس، فإن إبليس كما لم يغفل عنا فينبغي لنا أن لا نغفل عنه، فإنه بالمرصاد حريص على وقوع العبد في سخط الله تعالى. وفي الحديث: «**إن إبليس يضع عرشه في البحر ويرسل سراياه وجنوده، فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة للناس**»[1].

وكان وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: بلغنا أن إبليس لعنه الله قال: يا رب أما ترى حب عبادك لك ومع ذلك يعصونك، وكثرة بغضهم لي مع كثرة طاعتهم لي، فأوحى الله تعالى إلى الملائكة إني قد غفرت لهم كثرة عصيانهم لي بمحبتهم لي، وتجاوزت عن كثرة طاعتهم لإبليس بكثرة بغضهم له. وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن إبليس إذا ظفر من ابن آدم بإحدى ثلاث فقال: لا أطلب منه غيرها: إعجابه بنفسه، واستكثاره عمله، ونسيانه ذنوبه، وفي رواية بإحدى أربع وهي زيادة الشبع وهو أعظمها، فإن الثلاثة تنشأ عنه.

وكان وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إياكم أن تعادوا الشيطان في العلانية، وتطيعوه في السر، فإن كل من بات عاصيا بات الشيطان لأجله عروسًا، وقد كان محمد بن واسع ـ رحمه الله تعالى ـ يغلس

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (ح ٢٨١٣) في صفات المنافقين، باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه، من حديث جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ.

إلى المسجد فتمثل له الشيطان يومًا فى صورة إنسان يحمل له السراج بين يديه، وكانت ليلة باردة مظلمة، فأشرفت عليه امرأة من شباك لها، فقالت: ما أقصى قلب هذا الشاب يكلف هذا الشيخ أن يحمل له السراج فى مثل هذه الليلة، فسمعها محمد بن واسع، فقال لها: دعيه يشقى أشقاه الله تعالى، فعرف إبليس أنه عرفه، فأطفأ السراج وهرب.

وقد بلغنا أن إبليس لعنه الله دخل على الجُنيد ـ رحمه الله تعالى ـ فى صورة إنسان وعليه مرقعة، وفى عنقه سبحة، وفى وسطه منطقة على شكل خدام المشايخ، وقال له: يا سيدى إنى أحببت أن أخدمك لعل أن تنالنى بركتك، فمكث يخدمه ويوضيه نحو عشرين سنة، فلم يجد له عليه طريقًا يدخل إليه منها فى وقت من الأوقات، فلما أراد الانصراف قال له: أما تعرفنى؟ فقال له الجُنيد: بلى قد عرفتك فى أول دخولك على، وإنك أبو مرة، إبليس، فقال له إبليس: ما رأيت أحدًا على قدمك يا أبا القاسم، فقال له الجُنيد: اذهب عنى يا ملعون أردت أن لا تفارقنى إلا بشىء تتلف به دينى وهو الإعجاب بحالى. وقد كان محمد بن واسع ـ رحمه الله تعالى ـ يقول كل يوم بعد الصبح: اللهم إنك سلطت علينا عدوًا لنا بصيرًا بعيوبنا مطلعًا على عوراتنا يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه، اللهم فأيسه منا كما آيسته من رحمتك، وقنطه منا كما قنطته من عفوك، وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين مغفرتك وجنتك إنك على كل شىء قدير، قال: فتمثل له إبليس يومًا، وقال له: يا محمد لا تعلم هذا الدعاء لأحد وأنا لا أعود أتعرض لك بسوء أبدًا، فقال له محمد: والله لا أمنعه من أحد، واصنع أنت ما شئت.

قال: وقد تراءى يومًا إبليس لعنه الله لعيسى: عليه الصلاة والسلام، وقال له: يا روح الله قل: لا إله إلا الله، فقال عيسى كلمة حق أقولها، ولكن لا لقولك لا إله إلا الله. قال: سيدى على الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ أراد إبليس بذلك أن يكون عيسى تليمذًا له فى كلمة التوحيد، فلم يفعل عيسى عليه السلام ومنعته العصمة. وكان كعب الأحبار ـ ﷺ ـ يقول: ذكر الله تعالى فى جنب الشيطان كالأكلة فى جنب ابن آدم. وكان عبد العزيز بن

أبي رواد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد حججت ستين حجة، وعملت أعمالاً كثيرة من القربات، ومع ذلك فما حاسبت نفسي قط إلا وجدت نصيب الشيطان من ذلك أقوى من نصيب ربي عز وجل فليتني خرجت من الدنيا كفافًا لا على ولا لي.

وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إياكم وخوف الفقر، فإنه ليس للشيطان سلاح يقاتل به ابن آدم أشد من خوفه الفقر لأنه إذا خاف الفقر أخذ من الباطل، ومنع من الحق، وتكلم بالهوى، وظن بربه سوء الظن، فلقي كل سوء. وقد كان الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ يقول: من نعم الله عليّ أني ما فررت من الفقر قط. وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما قطع ظهر إبليس شيء مثل من أحسن عمله. قال تعالى ﴿ لِيبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ [هود:٧]، ولم يقل أكثر عملاً. وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا بلغ العبد أربعين سنة ولم يتب من جميع المعاصي والذنوب مسح الشيطان بيده على جبهته، وقال: فديت وجهًا لا يفلح. قلت: ويؤيد ذلك ما رواه الطبراني مرفوعًا،: «من بلغ أربعين سنة ولم يغلب خيره شره، فليتبوأ مقعده من النار»[1].

وكان مجاهد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ليس عندي شيء أقطع لظهر إبليس عند النكبة والعشرة مثل قول: لا إله إلا الله لأنك إذا لعنته لم يتأثر لذلك وإنما يقول: لعنت ملعنًا. وكان سفيان بن عيينة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن إبليس له ثلاثمائة وستون صكًا فيها غروره ومكايده ببني آدم، فلابد كل يوم أن يعرضها على قلوبهم واحدًا بعد واحد. وكان محمد بن سيرين ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ليس لإبليس كيد أعظم من رؤية العبد نفسه على إخوانه، فإنه إذا مات على ذلك مات وربه ساخط

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (ح ٢٣٤٤) وقال أخرجه الأزدي في ترجمة نافع بن عبد الله بن هالك الهروي بسنده إلى ابن عباس.

وقال القاري: وأشار إليه الخطيب حيث قال: عجب من المؤلف يقرره وعلامة الوضع لائحة عليه، وقال القاري: إن كان العلامة على إسناده فمسلم، وإلا فليس في معناه ما يدل على بطلان مبناه.

عليه لم ينفعه شيء من أعماله. وقد كان ميمون بن مهران ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لو أقامني الله عز وجل بين يديه وقال: ائتني بسجدة واحدة لا حظ للنفس أو الشيطان فيها لأدخلك بها الجنة لقلت له: يا رب لا أجد ذلك. اهـ.

فتنبه يا أخي لنفسك، وإياك أن تظن أن إبليس انقطع عنك حين ترى توالي عبادتك، بل انظر فيها وابحث كل البحث، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضي الله تعالى عنهم-: مجانبتهم للأمور التي فيها رائحة تكبر على الإخوان كعدم حضور جنائز أطفالهم أوخدمهم، وأرقائهم، وعدم عيادتهم إذا مرضوا، وذلك لأن الفقراء ما سادوا على الناس في الدارين إلا بالذل وخفض الجناح، ثم إن أحدهم إذا حضر الجنازة يكون حزينًا نادمًا على ما فرط في جنب الله تعالى، وفي الحديث: «**كفى بالموت واعظًا**»[1]، ولم يكن أحد منهم يذكر شيئًا من حديث الدنيا في طريق الجنازة، ولا يتكلم بالمباح فضلاً عن المذموم، وهذا الخلق قد صار غريبًا في هذا الزمان في الناس، فأكثرهم لا يعتبر بحضور الجنائز، وإن قدر أنه حضر صار حكويًا، بل وربما حكى الحكايات المضحكة عند السرير كما شاهدت ذلك من شيخ بعمامة صوف، فالله تعالى يغفر لنا وله، وقد كانوا يخرجون للجنائز في الثياب البذلة لأنها شفاعة في الميت، وكلما كان إلى الذل أقرب كان إلى قبول الشفاعة أقرب، كما قالوا في الخروج للاستسقاء ورفع الوباء، فينبغي اجتناب الثياب النفيسة لا سيما إن كانت معطرة، فعلم أن كل فقير خرج إلى الجنائز وهو لابس محاسن ثيابه بغير نية صالحة، فهو بعيد عن أحوال

(١) ضعيف جدًا: ذكره الشيخ الألباني في الضعيفة (ح ٥٠٢) وعزاه إلى أبي سعيد الأعرابي في معجمه، والقضاعي (١١٤/ ١)، وأبو نعيم، وقال الشيخ الألباني: هذا إسناد ضعيف جدًا، الربيع بن بدر متروك.

القوم غـافل عن تذكر المـوت لحديث: «**ومن أراد الآخرة ترك الـدنيا**»[١]، وفي الحديث أيضًا: «**عودوا المريض واتبعوا الجنائز تذكـركم الآخرة**»[٢]، يعني وإذا ذكرتم الآخرة زهدتم في ملاذ الدنيا.

وقد كـانوا إذا حضروا جـنازة يستغـرقون في التفـكر في ذكر الموت وأحوال الناس في القبور حتى يظل أحدهم مـحزونًا الأيام المتوالية يعرفون ذلك الحزن في وجهه. وقد كان يحيى بـن أبي كثير ـ رحمه الله تعالى ـ إذا شيع جنازة يرجعون بـه في النعش لا يستطيع المشي ولا الركوب، ويمكث الأيام لا يقدر أحد أن يـكلمه من شدة خوفه. وقـد كان أهل الزمن الأول يستحبون خفض الصوت عند الجنازة، ويزجرون من يرفع صوته، ويقولون له: ما أنت إلا جـبار أمـا في رؤيتك للموت مـوعظة. قلت: وإنما سكت العلماء عن رفع الصوت بالـذكر والصلاة على النبي -ﷺ- حتى علموا كثرة لغط الناس في الجنائز فرأوا أن ذكـر الله تعالى أولى من حديث الدنيا من باب ظلم دون ظلم، والله تعالى أعلم.

وقـد رأى عبـد الله بن مسـعـود ـرضي الله عنهـ رجلاً يضـحك في جنازة فزجره ثم هجره أيامًا، قال: ورأى الحـسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ رجلاً يأكل في المقـبرة فزجره، وقال له: إنك منـافق. وكان الأعمش ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كنا نحضر الجنائز فلا ندري من نعزي من شدة عموم الحزن للقوم وبكائهم. وقـد كان حاتم الأصم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: مـداواة القلب بحضـور الجنائز فريضة. وكـان إبراهيم الزيات - رحمـه الله تعالى - إذا رأى أحدًا يبكي في الجنـازة يقول له: ابك على نفسك يـا أخي، وترحـم عليهـا، فإن هذا الميت قـد نجا من ثلاث: رأى ملك الموت -عليه السلام-، وذاق حـرارة الموت، وأمن من سـوء الخـاتمة بخلافك أنت. اهـ.

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (ح ٢٤٥٨) في صفة القيامة، باب: ٢٤، وأحمد (١/ ٣٨٧)، والحاكم (٤/ ٣٢٣)، وحسنه الشيخ الألباني.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٣، ٤٨) من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنه-.

وسيأتي أيضًا زيادة على ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: تنزيل الناس منازلهم في الإيمان والنفاق، فللمنافق عندهم مقام دون مقام المؤمن السالم من النفاق. فإن قيل: فبم يعرف المنافق؟ فالجواب أنه معروف بالعلامات التى أخبر بها رسول الله-ﷺ- نحو قوله: «**علامة المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**»[1]، وفى رواية: «أربع» فزادوا: «**وإذا خاصم فجر**»، ونحو قوله -ﷺ-: «**إن للمنافقين علامات فادعوهم بها: لا يأتون المساجد إلا هجراً، ولا يشهدون الصلاة إلا دبرًا، ولا يألفون ولايؤلفون مستكبرين جيفة بالليل بطالون بالنهار**»، ونحو ذلك من الأحاديث الواردة.

وكان الأوزاعي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: علامة المنافق أن يكون كثير الكلام، قليل العمل. وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ يقول: من علامة المنافق أن يحب المدح بما ليس فيه، ويكره الذم بما فيه، ويبغض من يبصره بعيوبه ويفرح إذا سمع بعيب أحد من أقرانه. وكان يونس بن عبيد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من أراد أن ينظر إلى رجل منافق فلينظر إليّ. فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لأنى كثيرًا ما أعد المائة خصلة من خصال الخير، فلا أجد واحدة منهن فى، وأعد خصال السوء فأجدها كلها فى، فيا ويحى من فضيحة يوم القيامة، وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا ذكر الصالحون كنا عنهم بمعزل، وإذا ذكر الطالحون كنا فى جوف المنزل. وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من علامة المنافق أن يخبأ رزق غد، ويزاحم غيره على الدنيا، ويحب أن ينفرد بالصيت. وفى رواية: من علامة المنافق أن يحسد الناس، ويكون فى قلبه الحقد والضغائن لمن آذاه أو زاد عليه فى الجاه. اهـ.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخارى (ح ٣٤) فى الإيمان، باب: علامة المنافق، و(٢٤٥٩)، ومسلم (ح ٥٨) فى الإيمان، باب: بيان خصال المنافق من حديث عبد الله بن عمرو. وأخرجه مسلم (ح ٥٩) من حديث أبى هريرة.

فانظر يا أخى فى نفسك، وفتشها ونقها من النفاق، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: اجتناب الشبع الموجب لقساوة القلب، وذلك حتى يخشعوا فى صلاتهم فإن من شبع وطلب الخشوع فى صلاته، فقد أخطأ الطريق، وقد كان رسول الله -ﷺ- يطوى الأيام والليالى، ويشد على بطنه الشريف الحجر من الجوع، وكان -ﷺ- إذا صلى يسمع لجوفه أزيز فى الصلاة كأزيز المرجل على النار كما ورد. وكان ابن عباس -رضي الله عنهما- يقول: ركعتان مع تفكر وتدبرخير من قيام ليلة كاملة، والقلب ساه عن ربه عز وجل. قلت: ومراده -رضي الله عنه- بالتفكر هنا تفكرالعبد فى الآداب المتعلقة بالصلاة، وبحضرة الله عز وجل، وليس مراده التفكر فى استنباط الأحكام كما يتوهم، فإن الصلاة ليست بمحلٍ لذلك، ولذلك صرح بعض العلماء -رضي الله عنهم- بكراهيته. وكان ابن مسعود -رضي الله عنه- إذا قام إلى الصلاة كأنه ثوب ملقى، وكان إذا سمع أهله يقولون: لا تتكلموا، فإن عبد الله يصلى يقول لهم: تحدثوا ما شئتم فإنى لست أسمع حديثكم وأنا فى الصلاة. وكان الحكم بن عيينة - رحمه الله - يقول: من تلفت عن يمينه وعن شماله فلا صلاة له، وقد كان إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام إذا قام إلى الصلاة يسمع وجيب قلبه من ميلين. وقد كان سلمان الفارسى -رضي الله عنه- يقول: من لم يحضر فى صلاته، فهو من المطففين، وقد علمتم ما قال الله فيهم، فإن الصلاة بمكيال من وفى وفى له. وقد بلغنا أن يعقوب القارئ - رحمه الله - سرق رداؤه من على كتفه وهو فى الصلاة، فأخذه الناس من اللص وزجروه وطردوه، ثم وضعوا الرداء على عنق يعقوب كل ذلك وهو لا يشعر. قلت: وكذلك وقع فى عصرنا لسيدى محمد بن عنان - رحمه الله تعالى - وهو يصلى فى جامع البحر أنهم سرقوا رداءه من على عنقه، وأخذ من اللص، وضرب وطرد، ووقعت ضجة عظيمة كل ذلك وهو لا يشعر، وهو آخر من أدركناهم من أهل الخشوع -رضي الله عنه-.

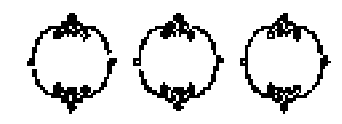
وكان سعيد التنوخى ـ رحمه الله تعالى ـ إذا وقف يصلى سالت دموعه كالمطر. وقد دخل عود فى عين رابعة العدوية ـ رحمة الله عليها ـ وهى تصلى فما شعرت به حتى سلمت من الصلاة فقالت: انظرواهذه الخشونة التى فى عينى. فما نزعوا العود من عينها إلا بمشقة من شدة ما ارتشق. وكان مجاهد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا العلماء وأحدهم كان إذا قام إلى الصلاة هاب الرحمن حتى لا يقدر يشد بصره إلى شىء. أو يحدث نفسه بشىء من أمور الدنيا، وقد انهدم الجامع مرة ومسلم بن يسار رحمه الله يصلى فيه، فخرج كل من فى المسجد إلى السوق، ووقعت ضجة كبيرة ومسلم لم يشعر. وقد كان الذباب لم يزل يأكل من عين خلف بن أيوب ـ رحمه الله تعالى ـ وهو يصلى، فلا يطرده عن نفسه فقيل له يومًا فى ذلك، فقال: بلغنى أن الفساق يتصبرون تحت سياط الحاكم إذا ضربوا ليقال: فلان صبور ويفتخرون بذلك، وأنا قائم بين يدى رب العزة سبحانه، فكيف أتحرك لذباب؟ وكان سميط بن عجلان ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كيف يدعى أحدهم الحضور مع الله تعالى فى صلاته وهو يحس بقرصة البرغوث، إذا قرصه، والله لقد طعن أحدهم بالسنان وما درى حتى ساخت نفسه من خروج الدم، ووقع على الأرض. وقد كان أمير المؤمنين على ـ رضي الله عنه ـ إذا حضر وقت الصلاة يصير يتغير ويتلون ويرتعد، فإذا قيل له فى ذلك قال: أما تعلمون أنه وقت أمانة عرضها الله تعالى على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وقد حملتها أنا فلا أدرى هل أحسنت ما حملت أم لا؟.

وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا تصلوا خلف محب الدنيا، وقد كان السلف إذا بلغهم أن أحدًا تلفت فى صلاته يذهبون إليه ولو فى داره، ويسألونه عن سبب ذلك لما كان عندهم ـ رضي الله عنهم ـ من معرفة عظمة الله تعالى. وقد صلى عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ خلف إمام مرة فسمعه يلحن، فقال له: لولا فضل الجماعة ما صليت خلفك لم لا تقرأ العربية على العلماء؟ وكان الفضل بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ

يقول: عجبت من هؤلاء الناس أراهم إذا مات لى ولد يعزينى فيه أكثر من ألف إنسان، وتفوتنى صلاة الجماعة فلا يعزينى فى ذلك أحد، ووالله إن فوات صلاة الجماعة عندى أعظم من موت ولدى البالغ العاقل العالم الصالح.

وكان محمد بن واسع ـ رحمه الله ـ يقول لأصحابه: إنى أشتهى من الدنيا شيئين: الأول أخًا صالحًا فى الله تعالى يقومنى إذا تعوجت، والثانى: أن لا تفوتنى صلاة الجماعة أبدًا ما عشت. وكان شقيق البلخى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول لأصحابه: اعلموا أن الشيطان لعنه الله تعالى لا يغيظه من ابن آدم إلا شيئان: الأول: عدم الاكتراث بوسوسته، والثانى: عدم التفكر فى ذات الله سبحانه وتعالى. اهـ.

فانظر يا أخى فى نفسك وتأمل حالك هل خشعت فى صلاتك كما خشع هؤلاء القوم ـ رضي الله عنهم ـ فى وقت من الأوقات، أم أنت بالضد من ذلك؟ وأكثر من الاستغفار ليلاً ونهارًا والحمد لله رب العالمين.



الباب الثالث
من جملة أخرى من الأخلاق

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: شدة خوفهم من سوء الخاتمة، والعياذ بالله تعالى ولو كان أحدهم على عبادة الثقلين، وذلك لأن الله تعالى يفعل ما يشاء، وليس مع أحد من الخلق علم بخاتمته على وجه الجزم، إنما غاية أمر أحدهم حسن الظن بربه عز وجل فى الحالة الراهنة فقط، وليس معه علم بدوام الشهادتين معه حتى تطلع روحه عليها. وقد ورد فى الحديث: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**»[1]. وكان حبيب العجمى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن من ختم له بقول: لا إله إلا الله دخل الجنة، ثم يبكى ويقول: من لى بأن يختم لى بقول: لا إله إلا الله. وكان الربيع بن خيثم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: دخلنا على رجل بالأهواز وهو فى النزع، فكنا نقول له: قل: لا إله إلا الله فيقول: ده يازده مشترى طيب قطعة مليحة أى لأن ذلك كان الغالب عليه فى حال الصحة. وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: بلغنا أن رجلاً يخرج من النار بعد ألف سنة، ثم يقول: ليتنى كنت ذلك الرجل لأنه مقطوع له بالخروج من النار. اهـ.

فإياك يا أخى من أن تسامح نفسك فى الاشتغال بأمور الدنيا إلا بقدر الضرورة الشريعة، فربما أتاك الموت على غفلة فتخسر الدارين، والعياذ بالله تعالى. فاعلم ذلك يا أخى وتأمله، والله يتولى هداك.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخارى (ح ٣٢٠٨) فى بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، و(ح ٣٣٣٢، ٧٤٥٤) ومسلم (ح ٢٦٤٣) فى القدر، باب: كيفية الخلق الآدمي فى بطن أمه.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: عدم مبادرتهم بالدعاء بالشفاء إذا دخلوا على مريض بل كان أحدهم يتربص حتى يعلم سبب مرض هذا المريض وانتهاؤه، ثم يدعـو بعد ذلك لأن المرض ربما كان رفع درجات، فلا ينبغي الدعاء برفعه، وكذلك القول فيه إذا كان عقوبة، فالأولى أن يصبر العابد حتى تبلغ العقوبة حـدها أدبًا مع الله تعالى، وإن كان أحدهم له حال مع الله تعالى، فـله أن يسأله الشفـاء من باب الفضل والمنة، فـاعلم ذلك يا أخي، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: محبـتهم في سكنى البيـوت الملاصقـة للمسـجد ليـسهل عليـهم الجلوس في المسجـد في أغلب أوقاتهم إذا عـملوا بآداب المساجد، وذلك لما ورد مرفـوعًا: «**المساجد بيوت المتقين**»[1]، ومن كانت المسـاجد بيته ضمن الله له الـروح والراحة. والجواز على الصراط، وكـان أبو صادق الأزدي ـ رحمـه الله تعالى ـ يقـول: الزموا الجلوس في المسـاجد فإنه بلغنـي أنها كانت مـجالس الأنبـياءعليـهم الصلاة والسلام، وكان حكم بن عـمير ـ ﷺ ـ يقول: اتخذوا المساجـد بيوتًا، وكان أبو إدريس الخولاني ـ رحمـه الله تعالى ـ يقول: المساجـد بيوت الكرام على الله تعالى من الناس، ومحل جلوسهم، فقد ورد: «**المساجد بيت كل تقي**»، وقد كـان عيسى عليه الصـلاة والسلام ينهى من لم يعرف أدب المسـاجد أن يكثر الجلوس فيها. وقد رأى عليه السـلام مرة قومًا يلغون في المسجد، فلف رداءه وضربهم به، وأخرجـهم منه وقال: اتخذتم بيوت الله أسـواقًا للدنيا، وإنما هي أصوات الآخرة.

وقد كـان المسجد بيت عطاء بـن أبي رباح ـ رحمه الله تعـالى ـ مدة أربعين سنة، وكان مالك بن دينار ـ رحـمه الله تعالى ـ يقول: لولا البول مـا خرجت من المسـجد في ليل ولا نـهار، فـقد بلغني أن الله عـز وجل

---

(١) حسن: ذكره الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٢) بلفظ «المسـجد بيت كل تقي... الحديث» وقـال: رواه الطبراني في الـكبيـر والأوسط والبزار، وقـال: إسناده حـسن قلت: (أي الهيثمي) رجال البزار كلهم رجال الصحيح. وحسنه الألباني في الصحيحة (ح ٧١٦).

يقول: إنى لأهم بعذاب عبادى، فأنظر إلى عـمار المساجد، وقرّاء القرآن، وولدان الإسلام فيسكن غضبى. وكان خلف بن أيوب ـ رحمه الله تعالى ـ يومًا جالسًـا فى المسجد، فأتاه غـلامه فسأله عن شىء من حـوائج الدنيا، فقـام حتى خـرج من المسجـد وأجابه، ثم رجع وقال: كـرهت أن أتكلم بكلام الدنيا فى المسجد، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إذا سمع صوتًا عـاليًا فى المسجد يضرب صاحـبه بالدرة ويقول له: تدرى أين أنت؟ فإن مـن جلس فى المسجـد فإنما يجـالس ربه عز وجل. وقـد سُئل سعيد بن المسيب ـ رحمه الله تعالى ـ أيما أحب إليك حضور الصلاة على الجنازة أم الجلوس فى المسجـد؟ فقال: الجلوس فى المسـجد أحب إلى لأن الملائكة عليـهم الصلاة والسلام تسـتغفـر لى ما دمت فى المسـجد، وذلك أفضل من حصول القيراط أو القيراطين أو الثلاث من الأجر الذى ورد لمن صلى على جنازة.

وكان الفضيل بن عياض ـ رحـمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا الناس وهم لا يكلم بعضهم بعـضًا ما داموا جالسين فى المسـجد فى شىء من أمور الدنيا. اهـ.

فتأمل يا أخى مـا ذكرته لك ولا تتكـلم مادمت فى المسـجد إلا بنيـة صالحة تسلم وتغنم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقـهم ـ رضي الله عنهم ـ: معاتبـة من انقطع عن زياتهم من إخوانهم من حيث حرمانه من الثواب العائد نفعه عليه لا من حيث الخلل بحقوقهم كما قـد يتوهم ذلك بقطع النظر عن عود فائدة ذلك عـليهم، وذلك حتى يكون أحدهم ممن سعى فى مصالح إخوانه لا فى مصالح نفسه فقط، وهذا خلق مـا رأيت له فـاعـلاً من أقـرانى إلا القليل جـداً، والحـمـد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: اجتناب الجلوس فى السوق لبيع أو شراء إلا بعد معرفة أحكام الشرع فى المعاملات، وغلبة ظنهم أن أحدهم لا يشتغل بذلك عن أعمـال آخرته لأن كل ما يشغل عن الله فهو

مشؤوم على صاحبه فى الدنيا والآخرة. وقد ورد أن رسول الله -ﷺ- كان إذا دخل السوق قال: «**اللهم إنى أسألك من خير هذا السوق، وأعوذ بك من بك الكفر والفسوق**».

وكان أبو الدرداء -رضي الله عنه- يقول: إياكم ومجالسة السوقة، فإنها تلهى وتلغى. وقد كان سفيان الثورى - رحمه الله تعالى - يقول: لا تنظروا إلى ظاهر ثياب التجار والسوقة، فإن تحتها ذئاب كاسرة. وكان مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - يقول: السوق مكثرة للمال مفسدة للدين.

قد كان سفيان الثورى - رحمه الله تعالى - يقول إياكم ومجالسة الأغنياء وقرّاء الأمراء والسوقة. وكان ابن السماك - رحمه الله - إذا دخل إلى السوق يقول: يا أهل السوق سوقكم كاسد، وخياركم حامد، وبيعكم فاسد، فاستيقظوا لأنفسكم، وكان حماد بن زيد - رحمه الله تعالى - يقول: ما افتقر تاجر قط إلا بوقوعه فى شىء من هذه الخصال، وهواللغو والكذب والحلف والغل والخيانة والحسد، وتفويت صلاة الجماعة، ومجالس العلم، واتباع الشهوات الدنيوية.

وقد كان الإمام مالك -رضي الله عنه- يأمر الأمراء فيجمعون التجار والسوقة، ويعرضونهم عليه: فإذا وجد أحدًا منهم لا يفقه أحكام المعاملات، ولا يعرف الحلال من الحرام أقامه من السوق، وقال له: تعلم أحكام البيع والشراء، ثم اجلس فى السوق، فإن من لم يكن فقيهًا أكل الربا شاء أم أبى. وكان قتادة - رحمه الله تعالى - يقول: عجبًا للتاجر كيف يسلم وهو بالنهار يحلف، وبالليل يحسب، وكان الحسن البصرى - رحمه الله تعالى - يقول: نعم التاجر الذى تكون الدنيا عليه ساخطة، والآخرة عنه راضية، فقد بلغنى أن إبليس لعنه الله تعالى قال: يا رب أين أجعل بيتى؟ قال: الحمام. قال: فما مصائدى؟ قال: النساء. قال: فما مزاميرى؟ قال: الشعر. قال: فأين أجعل مجلسى؟ قال: الأسواق. اهـ.

فانظر يا أخى فى ذلك ولا تمدح تاجرًا حتى تراه يسلم من الآفات والشبهات. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: كثرة الحلم على من جنى عليهم، وكظم الغيظ عملاً بأخلاق رسول الله-ﷺ-، فإنه كان لا يغضب لنفسه وإنما يغضب إذا انتهكت حرمات الله عز وجل كما يأتى. وقد كان أمير المؤمنين على -رضي الله عنه- يقول: أول مجازاة من حلم على من جنى عليه أن يصير الناس كلهم أنصاره. وقد قال إبليس لعنه الله ليحيى عليه الصلاة والسلام: أعظم مصائدي الغضب، فبه أسرت الناس وعوقتهم عن طريق الجنة، وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ إذا قيل له: إن فلانًا يقع في عرضك يقول: والله لأغيظن من أمره يعنى إبليس، ثم يقول: اللهم إن كان صادقًا فاغفر لى، وإن كان كاذبًا فاغفر له، وقد قال رجل لأبى هريرة -رضي الله عنه- أنت أبو هريرة؟ قال: نعم، فقال: أنت سارق الهرة. فقال أبو هريرة: اللهم اغفر لي ولأخى هذا، ثم قال: هكذا أمرنا رسول الله -ﷺ- أن نستغفر لمن ظلمنا. وقال رجل لأبى ذر -رضي الله عنه- أنت الذى نفاك معاوية إلى الشام؟ لو كان فيك خير ما نفاك. فقال أبو ذر: يا أخى إن بين يدى عقبة سوداء فلو نجوت منها لم يضرنى ما قلت فى، وإن لم أنج منها فأنا شر مما قلت.

وقد قالت امرأة لمالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يا مرائى. فقال لها: يا هذه قد عرفت لقبى الذى أضله أهل البصرة ولم يعرفوه. وقد كان عيسى -عليه السلام- يقول: من احتمل كلمة سفه كتب له عشر حسنات. وقد كان على -رضي الله عنه- يقول: إذا سمعت كلمة سفه فأعرض ولا تجب عنها، فإن لها عند قائلها أخوات يجيبك بها. وكان محمد بن كعب القرظى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا تغضبوا على كسر أوانيكم فإن لها آجالاً كآجالكم. وقد كان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ليس بحليم من نفذ غضبه فى حمار أو هرة. وكان يقول: أشد ما على السفيه الإعراض عن جوابه، وإظهار عدم التأثير له. وكان الحسين بن على -رضي الله عنهما- إذا شتمه أحد يقول له: يا أخى إن كان قولك صدقًا فسيجازيك الله بصدقك، وإن كان كذبًا فالله أشد نقمة منى لك. وقد لطمه إنسان مرة على وجهه -رضي الله عنه-

فلم يتغير بل قال: من قدر هذا؟ فقيل له: الله تعالى قدره. فقال: أفترون أنى أرد قضاء الله؟

وكان ابن المقنع ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كظم الغيظ أولى من ذل الاعتذار، وقيل له مرة: ما الفرق بين الحزن والغضب؟ فقال: الحزن يكون من مخالفة من هو فوقك لهواك، والغضب يكون من مخالفة من هو دونك لهواك. وقد كان أبو معاوية الأسود ـ رحمه الله ـ يدعو لمن يدعو له ولمن نال منه. قال: وشتم رجل بكر بن عبد الله المزنى ـ رحمه الله ـ وبالغ في شتمه وهو ساكت، فقيل له: ألا تشتمه كما شتمك؟ فقال: إنى لا أعرف له شيئًا من المساوئ حتى أشتمه به، ولا يحل لى أن أرميه بالكذب.

وكان الأعمش ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: قالت الأذن لولا خوفى أن أنصر وأنجمع بالجواب لطلت كما طال اللسان. وقال رجل لثور بن يزيد ـ رحمه الله ـ يا قدرى يا رافضى. فقال له: إن كنت كما قلت لى، فأنا رجل سوء، وإن كنت على خلاف ذلك فأنت فى حل منى. وقد كان مكحول الدمشقي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا يبين حلم الرجل إلا تسليط الجاهلين عليه، وقد قال رجل مرة لسالم بن عبد الله بن عمر ـ ﷺ ـ يا شيخ السوء، فقال له سالم: ما أراك أبعدت يا أخى. وروى أن لقمان عيه السلام قال لابنه: يابنى إن أردت أن تؤاخى أحدًا فأغضبه فإن أنصفت وهو مغضب فواخه وإلا فاحذره، وقد سُئل السرى السقطى ـ رحمه الله تعالى ـ مرة عن الحلم: ما هو؟ فقال للسائل: أى حلم تريد؟ فإن الحلم على خمسة أقسام: الأول: حلم غريزى وهو هبة من الله تعالى للعبد به يعفو عمن ظلمه ويعطى من حرمه، ويصل به رحمه، وإن قطعت، والثانى: حلم تحالم وهو أن يكظم العبد غيظه رجاء الثواب وفى القلب كراهة، والثالث: حلم مذموم وهوحلم العبد على من جنى عليه رياء وسمعة يعنى يرائى به جلساءه وهوحاقد ساكت، والرابع: حلم كبر وهو أن الشخص لا يراه أهلاً بأن يجاوبه، والخامس: حلم مهانة ومذلة. اهـ.

فاعلم ذلك فإنه نفيس، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: الاتعاظ بما يرونه لبعضهم فى المنام، أو يرى لهم وعدم قولهم هذه أضغاث أحلام كما عليه بعض المتصوفة من أهل هذا الزمان، فلا يلتفتون لمثل ذلك، وربما يقول بعضهم: إن المنام إنما هو للرائي لا للمرئي له، وذلك من الجهل، فإن الرؤيا وحى المؤمن يأتيه بها ملك الإلهام فى المنام ليعرفه بما جهل من حاله فى اليقظة، وقد بينت فى غير هذا الكتاب عملى بذلك من حيث التجربة، فينبهنى الله تعالى بذلك على صورة ما وقعت فيه من النقائص من حيث لا أشعر، أما ما أشعر به فلا أحتاج فيه إلى منام، بل أكتفى فيه بنهى الشارع -ﷺ-، وما توعدنى على ذلك النقص من العقوبة.

وقد كان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: رأيت مسلم بن يسار ـ رحمه الله تعالى ـ فى المنام بعد موته فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال لى: والله لقد رأيت أهوالاً وزلازل شداداً، وكان إبراهيم التيمى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: رأيت موسى بن مهران فى المنام بعد موته ـ رحمه الله تعالى ـ فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: إنى أحاسب منذ مت على أكلى من طعام الأمراء، وقال بعضهم: رأيت الحسن بن ذكوان فى المنام بعد موته بسنة ـ رحمه الله تعالى ـ فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: أنا محبوس من جهة إبرة استعرتها ولم أردها، فقلت له: يا أخى أى القبور أكثر إضاءة؟ قال: قبور أهل المصائب فى الدنيا. وكان عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ربما يرى بعضهم الرؤيا السوء للرجل الصالح ليزداد بها نشاطًا، وربما يرى بعضهم الرؤيا الصالحة للرجل السوء ليزداد بها استدراجًا، كما قال بعضهم للربيع بن خيثم ـ رحمه الله تعالى ـ إنى رأيتك فى المنام كأنك من أهل النار، قال: فكان الربيع بعدها لاينام الليل مطلقًا، ويقول: خوف النار قد منعنى النوم، وقال رجل للعلاء بن زياد ـ رحمه الله تعالى ـ إنى قد رأيتك البارحة وأنت تخطر فى الجنة، فقال له: أما وجد إبليس أحدًا يسخر به غيرى، ولا أحدًا أحقر فى عينه منك حتى يجعلك رسوله، وكان فرقد السنجى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: خطر فى نفسى مرة أنى قد صرت من

الصابرين، فرأيت تلك الليلة قائلاً يقول لى: لا تكن من الصابرين حتى تستقل أعمالك فى عينك وتخاف عليها من الرد والفساد.

وقال حوشب لمالك بن دينار ـ رحمهما الله تعالى ـ رأيت كأن قائلاً من جهة السماء يقول: يا أهل الأرض الرحيل الرحيل، فما رأيت أحد رحل إلا محمد بن واسع قال: فخر مالك مغشيًا عليه. وقال فرقد السنجى ـ رحمه الله تعالى ـ سمعت مناديا ينادى من جهة السماء ويقول: يا أشباه اليهود إن أعطيتم لم تشكروا، وإن ابتليتم لم تصبروا ومع ذلك تزعمون أنكم من الصالحين، فكونوا على حذر من سطوات ربكم.

وقد رأى بعض أصحاب عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ أن القيامة قد قامت ونادى المنادى: أين فلان بن فلان؟ فصار الناس يحاسبون ثم يذهب بهم إلى النار، ثم نادى المنادى أين عمر بن عبد العزيز؟ فأتى به فحوسب ثم نجا وأمر به إلى الجنة. قال: فلما قص الرائى هذه الرؤيا على عمر، ووصل إلى قوله: أين عمر خر مغشيًا عليه، فصار الرجل يناديه فى أذنه ويقول: رأيتك والله قد نجوت وعمر لا يعى ما يقول. اهـ.

ففتش يا أخى نفسك فأنت أعرف بها من غيرك، ولا تركن إلى قول بعضهم لك: رأيتك البارحة فى الجنة مثلاً إلا بعد عرض أفعالك وأقوالك وعقائدك على الكتاب والسنة، فاعلم ذلك يا أخى، ولا تكن مغرورًا، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: أن لا يبادروا بالدعاء لمن سألهم أن يدعوا له إلا إن علم أحدهم أن الله تعالى راض عنه، وذلك بعرض أعماله على الكتاب والسنة، فإن رأى فيها مخالفة فمن الأدب أن يسأل الله تعالى العفوعن نفسه، ثم بعد ذلك يدعو لمن يشاء، وهذا الخلق قد أغفله غالب الفقراء اليوم، وقد كان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الدعاء حقيقة هو ترك الذنوب، فمن تركها فعل الله تعالى به ما يختار من غير سؤال، وكان وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: رأيت فى بعض الكتب الإلهية يقول الله عز وجل: كيف تدعونى وقلوبكم معرضة

عنى. وقد أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام: أن قل لبنى إسرائيل لا يدخلوا بيتًا من بيوتى إلا بقلوب طاهرة، ونفوس وجلة، وأبصار خاشعة، وجوارح مطهرة من الفواحش، فمن دخل بيتى وهو متلطخ بشيء من الذنوب لعنته، وأعلمهم أنى لا أجيب لأحد منهم دعوة، ولأحد من الخلق عليه مظلمة، أو فى بطنه لقمة من حرام.

وكان إبراهيم النخعى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: دعاء الرجل فى خلوته أفضل من دعائه فى مجالس القصاص. وقال رجل لزياد بن ظبيان ـ رحمه الله تعالى ـ كثر الله فى المسلمين من أمثالك، فقال له: لقد سألت الله شططًا وسألت للناس أن يكونوا من أهل الشر. وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: أطال الله بقاءك، فقال: هذا أمر قد فرغ منه ادع لى بصلاح الحال. قلت: فينبغى للداعى لأخيه بطول البقاء أن ينوى فى نفسه إن كان ذلك خيرًا له نظير ما روى فيمن خاف الفتنة، وإلا فقد يكون طول البقاء شرًا له لما يقع فيه من المعاصى والمخالفات ونحو ذلك والله أعلم.

وقال رجل لعامر بن قيس ـ رحمه الله تعالى ـ ادع الله لى، فقال: والله إنى لأستحى منه عز وجل أن أسأله شيئًا يسرنى، فكيف أسأل لغيرى، ويحك إنها شفاعة ولا تكون إلا من المقربين. قلت: وبالجملة فكل شيخ تصدر فى هذا الزمان فينبغى له أن لا يبادر بالشفاعة فى غيره إلا إن علم أن الله تعالى عفا عنه، وأن لا يكون فى بطنه لقمة من شبهة، فإن دعا لأحد وليس هو بسالم من ذلك فليسأل وهو فى غاية الحياء والخجل من الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: زيادة الخوف من الله تعالى كلما أحسن إليهم وقربهم إلى حضرته كما عليه أهل مجالسة الملوك، ولله المثل الأعلى. وقد كان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا الناس وأحدهم كلما ازداد نعمة من الله وقربًا كلما ازداد خوفًا. وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: يكفى العامة من الخوف أن ينتهوا عما نهاهم الله تعالى عنه، ثم يقول: يا ليتنى كنت منهم، وكان حماد بن

زيد ـ رحمه الله تعالى ـ لا يجلس دائمًا إلا مستوفزًا على قدميه، فإذا قيل له في ذلك يقول: إنما يجلس مطمئنًا من أمن من عذاب الله عز وجل، وأنا والله غير آمن من ليل أو نهار من أن تنزل على نار من السماء تحرقني. وكان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد رحم الله تعالى الخلق بالغفلة فى بعض الأوقات، ولولا ذلك لماتوا من خشية الله تعالى، وكان عطاء السلمي ـ رحمه الله تعالى ـ إذا ثارت ريح يصير يقوم ويقعد ويخرج ويدخل، ويأخذ بجلدة بطنه كأنه امرأة أخذها الطلق.

وكان أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا غلب الرجاء على الخوف فسد القلب كما عليه الحمقى من أمثالنا. وقد كان الشعبي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: خف من الله تعالى حتى يأتيك الأمن، فإنه أحب إليك من رجائك فيه حتى يأتيك الخوف، وكان أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: والله إني لأخاف أن أكون أول من يسحب على وجهه يوم القيامة إلى النار. وقد غلب الخوف على سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ حتى صار يبول الدم، فأتوه بطبيب يهودى، فلما جس بطنه قال: ما أظن فى الحنيفية مثل هذا، وصار اليهودى يبكى ويقول: إن هذا الرجل قد قطع الخوف من الله تعالى كبده، وليس لى فيه حيلة. وكان عطاء السلمي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لو أوقدت نار وقيل: كل من ألقى نفسه فيها صار لا شيء، ولم يدخل النار الكبرى لألقيت نفسى فيها. وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: لو أوقفونى بين الجنة والنار، وخيرونى بين أن أصير رمادًا، أو بين أن أصبر حتى أعرف أين مصيرى لاخترت أن أكون رمادًا. وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أشتهى أن يوقفنى ربى عز وجل بين يديه، ويقول: رضيت عنك يا مالك، ثم أصير ترابًا بعد ذلك.

وكان على بن بكار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: مكث عطاء السلمى ـ رحمه الله تعالى ـ على فراشه مزمنًا من شدة الخوف أربعين سنة يعاد، فبلغ ذلك بعض العباد فقال: وأى شيء الأربعون سنة، والله لو عبد الله تعالى

عدد شعر رأسه آلافًا من السنين لكان ذلك قليلاً فى جنب سيئة واحدة يفعلها العبد. وقد كانت فاطمة بنت عبد الملك ـ رحمها الله تعالى ـ تقول: ما رأيت أخوف لله تعالى من عمر بن عبد العزيز كان ـ رحمه الله تعالى ـ إذا جلس مجلس الرجل من امرأته ارتعد من الهيبة، وانتفض كالطير المذبوح، ثم لما ولى الخلافة جمعنا وجمع جواريه وقال: قد جاءنى أمر شغلنى عنكم، فما أتفرغ لكنّ حتى أفرغ من الحساب يوم القيامة فمن شاء أن يقيم عندى ولا يطالبنى فليفعل، ومن شاء الفراق فليفارق، ثم ترك القرب من عياله حتى مات. وقد كان عطاء السلمى ـ رحمه الله تعالى ـ عامة ليله يمس جلده بيده مخالفة أن يكون قد مسخ، وكذلك كان السرى السقطى وبشر الحافى ـ رحمهما الله تعالى ـ.

وكان إسحاق بن خلف ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ليس الخائف الذى يبكى ويمسح عينيه وهو مرتكب للمعاصى إنما الخائف الذى ترك الذنوب خوفًا من ربه. وكان السرى السقطى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ليس الخائف الذى تأخذه رقة عند تلاوة القرآن مثلاً، إنما الخائف الذى ترك طعامه وشرابه وطلق النوم حتى يعرف أين ينتهى حاله. وكان أبو سليمان الدارانى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لم يقدر على بن الفضيل ـ رحمه الله تعالى ـ على سماع قراءة سورة القارعة حتى مات، وقد سمعها مرة على غفلة، فمكث ثلاثة أيام بلياليها لم يعِ شيئاً. وكان عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ كثيرًا ما ينشد قول الشاعر:

إذا ما الليل أظلم كابدوه ... فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا ... وأهل الأمن فى الدنيا هجوع

فاعلم ذلك واتبع سلفك يا أخى تسلم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: كثرة الحزن على ما فرطوا فى جنب الله ولو كانوا على عبادة الثقلين لا يرون أنهم قاموا بواجب حق الربوبية الذى عليهم، ولا فرق فى ذلك بين العارف والمبتدى خلاف ما عليه بعض المتصوفة فى هذا الزمان من قولهم: إنما يكون الخوف للمبتدى،

وأما العارف فلا حزن عليه ولا خوف، وهذا من زيادة الجهل، فإن الأكابر قد درجوا كلهم على توالى الحزن إلى أن ماتوا، ولكن يحمل قول من قال من الأكابر: إن العارف لا حزن عليه - أى على فوات أمور الدنيا -، وأما الآخرة فترك حزنهم على فواتها مذموم، فقد ورد فى الحديث أن الله تعالى يحب كل قلب حزين يعنى على فوات حظه من الله تعالى فى الآخرة. وكان موسى بن سعيد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقاح العمل الصالح الحزن، وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب كما أن البيت إذا لم يكن فيه ساكن خرب. وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: والله ما يسع المؤمن فى الدنيا إلا الحزن وكان داود الطائى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كيف لا يحزن فى الدنيا من تتجدد عليه المصائب فى كل ساعة يعنى الذنوب.

ولما مات الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ قال وكيع ـ رحمه الله ـ قد ارتفع الحزن البالغ اليوم من الأرض، وكان عبد الواحد بن زيد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لو رأيتم الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ لقلتم: إن الله تعالى قد بث عليه حزن الخلائق أجمعين من طول تلك الدمعة وتواصل النشيج. وكان الربيع بن خيثم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ليس أحد أشد همًا فى الدنيا من المؤمن لأنه شارك أهل الدنيا فى المعايش، وزاد عليهم باهتمامه بأمر الآخرة، وقد كان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ لا يراه أحد إلا ظن أنه قريب عهد بمصيبة لما به من شدة الحزن وكذلك أصحابه.

وقد كان هرم بن حبان ـ رحمه الله تعالى ـ لم يزل مهمومًا الشهر والدهر، فإذا قيل له فى ذلك يقول: ومن أولى منى بذلك وأنا لا أعرف ماذا إليه مصيرى. اهـ.

فعليك يا أخى بالحزن حتى لا تجد لك وقتًا تتفرغ فيه لشىء من شهوات نفسك فى الدنيا وإلا فأنت مغرور، فانتبه يا أخى، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: عدم الاغترار بالله تعالى بحيث يعتمد أحدهم على عفو الله ويترك الأعمال الصالحة، بل

كانوا يبالغون في الاجتهاد في العبادة، ثم يعتمدون على فضل الله تعالى لا على أعمالهم، وفي الحديث: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**»(١). وقد سُئل سعيد بن جبير ـ رحمه الله ـ عن الاغترار بالله تعالى: ما هو؟ فقال: هو تمادي العبد في العصيان، ثم يتمنى على الله المغفرة. وقد كان الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن أقوامًا خرجوا من الدنيا وليس لهم حسنات من كثرة ما ألهتهم أماني المغفرة يقول أحدهم: إني لحسن الظن بربي عز وجل، فلا أبالي أكثر العمل أم قل وهوكاذب في ذلك إذ لو كان حسن الظن بربه حقيقة لأحسن العمل. قال تعالى: ﴿**وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[فصلت:٢٣]، وقد كان ميسرة العابد ـ رحمه الله تعالى ـ قد بدت أضلاعه من كثرة المجاهدة، وكان إذا قيل له: إن رحمة الله واسعة يزجر القائل ويقول: صحيح ذلك لولا سعة رحمته لأهلكنا بذنوبنا في طاعتنا فضلاً عن معاصينا. وكان حذيفة بن قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لو قال لي شخص: والله إن أعمالك أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب لقلت له: صدقت لا تكفر عن يمينك.

وكان يونس بن عبيد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن اليد تُقطع في سرقة خمسة دراهم، ولا شك أن أصغر ذنوبك أقبح من سرقة خمسة دراهم، فلك بكل ذنب قطع عضو في الدار الآخرة، وكان حذيفة المرعشي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن لم تخف أن يعذبك الله تعالى على أحسن طاعاتك لما فيها من النقص وإلا فأنت هالك. وكان الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما أحد منا آمن أن الله تعالى يغفر له ذنبًا واحدًا فيصير أحدنا يعمل في غير معمل. وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أرجى الناس للنجاة أخوفهم على نفسه ألا ترى يونس عليه الصلاة

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٤/ ١٢٤)، وابن ماجه (ح ٤٢٦٠) في الزهد، باب: ذكر الموت والاستعداد له، وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الجامع (ح ٤٣٠٥).

والسلام لما ظن أن الله لا يعاقبه على دعائه على قومه عجل الله له المؤاخذة بحبسه في بطن الحوت.

فعليك يا أخي بالخوف من الله عز وجل بطريقه الشرعي، فإنه أولى بك، وهيهات أن تنجو مع كثرة أعمالك الصالحة وأكثر من الاستغفار، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضي الله تعالى عنهم-: كثرة الصبر على البلايا والنوازل، وعدم سخطهم على مقدور ربهم عز وجل، وكانوا يقولون: من لم يصبر فليتصبر لحديث **«ومن يتصبر يصبره الله تعالى»**[(١)] فعلم أن من لم يصبر على فضول من طعام ومنام وكلام وجماع وغير ذلك لا تقول له الملائكة يوم القيامة ﴿ **سلامٌ عليكم بما صبرتم** ﴾ [الرعد:٢٤]، بل هو يومئذ في هم وغم وعدم أمن بخلاف من سلمت عليه الملائكة عليهم الصلاة والسلام، فإنه يأمن ويزول عنه الهم والغم ويصير في فرح وسرور وأمن. وقد كان عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- يقول: في قوله تعالى: ﴿ **والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس** ﴾ [البقرة:١٧٧]، أنه الفقر والمرض وكان كعب الأحبار -رضي الله عنه- يقول: لا يوصف بالصبر إلا من صبر على أذى الناس له، ولم يقابلهم بنظيره يعني لا سرًا ولا جهرًا، حتى بالدعاء عليهم والتوجه فيهم إلى الله تعالى وأعظم الصبر أيضًا صبر العبد عما نهى الله عنه وعلى ما أمره بفعله. وقد كان الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى - يقول: إن الله تعالى ليواصل البلاء بعبده المؤمن، فينزل عليه بلاء بعد بلاء حتى يمشي وليس عليه خطيئة. وقد عثرت امرأة فتح الموصلي - رحمها الله تعالى - مرة، فطار ظفرها فضحكت، فقيل لها: ألم تجدي ألم الظفر؟ قالت: بلى،ولكن ثواب ذلك ألهاني عن وجود الاشتغال بالألم.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (ح ١٤٦٩) في الزكاة، باب: الاستعفاف عن المسألة، ومسلم (ح ١٠٥٣) في الزكاة، باب: فضل التعفف والصبر، من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-.

وكان الحسن البصري - رحمه الله تعالى - يقول: لولا الفقر والمرض والموت ما طأطأ ابن آدم رأسه من شدة الكبر، ثم مع ذلك هو وثاب على معاصي الله تعالى، وقد شكا الأحنف بن قيس - رحمه الله تعالى - وجع ضرسه لعمه، فقال له: يا أحنف أراك تشكو وجع ضرسك من ليلة واحدة، والله إن لي بذلك نحو ثلاثين سنة ما أظن أن أحدًا شعر بذلك غيرك. وكان أبو سليمان الداراني - رحمه الله تعالى - يقول: مرّ موسى عليه الصلاة والسلام يومًا برجل قد خرقت السباع بطنه ونهشت لحمه، فعرفه موسى، فوقف عليه وقال: يارب إنه كان مطيعًا لك، فماذا الذى أرى؟ فأوحى الله إليه يا موسى إنه سألني درجة لم يبلغها بعمله، فأبتليته لأبلغه تلك الدرجة. وقد كان كعب الأحبار -رضي الله عنه- يقول: من شكا مصيبة نزلت به إلى غير الله تعالى لم يجد للعبادة بعد ذلك حلاوة حتى يتوب الله تعالى عليه. وكان وهب بن منبه - رحمه الله تعالى - يقول: أوحى الله تعالى إلى العزير عليه السلام: إذا نزلت بك بلية فاحذر أن تشكونى إلى خلقى، وعاملنى كما أعاملك، فكما لا أشكوك إلى ملائكتى إذا صعد إلىّ عملك القبيح كذلك لا ينبغى أن تشكونى إلى خلقى إذا نزل بك بلاء.

وقد بلغنى أنه لما أهلك الله تعالى جميع مال أيوب عليه الصلاة والسلام دخل بيته ونزع ثيابه وقال: هكذا خرجت إلى الدنيا وكذا أخرج منها، وقد أوحى الله إلى داود عليه الصلاة والسلام يا داود اصبر على المؤنة تأتيك من الله المعونة. وقد كان عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - يقول: لو كانت الدنيا نعيمًا لا كدر لكانت هى الجنة، ولم نحتج إلى الانتقال منها. وكان محمد بن الحنفية -رضي الله عنه- يقول: احذر من الشكوى، فإنها تفرح عدوك، وتحزن صديقك. اهـ. فاعلم يا أخى ذلك، وكن صابراً تغنم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: كثرة التسليم لأمر الله تعالى، والرضا بقضائه عند فقد ولد أو أخ أو أحد من الأهلين والأقارب إيثاراً لمراد الله عز وجل على مرادهم. وقد مات مرة ولد لداود عليه الصلاة

والسلام، فحزن عليه حزنًا شديداً، فقيل له: ما كان يعدل عندك؟ قال: ملء الأرض ذهبًا أنفقه في سبيل الله عز وجل، فأوحى الله إليه لك من الأجر مثل ذلك. وكان بكر المزني ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: موت الوالد ملك حادث، وموت الأخ كسر جناح، وموت الولد صدع في القلب لا ينجبر. وكان مورق البجلي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما أحد أعلم أني مؤجر على موته إلا أحببت أن يموت، وكان ابن أبي كثير - رحمه الله تعالى - يقول: لا فائدة في الجزع بعد الموت لأنه لا يرد فائتًا. وقد كان حاتم الأصم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا رأيتم صاحب المصيبة قد مزق ثيابه وأظهر الجزع، فلا تعزوه فإنه صاحب إثم، فمن عزاه فقد شاركه في الإثم، وإنما الواجب نهيه عن ذلك. وكان أبو سعيد البلخي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من أصيب بمصيبة فمزق ثوبًا، أو ضرب خدًا فكأنما أخذ رمحًا يقاتل به ربه عز وجل.

وكان عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من أصيب بمصيبة فليفعل في اليوم الأول ما يفعله في اليوم الخامس من مصيبته يعني من ضحك وأكل وغير ذلك، وفي الحديث قال ـ ﷺ ـ: «**من سعادة العبد رضاه بقضاء الله تعالى**»(١) وكان عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: أول شيء كتبه الله في اللوح المحفوظ، إني أنا الله لا إله إلا أنا محمد رسولي، من لم يستسلم لقضائي ولم يصبر على بلائي، ولم يشكر نعمائي، فليتخذ له ربًا سواي، ومن استسلم لقضائي، وصبر على بلائي، وشكر نعمائي كتبته صديقًا وبعثته مع الصديقين. وكان أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول: من ذروة الإيمان الاستسلام للرب جل جلاله. وكان وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من حزن على ما في يد غيره يعني حسد أخاه على رزقه فقد سخط على قضاء ربه.

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (ح ٢١٥١) في القدر، باب: ما جاء في الرضا بالقضاء، وأحمد (١/ ١٦٨)، والحاكم (١/ ٥١٨) من حديث سعد بن أبي وقاص، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (ح ٥٣٠٠)، والضعيفة (ح ١٨٠٠) ولفظه «من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله له».

وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام، يا داود إن أسلمت لي ما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي ما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

وقد قيل لعمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ ما الذى تريد؟ فقال: أريد ما يريد الحق تعالى، وإن كانت نفسى تكره المعاصى. وكان ميمون بن مهران ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء. وكان عبد العزيز بن أبي رواد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ليس الشأن في لبس العباءة، وأكل الخل والشعير، ولكن الشأن في رضا العبد عن ربه. وقد كان عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ يقول: شكا نبى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما ناله من المكروه إلى ربه عز وجل، فأوحى الله إليه إلى كم تشكونى ولست بأهل ذم ولا شكوى هكذا كان بدء شأنك في عالم الغيب، فلم تسخط على حسن قضائي عليك؟ أفتريد أن أغير الدنيا من أجلك؟ وأبدل اللوح المحفوظ بسببك؟ وأقضى لك بما تريد دون ما أريد؟ ويكون ما تحب دون ما أحب؟ فبعزتي حلفت لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأسلبنك ثوب النبوة، ولأورينك النار ولا أبالي. قلت: قد أجمع العلماء على أن المعصوم لا يصح سلبه، فالظاهر أن ما ورد هنا على سبيل الفرض والتقدير، وما كل ما توعد الله به عباده واقع فليتأمل، والله تعالى أعلم، وكان محمد بن شقيق ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: اشتريت مرة لأمي بطيخة فلم تعجبها فسخطت، فقلت لها: يا أماه على من تسخطين على بائعها أم على مشتريها، أوعلى خالقها؟ فوالله إن خالقها لأحسن الخالقين، وإن البائع والمشترى ما أعطياك إلا ما قسم لك في الأزل، قال: فاستغفرت أمي من ذلك وتابت. وكان عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول: لأن ألحس جمرة بلساني أحب إلى من أن أقول لشيء وقع. لم وقع هذا. وكان محمد ابن واسع ـ رحمه الله ـ يقول: ما ثم فعل لله تعالى إلا ويجب على العبد

شكر ربه عليه من حيث إنه حكيم عليم، وأما من حيث كسب العبد فيجب عليه عدم الرضا به إن كان مذمومًا تعظيمًا لجنابه عز وجل، وقد طلعت مرة فى رجل محمد بن واسع قرحة شديدة، فقال له رجل من أصحابه: والله إنى لأرحمك من أجل هذه، فقال له محمد: إن كنت تحبنى يا أخى فاشكر الله تعالى معى الذى لم يطلعها فى لسانى، أو فى عينى، أو فى أذنى، أو فى ثديى، أو تحت إبطى، أو فى فرجى.

ولما سقطت مقادم أسنان معاوية ـ رضي الله عنه ـ قال: الحمد لله الذى لم يذهب سمعى ولا بصرى. وقد روى عن يونس عليه الصلاة والسلام أنه قال يومًا لجبريل عليه الصلاة والسلام: دلنى على أعبد أهل الأرض، فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره وسمعه وشعره، قال: فدنا يونس منه، فسمعه يقول: إلهى قد متعتنى بقوتى كما تشاء، ثم سلبتنى قوتى كما تشاء، وأبقيت لى فيك الأمل بالخير، فلك الفضل على، وكان بشر بن الحرث ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: اجتمعت فى سياحتى برجل مجذوم أبرص أعمى مجنون وقد صرع فى الشمس والقمل يأكل لحمه، قال: فرفعت رأسه من الأرض، ووضعتها فى حجرى، فلما أفاق قال: من هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى عز وجل؟ فوعزته وجلاله لو قطعنى إربًا إربًا ما ازددت فيه إلا حبًا.

وقد روى أن عيسى عليه الصلاة والسلام مرّ يومًا برجل أعمى أبرص مقعد مضروب الجنبين بالجذام والفالج، وقد تناثر لحمه من الجذام، فدنا منه عيسى فسمعه يقول: الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيرًا من خلقه، فقال له عيسى: وأى شىء صرفه عنك من البلايا يا هذا؟ فقال له: صرف عنى الجهل به، وخلع علىّ معرفته، فقال له عيسى: صدقت هات يدك، فناوله يده فذهب ما كان به، وصار من أحسن الناس وجهًا، وصحبه يعبد الله تعالى معه إلى أن رفع عيسى ـ عليه السلام ـ. وكان أبو سليمان الدارانى ـ

رحمه الله تعالى ـ يقول: الرضا عن الله تعالى والرحمة للخلق من أخلاق المرسلين، وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الرضا عن الله تعالى أفضل من الزهد في الدنيا، لأن الراضي عن ربه عز وجل لا يتمنى فوق منزلته. وكان الداراني ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لو أن الله تعالى أدخلني النار لكنت راضيًا عنه. وكان سليمان الخواص ـ رحمه الله ـ يقول: من قال يا رب ارض عني فليس هو براض عن ربه. وكان أبو عبد الله البلخي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: عبيد الدنيا يريدون من ساداتهم أن يرضوا عنهم، وعبيد الله تعالى يريد منهم أن يرضوا عنه. وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ يقول: رضا الناس غاية لا تدرك. اهـ.

فانظر يا أخي في هذا الخلق الذي ذكرناه، واشكر ربك إن رأيت نفسك من أهل الصبر وإلا فاستغفره وتب إليه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضي الله تعالى عنهم -: شهودهم في نفوسهم أنهم لم يقوموا بذرة واحدة من شكر ربهم، وذلك أنهم يرون أن جميع ما يشكرونه به من جملة نعمه عليهم، فلا تنفد نعم الله تعالى أبدًا، ولا يصح من أحد مقابلتها. وكان بكر بن عبد الله المزني ـ رحمه الله ـ يقول: ما قال عبد: الحمد لله إلا وجب عليه بذلك شكر آخر. وكان وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا كان الذي تشكر الله تعالى به نعمة منه عليك من نعمه عز وجل، فما ثم شكر حقيقة، وإنما الشكر اعترافك بكثرة نعمه عليك، وإنك لا تحصي ثناء عليه عز وجل. وكان سهل بن عبد الله التستري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أداء الشكر لله تعالى أنك لا تعصيه بنعمه عليك، فإن جوارحك كلها من نعمه عليك، فلا تعصه بشيء منها. وقد كان مجاهد ومكحول ـ رحمهما الله تعالى ـ يقولان في قوله تعالى ﴿**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾ [التكاثر:٨]، إنه الشراب البارد، وظل المساكن، وشبع البطن، واعتدال الخلق، ولذة المنام.

وقد سُئل الحسن البصرى عن الفالوذج أهو من أكبر النعم؟ فقال: نعمة الله سبحانه وتعالى علينا فى الماء البارد العذب أعظم منه. وقد مر وهب بن منبه ـ رحمه الله ـ تعالى يومًا على رجل أصم أبكم مصاب، فقال له شخص: هل بقى على هذا نعمة؟ فقال وهب: نعم إساغة ما يأكل وما يشرب وتسهيله ونحو ذلك، يعنى إذا خرج فذلك أعظم من النعم الظاهرة التى فاتته. وكان الشعبى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لو قاس الناس البلاء بما فوقه لوجدوا بعض البلايا عافية. وقد كان عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ إذا قدم إليه طعام يقول: الحمد لله الذى جعلنى أشتهيه. فكم من يقدر عليه ولا يشتهيه، يعنى من شدة المرض والوجع.

وكان سفيان الثورى إذا مر عليه أحد من أهل الشرطة يخر ساجدًا لله تعالى، ويقول: الحمد الله الذى لم يجعلنى شرطيًا ولا مكاسًا، ثم يقول لأصحابه: إنه يمر على أحدكم المبتلى الذى يؤجر على بلائه، فتسألون ربكم العافية، ويمر عليكم هولاء الظلمة الذين يأثمون ببيلائهم فلا تسألون الله العافية. وكان زيد بن أسلم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: مكتوب فى التوراة العافية هى الملك الخفى. وكان عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: من كان له زوجة ومسكن ومركب وخادم فهو من الملوك. وكان جعفر بن سليمان ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: فى قوله عز وجل: ﴿ **وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** ﴾ [لقمان: ٢٠]، إن الظاهرة الإسلام وما حسن من خلقك ورزقك، والباطنة ما ستر الله تعالى عن الناس من عيوبك وذنوبك ذكره ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وكان عون بن عبد الله ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن الله تعالى أنعم على العباد على حسن كرمه، وطلب منهم الشكر على قدر حالهم، وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول فى قوله تعالى ﴿ **إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ** ﴾ [العاديات: ٦]، قال: يعنى يعد المصائب وينسى النعم، وكان عون بن عبد الله ـ رحمه الله ـ يقول: فى قوله تعالى: ﴿ **يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ**

ينكرونها﴾ [النحل:٨٣]، يعني يرون النعم أنها من الله عز وجل، ثم يضيفونها إلى الخلق غافلين عن الله تعالى، ويقولون: لولا فلان ما وصلت إلينا.

وكان بشر الحافي - رحمه الله تعالى - يقول: من شكر الله بلسانه دون بقية أعضائه فقل شكره، لأن شكر البصر إن رأى خيرًا وعاه أو شرًا ستره، وشكر السمع إن سمع خيرًا حفظه أو شرًا نسيه، وشكر اليدين أن لا يأخذ بهما ولا يعطي إلا حقًا، وشكر البطن أن يكون ملآنًا من العلم والحلم، وشكر الفرج أن لا يفعل به إلا ما أبيح له، وشكر الرجلين أن لا يمشي بهما إلا في الصلاح، فمن فعل ذلك فهو من الشاكرين حقًا. اهـ.

ففتش نفسك يا أخي وانظر هل شكرت ربك كما شكر هؤلاء أم قصرت فاستغفر الله، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضي الله تعالى عنهم-: شدة تدقيقهم في التقوى، وعدم دعوى أحد منهم أنه متق، فإن الله تبارك وتعالى ربما أحصى على العبد مثاقيل الذر، وهذا خلق غريب في هذا الزمان بل غالب الناس يدعي التقوى من غير مناقشة لنفسه، ويقنع بذكره لله تعالى صباحًا ومساءً مثلاً، ولا يناقش نفسه في قول ولا فعل، ولا مطعم، ولا مشرب، ولا ملبس، بل هو كالتمساح الهائم على الحرام، فصورة عمامته وعذبته صورة شيخ، وأقواله وأفعاله على صورة الفسقة والمنافقين. وكان عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - يقول: لا يبلغ أحد مقام التقوى حتى لا يكون له فعل ولا قول يفتضح به في الدنيا والآخرة، وقد قال له رجل مرة: متى يبلغ العبد سنام التقوى؟ فقال: إذا وضع جميع ما في قلبه من الخواطر في طبق، وطاف به في السوق ولم يستح من شيء فيه.

وكـان وهب بن منبه ـ رحـمه الله تـعالى ـ يقـول: الإيمان عـريان ولباسه التـقوى. وكان أمير المؤمنين علـي ـ رضي الله عنه ـ يقول: لا يقل عمل مع تقـوى لأنه مقبـول، قال تعـالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]، وكان عـمر بن عبد العـزيز ـ رحمه الله تعـالى ـ يقول: ليس التقـوى في صيـام النهار وقـيام الليل مع التـخليط فيمـا بين ذلك، وإنما التقوى ترك مـا حرم الله تعالى، وأداء ما افتـرض الله، فمن زاد بعد ذلك فهوخير إلى خير. وكان ـ رحمه الله تعالى ـ كثيراً ما يقول: علامة المتقى أن يلجم عن الكلام كما يلجم المحرم حال إحرامه ويحتاج المتقى أن يكون عالمًا بالشـريعة كلها وإلا خرج عن التـقوى من حيث لا يشعـر. وكان أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ يقول: من كمال التقوى أن يخـاف العبد من ربه في مثقال ذرة، وقـد سُئل أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عـن التقـوى فقـال: هي طريق الشـوك يحتـاج الماشى فيها إلى صـبر شديد. وكـان سفيان الثـورى ـ رضي الله عنه ـ يقول: أدركنا الناس وهم يحبـون من قال لأحدهم: اتق الله تعالـى، وقد صاروا اليوم يتكدرون من ذلك. وقـد قال رجل لعمر بن عبـد العزيز: اتق الله يا عمر فخر مغشيًا عليه من هيبة الله تعالى. وقال رجل للفضيل بن عياض ـ رحمـه الله تعالى ـ أي البلاد تحب لى أن أقـيم فيه؟ فـقال له: ليس بينك وبين بلد نسب بل خير البلاد ماحملك على التـقوى، وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعـالى ـ يقول: لو اتقى أحد منا ربه ما هـنأه عيش ولا أخذه نوم. اهـ.

ففتش يا أخى نـفسك هل اتقيت الله تعالى كتـقوى هؤلاء السلف، أم قصرت عنهم، واستغفر ربك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: كثرة سترهم لإخوانهم المسلمين، وشدة مناقـشتهم لنفوسهم فى مقام التـورع، فكانوا لا يحبون أن تظهر لأحد عورة، وكـانوا يحاسبون أنفسهم فى أقوالهم وأفـعالهم وطعامهم وشرابهم، وتفقد جمـيع جوارحهم فى وقوعها فيما حرم الله عليـها لا سيما اللسان والبطن والفرج والعين، وقد بسطنا هذا الخلق فى كتابنا المنهج المبين، وفى الحديث: «**اتقه عما نهاك الله عنه تكن أورع الناس**».

وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: لو صمتم حتى تكونوا كالأوتار، وصليتم حتى تكونوا كالحنايا ما نفعكم ذلك إلا إذا كان معكم ورع صادق، وكان أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول: جلساء الله تعالى يوم القيامة هم أهل الورع والزهد. وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا خير فى فقه لا ورع فيه كما لا خير فى صلاة لا خشوع فيها، ولا مال لا جود فيه. وكان يونس بن عبيد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: حقيقة الورع هو الخروج عن الشبه ، ومحاسبة النفس مع كل خطوة، فمن لم يكن كذلك فليس هو بورع. وكان أبو عبد الله الأنطاكي ـ رحمه الله تعالي ـ يقول: لا تستهن بالتورع في اليسير، فإن الاستهانة فيه سلم لترك التورع فى الكثير. وكان ابن السماك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من طلب العلم بلا عمل كان قدوته إبليس، ومن طلب الرياسة كان قدوته فرعون، ومن طلب الورع كان قدوته الأنبياء والأصفياء عليهم الصلاة والسلام.

وكان الضحاك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا الناس وهم يتعلمون الورع، ويسافرون لتعلمه الثلاثة أشهر وأكثر، وقد صاروا اليوم لا يطلبون ذلك ولا يعملون به ولو نبهوا عليه، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وقد كان محمد بن سيرين ـ رحمه الله تعالى ـ إذا رأى بعض شبهة فى شيء تركه كله، ولو كان جميع بيت المال. وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع فى الحرام، وكان السلف إذا وقع من أحدهم دينار فى مكان، ثم تذكره ورجع فرآه لا يأخذه ويقول يحتمل أن هذا وقع من غيرى، وأن ديناري أخذه أحد. وقد سُئل محمد بن سيرين ـ رحمه الله تعالى ـ عمن يسدّ أنفه عند قسم المسك فى الغنيمة هل به بأس؟ فقال: لا أقول فيه شيئًا. وقد سُئل عن ذلك أيضًا القاسم بن محمد ؟ فقال: هو كالتورع ولا أقول هو ورع أدبًا فى اللفظ. وقد قيل لرباح القيسي ـ رحمه الله تعالى ـ حدثنا بما رأيت من ورع عمر بن عبد العزيز؟ فقال: دعانا ـ رحمه الله تعالى ـ ليلة إلى طعامه، فبينما نحن نأكل إذ قال لنا: أمسكوا فإن زيت هذا المصباح من زيت العامة الذى أنظر فيه ديوانهم، وكان طلحة بن مصرف ـ رحمه الله

تعالى ـ إذا بنى جدارًا أو خصًا يجعل الجدار مائلاً إلى ناحيته ليكون الطين الذى يطين به البناء من غير جهة الطريق.

وكان يونس بن عبيد ـ رحمه الله تعالى ـ يتورع أن يقول: سبحان الله تعالى عند التعجب من شيء إجلالاً لربه. وقد كان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ إذا تناول ولده تفاحة من الفيء ينزعها من فيه بشدة ويقول: أنتزعها خوفًا من الله تعالى، وكأننى أنتزعها من قلبى. وقد بلغنا عن الإمام أبى حنيفة ـ رضي الله عنه ـ أنه ذهب إلى غريم له ليطالبه بدين، وكان للرجل شجرة على باب داره، فوقف الإمام فى الشمس وطالبه فقيل له: ألا تقف فى ظل الشجرة؟ فقال: لا إن لى على صاحبها دينًا، وكل قرض جر نفعًا فهو ربًا، كما ورد ذلك عن النبى ـ ﷺ ـ.

وكان المغيرة بن شعبة ـ رحمه الله تعالى ـ إذا اشترى شيئًا من طوافى الأسواق يعدل به عن الشارع، ويشترى منه خوفًا أن يحجز المشى على المارة، وقد استعار القاضى بكار بن قُتيبة ـ رحمه الله تعالى ـ من والدته رداء ليخبز فيه خبزة، فكلمه شخص من أصحابه فى الطريق فلم يقف له، فقال له: لم لا تكلمنى؟ فقال: يا أخى إنما استعرت هذا الرداء لأخبز فيه لا لأقف مع أحد فى الطريق، ولو علمت أنك تكلمنى لكنت استأذنتها فى ذلك، وكان بكر بن عبد الله المزنى ـ رحمه الله تعالى ـ يجعل ميزاب سطحه إلى جهة داره دون الشارع خوفًا أن يشوش على أحد، وقد ماتت عنده هرة فحفر لها ودفنها فى داره، ولم يرمها فى المزابل خوفًا أن يشوش ريحها على الناس، وقد كان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إياكم أن تسافروا إلى مكة بشيء من الشبهات، فإن رد دانق من حرام أو شبهة أفضل عند الله تعالى من خمسمائة حجة فيها شبهة. وقد ترك يزيد بن دريج مال والده رحمهما الله لما مات، وكان مالاً جزيلاً، وقال: كنت أشك فى حل كسبه لكونه كان يبيع على الولاة، وكان عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ لا يأكل من كسب غلامه إذا باع شيئًا وصلى على النبى ـ ﷺ ـ عند بيعه، فكان يقول: إنك أطريت عليه بالصلاة على رسول الله ـ ﷺ ـ ومدحته بها حتى اشتراه الناس، فإياك أن

تفعل ذلك، أو تقول للمشترى: هذا رخيص أو مليح مثلاً، بل بعه وأنت ساكت. وقد دخل الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ السوق ليشترى لأولاده خبزًا، فرأى الخباز يسبح الله ويهلله، ويصلى على النبى -ﷺ- عند بيعه الخبز فأبى الفضيل أن يشترى منه، وطوى هو وأولاده حتى لقى من الغد شخصًا يبيع الخبز وهو ساكت، فاشترى منه فقيل له: إن هذا أمر سهل يا أبا على، فقال: إن سهلكم هذا أخاف أن يوردنى النار. وكان يونس بن عبيد ـ رحمه الله تعالى ـ يبيع البرد والأكسية فإذا كان يوم غيم لا يبيع ولا يخرج بها إلى السوق، فسئل عن ذلك؟ فقال: إن المشترى ربما يرى ما يراه حسنًا فى الغيم وهو معيب.

وقد كان الأصمعى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من طلب من الفقهاء الرخصة عند المشتبهات فعلمه زاده إلى النار. وقد اشترى أبو على النجورانى ـ رحمه الله تعالى ـ قميصًا ولبسه، فقال له شخص: إنى اشتريت هذا الثوب وفيه درهم من شبهة. قال: فدخل الماء وتعرى من القميص، وقال: من يتصدق على بثوب حتى أخرج من الماء؟ فألقوا عليه ثوبًا. انتهى.

فانظر يا أخى فى هذا الخلق، وفتش نفسك، واتبع سلفك فى الورع، واترك دعوى الصلاح إذ لم تفعل ذلك فإن من لا ورع عنده فهو من الفسقة عند المتورعين ليس له نصيب فى مقامهم والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: التودد والسكينة والوقار، وقلة الكلام، وذلك لكمال عقولهم وكثرة تجاربهم لأهل عصورهم. ومن كلام أمير المؤمنين على -رضي الله عنه- قوله: ينتهى طول العبد فى اثنتين وعشرين سنة، وينتهى عقله فى ثمان وعشرين سنة، وما بعد ذلك إلى آخر عمره إنما هو تجارب.

فعلم أن كل من كان قليل العقل لا يصلح أن يكون داعيًا إلى الله تعالى لأن الذى يفسده أكثر من الذى يصلحه، وفى الحديث: «**كرم الرجل**

دينه ومروءته عقله وحسبه خلقه»[1] وكان قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الرجال ثلاثة: رجل ونصف رجل، ولا شيء، فالرجل هو من كان له عقل ورأي ينتفع به، ونصف الرجل هو الذي يشاور العقلاء ويفعل برأيهم، والذي لا شيء هوالذي لا عقل، ولا رأي له، ولا يشاور أحدًا، وكان سفيان بن عيينة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أفره الدواب لا غنى له عن الصوت، وأعقل النساء لا غنى لها عن الزوج، وأعقل الرجال لا غنى له عن مشورة ذوي الألباب.

وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: من صار يتدبر ما يقول قبل النطق فهو أعقل الناس، وكان مطرف بن عبد الله ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: عقول الناس على قدر عصورهم، وقد سئل أمير المؤمنين على كرم الله وجهه عن العقل أين مسكنه؟ قال: في القلب، قيل له: فأين مسكن الرحمة؟ قال: في الكبد، قيل له: فأين مسكن الرأفة؟ قال: في الطحال، قيل له: فأين مسكن النفس؟ قال: في الرئة. وكان وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من ادعى العقل ولم تكن همته الآخرة فهو كاذب. وكان محمد بن زياد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا يكمل عقل الرجل حتى يحذر من صديقه. وكان هشام الدستوائي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من أراد أن ينظر إلى قوم بلا عقول فلينظر إلينا. وكان زياد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ليس بعاقل من يحتال للأمر بعد الوقوع، وإنما العاقل من يحتال للأمر قبل الوقوع فيه، فإن خمير الرأي خير من فطيره. فاعلم ذلك يا أخي، واتبع سلفك الطاهر تسترح، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضي الله تعالى عنهم -: كثرة الصمت والنطق بالحكمة تسهيلاً على الطالب نظير قوله ـ ﷺ ـ: **«أعطيت جوامع الكلم**

---

(١) صحيح بشواهده: أخرجه أحمد (١/ ٣٦٥)، وابن حبان (ح ٤٨٣) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: وفي الباب عن سمرة بن جندب بلفظ: الحسب المال والكرم التقوى» عند الترمذي (ح ٣٢٧١)، وابن ماجه (ح ٤٢١٩) ومتن الحديث صحيح بشواهده، ولذا حسنه الترمذي، وصححه الحاكم.

واختصر لي الكلام اختصاراً»[1]. وكان أبو الحسن الهروى ـ رحمه الله ـ يقول: تهيج الحكمة من أربع خصال: الندم على الذنب، والاستعداد للموت، وخلو البطن، وصحبة الزهاد في الدنيا.

وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: اشتغل محمد بن يوسف ـ رحمه الله ـ بالعبادة فأورثه الحكمة، واشتغلنا بكتابة العلم فأورثتنا الخصومات يعنى بذلك الجدال. وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: تهوى الحكمة من السماء فلا تنزل على قلب فيه الأربع خصال الركون إلى الدنيا وحمل هم غد وحسد لأخ وحب شرف على الناس، فمن كان فيه خصلة من هذه فلا تدخل فى قلبه حكمة.

فمن جملة حكمهم ـ رضي الله عنهم ـ: قول حاتم الأصم ـ رحمه الله تعالى ـ لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال، وخذ الحكمة حيث وجدتها فإنها ضالة المؤمن، فإذا وجدتها فقيدها، ثم ابتغ ضالة أخرى.

ومنها قول الإمام أبى حنيفة ـ رضي الله عنه ـ: من رضى بدون قدره رفعه الله فوق غايته، وقوله: عليك بالحكمة فإنها تجلس المساكين مجالس الملوك، ومنها قول أكثم بن صيفى ـ رحمه الله تعالى ـ الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرين السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط.

ومنها قول الإمام الشافعى ـ رضي الله عنه ـ: أقل الناس فى الدنيا راحة الحسود والحقود. وقال رجل للأحنف بن قيس ـ رحمه الله تعالى ـ إنى أراك يا أحنف أعور فبم سودك قومك عليهم؟ فقال له: لكونى لم أشتغل إلا بما يعنينى فقط، كما اشتغلت أنت بما لا يعنيك، فإن قيل: ما ضابط الكلام الذى لا يعنى الشخص؟ فالجواب: أن ضابطه كل ما لا تدعو إليه حاجة دينية أو دنيوية والله أعلم.

وقد قيل ليحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ متى يذهب من العبد العلم والحلم والحكمة؟ فقال: إذا طلب الدنيا بشىء من هؤلاء الثلاث.

---

(١) أخرجه مسلم (ح ٥٢٣) فى أول كتاب المساجد، من حديث أبى هريرة، مقتصراً على الشطر الأول.

وكان رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا ذمك أبناء الدنيا، أو مدحوك فاصرف ذلك إلى الخرافات لكونهم مطموسى البصائر. واعلم أن تكسب الرجل وهو يحن إلى الزهد خير له من الزهد، وهو يحن إلى التكسب. وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: خلوة المريدين غم الشياطين، ورؤية الناس نشاط المرائين. وكان رحمه الله تعالى – يقول: من ستر عليك ذنوبك ولم يفضحك فهو أولى بك من سائر الخلق، فإنك تذنب ألف ذنب فيما بينك وبين الله تعالى فيسترها عليك، ولو أن الخلق اطلعوا على عيب واحد فيك لفضحوك بين العباد.

ومنها قول أبى محمد الراذامارى ـ رحمه الله ـ: إذا جمعت المال فأنت وكيل، وإذا أعطيت فأنت رسول، فالوكيل لا يخون والرسول لا يمن. قلت: عدم خيانة الوكيل لا يمنع أحداً من بخل بل ينفق كما أمره الله، ويمنع لحكمة كما منع الله، وعدم منّ الرسول أن يرى الفضل لمرسله ولا يرى له فضلاً بما أعطى إلا على وجه الشكر لله تعالى، والله أعلم.

ومنها قول أبى معاوية الأسود ـ رحمه الله ـ: من طلب من الله الخير الجزيل فلا ينم فى الليل ولا يقيل، وقوله: من طلب الفضل من اللئام فلا يلومن إلا نفسه إذا أهين.

ومنها قول إمامنا الشافعى ـ رضي الله عنه ـ: أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه ورغب فى مودة من لا ينفعه، وقبل مدح من لا يعرفه، وقوله: ومن نم لك نم عليك، ومن نقل إليك نقل عنك، ومن إذا أرضيته قال فيك ما ليس فيك، كذلك إذا أغضبته قال فيك ما ليس فيك، وقوله: إذا تزوج الرجل فقد ركب البحر، فإن ولد له ولد فقد كسرت به المركب، وقوله: طلب الراحة فى الدنيا لا يصح لأهل المروءات فإن أحدهم لم يزل تعبان فى كل زمان، وقوله: إذا ولى أخوك ولاية فارض منه بعشر الود الذى كان لك قبلها.

ومنها قول أبى أمامة ـ رحمه الله تعالى ـ: من آذى الناس بلا سلطان فليصبر على الهوان، وقوله: من صبر على الإساءة عليه فقد مهد للإحسان

موضعًا، وقوله: من لم ينلك الخير في حياته فلا تبك عيناك على وفاته، وقوله: إذا رضى الراعى بفعل الذئب لم ينبح الكلب على الغريب، وقوله: الاعتراف يهدم الاقتراف، ولم تزل الأشراف تبتلى بالأطراف.

ومنها قول عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: اللهم وسع على الدنيا، وزهدني فيها، ولاتقترها على وترغبنى فيها، وقوله: اللهم اجعلنى اليوم مشغولاً بما أكون عنه غداً مسئولاً، وقوله: التواضع يرفع الخسيس، والكبر يضع النفيس، ومن طلب الرياسة أعيته ومن فر منها تبعته وقوله: لا تفرح بكثرة العيال، فإن ذلك سوس المال وفضيحة الرجال.

ومنها قول الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ: من كثر عتابه قل أصحابه. ومن أعطى الفاجر فقد أعانه على الفجور، ومن سأل اللئيم فقد أهان نفسه. ومن طلب العلم ممن لا يعمل به زاده جهلاً، ومن علم الأبله فقد ضيع عمره بلا فائدة، ومن صنع المعروف مع كفور فقد ضيع النعمة.

ومنها قول يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ: في الكف عن المحارم يكون رضا الرب، وعند نزول البلاء تظهر حقائق الصبر، وعند طول الغيبة تظهر مواساة الإخوان، وبالأدب يفهم العلم، وبترك الطمع تثبت المؤاخاة، وبصلاح النية تدوم صحبة الأخيار، وقوله: من كان القرآن قيده كان إطلاقه منه الموت. ومن ذبحته العبادة أحياه الفوز، ومن ترك شهوة الدنيا عوضه الله تعالى شهوة ذكره. وقوله: من حلم ساد على أقرانه، ومن نفذ غضبه غمس في بحر هوانه. وقوله: كدر الاجتماع خير من صفاء الافتراق، وإذا كان القريب عدواً فهو البعيد، وإذا كان البعيد ودوداً فهو القريب.

ومنها قول بشر الحافي ـ رحمه الله تعالى ـ: إذا أخلت النوافل بالفرائض فاتركوا النوافل. وقوله: من لم يستحسن الحسن لم يستقبح القبيح، وقوله: ليس مع الاختلاف ائتلاف. وقوله: إنا لم نؤت من قبل النعم، وإنما أتينا من قلة الشكر عليها، كما أنا لم نؤت من قلة العمل وإنما أتينا من قلة الصدق فيه، كما أنا لم نؤت من كثرة الذنوب، وإنما أتينا من قلة الحياء، كما أنا لم نؤت من قلة الاستغفار، وإنما أتينا من قلة الوفاء

وسرعة الرجوع إلى الذنوب من غير عقوبة عليها، ولو أن العقوبة عجلت لنا لانتهينا عن المعاصي جملة. انتهى.

فاعلم ذلك يا أخي ونظف باطنك من محبة الدنيا وشهواتها، وأكثر من ذكر الله تعالى. فإذا تم جلاء باطنك فهناك ينطقك الله تعالى بالحكمة وتصير حكيم زمانك. وأما مع محبتك الدنيا فهذا بعيد عنك والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضي الله تعالى عنهم-: عدم الحسد لأحد من المسلمين، وبذل النصيحة لكل مسلم بطريقه الشرعي، ولذلك سادوا الناس، ولو كان عندهم حسد لأحد أو غش لما سادوا ولا قبلت الملوك أقدامهم، فإن طلبت يا أخي أن تكون كذلك. فاسلك طريقهم خالصًا مخلصًا، وإلا فالمتفعل قد يطلع الله تعالى بعض الناس على تفعله، فلا يروج له أمر. وقد سمعت شيخنا سيدي عليًا الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من أخلص عمله لله تعالى جعل الله عز وجل قلوب المؤمنين تخلص في محبته، وأما من لبس في دينه أطلع الله تعالى بعض أصفيائه على باطنه فلا يخلص له قلب أحد منهم في محبته.

وفي الحديث: «**إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**»[1]، وإذا فنيت حسنات العبد ذهبت سيادته لأنه يصير إما صاحب سيئات أو أمره موقوف لا حسنات ولا سيئات، ومن المعلوم أن السيادة والتعظيم إنما يكونان لمن فاق الناس في الأعمال والأخلاق الصالحة، وكان الأحنف بن قيس ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا راحة لحسود، ولا سيادة لسيئ الخلق. وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: ما ثَمَّ صاحب نعمة إلا وله عليها حساد. وكان فرقد السبخي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: دواء ترك الحسد هو الزهد في الدنيا. وأما من رغب في الدنيا، فالحسد من لازمه شاء أو أبى.

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (ح ٤٩٠٣) في الأدب، باب: الحسد، وابن ماجه (ح ٤٢١٠) في الأدب، باب: في الحسد، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف ابن ماجه (ح ٩٢٢).

وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من شأن الحسود عدم الفهم، فمن أراد جودة الفهم فلا يحسد أحدًا، وإني لأترك في بعض الأوقات لبس الثوب الجديد مخافة أن يهيج الحسد عند جيراني أو غيرهم، وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: المحسود على ما عنده من النعمة خير ممن ليس عنده نعمة يحسد عليها فيشكر الله تعالى على نعمته، ويعذر الحسود. وقد كان وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: اتقوا الحسد فإنه أول ذنب عصى الله تعالى به في السماء وأول ذنب عصي الله تعالى به في الأرض.

وكان ميمون بن مهران ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن أردت أن تسلم من شر من يحسدك فعم عليه أمورك. وكان مسعر بن كدام ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما آثر القوم النصيحة لإخوانهم إلا لوفور شفقتهم عليهم، وقد صارت النصحية اليوم كالعداوة وما نصحت أحدًا إلا وصار يفتش في عيوبي، وينسى العمل بنصحي. وكان محمد بن سيرين ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ماحسدت قط أحدًاعلى دين ولا دينار، وذلك من أكبر نعم الله سبحانه وتعالى علي. وقد كان أبو أيوب السختياني ـ رحمه الله تعالى ـ من أنصح الناس لإخوانه شفقة على دينهم أن ينقص. وكان يقول: إني لأرحم هؤلاء العصاة الغافلين عن ربهم عزوجل، وكان إذا نزل بالمسلمين هم أو بلاء يمرض لذلك ويصير يعاد كما تعاد المرضى، فإذا ارتفع ذلك الهم يبرأ من وقته. قلت: من صح له هذا المقام فلا يتطبب بأحد من الأطباء لأنهم ليس لهم يد في ذلك والله أعلم.

وقد قال عبد الملك بن مروان ـ رحمه الله تعالى ـ يومًا للحجاج بن يوسف: يا حجاج ما من أحد إلا ويعرف عيب نفسه لا يكاد يخفى عليه شيء منه فقل لي يا حجاج على عيبك. فقال له الحجاج: أعفني من ذلك يا أمير المؤمنين. فقال عبد الملك: لا بدّ وأقسم عليه. فقال الحجاج: من عيبي أني لجوج حسود. فقال له عبد الملك: قاتلك الله ليس في الشيطان أشر مما قلت. وقد كان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إني أجيز شهادة القراء على الناس، ولا أجيزها على بعضهم مع بعض لأنهم قوم حسدة. وكذلك كان الإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ يقول: سُئل أوس بن خارجة

من سيدكم؟ فقال: حاتم الطائي فقيل له: أين أنت منه؟ فقال: لا أصلح أن كون خادمًا له.

وسئل حاتم الطائي من يسودكم؟ فقال: أوس بن خارجة، فقيل له: أين أنت منه؟ قال: لا أصلح أن أكون مملوكًا له، فكان الإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ يقول: أين فقهاؤنا من هذا الأمر. وقد قال عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ يومًا لرجل من بعض القبائل: من سيدكم يا هذا؟ فقال الرجل: أنا يا أمير المؤمنين. فقال له عمر: كذبت لو كنت سيدهم ما قلت ذلك. وقد كان ابن السماك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من علامة الحساد أن يدنيه منك الطمع ويبعده عنك سوء الطبع، وإن أعظم الناس حسدًا الأقربون والجيران لمشاهدتهم النعمة التي يحسدون عليها بخلاف العبد، ولذلك كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ: أن مر ذوي القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا. وقد قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ لسفيان الثوري ـ رحمه الله ـ اعلم أنك لو بذلت النصيحة للناس حتى صاروا مثلك في الدين ما وفيت بالنصيحة لهم فكيف توفيهم بالنصحية ولم يبلغوا حالك. وكان شقيق البلخي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا كان فيك من الخصال ما يخاف عدوك فليس فيك خير، فكيف إذا كان فيك ما يخاف صديقك، واعلم أن من تعرض لمساوئ الناس عرّض نفسه للهلاك، ومن سلم الناس منه سلم هو من الناس، ومن نم على الناس افتقر في دينه ودنياه وصار من خدام إبليس. اهـ.

ففتش يا أخي نفسك، وانظر هل سلمت من الحسدلإخوانك المسلمين على ما آتاهم الله تعالى من فضله، وهل بذلت لهم النصيحة كما أمرك الله، أم أنت بالضد من ذلك واستغفر الله، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضي الله تعالى عنهم -: شدة الجوع، وعدم الشبع، وذلك ليكثر صمتهم ويقل كلامهم وفضول لغوهم كما هو شأن العلماء العاملين، فإن من شبع كثر كلامه فيما لا يعنيه ضرورة. وكان محمد الراهبي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من أدخل في بطنه فضول الطعام أخرج

من لسانه فضول الكلام. وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: رمى الناس بالسهام أخف من رميهم باللسان لأنه لا يخطئ.

وكان إمامنا الشافعي ـ رضي الله عنه ـ يقول: الكلمة كالسهم إن خرجت منك ملكتك ولم تملكها. وكان جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ يقول: قلت للنبي ـ ﷺ ـ: يا رسول الله ما أكثر ما تخاف عليّ؟ فقال: «هذا وأشار إلى لسانه ـ ﷺ ـ»[1]. وكان إبراهيم النخعي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من تأمل وجد أشرف أهل كل مجلس وأكثرهم هيبة من كان أكثرهم سكوتًا لأن السكوت زينة للعالم وستر للجاهل. وكان وهيب بن الورد ـ رحمه الله ـ يقول: العافية عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت، وواحد في الهرب من الناس. قال: ومكث منصور بن المعتمر أربعين سنة لا يتكلم بعد العشاء بلغو. وكان الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: واعجبًا لابن آدم ملكاه على نابيه ولسانه قلمهما وريقه مدادهما وهو يتكلم فيما بين ذلك فيما لا يعنيه.

وقد مكث الربيع بن خيثم ـ رضي الله عنه ـ قبل موته عشرين سنة لا يتكلم بكلام أهل الدنيا. وقد وقع لحسان بن سنان ـ رحمه الله تعالى ـ أنه تكلم بكلمة لغو فعاقب نفسه بصوم سنة، وكان حماد بن سلمة ـ رحمه الله تعالى ـ إذا تكلم بكلمة لغو يقول عقبها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ثم يقول: كانوا يكرهون كلام الدنيا في مجلس من غير أن يخالطه كلام خير. وقد مكث مورق العجلي ـ رحمه الله ـ عشرين سنة يتعلم الصمت حتى تم له، وقد كان معروف الكرخي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كلام الرجل فيما لا يعنيه من خذلان الله إياه. وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كلام الرجل فيما لا يعنيه يقسي القلب، ويوهن البدن، ويعسر أسباب الرزق.

وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: باللسان يحفظ الرأس. وكان بشر الحافي ـ رحمه الله تعالى ـ قليل الكلام جدًا، وكان يقول

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (ح ٣٨) في الإيمان، باب: جامع أوصاف الإسلام، من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي ـ رضي الله عنه ـ.

لأصحابه: انظروا مـا تملونه فى صحائفكم فإنه يقـرأ على ربكم فيا ويح من تكلم بقبيح ولو أن أحدكم أملى إلى أخيه كلامًا فيه قبح لكان ذلك قلة حياء معه، فكيف بالرب سبحانه وتعالى، وكان الربيع بن خيثم ـ رحمه الله تعالى ـ إذا أصبح وضع قرطاسًا وقلمًا، فكان لا يتكلم يومه بلغو إلا حاسب نفسه عليه عند غروب الشمس. وكان يقول: بلغنا أن أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ كان يضع الحجـر فى فمه فـعل ذلك عدة سنين حتى تعـود قلة الكلام، وكان لا يخرج الحجـر إلا عند الأكل وعند الصلاة كل ذلك خشية أن يتكلم فـيما لا يعنيه. ثم لما حـضرته الوفاة ـ رضي الله عنه ـ صار يخرج لسـانه ويقول: هذا هو الذى أوردنى الموارد. وقد كان الإمـام مالك إذا رأى رجلاً يتكلم كثـيرًا يقول له: أمسـك عليك بعض كلامك. وكـان يونس بن عبـيد ـ رحـمه الله تعـالى ـ يقول: ترك كلمة لغو أشد على النـفس من صيام يوم لأن الرجل ربما يحتمل الصوم فى الحر الشديد ولا يحتمل ترك كلمة لا تعنيه.

فاعلم ذلك يا أخى، وفتش نفسك هل وفـيت بهذا الحديث أم قصرت فيه، وأكثر من الاستغفار آناء الليل والنهار، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: سد بـاب الغيبـة فى الناس فى مجـالسهم لئلا يصـير مجلـسهم مجلس إثم، ولعل مـا قرأوه من الحديث ومن كـلام القوم أو الورد مـثلاً لا يقـاوم غيبـة، وقعـوا فيـها يوم القيامـة. وقد كان أخى الشيخ أفضل الدين ـ رحمـه الله تعالى ـ يقول: إنما أكثر من الأعمـال الصالحة فى بعض الأوقات ليصيـر معى شىء من الأعمال يوم القيامة أعطى منه خصمائى الذين لهم علىّ تبعة من مال أو عرض.

وقد قلت مـرة لشيخنا سـيدى على الخواص ـ رحمـه الله تعالى ـ ألا تأخذ العـهد يا سـيدى على أصحـابك أن لا أحد منهم يسـتغـيب أحدًا فى مـجلسك. فقـال لى: إن أخذ العـهـد بذلك سوء أدب مع الله تعـالى ومع خلقه، وذلك لأن خلق الأعمـال والأقوال التى تحدث على يد المريد إنما هى لله عز وجل، فكيف آخـذ على أحدعهدًا بشـىء ليس فى يده بل يخلقه الله تعالى فـيه على رغم أنفـه. فقلت له: يا سيـدى إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بايع

أصحـابه -ﷺ- على السـمع والطاعة، وعلى ترك أفـعال كـانوا يفعلونـها. فقال: إنما كان ذلك له -ﷺ- بوحى من الله سبحانه وتعالى بخلافنا نحن، فعلـيك أيها الشيـخ بزجر أصحـابك عن الغيـبة والنمـيمـة ولا تسامـحهم بالسكوت على ذلك فإنك تصير شريكهم فى هذا الأمر وتفسقوا كلكم، وفى الحديث أن رسول الله -ﷺ- قال: **«نظرت ليلة أسرى بى فى النار فإذا قوم يأكلون الجيف فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال:هؤلاء الذى يـأكلون لحوم الناس»**(١).

وكان جابر -ﷺ-: يقول: هاجت ريح مـنتنة على عهد رسول الله -ﷺ- فقلنا: يا رسول الله ما أشـد نتن هذه الريح؟ فقال -ﷺ-: **«إن ناسًا من المنافقين اغـتابوا ناسًا من المسلـمين، فلذلك هاجت هذه الريح الخبيـثة»**. وكان أبو قلابة -ﷺ- يقـول: إن الغيبة تخرب القلب من الهـدى، والخير، وكان أبو عـوف - رحمـه الله تعالى - يقـول: دخلت يومًا عـلى محمـد بن سيـرين - رحمه الله - فنلت من عـرض الحجاج بن يوسف عنده. فـقال لى محمد: يا أبا عوف إن الله تعالى حكم عـدل فكما ينتقم من الحجاج كذلك ينتقم للحجاج وربما لقيت الله تعالـى، فكان أصغر ذنب عملته أشد عليك، وأعظم من أعظم ذنب عـمله الحجـاج. وكان الحسن البـصرى - رحـمه الله تعـالى - إذا بلغـه أن أحدًا اغـتـابه يرسل إليـه بهدية ويقـول له على لسـان الرسـول: بلغنى يا أخى أنك أهديت إلىّ حـسناتك، وهى بيقـين أعظم من هديتى هذه. وكان سيـدى عبد العزيز الدرينى - رحـمه الله تعالى - إذا بلغـه أن أحدًا اغـتابه يذهب إليه فى داره ويقـول له: يا أخى مالك ولذنوب عـبد العزيز تتحملهـا. وكان عمر بن عبد العزيـز - رحمه الله تعلى - يقول: إياك أن تقابل من ظلمك بسب أو شتم أوغير ذلك وذلك أنه يظـلمك مرة فتصير تلعنه وتشتمه كـلما تذكرت فعله حتى تستوفى بذلك حـقك، ويصير عليك بعد ذلك التبعة.

---

(١) صحـيح: أخرجه أحـمد (١/ ٢٥٧)، وصحـحه الشيخ أحـمد شاكـر، وهو جزء من حديث طويل.

وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: فاكهة القراء في هذا الزمان الغيبة، وتنقيص بعضهم بعضًا خوفًا أن يعلو شأن أقرانهم ويشتهروا بالعلم والزهد والورع دونهم، وبعضهم يجعل الغيبة كالأدم في الطعام، وهو أخفهم إثمًا. وكان إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ من أشد الناس زجرًا للمغتابين، وقد دعاه رجل مرة إلى طعامه فلما ذهب إليه وجده يذكر رجلاً بسوء، فقال له إبراهيم: عهدنا بالناس يأكلون الخبز قبل اللحم وأنتم تأكلون اللحم قبل الخبز، ثم خرج ولم يأكل له طعامًا، وكان وهيب بن الورد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: والله لترك الغيبة عندي أحب إلى من التصدق بجبل من ذهب. وكان وكيع بن الجراح ـ رحمه الله ـ يقول: من عزة السلامة من الغيبة أنه لم يسلم منها إلا القليل. وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: اذكر أخاك إذا تواريت عنه بمثل ما تحب أن يذكرك به إذا توارى عنك، وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كفى بالمرء إثمًا أن لا يكون صالحًا ثم يجلس في المجالس، ويقع في عرض الصالحين.

وقد سُئل الزهري ـ رحمه الله تعالى ـ عن حد الغيبة فقال: كل ما كرهت أن تواجه به أخاك فهو غيبة، وقد نام شقيق البلخي ـ رحمه الله تعالى ـ ليلة عن ورده فعتبته امرأته، فقال: لا تعتبيني بأن نمت عن وردي هذه الليلة فإن غالب علماء بلخ وزهادها يصلون لي ويصومون ويفعلون، فقالت له: وكيف ذلك؟ قال: يبيت أحدهم يصلي طول الليل، ويصبح صائمًا طول النهار، ثم ينال من عرض شقيق ويأكل لحمه فتكون حسناتهم كلها في ميزانه. وكان أبو أمامة ـ رضي الله عنه ـ يقول: إن العبد ليعطى كتابه يعني يوم القيامة فيرى فيه حسنات لم يعملها فيقول: يا رب أنى لي بهذا؟ فيقال له: هذا بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر. وكان عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لو كنت مغتابًا أحدًا لاغتبت والديّ لأنهما أحق بحسناتي من غيرهما. وكان محمد بن علي الترمذي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من وقع في عرض أحد فكأنه قدمه بحسناته على نفسه وأحبه أكثر من نفسه. قلت: فلا ينبغي له التكدير بل يحبه لما حصل له من الثواب، وإن لم يقصد

هو ذلك، فعلم أن من تكدر ممن أهدى إليه حسناته فهو أحق إلا إن كان تكدره لغرض شرعي. وكان سعيد بن جبير ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن العبد ليعمل الحسنات الكثيرة فلا يراها في صحائفه فيقول: يا رب أين حسناتي؟ فيقال له: ذهبت باغتيابك الناس وهم لا يعلمون، وكان منصور بن المعتمر ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا تنالوا السلطان إذا ظلم بل أكثروا له الاستغفار، فإنه ما ظلمكم إلا بذنوبكم، وقد سُئل الزهري أي قيل له: أنقع في عرض من يسب أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ؟ قال: نعم. وكان محمد بن سيرين ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من الغيبة المحرمة التي لا يشعر بها أكثر الناس قولهم: إن فلانًا أعلم من فلان، فإن المفضول يتكدر من ذلك، ومن المعلوم أن حد الغيبة أن يذكر الشخص أخاه بما يكره. وقيل: إن طبيبين يهوديين دخلا على سفيان الثوري مرة فلما خرجا قال: لولا أخشى أن تكون غيبة لقلت: إن أحدهما أطب من الآخر.

وكان أخي الشيخ أفضل الدين ـ رحمه الله تعالى ـ إذا سُئل عن مقام أحد من العلماء يقول: سلوا غيري عن ذلك، فإني ألحظ الناس بعين الكمال والصلاح، وليس عندي كشف أعلم به مقامهم عند الله تعالى، والظن أكذب الحديث. وكان عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ إذا مر على قوم يغتابون أحدًا يقول: قوموا فتوضؤوا، فإن بعض ما تتكلمون به ربما كان أشد من الحدث. وقد كان أبو تراب النخشبي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الغيبة فاكهة القراء، ومزابل الأتقياء، وكان ميمون بن يسار ـ رحمه الله ـ يقول: اغتيب رجل مرة في مجلسي وأنا ساكت، فقدم إلي في تلك الليلة جيفة منتنة وقيل لي: كل هذا، فقلت: معاذ الله كيف ذلك؟ فقيل: هذا بما اغتيب عندك وأنت ساكت. وقد كان خالد الربعي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: تناول الناس رجلاً يومًا في المسجد فأعنتهم عليه، فلما نمت تلك الليلة قدم إلي قطعة لحم خنزير، وقيل لي: كل. فقلت: معاذ الله أن آكله، فأدخلوها في فمي كرهًا علي، فاستيقظت وأنا أجد طعم ذلك في فمي، ومكثت رائحته في فمي أربعين صباحًا والناس تشمه مني.

وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: مثال من يغتاب الناس مثال من ينصب منجنيقًا لحسناته، ويصير يرميها شرقًا وغربًا في كل جهة. وكان عطاء الخراساني ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا تتكدروا ممن اغتابكم، فإنه أحسن إليكم من حيث لا يشعر. وقد بلغنا أن من اغتيب غيبة واحدة غفر له نصف ذنوبه. وكان وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا يكمل صلاح الرجل عند الله تعالى حتى يكون علكًا في أفواه الناس. وكان عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من قال: إن في القوم جفاء فليس ذلك غيبة إنما الغيبة أن يقول: هم جفاة أي لأنه عين من اغتابه. وكان يونس بن عبيد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: عرضت على نفسي مرة الصوم في يوم حر شديد أو ترك ذكر الناس، فكان الصوم أهون عليها من ذلك، وكان عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا تذكروا أهل الأهواء والبدع بسوء إلا لمن يبلغ لهم ذلك لعلهم يتزجرون، وإلا لا فائدة لذكرهم عند من لم يبلغهم. قلت: قد يقصد القائل بذلك تقبيح تلك الصفات في عيون الحاضرين، وتلك فائدة بلا شك، وكان يقول: في حديث: «لا غيبة في فاسق»[1] أي لا تغتابوا الفسقة، وكفوا عن غيبتهم، وكان حاتم الأصم ـ رحمة الله تعالى ـ يقول: ثلاث خصال إذا كن في مجلس، فإن الرحمة مصروفة عن أهله: ذكر الدنيا، وكثرة الضحك، والوقيعة في الناس. وقد بلغنا أن الكاذب يتطور كلبًا في النار، والحاسد يتطور في النار خنزيرًا، والمغتاب يتطور في النار قردًا وكذا النمام. وكان أبو عبد الله الأنطاكي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن من الغيبة المحرمة أن تثبت عيب أخيك في قلبك، وتترك أن تتكلم به خوفًا من عدواته لك، وكان يقول: من تجرأ على التصريح بغيبة أحد جره ذلك إلى أن يصير يقول: في الناس الزور والبهتان. اهـ.

فاعرض يا أخي على نفسك هذه الأمور، وانظر هل سلمت من الوقوع فيها فتشكر الله تعالى أم وقعت فيها فتستغفره، وأكثر يا أخي من

(١) منكر: ذكره العجلوني في كشف الخفا (ح ٣٠٨١). وقال: قال أحمد: منكر، وقال الحاكم والدراقطني والخطيب: باطل.

الأعمال الصالحة فتعطى منها أصحاب الحقوق يوم القيامة، واعتقد فى نفسك الفسق فضلاً عن اعتقادك فيها الصلاح من كثرة ما تسمع من المحجوبين عن الله تعالى فى حقك بأنك من الصالحين، وقد قالوا: أجهل الجاهلين من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس، وقبيح على شيخ الزاوية مثلاً أن يجلس فى مجالس الغيبة والنميمة، أو يقر أحدًا على ذلك فإنه يصير فاسقًا، وهذا أمر قد استهان به الناس الآن مع أنه أقبح من بيع الحشيش، ومع ذلك فلا يكاد أحد يستقبحه كل القبح، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، فاعلم ذلك يا أخى، واجتنب تلك الصفة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: عدم وسوستهم فى الوضوء والصلاة وفى القراءة فيها، وغير ذلك من العبادات مع مبالغة أحدهم فى الورع إلى الغاية، وذلك لأن حصول أصل الوسوسة إنما هو من ظلمة القلب، وظلمة القلب من ظلمة الأعمال، وظلمة الأعمال من أكل الحرام، والشبهات، فمن أحكم أكل الحلال فليس لإبليس عليه سبيل مطلقًا. وقد أكل قوم أطعمة الظلمة والمساكين والقضاة والمباشرين، ومن يبيع عليهم من التجار وغيرهم، وطلبوا الحضور مع الله تعالى، والخشوع فى عباداتهم، ومعرفة ما فعلوه منها مما تركوه فلم يصح لهم ذلك، وكان غاية ما حصله أحدهم العناء والتعب والقفز فى الهواء حال النية فى الصلاة كأنه يصطاد شيئًا تفلت من يده وتراه إذا كبر يقول: أك أك أك بار بار بار، وإذا أراد أن يقرأ يقول: بس بس بس ال ال ال هى، وإذ أراد يتشهد يقول: أت أت أت حيات، وإذا سلم يقول: اسم اس اس ونحو ذلك كما هو مشاهد من أحوالهم، وقد أفتى بعض العلماء ببطلان الصلاة بذلك، وقال: إنه ليس بقرآن ولا ذكر، وإنما هو كلام أجنبى من كلام الآدميين قاله صاحبه على وجه العمد لا السهو.

وقد كان شيخنا سيدى على الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن أحق ما يتسم به هولاء الموسوسون أن يقال له: مبتدعة لا فقهاء، وذلك لأن

أحدهم ربما يتوهم بطلان عبادة الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين، وأنت لو قلت لأحد منهم: توضأ كما بلغك من وضوء رسول الله -ﷺ- أو وضوء أصحابه -ﷺ- ربما لا يرضى بذلك، ولا يعتقد صحته، نسأل الله العافية، وهذا هوالضلال المبين، وقد بسطنا الكلام على ذلك في الباب الخامس عشر من كتابنا المنن الكبرى، فراجعه إن أردت ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: كتمانهم الأسرار، وعدم تبليغهم أحداً ما يسمعونه في حقه، وقد قالوا: قلوب الأحرار قبور الأسرار، وإن لم يكن أهل الله تعالى يكتمون الأسرار فمن بقى يكتمها، وهذا الخلق قد صار غريبًا فى هذا الزمان، فربما يسمع الشيخ الكلمة الآن فيحكيها لغالب من يدخل عليه، وربما كان فيها خراب الديار، وتراه يقول: قد أخبرنا بذلك شخص من أولياء الله تعالى لا يصح فى حقه تهمة، ويسميه وليًا من أولياء الله، والحال أنه معدود من الفاسقين بنقل النميمة، وإفساده بين الناس، وإن لم يقصد هو ذلك، وفى الحديث: «**لا يدخل الجنة قتات**»[1] يعنى نمامًا.

وقد كان مجاهد - رحمه الله تعالى - يقول فى قوله تعالى: ﴿**وامرأته حمالة الحطب**﴾ [المسد:٤]، قال: كانت تمشي بالنميمة بين الناس، وكان أكثم بن صيفي - رحمه الله تعالى - يقول: من علامة النمام الذل بين الناس فلا تكاد تراه عزيزاً أبداً. وكان يحيى بن أبي كثير - رحمه الله تعالى - يقول: النمام شر من الساحر، ولا يشعر به أحد، فإنه قد يعمل في ساعة ما لا يعمله الساحر في شهر، فإن النميمة سفكت الدماء، ونهبت الأموال، وهاجت الفتن العظام، وأخرجت الناس من أوطانهم، وغير ذلك من المفاسد. وكان أبو موسى الأشعرى -رضي الله عنه- يقول: لا يسعى بين الناس بالفساد إلا ولد بغى لأنه يهلك نفسه، ويهلك أخاه، ويهلك

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخارى (ح ٦٠٥٦) فى الأدب، باب: ما يكره من النميمة، ومسلم (ح ١٠٥) فى الإيمان، باب: بيان غلظ تحريم النميمة.

الذى أنهى إليه الكلام ،وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من نقل إليك نقل عنك، ومن مدحك بما ليس فيك فلا تأمن أن يذمك بما ليس فيك.

وكان ابن السماك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: احذر ممن يكتم أكثر ممن يحدث بما يسمع، فإن من يكتم يصدق الناس قوله أكثر لاستبعادهم الكذب عليه وربما تكلم الشخص بكلمة لمن يأتمنه، فتكلم بها فأخرب الديار، وكان عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا يقدر على كتمان ما يسمع إلا من صح نسبه؟ وأما ولد الزنا فإنه لا يستطيع الكتمان، وقد ترك بعض إخوان إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ زيارته زمانًا، ثم جاءه زائرًا فوقع فى عرض بعض الناس عنده، فقال له إبراهيم: والله إن ترك زيارتك لنا غنيمة بغضت إلىّ أخى، وأشغلت قلبى، فياليتك لم تزرنا فى هذا اليوم.

وكان منصور بن زاذان ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: والله إنى لفى جهاد مع كل من جالسنى حتى يفارقنى، فإنه لا يكاد يسلم من تبغيض صديقى إلىّ، أو من تبليغ غيبة من اغتابنى، فيدخل على الكرب من ذلك، وكان شداد بن حكيم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا رأيتم حسنات أخيكم أكثر من سيئاته فاذكروه بالمحاسن، وتجوزوا عن مساويه، وكان يقول: من أبغض بقول الناس، وأحب بقول الناس أصبح نادمًا على ما فعل، فإنه قل أن يقع التعديل أو التجريح بحق، وإنما يقع ذلك بالعصبية، وهوى النفس. وقد كان خالد بن صفوان ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: امقتوا النمام وإن كان صادقًا لأن النميمة رواية، وقبولها إجازة، فيصير قبولها شرًا منها.

فاعلم ذلك يا أخى، واحذر من إفشاء سر إخوانك أو غيرهم فى هذا الزمان، ولا تقل: إنى لم أقصد تلك، فإنك فى النصف الثانى من القرن العاشر صاحب الفتن والغرائب، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: الاشتغال بعيوب أنفسهم عن عيوب الناس عملاً بقوله: ﴿ **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾ [الذاريات:٢١]،

وعملاً بحديث: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»[1]، وأيضًا فإن المطلع على عيوب الناس معدود من جملة الشياطين أى البعداء من رحمة الله تعالى وأهل الله لا يرضون لنفوسهم أن يكونوا كذلك. وقد كان زيد القمى - رحمه الله تعالى - يقول: قرأت فى بعض الكتب الإلهية: يا ابن ادم جعلت لك مخلاتين مخلاة أمامك، ومخلاة خلفك، فالمخلاة التى خلفك فيها عيوبك، والمخلاة التى أمامك فيها عيوب الناس، فلو نظرت إلى التى خلفك لشغلتك عن التى أمامك.

وكان - رحمه الله تعالى - يقول: يتيقن أحدكم عيوب نفسه، ومن ذلك يحبها، ويبغض أخاه المسلم على الظن فأين العقل؟ وكان بكر بن عبد الله المزنى - رحمه الله تعالى - يقول: إذا رأيتم الرجل موكلاً بعيوب الناس، فاعلموا أنه عدو الله، وأن الله قد مكر به، وكان بشر الحافى - رحمه الله تعالى - يقول: عجبًا للناس يقع أحدهم فى عرض أخيه وهو غائب، فإذا حضر أظهر محبته وسارع إلى مدحه، فمن زعم أن الله تعالى يحبه وهو يقرض فى أعراض الناس فهو كاذب لأنه شيطان، والشيطان عدو الله. وكان يحيى بن معاذ - رحمه الله تعالى - يقول: من عقل العاقل أن لا يعير أحدًا بذنب، فإنه ربما عيرت أحدًا بذنبه، فابتليت بذلك الذنب بعد عشرين سنة. وقد بلغنا أن عيسى -ﷺ- كان يقول: لا تنظروا فى عيوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا في عيوبكم لأنكم عبيد، فإن الناس رجلان مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واشكروا الله على العافية.

وقد كانت رابعة العدوية - رحمها الله - تقول: إن العبد إذا ذاق محبة الله تعالى أطلعه على مساوئ عمله، فشغله بها عن مساوئ الناس. وكان مجاهد - رحمه الله تعالى - يقول: لو بغى جبل على جبل لهدّ الباغى منهما. قلت: ومما ينبغى التفطن له احتساب العبد بالله تعالى على من ظلمه، فإنه يهلكه بذلك، وإن هذا أعظم فى هلاكه من مقابلته بالبغى عليه

---

(١) ضعيف جدًا: أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس (٣/ ٣٧٤٢) من حديث أنس، وقال الألبانى فى ضعيف الجامع (ح ٣٦٤٤): ضعيف جدًا.

فى الظاهر، فما تركه هذا ظاهراً قابله بأشـد منه فى الباطن، فينبغى لمن بغى عليه أن لا يحتسب بالله على عدوه بل يسأل الله تعالى أن لا يؤاخذه بسببه، والله أعلم. وكان أمير المؤمنين عـمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يقول: رحم الله من أهدى إلى عيوبى. وكان عبد الله التيمى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا يعيب الرجل الناس إلا بفـضل ما عنده من العـيب. وكان الشـعبى - رحـمه الله تعالى - يقـول: من استقصى عـيوب إخوانه بقى بلا صديق، فـقد بلغنا أن الناس أتوا أمير المؤمنين عليًا -رضي الله عنه- برجل عليه حد، والناس حوله كالجراد، فقـال على -رضي الله عنه- أنشد بالله إن كل شخص أتى منكم هذا الحـد فلينصرف، فانصرفوا كلهم.

فاحفظ لسـانك يا أخى، فإن من شق جيب الناس شقوا جيبه، وإياك أن تنسى نفـسك إذا اطلعت على عـيب أخيك المـسلم بل الواجب عليك أن تجعل ذلك مذكراً لعيبك، فإن الطينة واحـدة، وما جاز وقوعه من غيرك جاز وقوعـه منك، وفى الحديث: **«من عيـر أخاه بذنب لم يمت حـتى يعمل ذلك الذنب»**[1]. قلت: وإذا أطلـعك الله تعـالى عـلى عـيب أحـد من طريق كشفك، فاستغفر الله تـعالى فإنه كشف شيطانى، فاعلم يا أخى واحذره كل الحذر، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: حسن خلقهم مع جفاة الطبـاع تخلقًا بأخـلاق رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وعمـلاً بقوله: **«وخالق الناس بخلق حسن»**[2]. وكان أمير المؤمنين عـمر بن الخطـاب -رضي الله عنه- يقول: إن الرجل ليكون فيـه تسعة أخلاق حـسنة، وواحد سيئ، فيـغلب ذلك الواحد التسـعة، فاتقـوا عثرات اللسـان. وكان بشر بن عـمر ـ رحمـه الله تعالى ـ يقول: ليس لسيئ الخلق إلا الهجران. وكان وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى

(١) موضوع: أخرجـه الترمذى (ح ٢٥٠٥) فى صفة القيامـة، باب: ٥٣، من حديث معاذ ابن جبل، وقال الشيخ الألبانى فى ضعيف الجامع (ح ٥١٧١٠)، والضعيفة (ح ١٧٨): موضوع.

(٢) حسن: أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣)، والتـرمذى (ح ١٩٨٧) فى البر والصلة، باب: ما جاء فى معاشرة الناس، من حديث أبى ذر، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (ح ٩٧).

ـ يقول: مثل السيئ الخلق مثل الفخارة المكسورة لاينتفع بها ولا تعاد طينًا. وقد كان الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أول من يجني على سيئ الخلق سوء خلقه، فإنه يعذب نفس صاحبه كما هو مشاهد، وقد سُئل مرة عن حسن الخلق المشار إليه بقوله -ﷺ-: «وخالق الناس بخلق حسن»، فقال: هو السخاء والعفو والاحتمال. وقد سُئل أمير المؤمنين علي -رضي الله عنه- عن ذلك أيضًا فقال: هو موافقة الناس في كل شيء ما عدا المعاصي، وكان يقول: من كثر همه سقم بدنه، ومن قلّ ورعه مات قلبه، وكان أبو حازم ـ رحمه الله ـ يقول: إن من سوء خلق الرجل أن يدخل على أهله وهم في سرور يضحكون فيتفرقون خوفًا مه، ومن سوء خلقه أيضًا هروب الهرة منه، وصعود كلبه الحائط خوفًا منه.

وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من خطب امرأة وهو يعلم من نفسه سوء الخلق، فليعلمها بذلك، وإلا غشها. انتهى. وسيأتي بسط ذلك مفرقًا في هذا الكتاب، فإنه كله محاسن أخلاق، فلا يصح لأحد التقليد بحسن الخلق إلا إن تخلق بها جميعًا، وذلك عزيز جدًا، ولا يخرج من الغش إلا إن اتهم نفسه بسوء الخلق، ثم إنه يقبح على من زعم أنه من الدعاة إلى الله أن يكون خلقه سيئًا يخاف الناس من شره كما أنه يقبح على جماعته، فقد قالوا: من علامة المنافق أن يتركه الناس اتقاء فحشه، وفي الحديث مرفوعًا: «شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه»[1] فاعلم ذلك، وإياك وسوء الخلق، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله تعالى عنهم-: كثرة الفتوة والمروءة تخلقًا بأخلاق رسول الله -ﷺ-، وأخلاق الصحابة والتابعين والعلماء العاملين -رضي الله عنهم- أجمعين، فإنه لا خير فيمن لا فتوة عنده، ولا مروءة ولو كان على عبادة الثقلين، وقد سُئل الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ عن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (ح ٦٠٥٤) في الأدب، باب: ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب، ومسلم (ح ٢٥٩١) في البر والصلة والآداب، باب: مداراة من يتقى فحشه، من حديث عائشة بلفظ: «إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه».

المروءة فقال: هـي ترك ما يعاب به عند الله وعند خلقه، وقـد أجمع السلف على وجـوب المروءة والفـتـوة فى طريق القـوم، وإن تركـهمـا من أخـلاق المنافقين، وفي الحديث: «**سيأتى على الناس زمان تقصر فـيه المروءة، وتدق فيه الأخلاق، ويستغنى فيه الرجال بالرجال والنساء بالنساء، وإذا وجد ذلك فلينظروا العذاب صباحًا ومساءً**». وقد سُئل عـمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ عن المروءة ما هى؟ فقال: هى عرفان الحق، وتعاهد الإخوان بالبر. وكان السرى السقطى ـ رحمه الله تعـالى ـ يقول: المروءة هى صيانة النفس عن الأدناس، وعن كل شىء يشين العبد بين الناس، وإنصاف الناس فى جميع المعاملات، فمن زاد على ذلك فهو متفضل.

وكان ربيـعة ـ رضي الله عنه ـ يقول: المروءة فى السـفر هى بذل الرجل الزاد، وقلة خلافه على الإخوان، وعدم المزاح معهم، وكان بعضهم يقول: ليس من المروءة أن يربح التـاجر على صـديقـه، قلت: بل المروءة فى التاجـر رضاه بالـربح اليسير لا ترك الربح بالكليـة، لأن موضـع التجـارة إنما هو للربح دنيا وأخـرى، فيـأخذ من صديقـه الربح اليسـير الذى لا يرضى به غيـره من التجـار الأجانب أى لا يقنع به، فـإن من باع بغيـر ربح افتـقر وركبه الدين، والله تعالى أعلم. وقد سُئل أبو عـبد الله محمد بن عراق ـ رحمه الله تعالى ـ عن المروءة ما هى؟ فقال: هى أن لا تفعل فعلاً تستحى من ظهوره فى الدنيا والآخـرة. وكان أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ إذا سُئل عن المروءة يقول: هى الغداء والعشاء فى أفنية الدور لا فى داخلها، وقد كتب الحسن ابن كيسان ـ رحمه الله تعالى ـ على باب داره: رحم الله من دخل فأكل. وكان السلف إذا استـعار أحدهم قدرًا يطبخ فيه ردها مـلآنة طعامًا، وربما ملأها صاحبـها طعامًا، ثم أعارها لمن طلبها، ويقـول: كرهت أن أعيرها لأخى فارغة، وقد سُئل الأصمعى ـ رحمه الله تعالى ـ عن المروءة فقال: هى طعام موضـوع، ولسان حلو، ومال مبذول، وعفـاف معروف، وأذى مكفوف.

فاعلم ذلك يا أخى فقد سمعت مقال سلفك عن المروءة، فاعمل عليه، وكن يا أخى متشبهًا بأهل المروءات إن لم تكن منهم حقيقة، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضى الله تعالى عنهم-: كثرة السخاء والجود، وبذل المال، ومواساة الإخوان فى حال سفرهم، وفى حال إقامتهم، فإنه بذلك يقع التعاضد فى نصرة الدين الذى هو مقصودهم وفى الحديث: «**إذا كان أغنياؤكم سمحاءكم، وأمراءكم خياركم، وأمركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأمركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها**»[1]. وروى أن رجلاً أتى النبى -ﷺ- فسأله شيئًا فأمر له بأربعين شاة، فرجع الرجل إلى قومه وقال: يا قوم أسلموا، فإن محمد يعطى عطاء من لا يخشى الفقر. وقد زوج الحسين بن على -رضي الله عنهما- امرأة، فبعث معها بمائة جارية مع كل جارية ألف درهم، قال: ودخل عبد الله بن أبى بكرة الصحابى -رضي الله عنه- يومًا مجلسًا، ففسح له رجل فى المجلس، فلما أراد القيام قال لذلك الرجل، الحقنى إلى منزلى فلحقه فأمر له بعشرة آلاف درهم - رحمه الله - وكان عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- ليشترط على من يريد أن يصحبه فى السفر أن يكون عبد الله هو الذى ينفق عليه، وأن يكون خادمًا ومؤذنًا، وقد كانت عائشة -رضي الله عنها- تقول: الجنة دار الأسخياء، والنار دار البخلاء، وكان عبد الله ابن عباس -رضي الله عنهما- يقول: علامة الكريم أن يكون شيبه فى مقدم رأسه ولحيته وعلامة اللئيم أن يكون شيبه فى قفاه، وأن لا ينفع غيره بشىء إلا لرغبة أو رهبة. وقد كان إبراهيم بن أدهم - رحمه الله تعالى - يقول: عجبًا للرجل اللئيم يبخل بالدنيا على أصدقائه، ويسخى بالجنة لأعدائه. وكان إمامنا الشافعى -رضي الله عنه- يقول: من علامة اللئيم إذا ارتفع جفا أقاربه، وأنكر معارفه، وتكبر على أهل الفضل والشرف، وكان محمد بن سيرين - رحمه الله تعالى - يقول: لقد أدركنا الناس وهم يتهادون بالفضة فى الأطباق كالفاكهة.

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذى (ح ٢٢٦٦) فى الفتن، باب: (٧٨)، وضعفه الشيخ الألبانى فى ضعيف الجامع (ح ٦٤٦).

وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: عجبت ممن يبقى معه مال وهو يسمع قوله سبحانه وتعالى: ﴿إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم﴾ [التغابن:١٧]، قلت: ومتى كان سبب توقف العبد فى الإنفاق فى وجوه الخير التى أمر الله تعالى بها مع عدم تصديقه بما وعده الله به من الأجر، وتضعيف الثواب، فلا ينفعه عمل ولو صار من أمثال الجبال، لأنه بناه على غير أساس إذ من كمال المؤمن الكامل أن لا يتخلف عن مأمور. وتأمل يا أخى لوجلس إنسان وبين يديه زنبيل ملآن ذهبًا، وقال: كل من أعطى فقيرًا درهمًا أعطيته دينارًا كيف يبادر الناس ويسارعون إلى بذل الدراهم للفقراء بخلاف ما لو وعدهم بالدينار بعد سنة مثلاً، فإنه لا يجيبه إلا القليل منهم، وذلك لضعف تصديقهم له، ولو أن إيمانهم كان كاملاً لأجابوه كلهم، إذ من شرط كمال الإيمان أن يكون ما وعده به الشارع غيبًا كالحاضر عنده على حد سواء، ومن هنا تقدم من تقدم، وتأخر من تأخر. والله أعلم، وقد سئل عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن العاقل من هو؟ فقال: من يكنز ماله فى مكان لا يأكله السوس، ولا تصل إليه اللصوص – يعنى فى السماء –. وقد كان كسرى يقول: أنت للمال ما أمسكته، فإذا أنفقته كان لك. قال: ودخل شخص البصرة، فقال: من سيد هذا المصر فقيل له الحسن البصرى، قال: وبم سادهم؟ قالوا: لأنه استغنى عما بأيديهم من الدنيا، واحتاجوا لما عنده من العلم والدين، فقال الرجل: بخ بخ هذا سيدهم بلا شك. وقد أوحى الله إلى موسى – عليه السلام – إنى لأشكو إليك من عبادى من أربعة أشياء استقرضتهم مما أعطيتهم فبخلوا، وحذرتهم من إبليس فلم يحذروا، ودعوتهم إلى الجنة فلم يجيبوا، وخوفتهم من النار فلم يخافوا، واجتهدوا فى أعمالها. وقد جاءت امرأة يومًا إلى الإمام الليث بن سعد ـ رضي الله عنه ـ بإناء صغير تطلب منه فيه عسلاً وقالت: إن زوجى مريض، قال: فأمر لها الإمام براوية ملآنة عسلاً، فقيل له: إنها طلبت قدحًا صغيرًا، فقال: إنما طلبت على قدرها، ونحن أعطيناها على قدرنا. وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: عجبًا لك يا بن آدم تنفق فى شهواتك إسرافًا وبدارًا، وتبخل فى مرضاة ربك بدرهم ستعلم يالكع مقامك عنده

غدًا، وكان يقـول أعطوا الشعراء وذوى اللسان فإن من لم يبـال بالشكاية فيه فقد نادى على نفسه بالدناءة وقلة المروءة. وكان يقول: إياك أن تطلب حاجة من بخـيل، فإن من طلب منه حـاجة فـهو كمن يطـلب صيد السـمك من البرارى والقـفار. وكان أبو القـاسم الجُنيد - رحمـه الله تعالى - لا يمنع قط أحدًا سـأله شيئًا ويقـول: أتخلق بأخـلاق رسول الله -ﷺ-. قلت: ومن أسمـاء الله تعالى المانع، فيـمنع سبحانه وتعـالى من سأله حاجـة لحكمة لا لبخل، تعالى الله عن ذلك، فما نقل عـن بعض الأكابر أنه منع السائل فهو لحكمة لا لبخل تخلقًـا بأخلاق الله عز وجل، وقد بعث معـاوية إلى عائشة -رضي الله عنها- يومًا بمائة ألف درهم ففرقـتها فى وقتها ولم تبق لهـا عشاء ليلة. وقد فرق طلـحة بن عبـيد -رضي الله عنه- مـائة ألف درهم وهو جالس يخـيط فى طرف ردائه ويرقعـه. وكان عبد الله بن عـمر -رضي الله عنهما- يقول: مـا رأيت بعد النبى -ﷺ- أجود من معاوية -رضي الله عنه- لقى الحسن بن على -رضي الله عنهما- فقال: مرحبًا بابن بنت رسول الله -ﷺ-، ثم أمر له بثـلاثمائة ألف درهم، ثم لقى عـبد الله ابن الزبير -رضي الله عنهما- فأمر له بمائة ألف درهم، وكان حماد بن سلمة - رحمه الله تعالى - يدعـو على سمـاطه فى كل ليلة من شهـر رمضان خـمسين رجلاً يفطرون معـه، فإذا كـان يوم العيد كـسا كل واحد منهم ثـوبًا، وأعطاه مائة درهم، وكان يعطى معلم ولده القرآن كـل شهر ثلاثين دينارًا، وقد انقطع زر ثوبه مرة فأصلحـه له الخياط، فأعطاه ثلاثين درهمًا، واعتـذر إليه، وكان - رحمه الله تعالى - يقول: لولا سؤال المحتاجين لى ما اتجرت فى شىء أبدًا.

وكان - رحـمه الله تعالى - إذا رأى امرأة جـميلة تسأل الناس يكرمـها ويعطيها الدراهم والثياب، ويقول: إنما أفعل ذلك ليرغب الناس فى تزويجها خوفًا عليها من الفتنة. وكـان عبد الله بن أبى بكرة -رضي الله عنه- ينفق على جيرانه أربعـين دارًا من كل جـانب، ويفطر على الكسـرة. وكـان يـبعـث إليـهم بالأضاحى والكـسوة فى الأعيـاد، وكان يعـتق كل سنة فى عيد الـفطر مائة مملوك. وكان عبد الله بن أبى ربيعة - رحمـه الله تعالى - إذا حجمه عبد من عبيده أعتقه، واذا كان لغيره اشـتراه من مولاه وأعتقه. ولما مرض الإمام عبد الله بن لهيعة زاره الإمام الليث - رحمهما الله تعالى - فرآه يبكى، فقال له:

ما يبكيك يا عبد الله؟ قال: عليّ ألف دينار دينًا، قال: فأرسل الإمام خادمه فأتاه بها وأوفى عنه الدين. وقد دعى عبد الله بن جعفر -رضي الله عنه- إلى وليمة فلم يحضر لعائق حصل له، فأرسل إلى صاحب الوليمة خمسمائة دينار، واعتذر إليه، وسأله أن يسامحه في عدم الحضور. وجاء رجل إلى سعيد بن العاص -رضي الله عنه- يسأله شيئًا، فأمر له بخمسمائة وأطلق. فقال الغلام مستفهمًا من سيده: دنانير أو دراهم؟ فقال سعيد: أنا ما أردت إلا الدراهم، ولكن حيثما ترددت أنت في ذلك فصيرها له دنانير، قال: فجلس الرجل يبكى فقال له سعيد: ما يبكيك؟ فقال: أبكي على مثلك ينزل تحت الأرض ويأكله التراب. وكان سعد بن عبادة -رضي الله عنه- يقول: اللهم ارزقني مالاً أجود به، فإنه لا يصلح الفعال إلا المال، ثم ينشد قوله:

أرى نفسي تتوق إلى فعال فيقصر دون مبلغهن مالي

فلا نفسي تطاوعني ببخل ولا مالي يبلغني فعالي

فاعلم ذلك يا أخي، وإياك أن تتظاهر بالمشيخة وأنت على خلاف أخلاق القوم في الكرم والسخاء والجود والمواساة، فقد كانوا يعطون المال الجزيل ولا يرون لهم فضلاً على أحد، وكان أحدهم يشق إزاره نصفين ويعطي أخاه نصفه. وقد سُئل عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- ما حق المسلم على المسلم؟ قال: أن لا يشبع ويترك أخاه جائعًا. ولا يلبس ويترك أخاه عاريًا، ولا يبخل عليه بالبيضاء والصفراء.

وكان أبو الدرداء -رضي الله عنه- يقول: كيف يبخل أحدكم بديناره، ودرهمه على أخيه، وإذا مات بكى عليه أشد البكاء. وقد كان الصحابة -رضي الله عنهم- يهدى بعضهم الهداية إلى أخيه، فيهديها الآخر إلى أخيه، فلا تزال تلك الهدية تدور بينهم حتى ترجع إلى مهديها الأول، ومع أن كلا منهم محتاج إليها، ولكن كانوا يؤثرون على أنفسهم، وكان أحدهم إذا تزوج وهو فقير يعطون عنه المهر، ويعطونه قوت سنة إدخالاً للسرور عليه ودفعًا لما لعله يقع فيه من الاهتمام بأمر المعيشة، كما هو الغالب على من يتزوج. وكان الحسن بن علي -رضي الله عنهما- لا يرد سائلاً قط، وسأله مرة شخص فأمر له بعشرة آلاف دينار فقال

له الرجل: إني لا أجد ما أحملها فيـه، فأعطاه طيلسانه، وكان بكر بن عبد الله المزني ـ رحمـه الله تعـالى ـ يقـول: أحب أمـوالي إلى مـا وصلت به إخواني، وأبغضها إلى مـاخلفته ورائي، وقـد كانوا إذا أقبل عليـهم السائل يفرحون به، ويقولون: مرحبًا بمن جاء يحمل أزوادنا إلى الآخرة بغير أجرة، ويقل عنا ما يشـغلنا عن عبادة ربنا سبـحانه. وكان يرسل أحدهم إلـى أخيه الألف دينار ويقـول له: فرقهـا على المحتـاجين ولا تنسبـها إليّ، وقـد كان الضحـاك ـ رحمـه الله تعـالى ـ يقـول في قـوله تعـالى: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦]، قال: كان إحسـان يوسف عليه الصلاة والسلام أن كل من مرض في السـجن قام عليـه، وكل من احتاج وسع عليـه، وكان ـ ﷺ ـ إذا لم يجد عنده شيئًا للفـقير يدور على الأبواب يسأل له الناس. وقد كان السلف إذا مـات لأحدهم خادم يرسلون له خـادمًا خلافه، وكـان يقبل ذلك وهو ساكت، ولا يرى له فـضلاً على أخيه، وكـانوا إذا بلغهم أن على أحد من إخوانهم دينًا يوفونه عنه من غـير أن يشاوره عليه، وكان المديون إذا علم ذلك يسكت، وكـأنه وفـاه هو من ماله لما يعلم مـن طيبـة نفس أخيـه بذلك. وقد كانت مـعيشة الربيع بن خيـثم وإبراهيم النخعي وعطاء السلمي ـ رضي الله عنهم ـ من صلة الإخوان، ولم يكن لأحدهم زرع ولا ضرع، ولا غير ذلك. قلت: وما جـاء عن السلف من ذمهم ترك الحرفـة، والأكل من طعام الناس محمول على من يمنّ بذلك عليهم، و يطعمهم لأجل دينهم ونحوه، وكانوا إذا سألهم أحد من إخوانهم وفاء دين يوفـونه عنه، ويقولون: يا ويلنا قصرنا عن البحث عن حـال أخينا حتى أحوجناه إلى سـؤالنا، وقد بلغ ابن المقنع ـ رحمه الله ـ أن جاره عـزم على بيع داره لديون عليه، فأرسل له ثمن الدار، وقال له: لا تبـعهـا فإن نفعنـا بها أكثـر من نفعك أنت بهـا طالما جلسنا في ظلها، وكان إبراهيم التيمي ـ رحمـه الله تعالى ـ يجمع كل قليل جماعة من الفقـراء ويجلسهم في المسـجد، ويقـول لهم: تعبـدوا وأنا أقوم بخـدمتكم ومؤنتكم، وقد كـان ميمون بن مهران ـ رحمـه الله تعالى ـ يقول: من طلب مـرضاة الإخـوان بلا إحـسان فـقـد أخطأ الطريق، وفي رواية فليـصل أهل القبور. وقد كـان أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ يقول: خيـر المسلمين من أعانهم

ونفعهم، وكان عيسى -ﷺ- يقول: استكثروا من شيء لا تأكله النار ولا التراب، فيقولون: ما هو؟ فيقول: المعروف فإن لم تنفعك أيام صداقته فلا عليك منه إن قرب أو بعد. اهـ.

فتأمل يا أخي في نفسك واتبع أقوال سلفك الذين تزعم أنك خلفهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضي الله تعالى عنهم-: شدة محبتهم لاصطناع المعروف إلى الإخوان ومحبة الانبساط إليهم، وإدخال السرور على بعضهم بعضًا، وتقديم إخوانهم في ذلك على أنفسهم، وكانوا لا يتوقفون على استحقاق إخوانهم لذلك، ويقولون: إن لم يكن أخونا أهلاً للمعروف فنحن من أهله. وكان علي -رضي الله عنه- يقول: اصنع المعروف ولو إلى من يكفره، فإنه في الميزان أثقل مما يشكره، وكان محمد بن الحنفية -رضي الله عنه- يقول: صانع المعروف لا يقع ولو وقع لا ينكسر، وكان جعفر بن محمد -رضي الله عنه- يقول: إنما حرم الله الربا لئلا يتمانع الناس المعروف، وكان معمر - رحمه الله - يقول: قد صار المعروف والإحسان اليوم سلمًا للسوء حتى قال الناس: اتق شر من تحسن إليه، كل ذلك لخروج الأمور من موضوعاتها لقرب الساعة. وكان يقول: من أقبح المعروف أن تحوج السائل إلى أن يسأل وهو خجل منك فلا يجيء معروفك قدر ما قاسى من الحياء، وكان الأولى أن تتفقد حال أخيك، وترسل إليه ما يحتاج ولا تحوجه إلى السؤال.

وكان الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى - يقول: نحن لا نعد القرض من المعروف لأن صاحبه يطلب المقابلة، وإنما المعروف المسامحة للناس في كل ما يطلبونه منك في الدنيا وفي الآخرة، وكان السري السقطي - رحمه الله تعالى - يقول: ذهب المعروف وبقيت التجارة يعطي أحدهم لأخيه الشيء لأجل أن يعطيه نظيره. وقد كان وهب بن منبه - رحمه الله تعالى - يقول: من يكافئ صاحب الهدية فهو من المطففين. وكان عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- يقول: لا يتم المعروف إلا بثلاث خصال، تعجيله وتصغيره في عين معطيه وإخفاؤه عن الناس، وكان المهلب بن أبي

صفـرة ـ رحمه الله تعـالى ـ يقول: لقد أدركنـا الناس وأحدهم يدخل دار أخيه وهو غـائب فيرى السلة مملوءة فاكـهة، فيأخذها يأكـل منها، ويفرق منها بغـير إذن، فإذا جـاء أخوه وأخبره فـرح بذلك. وقد كان لمحـمد بن سيـرين ـ رحمه الله تعـالى ـ بغل مربوط فى دهليزه فكان كل من احـتاج إلى ركوبه أخذه وركبه من غير استئذان لما يعلمون من طيب نفسه بذلك، وكان عبد الله بن المبارك مع شدة ورعه يكتب من محبرة إخوانه بغير إذن. وقد دعى مسلم بن زياد ـ رحمه الله تعـالى ـ إلى وليمة فأبطأ، ثم ذهب، فلما رآه صاحب الوليمة قـال له: إنك قد أبطأت. وقد أكل الناس الطعام وذهبوا ومـا بقى شيء، فقال له مـسلم: لعل القصـاع قد بقى فيـها شيء نلحسه، فقال له: إنا قد غسلناها، فـقال: لعل القدور قد بقى فيها شيء، فقال: وقد غسلناها أيضًا، فقال له: لعل كسرة من خبز، فقال له: لم يبق عندنا ولا لقمة واحـدة، قال: فتبسم عند ذلك مـسلم ورجع، فقالوا له: إنك لم تتكدر منه ونحن نراك قد تبسمت، فـقال: إن الرجل قد دعانا بنية صالحة، وردنا كذلك بنية صالحة، فعلام نتكدر منه؟

وقد دخل جـماعـة دار سفـيان الثـورى ـ رحمه الله تعـالى ـ وهو غائب، فأخـذوا ما يأكلون وجلسوا يأكلون ويتحدثون فى صـلاح سفيان، فبينما هم كـذلك إذ أقبل سفيان فوجدهم على تلك الحـالة فبكى، فقالوا له: مـا يبكيك؟ قـال: كـيف لا أبكـى وقـد ذكرتمـونى بأحـوال السلف الصالح، وعـاملتمونى بأخلاق الصـالحين، ولست منهم، وكان بقـية بن الوليد ـ رحمـه الله ـ يدخل دار صديقه فى غيبتـه، ويأخذ القدر من على النار ويضعه على باب الدار فيأكل منه ويفرق على الفقراء والمساكين، فإذا جاء أخوه فـرح بذلك، وقال: جزاك الله من أخ صالح خيـراً قدمت مالنا ليوم معـادنا. وقد كان جعـفر بن محمـد ـ ﷺ ـ يقول: بئس الأخ من لا يتجرأ أخوه أن يفتح كيسه فى غيبـته، ويأخذ منه ما يحتاج إليه بغير إذنه. قلت: قد يترك أحـدهم ذلك لا لما يعلمه من أخيه من البخل، بل قـياسًا على نفسه. والله أعلم.

وكان حامد اللفاف ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: والله ما كنا نظن أننا تعيش إلى زمان صار الأخ إذا أعطى أخاه شيئًا يرى له قدرًا فى قلبه، فإذا أظهر أخوك محبتك فلا تبادر إلى تصديقه، فإن الإخوان الآن قد صاروا سريعى الانقلاب، وإذا قربك إنسان فكن منه على حذر. وقد كان عبد الله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: من أدخل على إخوانه السرور فهو من الآمنين من عذاب الله تعالى يوم القيامة. وكان إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ يقول: لقد أدركنا الناس وأحدهم لا يرى أنه أحق بمتاعه من أخيه إلا إذا كان أحوج إلى ذلك من أخيه، وكان معن بن زائدة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما رددت سائلاً قط إلا وتبين لى أنى مخطئ فى ذلك، وكان عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: إنى لا أستحى من صاحبى أن يزورنى ثلاث مرات ولم أعطه شيئًا. وكان الزهرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن كان لك إلى أخيك حاجة فائته فى بيته، فإن ذلك أقضى للحاجة. وقد قال رجل مرة لأوس بن خارجة ـ رحمه الله تعالى ـ إنى جئتك فى حاجة صغيرة، فقال له: اطلب لها رجلاً صغيرًا، وكان الحسن بن على ـ رضي الله عنهما ـ إذا سُئل فى حاجة يبادر إليها ويقول: إنى أخاف أن أبطئ بها فيستغنى أخى عنها فيفوتنى الأجر. وكان مطرف بن عبد الله ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من كان له عندى حاجة فليكتبها فى قرطاس، ويرسلها إلى فإنى أكره أن أرى ذل المسألة فى وجه مسلم، فإن السؤال أرجح من النوال، وإن جلّ، وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من المعروف أن ترى المنة لأخيك عليك إذا أخذ منك شيئًا لأنه لولا أخذه منك ما حصل لك الثواب، وأيضًا فإنه خصك بالسؤال ورجا فيك الخير دون غيرك. وكان محمد بن واسع ـ رحمه الله تعالى ـ إذا سأل أحدًا حاجة يقول: قد رفعنا أمرها إلى الله، فإن قضاها على يديك حمدنا الله وشكرناك، وإن لم يقضها على يديك حمدنا الله تعالى وعذرناك. وكان ميمون بن مهران ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا كان لك عند أحد حاجة فاجعل رسولك الهدية. فقد كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول: مفتاح قضاء الحاجة الهدية. وكان عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: لا تطلبوا من أحد حاجة بالليل، فإن الحياء فى العينين، وكان ـ رضي الله عنه ـ يقول: من بات

يتقلب على فراشه إذا نزل بى بلاء أوهم أوغم فلا أقدر على مكافأته لأنه جعلنى حاجته عند ربه عز وجل.

وكان عطاء ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إنى لأسمع الحديث من الرجل، وأكون أعرفه قبل ذلك، وسمعته مراراً فأصغى إليه إصغاء من لم يسمعه قط إلا منه، وذلك خوفًا أن يخجل إذا سابقته إليه. وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: لكل داخل دهشة فتلقوه بالرحب، وابدءوه بالتحية. وفى الحديث: «**لا تنزلوا حوائجكم بمن لا يشتهى قضاءها**». وكان الربيع بن خيثم ـ رحمه الله تعالى ـ لا يعطى السائل كسرة ولا شيئًا مكسوراً، ولا ثوبًا خلقًا، ويقول: أستحى أن تقرأ صحيفتى على الله تعالى وفيها الأشياء التافهة التى أعطيتها لأجله. انتهى.

فاعلم ذلك يا أخى، وفتش نفسك هل أنت على قدم سلفك فيما سمعته أم خالفت. وإياك أن تدعى أنك من الصالحين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: عدم مبادرتهم إلى المؤاخاة فى الله تعالى بل يتربص أحدهم فى ذلك السنة وأكثر أدبًا مع الله تعالى أن يؤاخى أو يصادق أحداً من غير معرفته بالوفاء بحقوقه، وتنزيله منزلة نفسه فى أمور الدنيا والآخرة، وهذا الخلق يخل به كثير من الناس، فيبادرون إلى مؤاخاة من طلب منهم ذلك ومصادقته، ثم بعد مدة يصارمان. وقد قالوا: فساد الانتهاء من فساد الابتداء، وفى الحديث: «**لا يتوادّ اثنان فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما**»[1]. رواه الإمام أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ وفى الحديث أيضًا: «**فى آخر الزمان قوم إخوان العلانية أعداء السريرة، قالوا: يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال: يتواخون رغبة ورهبة**»[2]. وقد كان أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يقول: كان رسول الله -ﷺ- يؤاخى بين

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٧١).

(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٥)، وفى إسناده أبو بكر بن أبى مريم وهو ضعيف كما فى التقريب (٧٩٧٤)، وكان قد سرق بيته فاختلط.

أصحابه ـ ﷺ ـ فتطول على أحدهم الليلة حتى يلقى صاحبه، وقد كانت العامة إذا غاب أحدهم عن أخيه ثلاثة أيام يوبخ كل واحد منهم نفسه. وكان حبيب بن أبى ثابت ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا تؤاخى أحدًا إلا إن كنت لا تكتم عنه سرًا، وإلا فهو أجنبى منك. وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا الناس وهم يواسون بعضهم بعضًا ولا يسألون عن كون أخيهم محتاجًا إلى ما يواسونه به أم لا، وتراهم اليوم يسألون عن أحوال بعضهم، ثم لايسمح أحدهم أن يعطى أخاه درهمًا.

وكان أبوحازم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا كان لك أخ فى الله، فلا تعامله فى الدنيا، وأكثر من مواساته من غير طلب عوض منه على ذلك لتدوم لك صحبته. وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا ينبغى لأحد أن يقول لأخيه: إنى أحبك لله إلا بعد أن يعرض على نفسه أنه لا يمنعه شيئًا طلبه منه، ولو طلاق زوجته ليتزوج بها، وقد سئل عن الأخوة فى الله،؟ فقال: تلك طريق نبت فيها الشوك، فلا أحد يسلكها. وكان ابن عباس ـ ﷺ ـ يقول: من لم يشق عليه الذباب إذا نزل على بدن أخيه، فليس بأخ. وقد كان عمرو بن العاص ـ ﷺ ـ يقول: كلما كثر الأخلاء كثر الغرماء يوم القيامة، ومن لم يواس إخوانه بكل ما يقدر عليه نقصوا من محبته بقدر ما نقص من مواساتهم، والمراد بالغرماء الحقوق، وكان على بن بكار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما رأيت فى زمانى أحدًا قام بحق الأخوة مثل إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ كان يقسم الدرهم والتمرة والزبيبة بينه وبين أخيه، وإن غاب حفظها له حتى يحضر. وقد قيل لميمون بن مهران ـ رحمه الله ـ ما لنا نراك لا يفارقك الأصدقاء. فقال: لأنى كلما رأيت أخى يحب شيئًا أعطيته إياه، ولا أميز نفسى عليه، وان إمامنا الشافعى ـ ﷺ ـ يقول: ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته والاعتذار إليه.

وقد مات ولد ليونس بن عبيد ـ رحمه الله تعالى ـ فلم يعزه ابن عوف فقيل له: إن فلانًا لم يعزك فى ولدك. فقال: إنا إذا وثقنا بمودة أحد لا يضرنا أن لا يأتينا. وكان حامد اللفاف ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا

الناس وهم يحسنون إلى أعدائهم، ونراهم اليوم لا يحسنون ولا لأصدقائهم، وكان الأعمش ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا الناس وأحدهم يمكث الأيام المتوالية لا يلقى أخاه، ثم إذا تلاقيا لا يزيد أحدهم الآخر على قوله: كيف أنت، كيف حالك، ولو أنه سأله شطر ماله لأعطاه إياه، ثم صار الناس اليوم لو لقى أحدهم أخاه كل يوم أو كل ساعة يقول: له: كيف حالك، كيف أنت، ويسأله عن كل شيء حتى عن الدجاجة فى البيت، ولو أنه سأله درهمًا لم يعطه إياه، وقد قال شخص مرة لبشر الحافى ـ رحمه الله تعالى ـ: إنى أحبك فى الله، فقال له: ليس ما تقوله حقًا، وربما كان حمارك أهم عندك منى فى تذكره عند العشاء، فكيف تدعى محبتى.

وقال شخص لبشر بن صالح: إنى أحبك فى الله فقال له: ما حملك على الكذب؟ قال: كيف؟ قال: تدعى أنك تحبنى، وبرذعة حمارك أكثر قيمة من عمامتى وثيابى، وقد سُئل سفيان بن عيينة ـ رحمه الله ـ عن الأخوة فى الله تعالى فقال: هى أن تخرج عن جميع مالك كما خرج الصديق ـ رضي الله عنه ـ عن ماله كله لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وقد سُئل بشر الحافى ـ رحمه الله تعالى ـ عن الرجل يحب الرجل، ولكنه ربما يمنعه بعض منافع الدنيا أهو صادق فى محبته؟ قال: نعم، ولكنه مقصر عن درجة الكمال. وكان إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ يقول: من علامة صدق المتحابين فى الله عز وجل أن يبادر كل أحد منهم إلى مصالحة صاحبه إذا أغضبه، فإنا لم نجد قط أحدًا محبوبًا إلى إخوانه وهو لا يواسيهم كما أنا لم نجد قط غضوبًا مسرورًا، ولا حريصًا غنيًا.

وقد قيل لعبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: ما بال أحدنا ينظر إلى ما خرج منه فى الخلاء، فلا يكاد يغض طرفه عنه. فقال: لأن الملك يقول له: انظر إلى ما بخلت به على إخوانك إلى ماذا صار، وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: قد صارت أخوة الناس فى هذا الزمان كمرقة الطباخ طيبة الريح، ولا طعم لها، وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول:

من شرط الصدق في الأخوة أن يكرم الشخص أخاه إذا افتقر أكثر مما كان يكرمه حال الغنى، وذلك لأن الفقر أشرف من الغنى، وصاحبه أحق بالإكرام من حيث المقام لا من حيث حاجة الفقر. وكان أبو مطيع ـ رحمه الله ـ يقول: لقد أدركنا الناس وهم يتهادون بالمماليك والبراذين والدور والأطباق من المال، فصاروا اليوم يتهادون بالخبز والطعام وعن قريب يترك الناس ذلك ويميتون سنة السلف بالكلية، وقد كان أحدهم يتعهد أولاد أخيه من حين يرجع من جنازته إلى حين بلوغهم رشدهم، فصار الناس ينسى أحدهم أولاد أخيه، وأهله أصلاً.

وكان إبراهيم التيمي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الرجل بلا إخوان كاليمين بلا شمال، وقد كان أبو معاوية الأسود ـ رحمه الله ـ ينحت الحجارة ويتقوت منها، فلما كبر قالوا له: أنك قد كبرت وعجزت عن ذلك، فقال: والله إن نحت الحجارة عندي أهون وألذ من سؤال الناس. وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يكوِّم الذهب والفضة بين يديه، ويقول: لولا هذا لتمندل الناس بنا، ولأن أخلف بعدي ثلاثين ألف دينار أسأل عنها يوم القيامة أحب إلي من أن أقف على باب أحد أسأله حاجة، وكان ميمون بن مهران ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من كان الناس عنده سواء، فليس له صديق، ومن لم يسأل عنك بالغدوات ويصلك بالعشيات فاعدده من الأموات، وكل من لم يعدك إذا مرضت، ولم يتحفك إذا احتجت، ولم يزرك إذا قصرت عن زيارته، فهو من إخوان الطريق، ثم ينشد قوله:

ألا ذهب التذمم والوفاء ... وباد رجاله وبقى الغثاء

وأسلمني الزمان إلى أناس ... كأنهم الذئاب لهم عواء

إذا ما جئتهم يتواقعوني ... كأني أجرب الأعضاء داء

أخلاء إذا استغنيت عنهم ... وأعداء إذا نزل البلاء

أقول ولا ألام على مقالي ... على الإخوان كلهم العفاء

انتهى.

فاعـلم ذلك يا أخي، وفتش نفـسك، وانظر هل عاملت قط إخـوانك بهـذه المعـامـلات؟ أم فـرطت في ذلك جـهـلاً وبخـلاً، ولا تدع أنك من الصـالحين قط، ولو عـملت بأعـمالهم، فـافـهم يا أخي، والحمـد لله رب العالمين.

ومن أخـلاقـهم -رضي الله تعـالى عنهم-: إكـرام الضـيف، وخدمته بأنفسهم إلا بعذر شرعي، ثم لا يرون أنهم كـافئوه بإطعامه وخدمته على تخصـيصه إياهم بالإقامة عنـدهم، وإحسانه الظن بهم، وعدم اعـتقاده فيـهم البـخل. وقد كـان رسول -ﷺ-، يخدم الضـيف بنفسـه، وكذلك أصحابه وأتبـاعه -رضي الله عنهم- ولما قدم وفد النجـاشي عليه -ﷺ- لم يمكن أحدًا يخدمهم غيره، وقال: «**إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وأنا أريد أن أكافئهم على ذلك**». وكان السلف يعدون ليلة الضيف كأنـها ليلة عيد لما يحصل لهم من السرور.

وكان أمـير المؤمنين علي -رضي الله عنه- يقـول: لأن أجمع نفرًا من أصـحابي على طعامـي أحب إلي من عتق رقبـة. وكان أنس بن مـالك -رضي الله عنه- يقول: زكاة الدار أن يجعل فيها بيت للضيافة. وكان بكر بن عبد الله المزني - رحمه الله تعالى - يطعم الضـيف، ثم يكسوه إذا أراد الانصراف ويقـول: إن فضل إجابته إلى طعـامي أعظم مما صنعته أنا معه. وقـد كانت كنية إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أبا الضيـفان لكونه كان يذهب الميلين إلى الضيف ليأتي به إلى منزله. وقـد كانت عـائشة -رضي الله عنها- تـقول: ليس من السـرف التبسط للضيف في الطـعام، وقد كـان مجاهد - رحـمه الله تعالى - يقـول في قوله تعالى: ﴿**ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ**﴾ [الذاريات: ٢٤]، إنما كانوا مـكرمين لأن الخليل عليه الصلاة والسلام خدمهم بنفسه.

وكان عبد الواحد بن أبي ليلى - رحمه الله تعالى - لا يدخل عليه أحد إلا أطعمه وسقاه، ثم اعتذر إليه أي اعترافًا بأنه مقصر في حقه. قلت: وممن أدركناه على هذا القدم سيدي الشيخ مـحمد بن عنان، والشـيخ أبو الحسن الغمري، والشيخ عبد الحليم بن مـصلح، والشيخ محمد الشناوي، والشيخ

أبو بكر الحديدى، وجماعة ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين. وكانوا لايتكلفون للضيف خوفًا أن يضجروا منه إذا أتاهم مرة أخرى، ويقولون: من كان يطعم ضيفه ما يجد فلا يبالى به أي وقت جاء. وقد سئل عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ عن مناولة الضيوف الطعام لغيرهم. فقال: إن كان لبعضهم فلا بأس، وأما للأجنبى فلا.

وكان بكر بن عبد الله المزنى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من دعى إلى طعام فذهب معه بآخر استحق لطمة، فإن قيل له: اجلس ههنا فقال: بل ههنا استحق لطمتين، فإن قال لصاحب الدار: ألا تأكل معنا استحق ثلاث لطمات أى لأن ما فعله في الثلاث خصال فضول منه. وكان محمد بن سيرين ـ رحمه الله تعالى ـ يجتهد أن يطعم الضيف من شيء لم يكن عند ذلك الضيف، ولا فى بلده. قال خالد بن دينار ـ رحمه الله ـ دخلت على محمد بن سيرين ـ رحمه الله تعالى ـ ومعى رفقة، فأخرج إلينا شهدًا. وقال: إن مثل هذا ليس هو عندكم؟ قلنا: نعم، وكان ميمون بن مهران ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من أطعم ولم يتمر أى لم يطعم الضيف تمرًا أو شيئًا حلوًا كان كمن صلى العشاء ولم يوتر. واعلم أن الواجب على المضيف أن يطعم الضيف من الحلال، وأن يعلمه بمواقيت الصلاة، ولا يقصر عما قدر عليه من الدسم، وحسن المطعم، وأن الواجب على الضيف أن يجلس حيث أجلسوه، وأن يرضى بما إليه قدموه، وأن لا يخرج حتى يستأذن. وكان أوس بن خارجة يقول: ما دعوت قط نفرًا إلى طعامى وأكلوه إلا ورأيت الفضل والمنة فيهم على أكثر من منتى عليهم.

وكان حامد اللفاف ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من علامة المتفعل فى الزهد أنه إذا استضافه أحد يذكر له سخاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإن أضاف هو أحدًا يذكر له زهد عيسى عليه الصلاة والسلام، وقد كان الأصمعى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا استضافك بخيل، فبادر إليه وعلمه الكرم، ولا تأكل له طعامًا، وإياك أن تنسى دابتك من العلف، فإنه ربما فرط فى عشائها. وكان يقول: ما استضفت عند بخيل إلا وصاحت دابتى جوعًا،

واستغنيت عن الخلاء، وأمنت من التخمة. قلت: وقد أنشدني شيخ الإسلام كمال الدين الطويل ـ رحمه الله تعالى ـ أبياتًا في البخيل، وهي قوله:

وإذا أردت إخــاءه فــارفع يمينك من طعامه

فـالمـوت أهـون عـنده من مضغ ضيف والتقامه

سـيان كـسر رغـيفه أو كسر شيء من عظامه

وإذا مـررت بـبابـه فاحفظ رغيفك من غلامه

انتهى.

فاعلم ذلك يا أخي، وفتش نفسك هل تخلقت بتلك الأخلاق، أم فرطت فيها وقلت: إن إطعام الطعام ليس هو من طريقتنا، ولا طريقة شيخنا كما يقع في ذلك بعض من ادعى الطريق بغير صدق ويقول: إن كل فقير جعل له سماطًا، فكأنه جعل مكانه مناخًا للبطالين. فاحذر يا أخي من ذلك، فقد ورد في الحديث قوله -ﷺ- : «**ما جبل ولي الله إلا على السخاء وحسن الخلق**»[1] قلت: ولا أعلم الآن أحدًا من إخواننا في مصر أكرم من الشيخ سليمان الخضيري والشيخ جمال الدين خليفة الشيخ شاهين كثر الله في المسلمين من أمثالهما، ونفعنا ببركتهما وزادهما من فضله، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله تعالى عنهم-: عدم الإجابة إلى طعام من في ماله شبهة من أمير ومباشر، وقاض، وكاشف، وشيخ عرب، وشيخ بلد، وتاجر يبيع على الظلمة، وأضرابهم، وكثرة تعففهم عما في أيدي الناس من الحلال. واعلم أن من علامة الشبهة في الطعام أن ينوع الإنسان الأطعمة لأنه لو تبع الحلال لما وجد شيئًا من الحلال ينوع به الطعام، ولذلك نهى النبي -ﷺ- عن أكل طعام المتبادرين يعني المتفاخرين. وكان عبد الله ابن عمر -رضي الله عنهما- يقول: لا تأكل إلا من طعام التقي النقي. ولا تطعم طعامك إلا للمتقي النقي. وكان -رضي الله عنه- لا يجيب إلى وليمة إلا إن وثق بدين صاحبها

---

(١) موضوع: انظر السلسلة الضعيفة (ح ٦٢٢).

وثوقًا شـديدًا. وكان أبو مسعـود البدرى -رضي الله عنه- لا يجيب إلى وليـمة إلا إن علم أن لا يكون هناك شيء نهى الله عنه. وقـد كـان أبو أيوب الأنصـارى -رضي الله عنه- إذا ذهب إلى وليمـة ورأى فى البيت سـترًا يرجع ويقول: لا يستر البيوت إلا الأكاسـرة والجبابرة، ونحن لا نأكل لهـؤلاء طعامًـا. وقد دعى حُذيفـة -رضي الله عنه- إلى وليمة فـرأى هناك شيئًا من زى الـعجم فرجع مسـرعًا، وقال: من تشبه بقوم فهو منهم، ومن رضى بفعل قوم فهو شريكهم.

وكان محمد بن سلام السكندرى - رحمه الله تعالى - يقول: قد ذهبت السنة فى الولائم أن الجفان كانت تملأ طعامًا، ويغـدى بها إلى المسجد فيأكل منها كل من كـان حاضرًا من غنى وفقـير وشريف ووضيع، وكـان صاحب الوليمة إذا خص الأغنـياء بالدعوة لايأكل الناس له طعامًـا ويقولون: إنه شر الطعـام. وكان الفضـيل بن عيـاض - رحمـه الله تعالى - يقـول: إن الرجل ليكون له مـوقع من قلبى، فإذا رأيته وسـع فى الطعام سقط من عـينى لقلة ورعه. وقد قال لقمان عليه السلام لابنه: يابنى إياك وحضور الولائم، فإنها تذكرك بالدنيا وشهواتها.

وكان أيوب السختيانى - رحمه الله تعالى - يقول: لا يكمل الرجل حتى يكون فيه خصلتان: التعـفف عما فى أيدى الناس وتحمل الأذى منهم، وكان مالك بن دينار - رحمه الله تعـالى - إذا دعى إلى وليمة ورأى هـناك أحدًا من ولاة الجور رجع مسرعًا وقال: إنا لا نجالس الجبابرة. وكان ميمون بن مهران - رحمـه الله تعالى - يقـول: مؤاكلة المحب تهـضم الطعام، ومؤاكـلة العدو تتخمـه. وكان شقيق بن إبراهيم - رحمـه الله تعالى - يقول: لم يبق فى هذا الزمـان وليمـة على وفق السنة، ولـقد ندمت على إجـابتى الولائم، وكـان الثورى - رحمه الله تعالى - يقول لأصـحابه: عليكم بعدم حضور الولائم ما أمكن إلا إن كانت سالمة من البدعة، فـإنه ما أكل رجل قط من قصعة رجل إلا ذل له. وقد كان أميرا المؤمنين عمر وعثمان -رضي الله عنهما- لا يجيبان إلى حضور الولائم ويقولان: نخاف أن يكون الطعام مبـاهاة وتفاخرًا، وكان عبد الله بن مسـعود -رضي الله عنه- يقول: نهـينا أن نجيب إلى طعام من أظهـر لنا أمارات الرياء

والسمعة في طعامه أو كان في بيته ستور كستور الكعبة. وكان حاتم الأصم - رحمه الله تعالى - يقول: إن مذمة الناس للشخص في هذا الزمان مدحة له لأنهم لا يذمونه إلا بما لا تهواه نفوسهم. وكان موسى بن طلحة -رضي الله عنه- يقول: أرسل إلى عبد الملك بن مروان بثلاث بدر فضة وأرسل يقول: فرقها على الفقراء، فأجبته إلى ذلك ثم أرسلت منها شيئًا إلى أبي رزين العقيلي وكان مجهودًا - رحمه الله تعالى - فكأني ألقيت عليه العقارب فردها وبات طاويًا. وقد أرسل أمير المؤمنين عثمان بن عفان -رضي الله عنه- بمال إلى أبي ذر -رضي الله عنه- مع عبد له وقال له: إن قبله منك فأنت حر، فلما ذهب العبد إليه بالمال لم يقبله، فقال له العبد: يا سيدي إن قبولك له فيه عتقي فقال له أبو ذر -رضي الله عنه- إن كان فيه عتقك، فإن فيه رقي.

فاعلم ذلك وفتش نفسك هل تعففت قط كما يتعفف هؤلاء، أم أكلت كل ما دعيت إليه، وقلت الأصل الحل، وأتلفت نفسك ومن تبعك ممن يقول لولا أن ذلك حلال لما أكل منه سيدي الشيخ، وإياك ودعوى الصلاح وأنت لم تتعفف، والحمدلله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله تعالى عنهم-: كثرة الصدقة بكل ما فضل عن حاجتهم ليلاً ونهاراً سراً وجهراً، ومن لم يجد منهم شيئًا من المال والطعام مثلاً تصدق بكف أذاه عن الناس وتحمل هو أذاهم، وقد كانت صدقات الفقراء في الزمن الماضي أكثر من صدقات الأغنياء لعدم إدخارهم المال والطعام بخلاف الأغنياء. ولا شك أن الفقراء أطيب نفسًا بالصدقة من الأغنياء لكمال إيمانهم ويقينهم وعدم بخلهم بالمال على المحتاجين.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يقول: اللهم اجعل الفضل عند خيارنا لأجل أن يعودوا به على أولي الحاجة منا. وقد كان بعضهم يرسل إليه أخيه الرغيف أو التمرة أو النعل مثلاً ويقول له: إنا نعلم غناك عن مثل ذلك، وإنما إردنا أن نعلمك أنك على بال منا. وكان عبد العزيز بن عمير - رحمه الله - يقول: الصلاة توصلك إلى نصف الطريق، والصوم يوصلك إلى باب الملك، والصدقة تدخلك إلى الملك، وكان - رحمه الله

تعالى ـ يجمع الأموال ويقول: إنما أجمع ذلك لبطون جائعة، وظهور عارية ولم أجمعه للماء والطين، وقد طلبوا منه شيئًا لعمارة مسجد، فأبى ولم يعطهم شيئًا وقال: الجائع أحق. وقال لقمان -عليه السلام- لابنه: يا بنى إذا أخطأت فتصدق ولو برغيف. وكان عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنه ـ يقول: من لم يتكرم بماله فتركه جمع المال أولى. وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا يتصدق أحدكم إلا من كسبه الطيب، فمن تصدق على فقير من كسب خبيث ليرحم ذلك الفقير فهو مغرور ورحمته من ظلمه أولى بإعطائه ما أخذ منه. وكان مجاهد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا يقبل الله تعالى صدقة من تعدى بصدقته رحمه المحتاج وقد كان محمد بن سيرين ـ رحمه الله تعالى ـ لا يخرج صدقة فطره إلا مغربلة مطيبة. وكان إبراهيم النخعى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا كان مشهد العبد أن جميع ما يتصدق به إنما هو ملك لله تعالى فلا عليه ولا يضره إذاكان فيه عيب. وكان عُروة بن الزبير ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: تخيروا للصدقة فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا. قلت: فلكل رجال مشهد. وكان أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول: يتزوج أحدكم فلانة بنت فلان بالمال الكثير، ولا يتزوج الحور العين بلقمة أو تمرة أو خلقة هذا من العجب. وكان عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يتصدق كثيراً بالسكر ويقول: إنى أحبه، وقد قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]، وكان الإمام الليث بن سعد ـ رضي الله عنه ـ يقول: من أخذ منى صدقة أو هدية فحقه علىّ أعظم من حقى عليه لأنه قبل منى قربانى إلى الله عز وجل. وكان معاذ النسفى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من لم ير نفسه أحوج إلى ثواب صدقته من الفقير إلى صدقته، فهو ممن أبطل صدقته بالمن لأنه رأى نفسه على الفقير وعند ذلك يضرب بها وجهه، وكان حاتم الأصم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من أعطى درهمًا من مائة درهم ولم يكن هذا الدرهم أعظم وأحب إليه من بقية المائة المدخرة ردت صدقته عليه وضرب بها وجهه. وقد كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول: لا تحقروا من الصدقة شيئًا فإن الحبة منها توزن يوم القيامة بجبال الأجر، وقد أعطت ـ رضي الله عنها ـ حبة عنب لفقير فردها، وكان استقلها فى عينه فقالت له: أما تقرأ قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ

مثقال ذرة خيرا يره﴾ [الزلزلة:٧]، فكم فى هذه العنبة من مثقال ذرة؟ قال: فاستغفر الرجل. اهـ.

فاعلم ذلك يا أخى، وفتش نفسك فى ترك تصدقها بما فضل عن حاجتها، ولاتعد نفسك من القوم إلا إن تبعتهم فى أخلاقهم. وكان آخر من أدركته من أصحاب هذا المقام سيدى الشيخ محمد الشناوى، والشيخ محمد المنير، والشيخ عبد الحليم بن مصلح، والشيخ محمد بن داود والشيخ محمد العدل وغيرهم -رضي الله عنهم- أجمعين، وكل هؤلاء كان ألف دينار عندهم كفلس، فافهم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضى الله تعالى عنهم-: بشاشتهم للسائل، وعدم نهرهم له، وحملها له على أنه ما سأل إلا لحاجة. وقد كان عيسى -عليه السلام- يقول: من رد سائلاً خائبًا لم تغش الملائكة بيته سبعة أيام، وفى الحديث: «**لولا أن بعض المساكين يكذب ما أفلح من رده**». وكان الحسن البصرى - رحمه الله تعالى - يقول: إن الله ليخول العبد فى نعمته، وينظر ماذا يصنع فيها مع عباده، فإن وفاهم ما طلبوا وإلاحولها عنه، فلذلك كان السلف يعزمون على أصحابهم ويشددون عليهم فى أنهم لا يردون ما أعطوه لهم.

وكان عبد الله بن المبارك - رحمه الله تعالى - يقول: أول من انتبه من رقدة الغفلة حبيب العجمى - رحمه الله تعالى - وذلك أنه اشتهى يومًا سمكًا، فلما أتى به إلى منزله ووضعه فى القدر جاءه سائل فرده فحول الله تعالى السمك دمًا، فاتعظ بذلك وخرج عن جميع ماله. وكان سفيان الثورى - رحمه الله - ينشرح إذا رأى سائلاً على بابه ويقول: مرحبًا بمن جاء يغسل ذنوبى. وقد كان الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى - يقول: نعم السائلون يحملون أزوادنا إلى الآخرة بغير أجرة حتى يضعوها فى الميزان بين يدى الله تعالى. وقد كان إبراهيم بن أدهم - رحمه الله تعالى - قبل زهده فى الدنيا إذا جاءه سائل يدخل إلى عياله ويقول لهم: قد جاءكم رسول المقابر، فهل توجهون إلى موتاكم شيئًا من الصدقة. وكان

أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يقول: جاء سائل فى مسجد فى زمان بنى إسرائيل يسأل، فلم يكترث به القوم فمات فجهزوه وصلوا عليه ودفنوه، فلما رجعوا إلى المسجد وجدوا الكفن موضوعًا فى المحراب، وإذا مكتوب عليه: هذا الكفن مردود عليكم، والرب ساخط عليكم. وكان معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ يقول: بغضاء الله فى أرضه سؤال المساجد أى لكونهم يسألون الناس فى بيته غيره سبحانه وتعالى، ويتسببون فى مقتهم بعدم إعطائهم ما سألوا منهم، وقد قيل للحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ إن الفقراء والمساكين قد كثروا وهم يسألون فمن نعطى منهم؟ قال: أعطوا من وجدتم فى قلوبكم رأفة له. وكان أبو الأسود الدؤلى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لو أطعنا السؤال فى أموالنا كنا أسوأ حالاً منهم. قلت: فينبغى للمتصدق أن يبقى لنفسه ولعياله شيئًا، ولا يتصدق إلا بما فضل عن حاجتهم. وقد دخل سالم بن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهم ـ الحرم يومًا، فرأى هشام بن عبد الملك، فقال له: سلنى حاجتك يا سالم؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنى أستحى أن أسأل فى بيت الله أحدًا غيره تعالى. وكان الحسن البصرى إذا جاءه سائل يعطيه، ثم يقول: اللهم إن هذا يسألنا القوت، ونحن نسألك الغفران، وأنت بالمغفرة أجود منا بالعطية. وقد دخل سائل يومًا على معروف الكرخى ـ رحمه الله تعالى ـ فلم ير عنده ما يعطيه غير نعله. فأعطاه إياه، ثم بلغ معروفًا بعد ذلك أنه باع النعل واشترى بثمنها فاكهة فقال معروف: الحمد لله لعله كان يشتهى الفاكهة، فواسيناه بثمنها. قال: ورأى سالم بن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهم ـ رجلاً يسأل يوم عرفة، فزجره وقال: أما تستحى من الله تعالى تسأل غيره فى مثل هذا الموطن، ومثل هذا اليوم. اهـ.

فاعلم ذلك يا أخى، وفتش نفسك فيما أعطيته للفقراء فى الزمن المتقدم، فربما مننت به ولو فى نفسك، فحبط أجرك، وربما نهرت المسكين فكان ما نهرته أرجح مما أعطيته إياه من حيث الأذى، فاحذر ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضى الله تعالى عنهم-: أنهم لا يتخذون من الإخوان إلا من علموا من نفوسهم الوفاء بحقه، فإن أخاك إذا لم توف بحقه كان فارغ القلب منك. وقد كان المغيرة بن شعبة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أعطوا أولادكم ما سألوا بالمعروف، ولا تكونوا أقفالاً عليهم فيتمنوا موتكم ويملوا من حياتكم، وكان أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ يقول: عليكم بالإخوان فإنهم عدة للدنيا والآخرة ألا تسمعون إلى قول أهل النار: ﴿**فما لنا من شافعين ۝ ولا صديق حميم**﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، وفي الحديث: «**ما أحدث عبد إخاء في الله إلا أحدث الله له درجة في الجنة**»(١).

وكان المهلب بن أبي صفرة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الصديق أعز من السيف الصارم في يده. وفي لفظ: في كف الرجل، فإن المودة لا تحتاج إلى قرابة، والقرابة تحتاج إلى المودة، ومن حق الأخ الصادق أن لا تفرط في كثرة سؤاله من حوائجه وتقول: ما بيني وبينه شيء ماله مالي، ومالي ماله كما يقع فيه كثير من الجهلة إذ من شأن البشر الشحّ، وخوف الفقر إلا من شاء الله، وتأمل في العجل ولد البقرة إذا أكثر من مص بزّ أمه أجهدها كيف تنطحه وترفسه. وقد كان الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ يقول: لولا محادثة الإخوان في هذه الدار، والتهجد في الأسحار ما أحببت البقاء بها. وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا تصاحب في السفر من هو أوسع منك في الدنيا، فإنك إن ساويته أضر بحالك، وإن نقصت عنه استذلك بين الناس. وكان سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ يقول: إذا صادقت غنيًا فاحذر من سؤاله إن طلبت حفظ مقامك عنده فإن المسألة كدوح في وجه السائل، ومن رد ما أعطى له كبر في قلب المعطى قهرًا عليه، وقد كان المهلب بن أبي صفرة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ينبغي للعاقل أن يجتنب مؤاخاة ثلاثة الأحمق والكذاب والفاجر، فأما الأحمق فإنه لا يشير عليك بخير، ولا يرجى لصرف سوء، وسكوته خير من نطقه وبعده خير من

---

(١) ضعيف جدًا: ذكره السيوطي في الجامع الصغير، وعزاه لابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان بلفظ: «ما أحدث رجلٌ إخاء في الله تعالى، إلا أحدث الله له درجة في الجنة»، وقال الألباني في ضعيف الجامع (ح ٤٩٨٢): ضعيف جدًا.

قربه، وأما الكذاب فلايهنأ لك معه عيش، وينقل خبرك إلى غيرك، ويغرى بينك وبين الناس العدواة والبغضاء، وأما الفاجر فيزين لك فعاله، ولايعينك على شيء من أمور دينك. وكان إبراهيم بن زيد العدوى - رحمه الله - يقول: أربعة تفرح القلب: التهجد فى السحر، والزوجة الجميلة الصالحة، والكفاف من الرزق، والأخ المؤمن.

فاعلم ذلك يا أخى، وفتش نفسك، وانظر هل وفيت بحقوق إخوانك، وهل تعففت عن سؤالهم بالحال أو بالمقال أو بالتعريض؟ وهل صحبتهم لله تعالى أو لغرض نفسانى، فإن كل ما لم يكن لله فهو وبال على العبد فى الدنيا، والآخرة، فطالب نفسك يا أخى بحقوق الإخوان، ولا تطالبهم بحقك لا ظاهراًو لا باطنًا، وقد أنشد إمامنا الشافعى -رضي الله عنه- قوله:

صديق ليس ينفع يوم بأس ... قريب من عدو فى القياس

ولا يبغى الصديق بكل عصر ... ولا الإخوان إلا للتآسي

غمرت الناس ملتمسًا بجهدى ... أخا ثقة فأكداه التماسي

تنكرت البلاد عليّ حتى ... كأن أناسها ليسوا بناس

وكان -رضي الله عنه- كثيراً ما ينشد بقوله:

وليس كثيراً ألف خل لواحد ... وإن عدواً واحداً لكثير

وأنشدنى شيخنا شيخ الإسلام زكريا - رحمه الله تعالى - قوله:

صاد الصديق وكاف الكيماء معًا ... لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا

فاعلم ذلك يا أخى، وانتبه لنفسك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضى الله تعالى عنهم-: ترك معاداتهم للناس، وكثرة مداراتهم لهم، وعدم مقابلتهم أحدًا بسوء، فالناس يعادونهم وهم لا يعادون أحدًا وقد بلغنا أن داود عليه الصلاة والسلام قال لابنه: يا بنى لا تستقل بالعدو الواحد، ولا تستكثر أن يكون لك ألف صديق، وقد نظم ذلك

الإمام الشافعي -رضي الله عنه- وهو قوله المتقدم وليس كثيرًا الخ. وكان وهب بن منبه - رحمه الله تعالى - يقول: إياك أن تشمت بمصيبة أخيك فإن ذلك عنوان للعدواة، وقد قال -ﷺ-: «**لا تظهر الشماتة لأخيك فيعافيه الله ويبتليك**»[1]. وكان وهيب بن الورد - رحمه الله تعالى - يقول: من لم يدار الناس لم يجد حلاوة الإيمان. وقد كان محمد بن الفضيل - رحمه الله تعالى - يجالس أعداءه ويلاطفهم بالكلام الحلو، ويعزم عليهم أن يأكلوا عنده، فقيل له في ذلك، فقال: لتخمد نار عداوتهم، وكتب صفوان - رحمه الله تعالى - على باب داره: رحم الله من لا يعرفنا ولا نعرفه، فإنه لم يأت لنا أذى إلا من إخواننا الذين يعرفونا ونعرفهم، وقد قيل لأيوب عليه السلام: أي شيء كان أضر عليك أيام بلائك؟ فقال: شماتة أعدائي، وقد أنشد بعضهم في ذلك يقول:

جميع فوائد الدنيا غرور ... فلا يبقى لمسرور سرور

فقل للشامتين بنا: استعدوا ... فإن نوائب الدنيا تدور

قال: ولما بلغ يزيد بن عبد الله وهو مريض أن هشامًا سر بمرضه، وتمنى موته أنشأ يقول:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى ... تهيأ لأخرى مثلها فكأني قد

وكذلك بلغنا أن إمامنا الشافعي -رضي الله عنه- قال ذلك لما تمنى الأقران موته، وكان محمد بن كدام - رحمه الله تعالى - يقول لابنه: يا بني عش مع أهل زمانك، ولا تقتد بهم، ثم يقول: وما أشر هذا العيش مع الأحياء والاقتداء بالأموات، وكان يقول: لا تعادوا أحدًا حتى تنظروا إلى عمله، فإن كان عمله حسنًا، فإن الله لا يسلمه إليكم، وإن كان عمله سيئًا فخطاياه تكفيه. وكان الحسن البصري - رحمه الله تعالى - يقول: لا تشتر مودة ألف رجل بعدواة رجل واحد، وكان سفيان الثوري - رحمه الله تعالى - يقول: إياك

---

(١) ضعيف: انظر ضعيف الجامع (ح ٦٢٤٥).

ومعاداة الناس، فإني ما خالفت صديقًا في هواه إلا وخفت على نفسي منه أن يسعى في قتلي، فإن لم يسع في قتلي يتمنى ظهور عيوبي للناس، وكان محمد بن مقاتل - رحمه الله تعالى - يقول: أحذر شر من تحسن إليه، واعذر أخاك بما تعذر به نفسك ثم يقول:

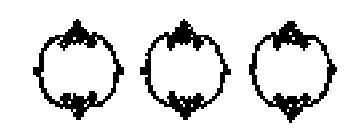
وتعذر نفسك لما أساءت وغيرك بالعذر لا تعذر
وتبصر في العين منه القذى وفي عينك الجذع لا تبصر

فاعلم يا أخي ذلك، وإياك ومعاداة الناس، لا سيما الزوالق، ومن يحب الانفراد بالصيت في بلدك، فإنهم يكدرون عليك العيش ولو كنت من أكابر الأولياء، فإن الجزء البشري فيك يرق ولا ينقطع فقد قالوا: من تهاون بمعاداة الناس فهو دليل على نقص عقله، وقالوا: لو ابتلى أكمل الناس بالعوام ورموه بالزور والبهتان لكدروا عليه قلبه، وصار لا يفرق بين الخواطر الربانية والشيطانية، وقد رأيت بعض إخواننا تهاون بمعاداة شيخ من مشايخ العصر وكان بعض الأمراء يعتقده، فكلم الشيخ ذلك الأمير، فكاتب فيه إلى أبواب السلطان، فجاء الأمر بنفيه من مصر فنفوه، فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله تعالى عنهم-: كثرة مكاتباتهم إلى بعضهم بالنصح إذا بعدت الديار، وقبول المنصوح النصح، وشكره فضل من نصحه خلاف ما عليه الناس اليوم، فلا تكاد تنصح أحدًا ويصير ينظر في عيوبك ليهجوك بذلك. وكان آخر من أدركت من أصحاب هذا المقام سيدي علي الكازواني نزيل مكة المشرفة كان سيدي محمد بن عراق - رحمهما الله تعالى - يرسل له المكاتبات التي لا تحتملها الجبال، في فرح لها ويقول: صدق فينا سيدي محمد، فجزاه الله تعالى عنا من أخ خيرًا، وكتب الأنطاكي - رحمه الله تعالى - إلى بعض أصحابه يقول: إلى متى أنت يا أخي تفرح بما يفتنك ويضرك، وتحزن على ما ينفعك من نقص الدنيا وحظوظها، وكتب حذيفة المرعشي - رحمه الله تعالى - إلى يوسف ابن أسباط - رحمه الله تعالى - يقول له بعد السلام: اعلم يا أخي أن من

كـانت الفضـائل أهم عنده من ترك الذنوب، فـهو مـخدوع، ومن حـمل القرآن وخالف شيئًا مما فيه فقد استهزأ بالقرآن، وكتب طاوس إلى مكحول ـ رحمهما الله تعالى ـ يقول له: بعد السلام احذر يا أخى أن تظن بنفسك أن لك مقامًا عظيمًا عند الله تعـالى مما ظهر لك من أعمالك، فإن من ظن بنفسه ذلك انقلب إلى الآخرة صفـر اليدين من الخير، وربما عظمك الناس بسبب أعمالك الصالحة، فاستعجلت ثوابها بذلك. وكتب الربيع بن خيثم ـ رحمـه الله تعالى ـ إلى بعض إخـوانه يقول له بعد الـسلام: كن يا أخى وصى نفسك، ولا تنتظر أحدًا من إخوانـك ينهاك على نقصك، فإن ذلك أمر قد تودع منـه والسلام. وكتب عبد الله بن زيادة إلى بـكر بن عبد الله المزنى ـ رحـمهمـا الله تعالى ـ يطـلب منه أين يدعو له، فكتب إليـه بكر يقول له بعد السلام: أما بعد يا أخى، فاعلم أن الدعاء لا يكون إلا ممن لا يقـارف الذنوب وأنا قد اقـترفت من الذنوب مـا لا يحصى عـدده إلا الله تعالى، ووالله إنى لأسـتحى من الله عز وجل أن أدعـو لنفسى. فكيف لا أستحى أن أدعو لغيرى.

وكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلى أبى موسى الأشعرى ـ رضي الله عنه ـ يقـول له بعد السـلام: إياك يا أخى أن تكون مثل البـهيـمة كلـما نظرت إلى أرض خضرة رتعت فيها تبتغى السمن بذلك، وفى ذلك السمن هلاكهـا وذبحهـا والسلام، فاعلم ذلك يا أخى، وانصـح نفسك أولاً، ثم انصح إخوانك مشـافهة ومكاتبة، وإياك أن تتكدر ممـن نصحك، فإن ذلك أى تكدرك منه من عـلامة أهل النار، والعيـاذ بالله تعالى والحـمد لله رب العالمين.



الباب الرابع
فى جملة أخرى من الأخلاق

ومن أخلاقهم -رضى الله تعالى عنهم-: كثرة عزلتهم عن الناس، وعدم كثرة مخالطتهم إلا لمصلحة شرعية، وعلى ذلك درج السلف الصالح، فكانوا كل يوم لا يجتمع بهم أحد فيه يعدونه يوم عيد، فمن أكثر مخالطة الناس فقد خرج عن طريق سلفه وفاته النفع، وذلك لأن من كثرت رؤية الناس له هان فى عيونهم، وسقط عندهم، ورأوه كأحدهم فى دناءة الأخلاق والغفلة عن الله تعالى. قلت: وما أتذكر أنى زرت أحدًا من مشايخ هذا العصر، وسلم مجلسى معهم من الغيبة إلا قليل، فلذلك أقللت من زيارتهم خوفًا على دينى ودينهم لا تساهلاً فى حقهم، فإذا كان هذا حكم مجالس الأشياخ فكيف بغيرهم، فاحفظ نفسك يا أخى كل الحفظ إذا زرت أحدًا فى هذا الزمان، ولا تتهاون بذلك.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: خذوا حظكم من العزلة. وكان طلحة بن عبيد الله ـ رضي الله عنه ـ يقول: من أراد أن يقل من معرفة الناس لعيوبه فليجلس فى بيته، فمن خالط الناس سلب دينه ولا يشعر. وكان حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ يقول: وددت أن أغلق باب دارى، فلا أخرج لأحد حتى أموت، وكان الشعبى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لم يجلس الربيع بن خيثم ـ رحمه الله تعالى ـ فى مجلس قومه طول عمره إلا مرة واحدة جلس على باب داره، فسقط عليه حجر، فشج رأسه لا يدرى من رماه، فقام وقال: لقد وعظت يا ربيع، ثم لم يخرج من بيته بعد ذلك إلا لضرورة حتى مات ـ رحمه الله ـ وكان يقول: من جلس على الطريق، فليؤد حقه، وذلك برد السلام، ونصرة المظلوم، والشهادة على الظالم، ومعاونة كل من كان فى ضرورة، وكان أبو حازم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: قلّ من يطيل مجالسة أخيه إلا

ويقع من أحدهما ما يكره الآخـر، فينبغى لكل من الأخوين أن لا يلقى أخاه إلا غبًا، وكان أميـر المؤمنين على -رضي الله عنه- يقول: سيأتى على الناس زمان لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر، ولا يستقيم لهم الغنى إلا بالبطر والبخل، ولا يستقيم لهم صحبة الناس إلا باتباع الهوى، فمن أدرك ذلك الزمان وصبر وحفظ نفسه أعطاه الله تعالى ثواب خمسين صديقًا.

وكان -رضي الله عنه- يقول: بلغنا أنه لا تكون راحة لمؤمن فى آخر الزمان إلا إن كان خامل الذكر بين الناس. وقد بلغ الفضيل بن عياض أن ولده عليًا - رحمهما الله تعالى - يقول: وددت أنى بمكان أرى الناس منه ولا يرونى، فقال أبوه: هلا أتمها، فقال: لا أراهم ولا يرونى، وكان وهيب بن الورد - رحمه الله تعالى - يقول: خالطت الناس خمسين سنة إلى يومى هذا، فما وجدت أحدًا منهم غفر لى زلة، ولا قال لى عثرة ولا أمنته على نفسى إذا غضب منى. وكان حاتم الأصم - رحمه الله تعالى - يقول: اجعل الناس كالنار، فلا تدنو منهم إلا عند الحاجة، وإذا دنوت منهم فكن على حذر كما تحذر من النار إذا دنوت منها. وكان أبو الدرداء -رضي الله عنه- يقول: من خالط الناس فلا بد أن يخربوا عليه قلبه، وكان جعفر بن حميد -رضي الله عنه- يقول: الحق أنه لابد لك من الناس، ولابد للناس منك، فليكن كل منكما على حذر من الآخر، وقد كان إبراهيم بن أدهم - رحمه الله - فى سفر، فلما قدم منه قالوا لسليمان الخواص - رحمه الله - ألا تلقى إبراهيم؟ فقال: أخاف إذا لقيته أن أتزين له بكلام فأهلك. وقد كان الحسن بن صالح - رحمه الله تعالى - يقول: لقد أدركنا الناس وهم يتحابون من بعيد، ويكرهون اللقاء. وكان الربيع بن خيثم - رحمه الله - يقول: لاينبغى لأحد أن يعتزل للعبادة إلابعد التفقه فى دينه، فقد كان الإمام مالك -رضي الله عنه- يقول: تفقه ثم اعتزل يعنى عن الناس، وكان عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- يقول: خير جلوس الرجل فى قعر بيته لا يرىَ ولا يُرى. وكان سفيان - رحمه الله تعالى - يقول: والله لقد حلت العزلة عن الناس. وقلت: يعنى

وجبت كما في حديث: «فقد حلت له شفاعتي»[(١)] أي وجبت. وكان أبو سفيان يقول: اعتزلوا عن الناس جهدكم، فإنهم سراق العقول. وكان أبو بكر الوراق ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا تطمع في الأنس بالله أبدًا وأنت تخالط الخلق، ولا تطمع في رضا الله تعالى، وأنت تخالط الظلمة، ولا تطمع في حب الله لك، وأنت تحب الدنيا ولا تطمع في لين قلبك، وأنت تجفو على اليتيم، وكان داود الطائي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا تصلح العزلةعن الناس إلا لمن زهد في الدنيا أما الراغبون فيها فلا فائدة في عزلتهم. فمن اعتزل الناس ولم يجعل الحق تعالى مؤنسًا، والقرآن محدثًا فقد أخطأ الطريق، ولم تصح عزلته. وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: اجعل جلوسك في مكان يكون أخفى لشخصك، وأخفض لصوتك. وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من لم يجالس الحق تعالى والنبي ـ ﷺ ـ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ فقد خابت عزلته، فقيل له: كيف ذلك؟ قال: يدرس القرآن بتدبر وينظر في أفعال رسول الله ـ ﷺ ـ وأقواله وأفعال أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ وأقوالهم، فمن فعل ذلك فقد حادث الله تعالى، وحادث النبي ـ ﷺ ـ، وحادث أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ.

ولما اعتزل عن الناس داود الطائي ـ رحمه الله ـ لامه أصحابه في ذلك، فقال: إنما فعلت ذلك حين رأيت الصغير لا يوقر الكبير، ورأيت أخي يحصي على عيوبي ليهجوني بها حال سخطه علي، وكان إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أقل ما في العزلة عن الناس أن الإنسان لا يرى منكرًا فينكره. وكان بشير بن منصور ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أقل من معرفة الناس جهدك، فإنك لا تدري ماذا يقع لك من الفضيحة، والعياذ بالله تعالى، فيكون من يعرفك من الناس قليلاً. وكان أيوب السختياني ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن من العزلة عن الناس إذا خرجت لحاجة أن تقصد المشي في المواضع القليلة الناس. وقد كان لعمر بن عبد العزيز ـ

(١) صحيح: أخرجه البخاري (ح ٦١٤) في الأذان، باب: الدعاء عند الأذان، ومسلم (ح ٣٨٤) في الصلاة، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، من حديث عبد الله بن عمرو.

رحمه الله تعالى ـ ولـد اسمه عبد الله كان له سرداب يجلـس فيه ولا يخرج منه إلا في أوقات الصلاة.

وكان سفـيان الثوري ـ رحمه الله تعـالى ـ يقول: هذا زمان السكوت، ولزوم البيـوت، والقنع بالقوت إلى أن تموت، وكان مكحـول ـ رحمه الله ـ يقول: إن كـان في مجالسة الناس خـير، فالعـزلة عنهم أسلم للدين، وكان سفيـان بن عيينة ـ رحـمه الله تعالى ـ يقول: اجـتمعت بأبي حبـيب البدري ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا سفيان ما رأينا خـيراً قط إلا من الله تعالى، فما لنا لا نقبل على من لا نرى الخـيـر إلا منه. وقـد رأيت إبراهيم بن أدهم ـ رحـمـه الله تعالى ـ بالشام، فقلت له: يا أبا إسـحاق إنك قد تركت خراسان، وجلست ههنا؟ فقال: نعم ما هنأ لي العيش إلا هنا أفرّ بديني من جبل إلى جبل، فمن رآني ظن أني ملاح أو جمال أو موسوس. وكـان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا الناس وهم دواء يستـشفى بهم، فصاروا اليوم داء لا دواء له. وكان حمـاد بن زيد ـ رحمه الله تعالى ـ يقـول: زرت مالك بن دينار ـ رحمـه الله تعالى ـ فرأيت عنده كلبـًا بحذائه، فأردت أطرده، فـقال لي: دعه يا حماد فإنه خـير من جليس السوء الذي يغتاب الناس عندي. ولما قدم عـبد الله بن المبارك من البـصرة إلى بغـداد سأل عن محـمد بن واسع ـ رحمـهمـا الله تعالى ـ فلم يعـرفه أحـد، فقال عـبد الله: إنه من فـضله لم يعرف، وازداد فيه محبة وتعظيمًا. وكان الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: رأيت مرة رجـلاً معتزلاً عن الناس، فـقلت له: لم لا تخالط الناس؟ فقـال لي: أنا مشـغول عنهم بما هو أهم، فـقلت له: وما هو؟ فـقال: إني أصبـح كل يوم بين نعمـة وبين ذنب، فأنا مـشغـول بالشكر لأجل النعـمة وبالاستغفار لأجل الذنب، فـقلت له: أنت أفقه من الحسن اجلس وحدك يا أخي، وكان الفضيل بن عياض ـ رحمـه الله تعالى ـ يقول: من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه.

وقـد قيل لإبراهيم بن أدهم ـ رحـمـه الله تعالى ـ ألا تخـالط الناس، فتأمـرهم بالمعروف، وتنهاهم عن المنكر؟ فقال لي: عـدم لقائهم يسقط عني

ذلك، وقيل لعـمر بن عبد العـزيز ـ رحمه الله تعـالى ـ ألا تجالس الناس؟ فقال: إني لم أتفـرغ لهم، وقد كان الفضيل بن عيـاض ـ رحمه الله تعالى ـ يقـول: إنما طلبوا العـزلة، والوحدة لأنهـا تورث الانتبـاه من رقدة الغـفلة، وتورث كثـرة مراقبـة الله تعالى بالغـيب، وما أحد عـبد ربه إلا أحب أن لا يشعر به أحد، فإن استطعت أن تمشي للناس، ولا يمشوا لك،وتسألهم ولا يسألونك فافعل، ووالله إني لألقى الرجـل فلا يسلم عليّ، فأرى الفضل له، وكذلك إذا مرضـت ولم يعدني. وقد دخل عليه رجل مـرة مهاجمـة، فقام وترك له البيت، فقال له: الرجل: مـا بالك يا أبا علي قمت رحمة لي لماذا؟ فقال له الفضيل: وهل تريد إلا أن تتزين لي، وأتزين لك، وأنا والله لا أجد لذة ولا راحة إلا إذا كنت وحدي.

وكان أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ يـقول: لقد أدركنا الـناس وهم ورق لا شوك فيه، وقد صاروا الآن شوكًا لا ورق فيه. وكـان سفيان بن عيينة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: قال لي سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ في حياته وبعد مماته حين رأيته في منامي: أقلل من معرفة الناس جـهدك، فإن التخلص منهم شديد، ولا يرى الشـخص ما يكره إلا ممن يعـرفـه. وقيل مـرة لإبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعـالى ـ ألا تجالس الناس؟ فقال: إن الناس قـد ذهبوا تحت أطباق الثرى. فاعلم ذلك يا أخي، واعتزل عنهم جهدك، فقد سمعت مقالاتهم في المائة الثانية، فكيف بك وأنت في المـائة العاشرة، وإياك أن يلعب بك إبليس ويقول لك. أنت بحـمد الله قد وصلت في المقام إلى حـد لا يشغلك شيء عن ربك، فـإن ذلك من دسـائس إبليـس، فـإنك يا أخي بيـقين أدون من هؤلاء السلف في المقام، فافهم ذلك والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله تعالى عنهم-: زيادتهم في التواضع كلما ترقى أحدهم في المقام عكس حال من قرب إلى السراج، فإن الشخص كلما قـرب منه رأى نفسه كـبيرًا، وهؤلاء القـوم كلما قربوا من حـضرة الله تعالى رأوا أنفسهم أصغر من البعـوضة من شهودهم عظمة الله تعالى ولذلك طرد إبليس من الحضرة لما تكبر، وقال: أنا خيـر منه، فافهم فكل فقير رأيته

يا أخي متكبراً، فابعد عنه، فإنه عدو الله كما قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام، يا موسى أبغض خلقي إليّ من تكبر قلبه، وغلظ لسانه، وبخلت يده، وساء خلقه، وكان أبو مسلم الخولاني ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما تكبر إلا وضيع، ولا افتخر إلا سقيط ولا تعصب بالباطل إلا دنيء الأصل. وكان أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لو اجتمع جميع الخلق عليّ على أن ينزلوني عن شهود حقارة نفسي لما استطاعوا ذلك. وكان أبو أيوب السختياني ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: قد طلب قوم الارتفاع، فوضعهم الله، وأراد قوم الاتضاع فرفعهم الله.

قال: ولما قدم سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ إلى الرملة أرسل إليه إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ أن ائت إلينا فحدثنا، فقيل لإبراهيم: ترسل إلى مثل سفيان ليأتيك؟ قال: نعم أردت أن أريكم شدة تواضعه، ثم جاء سفيان فحدثهم، وكان سليمان الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ يشبه بإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام في الكرم، وفي حسن الخلق. وكان عروة بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ يقول: عليكم بالتواضع، فإنه نعمة عظيمة، ولا يحسدكم أحد عليها، وكان سفيان بن عيينة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من تكبر بغير حق حرم الفهم في القرآن، ومن اكتسب عزاً بغير حق أورثه ذلك ذلاً بحق. وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الزاهد بغير تواضع كالشجرة لا تثمر، ومن لم يتضع عند نفسه لم يرتفع عند غيره. وكان عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ لا يحبس عن مائدته أجذم، ولا أبرص، ولامبتلي بل يأكل معهم، وكان يقول: رأس التواضع أن ترضى بأدون المجالس لا لحظ نفس، فقد يجلس أحدهم عند النعال ومعه من الكبر ما الله به عليم، وماحمله على مجلسه ذلك إلا ليقال: إنه متواضع.

وكان يقول: من علامة تواضعك أن تكره ذكرك بالبر والتقوى بين الناس. وكان ابن السماك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أفضل التواضع أن لا ترى لك فضلاً على أحد، وترى فضل الناس عليك فتفضل كل من رأيته من

أقرانك على نفسك بقلبك، وترجو رحمته، وتطلب دعوته، وتظن أن الله تعالى يدفع عنك البلاء بتوسلك به، فهذا هو التواضع الأكبر. وقد بلغنا أن عيسى -ﷺ- كان يقول: أحق الناس بخدمته للناس العالم، وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لو أن مناديًا ينادى بباب المسجد ليخرج شركم رجلاً ما سبقنى أحد إلى الباب إلا أن يكون له فضل قوة على.

وكان حاتم الأصم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا يخرج الله تعالى المتكبر من الدنيا حتى يريه الهوان من أرذل خدمه وجيرانه، ويتمرغ فى بوله وقذره قبل الموت. وكان أبو تراب النخشبى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: تحقير الفقير هو عين الكبر، وكذلك الوقوع فى حق الفقراء من أخلاق الكلاب، وقد دخل أبو سلمان يومًا على عبد الملك ـ رحمهما الله تعالى ـ فوقف بعيدًا، فقال له: لم وقفت بعيدًا يا أبا سلمان؟ فقال: لأن أدعى من بعيد أحب إلى من أن أدفع من قريب. وكان عمر بن عبد العزيز قبل أن يلى الخلافة ـ رحمه الله تعالى ـ يلبس الحلة بألف دينار ويقول: ما أجودها لولا خشونة فيها، فلما استخلف كان يلبس الحلة بخمسة دراهم، ويقول: ما ألينها وأجودها فقيل له فى ذلك؟ فقال: إن نفسى كانت تطلب الرفعة، فلما وليت الخلافة وهى أرفع مقام عند أهل الدنيا طلبت نفسى ما عند الله تعالى وزهدت فى الدنيا، قالوا: وكان ـ رضي الله عنه ـ لا يسجد على فرش بل على التراب. وكان عبد الله الرسمى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لم يفرض الله تعالى الركوع والسجود بالأصالة إلا على المتكبرين مثلى ومثل فرعون ونمرود وأنو شروان.

وكان يحيى بن خالد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الشريف إذا تعبد تواضع بخلاف الدنىء، وقد كان أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ وهو أمير المدينة فى أيام مروان يحمل حزمة الحطب من السوق على رأسه، ويمشى يقول: أوسعوا لأميركم، وكان أمير المؤمنين عمر ـ رضي الله عنه ـ يسرع فى المشى ويقول: هو أبعد من الزهو والعجب، وأسرع إلى قضاء الحاجة. وكان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ يخدم الضيف بنفسه، ويصلح له السراج فى الليل، ولا

ينبه أحدًا من الخدم. وفي الحديث: «**إن سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام لم يرفع طرفه إلى السماء تخشعًا مع ما أعطى من الملك حتى قبضه الله تعالى**» وفي الحديث أيضًا: «**أن رسول الله -ﷺ- كان يأكل مع الخادم، ويطحن معها إذا أعيت**». وكان -ﷺ- لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله، وكان -ﷺ- يصافح الغنى والفقير ولما حج -ﷺ- ورمى جمرة العقبة لم يكن بين يديه ضرب ولا طود ولا إليك إليك.

وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: التكبر على من تكبر عليك بما له تواضع لله عز وجل. وكان بشر الحافي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: حج عيسى عليه الصلاة والسلام من الشام على ثور. وكان حاتم الأصم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا تنظروا إلى صورة تواضع فقراء زماننا هذا وعلمائه وقرائه، فإنهم عندهم من الكبر ما ليس عند الأمراء والملوك.

وسيأتى زيادة على ذلك فى مبحث غير هذا إن شاء الله تعالى مفرقًا فى هذا الكتاب، فتأمل يا أخى حالك، وانظر نفسك فربما تكون من أعظم المتكبرين وأنت لا تشعر، وربما لبست الجبة الغليظة أو البشت، وكنت بذلك أعظم فى الكبر ممن لبس رقيق الثياب، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضى الله تعالى عنهم-: عدم التهاون بشىء من الفضائل التى رغبنا فى فعلها الشارع -ﷺ-، وإكثارهم منها، وشهودهم أنها وإن كانت كثيرة العدد لا يحصل لهم منها أجر فضيلة كاملة. وكان يحيى بن أبى كثير ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من بلغه عن الله عز وجل شىء فعمل به إيمانًا به أعطاه الله تعالى أجر ذلك. وإن لم يكن كذلك. وقد رأى رجل كثرة عبادة إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ فتمنى أن يكون مثله، فبلغ ذلك إبراهيم فقال له: والله ياهذا لروعة تروعك على عيالك أفضل من جميع ما أنا فيه. وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يكثر من فعل الطاعات ويقول: ليس لأمثالنا نوافل إنما النوافل لمن كملت فرائضه وقد كان سلمان الفارسى ـ رضي الله عنه ـ يقول: مثل الذى يكثر الفضائل، ولا يكمل الفرائض مثل تاجر خسر رأس ماله وهو طالب للربح. وقد كان عيسى عليه

الصلاة والسلام يقول: إن رب الدين لا يقبل الهدية إلا بعد وفاء دينه كله. وكان عبيد بن عمير ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما من عبد يضع جنبه على الفراش ويذكر الله تعالى حتى أخذه النوم إلا كتب ذاكرًا لله تعالى حتى يستيقظ.

وكان وهيب بن الورد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إياكم أن تطلبوا ثوابًا على عبادتكم فإنها إلى الرد أقرب منها إلى القبول، أما ترون إلى قول الخليل عليه الصلاة والسلام لما بنى البيت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ [البقرة:١٢٧]، مخافة أن لا يقبل بناؤه. وقد كان يونس بن عبيد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من استخف بالنوافل استخف بالفرائض. وكان إبراهيم النخعي ـ رحمه الله ـ يكره عد الآي والأذكار إلا إن كان لها عدد مشروع. اهـ.

فاعلم ذلك يا أخي، وكثر من النوافل والفضائل، ولا تمل منها، ولا ترى بعد ذلك أنك قمت بواجب شكر نعمة واحدة من نعم الله عليك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله تعالى عنهم-: كثرة التوبة والاستغفار ليلاً ونهارًا لشهودهم أنهم لا يسلمون من الذنب في فعل من الأفعال حتى في طاعاتهم، فيستغفرون من نقصهم من خشوعها، ومن مراقبة الله تعالى فيها. وقد درج على ذلك السلف خلاف ما عليه غالب متصوفة هذا الزمان الذي نحن فيه، حتى إني سمعت مرة بعضهم يقول: نحن قوم لا ذنوب علينا بحمد الله تعالى فقلت له: وكيف؟ قال: لأننا نشهد أن الله تعالى هو الفاعل لا نحن، فقلت له: فإذًا وجب عليك الاستغفار والتوبة لأنك هدمت جميع أركان الشريعة، وأبطلت حدودها، والله لو كنت أنا ذا سلطان لضربت عنق مثل هذا، فإن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وجميع الأكابر كانوا يشهدون أن الله تعالى هو الخالق لأفعالهم، ومع ذلك استغفروا وبكوا حتى نبت العشب من دموعهم، وقد كان رسول الله -ﷺ- يقول: «**ألا أنبئكم بدائكم ودوائكم، فإن داءكم الذنوب، ودواءكم الاستغفار**». وقد كان أمير المؤمنين علي -رضي الله عنه- يقول: العجب ممن يقنط ومعه النجاة،

فإذا قيل له: وما هى النجاة؟ يقول: كثرة الاستغفار. وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: استغفار الله تعالى بلا إقلاع توبة الكذابين، وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يناجى الله تعالى بقوله: إن إبليس لك عدو، وهو لنا عدو، ولا تغيظه بشىء هو أنكى له من عفوك عنا، فاعف عنا برحمتك يا أرحم الراحمين. وكان أبو عبد الله الأنطاكى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ترك معصية واحدة وإن صغرت أرجى للرحمة من ألف حجة، وألف غزوة وألف رقبة يعتقها العبد لله تعالى. وفى رواية: إن ترك كذبة واحدة أو خلف وعد أو نظرة إلى ما لا يحل أرجى للرحمة والمغفرة من كثرة النوافل مع الكذبة أو النظرة أو خلف الوعد. وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أربع لا يعبأ بهم، عاقل زهد الخصيان فى الجماع، ونسك النساء، وتوبة الجندى، وقراءة الصبيان.

وقد كانت رابعة العدوية ـ رحمها الله تعالى ـ تقول: استغفارنا يحتاج إلى استغفار -يعنى من عدم الصدق فيه-. وكان خالد بن معدان ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: يمر التوابون على جهنم، فلا يرونها فيقولون: يا ربنا ألم تعدنا أننا نرد النار، فيقال لهم، إنكم مررتم عليها وهى خامدة لكونكم كنتم تائبين، فإنها لا تهيج إلا من الذنوب، والإصرار عليها، وقد أجمع أهل السنة على صحة توبة العبد من القتل، ومن أخذ المال بلا حق، ومن شرب الخمر، ومن سائر المعاصى. قال: وقد سُئل مسروق ـ رحمه الله تعالى ـ هل لقاتل المؤمن من توبة؟ فقال: لا أغلق بابًا فتحه الله تعالى. وقد كان أبو الجوزاء ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن العبد ليذنب فلا يزال نادمًا حتى يدخل الجنة فيقول إبليس: ليتنى لم أوقعه فيه. وكان أمير المؤمنين على ـ رضي الله عنه ـ يقول: خياركم كل مذنب تواب، ثم يتلو إن الله يحب التوابين. وكان الربيع بن خيثم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا يقل أحدكم أستغفر الله تعالى، وأتوب إليه، فيكون ذلك ذنبًا وكذبًا إن لم يفعل، ولكن ليقل: اللهم اغفر لى، وتب على، فقيل له: إن قول العبد أستغفر الله قد ورد فى السنة؟ فقال: ذلك فى حق الصادقين.

وكان ابن عباس -رضي الله عنهما- يقول: لم يبلغني في كتاب ولا سنة، ولا بلغ علمي أن الله تعالى قال: الذنب لا أغفره، قلت: لعل مراده -رضي الله عنه- عدم ورود هذا اللفظ بخصوصه وإلا ففي القرآن ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾ [النساء:٤٨]، فيحمل كلامه -رضي الله عنه- على ذنوب أهل الإسلام كما حمل العلماء قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾ [الزمر:٥٣]، على ذلك. وقد كان ثابت البناني - رحمه الله تعالى - يقول: ما شرب داودعليه الصلاة والسلام شرابًا بعد الذنب إلا ممزوجًا بدموع عينيه. وكان مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - يقول: دخلت على جار لي وهو مريض، وكان مسرفًا على نفسه فقلت له: يا أخي عاهد الله تعالى أن تتوب عسى أن يشفيك فبكى، فسمعت قائلاً من ناحية البيت يقول: إن كان عهده كعهدك معنا فلا فائدة فيه، فإنك عاهدتنا مرارًا، فوجدناك كاذبًا، قال: فغشي عند ذلك على مالك. وكان طلق بن حبيب - رحمه الله تعالى - يقول: إن حقوق الله تعالى أعظم من أن يقوم بها العباد. وإن نعمة الله تعالى أكثر من أن يحصوها. وكان ذو النون المصري - رحمه الله تعالى - يقول: إن الله تعالى رزقنا فوق قوتنا. وكلفنا دون قوتنا. فلم نكتف بما رزقنا من القوت، ولم نبذل قوتنا فيما كلفنا. وكان مجاهد - رحمه الله تعالى - يقول: من لم يتب كل صباح ومساء فهو من الظالمين. وقد قيل للحسن البصري - رحمه الله تعالى - ماذا تقول فيمن يتوب ثم ينقض، ثم يتوب ثم ينقض وهكذا؟ فقال: ما أراه إلا مؤمنا فعل أخلاق المؤمنين. وكان يحيى بن معاذ - رحمه الله تعالى - يقول: زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين زلة قبلها. وقد سُئل سفيان بن عيينة - رحمه الله تعالى - ما علامة التوبة النصوح؟ فقال: أربعة أشياء: قلة الدنيا، وذلة النفس، وكثرة التقرب إلى الله تعالى بالطاعات، ورؤية القلة. والنقص في ذلك. وكان بكر بن عبد الله المزني - رحمه الله تعالى - يقول: لو أن مذنبًا طاف على سائر المجالس والأبواب وهو يقول: استغفروا الله لي، لكان ذلك أولى من سؤاله لهم اللقمة والخلقة ونحوهما.

وقد سُئل يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ عن التائب من هو؟ فقال: هو من تاب أيام شبابه، ولزم الفطام حتى أتاه الحمام، وليست التوبة توبة الشيوخ لخمود نار شهوتهم عن المعاصي، وإن كان الله تعالى وعد بقبولها حتى تطلع الشمس من مغربها. وقد كان سعيد بن المسيب ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أنزل الله قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء:٢٥]، في الرجل يذنب، ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب. وكان الفضيل ابن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: قال الله عز وجل: يا داود بشر المذنبين أنهم إن تابوا قبلت توبتهم وحذر الصديقين أني إن وضعت عليهم عدلي عذبتهم. وكان عبد الله بن حبيب ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إنكم إن تطيقوا غضب الله تعالى عليكم كلما عصيتموه، فأمسوا تائبين، وأصبحوا كذلك تائبين. وكان عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول: من وقع في خطيئة ثم تذكرها فوجل منها في قلبه محيت عنه من أم الكتاب. وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول للمجاهدين إذا أرادوا أن يخرجوا للجهاد: عليكم بالتوبة فإنها ترد عنكم ما لا ترده السيوف.

وكان يقول: لما عاين قوم يونس عليه الصلاة والسلام العذاب قام رجل منهم، فقال: اللهم إن ذنوبي عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل، فافعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله، فكشف الله عنهم العذاب. وقد كان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول في مناجاته في الليل: اللهم إن خطيئتي تعذبني، وتوبتي تذوبني، فعيشتي طول دهري بين تعذيب وتذويب. وكان حبيب بن تمام ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من وقع في ذنب ثم خاف من الله تعالى أن يعذبه عليه غفره الله له. وكان عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول: إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإنه عليه ملكًا موكلاً به لا يدعه يغلق، فادعوا ولا تيأسوا. وقد كان عبد الرحمن بن القاسم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: تذاكرنا في إسلام الكافر وأنه يغفر له ما مضى فقلت: إني لأرجو أن يكون المسلم أولى بذلك عند الله تعالى، فإن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام أي كتكراره الشهادتين، وكان عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ يقول: لا

أحدثكم إلا عن كتاب منزل، أو نبى مرسل: إن العبد إذا عمل ذنبًا، ثم ندم عليه طرفة عين، واستغفر الله تبارك وتعالى سقط عنه أسرع من طرفةعين، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: جالسوا التوابين، فإنهم أرق أفئدة. وفى الحديث: «**ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم أكثر من سبعين مرة**»[1]. وكان إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما ألهم الله عبدًا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه. وقد سُئل الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ عن معنى قول العبد: أستغفر الله. فقال: معناه اللهم أقلنى من ذنبى. وكان وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من قدم الاستغفار على الندم كان كالمستهزئ على الله تعالى ولا يشعر وإنها توبة الكذابين، قلت: ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿**أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ**﴾ [المائدة: ٧٤]، فأخر الاستغفار عن التوبة المشتملة على الندم، فليتأمل فإن الواو هنا للترتيب والله أعلم.

وقد سُئل يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ ما بال المسلم إذا وقع فى ذنب يكره أن يطلع عليه الناس أكثر من كراهته لاطلاع الله تعالى عليه. هل ذلك من هوان منه بربه، عز وجل؟ فقال: لا، ولكن ذلك من شدة معرفته بكرم ربه وجوده، وأنه سبحانه لا يفضحه بخلاف الناس.

وقد بلغنا أن أعرابيًا كان يقول فى دعائه: اللهم إن استغفارى مع إصرارى لؤم، وتركى الاستغفار مع علمى بسعة عفوك ورحمتك عجز، فاغفر لؤمى برجائى لرحمتك يا أرحم الراحمين، وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ إذا سمع قوله تعالى: ﴿**فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا**﴾ [طه: ٤٤]، يقول: إلهى إذا كان هذا قولك فى حق من قال: أنا ربكم الأعلى، فكيف يكون رفقك بمن لا يشرك بك شيئًا؟ بل يعلم أنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك. وكان رحمه الله تعالى ـ يقول: بلغنا أن الله سبحانه وتعالى يحاسب المسلمين يوم القيامة بالمن والفضل، ويحاسب الكافرين يومئذ بالحجة والعدل. اهـ.

---

(١) ضعيف: انظر ضعيف الجامع (ح ٥٠٠٤)، وضعيف أبى داود (ح ٢٦٧).

فاعلم ذلك يا أخي، وأكثر من الاستغفار ما دمت في هذه الدار، فإنه يطفئ غضب الجبار، ولا تظن محو ذنوبك إذا فعلت الأمور التي ورد في الشرع أنها مكفرة لذلك، فقد يكون لها شروط لم تأت بها، واعلم أن المؤمن لا يطمئن حتى يدخل الجنة، فافهم والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضى الله تعالى عنهم-: أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وإن لم يفعلوا ولم ينتهوا، وهذا الخلق يخل به كثير ممن لم يسلك على يد شيخ صادق فيقول: إن الأمر بالمعروف لايكون إلا ممن كان تائبًا عن جميع الذنوب، ونحن قوم قد غمرتنا الذنوب، وهذا مخالف لما عليه العلماء العاملون، فقد ورد في الحديث الشريف أن أبا هريرة -رضي الله عنه- قال: قلنا يا رسول الله: أنأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر، وإن لم نأتمر ولم ننته؟ فقال -ﷺ-: **«مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به، وانهوا عن المنكر وإن لم تنتهوا عنه كله»**[1]. وكان أمير المؤمنين علي -رضي الله عنه- يقول: من نهى عن المنكر، وشنأ الفاسقين، وغضب إذا انتهكت حرمات الله غضب الله تعالى له، وقد قيل لحفص بن حميد - رحمه الله تعالى - ما الذي بلغ بسفيان الثوري ما بلغ، فقد كان في زمانه من هو مثله في كثرة العبادة والعلم؟ فقال: بلغ به - رحمه الله تعالى - استخفافه بالعصاة في مواضع الحق، وعدم مراعاته لهم، وكان - رحمه الله - ربما يرى المنكر، فلا يقدر على إزالته، فيبول الدم من القهر. وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يقول: سيأتي على الناس زمان يكون صالحهم فيه هو من لم يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن منكر فيقول الناس: ما رأينا منه إلا خيرًا لكونه لم يغضب لله تعالى. وكان يحيى بن معاذ - رحمه الله تعالى - يقول: مصائب المؤمن في الدنيا ثلاثة: صلاة تفوته، وأخ صالح يموت، وحدث يحدث في الإسلام، وكان أمير المؤمنين علي -رضي الله عنه- يقول: سيأتي على الناس زمان يكون منكر المنكر فيه أقل من عشر الناس، ثم يذهب العشر بعد ذلك، فلا يبقى أحد ينكر منكرًا.

---

(١) ضعيف جداً: انظر ضعيف الجامع (ح ٥٢٥٩)، والضعيفة (ح ٢٢٨٢).

وكان أويس القرني -رضي الله عنه- يقول: إن قيام المؤمن بالحق لم يدع له فى الدنيا صديقًا، وما أمر أحد الناس بتقوى الله، ونهاهم عن المنكر إلا رموه بالعظائم، وشتموا عرضه. وقد كان كعب الأحبار -رضي الله عنه- يقول: جنة الفردوس خاصة بمن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر. وكان وهيب بن الورد -رحمه الله تعالى- يقول فى قوله تعالى: ﴿وجعلني مباركا أين ما كنت﴾ [مريم:٣١]، أى كان يأمر المعروف، وينهى عن المنكر، وكان أنس بن مالك -رضي الله عنه- يقول: من سمع أحدًا يفعل منكرًا، ولم ينهه جاء يوم القيامة أصم مقطوع الأذنين. وكان جرير بن عبد الله -رحمه الله تعالى- يقول: ما من قوم أعزاء على الناس، ثم لم يغيروا منكرًا قدروا عليه إلا ذلهم الله عز وجل. وكان أبو الدرداء -رضي الله عنه- يقول: لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم سلطانًا ظالمًا لا يجل كبيركم، ولا يرحم صغيركم، ويدعو عليه خياركم، فلا يستجاب لهم، ويستنصرون فلا تنصرون، ويستغفرون فلا يغفر لكم، وكان حُذيفة بن اليمان -رضي الله عنه- يقول: دخلت على عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فرأيته مهمومًا حزينًا، فقلت: ما يهمك يا أمير المؤمنين؟ فقال: أخاف أن أقع فى منكر، فلا ينهانى أحد منكم تعظيمًا لى، فقال حذيفة: والله لو رأيناك خرجت عن الحق لنهيناك، فإن لم تنته ضربناك بالسيف، قال: ففرح عمر وقال: الحمد لله الذى جعل أصحابًا يقومونى إذا اعوججت، وقد أوحى الله تعالى إلى يوشع بن نون عليه الصلاة والسلام: إنى مهلك من قومك أربعين ألفًا من خيارها، وستين ألفًا من شرارهم، فقال: يا رب هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ فقال: لأنهم لم يغضبوا لغضبى، وواكلوهم وشاربوهم.

وكان أبو أمامة -رضي الله عنه- يقول: يحشر ناس من هذه الأمة على صورة القردة والخنازير بملاصقتهم لأهل المعاصى، وتركهم نهيهم، وهم يقدرون عليه.

قلت: إذا كان هذا حال من يخالط أهل المعاصى ولا يفعلها، فكيف حال من لا يكاد تسلم له جارحة، نسأل الله اللطف. وقد كان سفيان الثورى -رحمه الله تعالى- يخرج إلى السوق، فيأمر المعروف. وينهى عن المنكر،

ثم ترك ذلك. فقيل له: لم تركت؟ فقال: كان قد انفتح في الدين قناة فطلبنا أن نسدها، وأما الآن فقد انفتح البحر، فمن يقدر يسده؟ وقد قيل لفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ ألا تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟ فقال: أخاف أن أفعل ذلك فيصيبني أذى، فلا أقدر على تحمله، فيقع مني السخط والندم على أمري بالمعروف. وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لأصحابه: لا تقتدوا بي تهلكوا، فإني رجل مداهن مخلط مقصر. وكان عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول: إن من أكبر الذنوب عند الله تعالى أن يقول الشخص لآخر: اتق الله، فيقول له: عليك بنفسك، وكان سفيان بن عيينة ـ رحمه الله ـ يقول: لا يلزم أحداً الأمر بالمعروف إلا فيما اجتمعت عليه الأمة أما ما اختلفوا فيه فلا يلزم أحدًا. وكان حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ يقول: سيأتي على الناس زمان تكون مجالسة الناس كجيفة حمار، وتكون جيفة الحمار أحب إليهم من مجالسة المؤمن الذي يأمرهم وينهاهم. وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ يقول: ما بقي أحد في سائر هذا الزمان يستحي منه. فقيل له: ولم ذلك؟ فقال: إنما يستحى ممن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وأما من ليس كذلك لا هيبة له لعدم خوفه من الله تعالى. وكان أمير المؤمنين عمربن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول لأصحابه: من أهدى إلي عيوبي سألت له رحمة الله تعالى.

وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: بلغنا أنه كان في بني إسرائيل حبر يعظ الناس، ويجتمعون عليه يسمعون وعظه رجالاً ونساءً في بيته، وكان له ولد شاب فغمز ابنه يومًا امرأة جميلة من النساء، ورآه أبوه فقال له: مهلاً يا بني، قال: فسقط من سريره سرعة مكبًا على وجهه حتى انقطع بعض أعضائه، وأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان أن أخبر فلانًا يعني هذا الحبر أني لا أخرج من صلبه صديقًا أبدًا، أما كان من غضبه لي إلا أن يقول لابنه: مهلاً يابني. وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا رأيتم الرجل محبوبًا عند جيرانه محمودًا عندهم، فاعلموا أنه مداهن. وقد كان عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول: إذا مات الرجل ولم يذمه أحد من جيرانه فاعلموا أنه مداهن. اهـ.

قلت: وحقيقة المداهن هومن يرضى الناس بما ينقص دينه، كما أن المداراة هى إرضاء الناس بما ينقص دنياه فالأولى حرام، والثانية مستحبة. وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: بلغنا أن الله تعالى أوحى إلى الملائكة عليهم الصلاة والسلام أن صبوا العذاب على قرية كذا وكذا صبًا، فصاحت الملائكة وقالوا: يا رب إن فيهم عبدك فلانًا العابد فقال تعالى: أسمعونى ضجيجه من العذاب فإن وجهه لم يتمعر قط إذا رأى محارمى. وكان لقمان عليه السلام يقول: كذب من قال: إن الشر يطفأ بالشر، فإن كان صادقًا، فليوقد نارًا عند نار هل يطفئ إحداهما الأخرى، بل لا يطفأ الشر إلا الخير كما يطفئ الماء النار.

وقد دخل أبو إسحاق الفزارى على هارون الرشيد ـ رحمه الله تعالى ـ فبلغ ذلك يوسف بن أسباط ـ رحمه الله تعالى ـ فلامه وقال: كيف تدخل على هذا الرجل وعنده الفرش الحرير؟ فقال أبو إسحاق: ما بلغك إلا الحرير يا يوسف؟ فأين الدماء والفروج والأموال، ولكنا إذا دخلنا عليه للضرورة. وقد كان يقال: إن العالم إذا دخل على ظالم. ولم يسأل عن شيء فهو فى سعة، وإنى لم أسأل عن شيء، وأنا جالس عنده، فلو قيل لى هذا الفرش حرام؟ لقلت: نعم هو حرام. قلت: فى هذا الجواب نظر، والله أعلم. وقد قيل لسفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ أيأمرالرجل من يعلم أنه لا يقبل منه؟ قال: نعم ليكون ذلك معذرة له عند الله تعالى. وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله ـ يقول: ذهب المعروف يبكى، وجاء المنكر يضحك، ثم ينشد:

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم　　والمنكرون لكل أمر منكر

وبقيت فى خلف يزكى بعضهم　　بعضًا ليدفع معور عن معور

فاعرض يا أخى هذه الصفات على نفسك لتعرف هل أنت ممن تنكر المنكر أو لا؟ وهل أنت ممن يحبك الله تعالى أو لا؟ وهل نصرت شريعة نبيك محمد -ﷺ- أو خذلتها؟ فإنك تزعم أنك من الدعاة إلى الله تعالى بحكم النيابة عن رسول الله -ﷺ- لكونه قد آمن علماء أمته على شريعته من بعده -ﷺ-، ولعل غالب الناس اليوم قد خذل الشريعة المطهرة بأقواله

وأفعاله وسكوته عن المنكر، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم: عدم العجب والإدلال بشيء من أعمالهم بل يرون أنهم استحقوا التعذيب بالنار بصالح أعمالهم عندهم فضلاً عن سيئها لما يشهدونه بها من سوء الأدب مع الله تعالى. وقد ورد أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يقول: كم من سراج قد أطفأته الريح، وكم من عبادة قد أفسدها العجب. وكان وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ساعة يزري العبد فيها نفسه خير له من عبادة سبعين سنة. وكان أبو عبد الله الأنطاكي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أضر الطاعات على العبد ما أنسته مساويه، وذكرته حسناته، فيزداد بها إدلالاً واغتراراً بين الناس، فيذهب إلى الآخرة صفر اليدين من الخير والثواب، وهو يحسب أنه من الصالحين.

وكان الشعبي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: بلغنا أن رجلاً ممن سبق كان إذا مشى يظله السحاب لفضله، فرآه رجلا آخر، فقال: والله لأمشين في ظله لعل أن تنالني بركته. قال: فأعجب الرجل الأول بنفسه حين رأى الناس يمشون في ظله، فلما افترقا ذهب الظل مع ذلك الرجل التابع. وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: من علامة صدق توبتك أن تعترف لله بذنبك، وإن من إخلاص عملك أن ترفض عجبك، وإن من صدقك شكر أن تعرف تقصيرك. وقد كان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ إذا خطب على المنبر، فخاف العجب قطع الكلام، وعدل إلى غيره مما لا عجب فيه، وإذا كتب كتابًا، فخاف العجب فيه مزقه وقال: اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي. وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا رأى حلقة درسه قد كبرت قام عجلاً مرعوبًا وقال: أخذنا والله ولم نشعر قال: فتبعه الناس يومًا، وقالوا له: مثلك لايخاف من مثل ذلك؟ فقال: بلى أنا أخاف الناس من ذلك لما أعرفه من دناءه أخلاقي، ووالله لو رآني عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ جالسًا في مثل هذا المجلس لضربني بالدرة، وأقامني وقال

لي: لاتصلح لمثل ذلك. وكان مطرف بن عبد الله يقول: لأن أبيت نائمًا، وأصبح نادمًا أحب إلي من أن أبيت قائمًا، وأصحب معجبًا أرى نفسي على النائمين. وقد كان السلف يعيبون على العباد كثرة صيامهم، وقيامهم خوفًا من العجب، وكانوا يقولون لهم: تعلموا العلم، ثم اعملوا، فإن لكل عمل أدبًا شرعيًا. وكان الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لو أن عمل ابن آدم كله كان حسنًا لكان يهلك نفسه من العجب، ولكن الله تعالى ابتلاه بشهود النقص فيه رحمة به. وقد قال رجل مرة لإبراهيم التيمي ـ رحمه الله تعالى ـ ما تقول يا فقيه في كذا؟ فقال إبراهيم: إن زمانًا صرت أنا فيه فقيهًا لزمان سوء. وكان حُذيفة المرعشي ـ رحمه الله ـ يقول: إن لم تخف أن يعذبك الله تعالى على أفضل أعمالك عندك، فأنت هالك.

وقد كانت رابعة العدوية ـ رحمها الله تعالى ـ تقول: أكثر ما أكون راجية للخير حين تقل أعمالي الصالحة أي لكونها كانت معتمدة على فضل الله تعالى، وامتنانه لا على الأعمال. وكان حسان بن سنان ـ رحمه الله تعالى ـ يطلب من أعوان الولاة أن يدعوا له، فقيل له في ذلك فقال: لعل في أحدهم خصلة يحبها الله تعالى، ولعل فيّ خصلة يبغضها الله تعالى، ولعلي أرى نفسي خيرًا منه، فيكون خيرًا مني، ولما مرض عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ أشاروا عليه بالدفن في المكان الرابع عند قبر رسول الله ـ ﷺ ـ قال: فارتعد من كلامهم، وقال: والله لأن يعذبني الله تعالى بالنار أحب إلي من أن يعلم الله تعالى من قلبي أنني أرى نفسي أهلاً لذلك.

وقد سُئل ابن السماك ـ رحمه الله تعالى ـ عن حقيقة العجب فقال: أن تتطاول على الناس بعملك، فتحقر كل من رأيته مقصرًا في العمل. وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يكثر العبادة، فقيل له يومًا: إنا نراك تكثر من العبادة، فقال: لا يستكثر عبادته في عينه إلا جاهل بالله تعالى، فإن الملائكة عليهم الصلاة والسلام لا تفتر عن العبادة طرفة عين، ولو أنها استكثرت أعمالها لم يجعلها الله تعالى في حضرته السماوية، وإنهم مع ذلك يقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك. وقد سمعت سيدي عليًا

الخـواص ـ رحمـه الله تعـالى ـ يقـول: إن لم تخف أن يهلكك الله تعـالى بالنقص الذى فى أعمالك الصالحة فضـلاً عن معاصيك. فأنت هالك. وكان يزيد بن هارون ـ رحـمه الله تـعالى ـ يقـول: نظرت فى قـيام الليل، فـإذا الحارس يحرس الليلة كلهـا بدانقين، أفيطلب أحدكم الجنة بسـهر ليلة واحدة بعبادة لعلها لا تساوى دانقين، وربما مـن بها على ربه. وقد كان الفضيل بن عيـاض ـ رحمه الله تعـالى ـ يقول: السـلامة من الرياء والنفـاق من العلماء والقـراء أعز من الكبـريت الأحمـر لأن أحدهم لا يقـدر على سمـاع قول الناس: ما أعلم فـلانًا أو ما أحسن صوته بالقرآن إلا ويحـصل عنده العجب بذلك، وإن قـالوا: ليس هو بعالـم، ولا حسن الصـوت شق عليه، وكـاد يموت غـمًا وذلك من أكبر عـلامات الرياء، ثم يشرع فى تحسـين حاله رياء وسمعة. وكـان السرى السقطى ـ رحمه الله ـ يقـول: كل من ظن بنفسه أنه محسن، فهوممن زين له سوء عمله، ومن لم يظن أنه هالك فهو هالك. وقد قال رجل لعبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول إذا رأيت العبد لجوجًا مماريًا العمل معجبًا بنفسه، فاعلم أنه قد استكمل الخسارة. وكان أبو سليمان الدارانى ـ رحمه الله تعـالى ـ يقولك من أعجب بعمله، فـهو قدرى لأنه لو رأى العـــمل خلقًـــا لله تعـــالى لم يعـــجب به. قلت: وذلك فـى العلم الحسن، وأما العلم السيئ فلا يجـوز له تعزية نفسه عنه، بل الواجب عليه أن يتوب منه، ويندم ويستغفر منه، والله أعلم.

وقد كان لعطاء السلمى ـ رحمه الله تعالى ـ مخنثون يخدمونه فى بيته، ويوضئونه فقيل له: ألا تستقذر هؤلاء أن يكونوا فى بيتك؟ فقال: والله إنهم عندى أطهر من نفسى، وأقل ذنوبًا، وأقل للرياء، ونفاقًـا فيكف أستقذرهم؟ وقد كان أبان بن عياش ـ رحـمه الله تعالى ـ يقول: لا يكره العمل بالرخص إلا معجب بنفسه، أو صاحب هوى أى لأن الـرخص لا يحمد أحد فاعلها، فـلا يحـصل عنده عجـب. وقد كـان أبو بكر الصـديق ـ رضي الله عنه ـ يخـاف من العجب كل الخوف، وكانوا إذا أثنوا عليه خيراً يقول: اللهم اجعلنى خيراً مم يقولون، واغـفر لى ما لا يعلـمون. وكان عـمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إذا أثنوا عليه خيراً يقول: اللهم إنى أعوذ بك من شـر ما يقولون، وأسألك أن تغفر لى ما لا يعلمـون. وقد قـال رجل لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: يا أم المؤمنيـن متى يعلم

الرجل أنه من المحسنين؟ فقالت: إذا علم أنه من المسيئين، فقال الرجل: ومتى يعلم أنه من المسيئين؟ قالت: إذا رأى نفسه من المحسنين. قال: وحضر بكر بن عبد الله المزنى ومطرف بن عبد الله ـ رحمهما الله تعالى ـ الموقف بعرفة، فكان من دعاء مطرف أن قال: اللهم لا تردهم فى هذا اليوم من أجلى خائبين. وكان من دعاء بكر قوله: ما أشرف هذه البقعة، وما أرجاها للدعاء لو لم أكن فى الناس.

وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: رب هالك بالثناء عليه، ورب مستدرج بالإحسان إليه. وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ربما بلغ العجب بالفقير إلى أن يصير يقول: لو عرضت علىّ حور الجنان ما التفت إليهن دون الله تعالى، وهو ربما لو رأى جارية من جوارى الدنيا لصالح قلبه بالميل إليها حتى بلغ العرش، ووالله لذنب تفتقر به إلى عفو الله تعالى خير لك من طاعة تفتخر بها على العباد. وكان محمد بن واسع ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لعباد زمانه: أف لكم دخل العجب فى أعمالكم مع قلتها، وقد كان من قبلكم لا يعجبون بأعمالهم مع كثرتها، والله ما أنتم إلا كالملاعبين بالنظر لعبادة من كان قبلكم.

فاعلم يا أخى ذلك، وفتش نفسك كل التفتيش، فربما تعجب بترك العجب، وتكون أسوأ حالاً ممن عجب يعنى بالأعمال فافهم، وإياك يا أخى أن ترى نفسك على أحد من المسلمين والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضى الله تعالى عنهم-: تقديمهم إنفاق الدراهم والدنانير فى إطعام الجائع وكسوة العريان، ووفاء الديون التى على الناس، وهم لا يقدرون على وفائها على عمارة الزوايا والدور ونحوه لا سيما فى هذا الزمان الذى لا يوجد فيه القوت إلا بمعاينة أسباب الموت إن كان الفقير محترفًا، أو بذهاب دينه إن كان متعبداً لا حرفة له. وقد رأيت مرة شيخًا من مشايخ العصر يبنى له فى ضريح بقبة وتابوت، فجاءه رجل أعمى معيل، فطلب منه نصفًا يأخذ لعياله به خبزًا فلم يعطه فقلت له: أعط له نصفًا، فهو أفضل من عمارة هذه القبة، فأبى أن يعطيه، فسقط من عينى من ذلك اليوم، وقد كان عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ يعول أربعين داراً من

كل جانب، وكان الدجاج المشوى يُحمل إلى سماطه، وسألوه في شيء يعاونهم في عمارة مسجد فأبى وقال: لقمة في بطن جائع أرجح في ميزاني من عمارة المسجد لو عمرته وحدي.

وقد كان النبي -ﷺ- يقول: **«إذا أراد الله بعبد شراً أهلك ماله في الماء والطين»**[١] وفي الحديث أيضًا: **«كل درهم ينفقه العبد، فإن الله يخلفه إلا ما كان في بنيان أو معصية»**. وقد كان أنس بن مالك -رضي الله عنه- يقول: رأيت درجة في سلم غرفة رسول الله -ﷺ- تتحرك فأردت أن أبنيها بقطعة طين. فنهاني -ﷺ- وقال: **«ما لي وللدنيا»**[٢]. وفي رواية: **«إني بعثت بخراب الدنيا ولم أبعث بعمارتها»**.

وقد بنى أبو الدرداء -رضي الله عنه- كنيفًا، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، وكان في خلافته -رضي الله عنه- فكتب إليه يقول: من عمر إلى عويمر سلام عليك أما بعد ثكلتك أمك أما كان لك حاجة إلا أن تجدد عمارة الدنيا بعد رسول الله -ﷺ- حكمت عليك أن لا تضع كتابي من يدك حتى تهدمه قال: فهدمه لوقته. وقد كان وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من استغنى بأموال الفقراء أفقرته، ومن سخر الفقراء في بناء أعقبه ذلك الخراب، ومعنى استغنى بأموال الفقراء أخذها على اسمهم، واختص بها. وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما وقع لي أني أنفقت درهمًا في بناء قط، قال: ومالت حائط في دار مطرف بن عبد الله، فقالوا له: ألا تصلحها يومًا فقال: إن رب المنزل لا يدعنا نقيم فيه حتى نعمره. وقد كان خص نوح -ﷺ- من خواص النخل فقيل له: لو بنيت لك بيتًا، فقال: هذا كثير على من يموت.

وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما زخرف قوم البناء إلا أوشك أن يرجموا من السماء. وكان ثابت البناني ـ رحمه الله تعالى

---

(١) ضعيف: انظر الضعيفة (ح ٢٢٩٣، ٢٢٩٤).

(٢) جزء من حديث أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٠١)، وابن حبان (ح ٦٣٥٢) من حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-. وله شاهد عند مسلم (ح ١٤٧٩) من حديث عمر أيضًا.

ـ يقول: قد أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن عمر أمتك ثلاثمائة عام قال: فأخبرهم نبيهم بذلك فقالوا: إن عمرنا لقصير، ثم خرجوا من دورهم، وضربوا الأخبية في البرية، وأقبلوا على عبادة ربهم عز وجل، فلم يتناسلوا، ولم يتوالدوا حتى ماتوا عن آخرهم. وقد دخل حامد اللفاف ـ رحمه الله تعالى ـ على امرأته يومًا فوجدها تطين كانونًا لها وتزلفه، فقال لها: ما هذا؟ فاعتذرت إليه وقالت: إن ذلك أبقى للكانون حتى لا يقع القدر من فوقه، فيذهب الطعام على الأرض، فقال: إن الله مطلع على باطنك.

وقد كان إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كان لأبي دار واسعة ورثها من أبيه، وكان يسكن في البيت منها، فإذا خرب تحول إلى غيره حتى مات في آخر بيت منها، ولم يعمر منها شيئًا. وكان عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول: سيأتي على الناس زمان يرفعون الطين، ويضيعون الدين، ويسمنون البراذين، ويصلون إلى قبلتكم، ويموتون على غير ملتكم.

وكان أبو سلمة بن عبد الرحمن ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كل شيء دخله زهو ومباهاة من مركب وملبس ومطعم ومسكن، فهو سرف ومعصية. وكان أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ يقول: إذا منع الرجل الحق من ماله أهلكه الله في الماء والطين. وقد كان أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ لا يصلي في مسجد مزخرف، وقد مرّ يومًا على مسجد بني تميم، وكانوا قد زخرفوه، وقد حضرته الصلاة، فقالوا: يا أمير المؤمنين ألا تصلي في مسجد بني تميم؟ فقال: لا تقولوا في مجسد بني تميم، ثم جاوزه وصلى في مسجد بني ليث، وقال: نهينا أن نصلي في مسجد أسس على غير تقوى. وقد مر عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ على مسجد منقوش فقال: لعن الله تعالى كل من بنى هذا، فإنه أنفق ماله في معصية الله تعالى، وإن له بكل درهم أنفقه فيه كية من نار. وقد بلغ عمر بن عبد العزيز أن أساطين في مجسد دمشق قد حمروها، وخلقت بالزعفران، فكتب إلى عامله إن المساكين أحوج إلى تلك الدراهم من الأساطين. وقد كان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من بنى بناء ونقشه بالأحمر والأصفر، فهو آثم هو، ومن أعانه. وكان الحسن

البصرى - رحـمه الله تعالى - يقول: كنت أدخل حـجر أزواج النبى -ﷺ- فأتناول سقفها بيدى.

وقد جاء رجل إلى الحسن البصرى - رحـمه الله تعالى - فقال له: إنى عمرت داراً، وقصدى أن تدخلها، وتدعو لى فيها بالبركة، فقال له الحسن: لقـد غرك أهل الأرض، ومـقتـك أهل السمـاء بنيت شـديداً وأملت بعيـداً وستموت قريبًا. وقد سُئل محمد بن سلام البيكندى - رحمه الله - عن السنة فى طول البناء فى المساجد والمنازل؟ فقال: قدر قامة الرجل. وكان أحمد بن حرب - رحمه الله تعالى - يقول: من نظر إلى بستان أو بنيان بشهوة من غير عبرة سلبه الله تعالى حلاوة العبادة أربعين يومًا.

وقد كان المعتمر بن سليمـان - رحمه الله تعالى - يقول: سقط بيت لنا فلم يبنه أبى لنا، وقال: الأمر أعجل من ذلك، ثم ضـرب لنا خيمة وأدخلنا فيه، فنحن فيها ثلاثين سنة.

فتأمل يا أخى هذه الأخلاق، واستغفـر ربك إن وجدت نفسك مخالفًا لهـا، فإنه لا شـرف للعـبد إلا باتبـاع سلفـه الطاهر فى الأفـعال والأقـوال والأخلاق. وقـد رأيت من عمر له مسـجداً فعـادى غالب الناس لكونهم لم يساعدوه، وصار مقراضًا فى أعراضـهم، نسأل الله العافية، فمثل هذا عاص لله سبحـانه وتعالى، ولعل ثوابه الحاصل ببناء زاويتـه لا يرضى به واحد من الذين اغتابهم فى غيـبة واحدة اغتباها فيـه، وإذا كان من له مال لا ينبغى له أن ينفـقه فى الماء والطين إلا لضـرورة شرعـية، فكيف بمن يسـأل الناس أن يسـاعدوه ويـعاونوه فى البنـاء، فاعلم ذلك يا أخـى، واحذره كل الحـذر، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخـلاقـهم -رضى الله تعـالى عنهم-: كـثرة مـجـاهدة نفوسهم فى العبادات، وترك الشهـوات، وعدم رضاهم بعد ذلك عنها إلى أن يموتوا، وهذا مـجمع عليـه عند القوم، فمن خـالفهم فى ذلك فـقد خرق إجماعهم، وذلك حرام لأنه من قـاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وقد قالوا: من ظن أنه بغير بذل الجهد فى الطاعات يبلغ شيئًا من

الدرجات، فقد رام المحال. وقيل أيضًا: لا تخرق لعبد العادات إلا إن زاد على الناس في العبادات، وذلك لأن الكرامات فرع المعجزات فكما تميز النبي -ﷺ- بكثرة الطاعات والمعجزات، فكذلك الولي لا يقع له كرامة إلا إن جاوز أقرانه في الجهد والطاعات، وفي الحديث: «**المجاهد من جاهد نفسه في الله عز وجل**»[(١)]. وقد كان أمير المؤمنين علي -رضي الله عنه- يقول: أول ما تنكرون من الجهاد جهاد نفوسكم. وكان أبو مالك الأشعري -رضي الله عنه- يقول: ليس عدوك الذي إن قتلته آجرك الله عليه، ولكن عدوك الذي بين جنبيك -يعني النفس-، وامرأتك التي تضاجعك، وولدك الذي من صلبك فهؤلاء أعدى عدو لك.

وكان خضر القارئ - رحمه الله تعالى - يقول: نحت الجبال بالأظافر حتى تتقطع الأوصال أهون من مخالفة الهوى إذا تمكن في النفس. وكان بشر الحافي - رحمه الله تعالى - يقول: ستون من مردة الشياطين لا يفسدون ما يفسده قرين السوء في لحظة. وستون من قرناء السوء لا يفسدون ما تفسده النفس في لحظة، وإذا جعلت الأمور كلها على وفق المراد للعبد أتاه الخلل فيها من قبل نفسه، وقد أجمع سائر الملل على أن رضا الرب جل وعلا من مكروه النفس. وكان يحيى بن معاذ - رحمه الله - يقول: الدنيا كلها محشوة بالعجائب، وأعجب العجائب نجاة نفوسنا ونفوس أمثالنا من النار، وكيف ينجو من النار من كل أعماله تجره إليها. وكان إبراهيم بن أدهم - رحمه الله تعالى - يقول: أصاب شخص من الزهاد سهم فذبحه. فقال: الحمد لله الذي أخذ لي بثأري من نفسي. فكم ذبحتني من ذبح. وكان يحيى بن معاذ - رحمه الله تعالى - يقول: أنا أعلم شقاوتي من الآن، فقيل له مرة: وكيف ذلك؟ قال: لأنهم قالوا: من علامة سعادة المرء أن يكون عدوه عاقلاً، وأنا أرى خصمي لا عقل له، فقالوا: ومن هو خصمك؟ قال: نفسي فقيل له:

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (ح ١٦٢١) في فضائل الجهاد، باب: ما جاء في فضل من مات مرابطًا، وأبي داود (ح ٢٥٠٠) في الجهاد، باب: في فضل الرباط، وأحمد في مسنده (٦/ ٢٠) من حديث فضالة بن عبيد-رضي الله عنه-. وصححه الألباني في صحيح الجامع (ح٦٦٧٩).

أنت بحمــد الله ذو عقل، فقال: كـيف عقلي وأنا أبيع الجنة بشهـوة نومة أو لقمة أو كلمة.

وكان بشر الحـافي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الهـوى كمين في النفس لا يؤمن اتباعه قال تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ [الجاثية:٢٣]، وكان يحيى بن مـعاذ ـ رحمه الله تعـالى ـ يقول: نحن اليوم لا نرى أحـداً يعمل على وفق السنة، وإنما كل يعـمل على موافـقة الهـوى ما بين عـالم وجاهل وعابد وزاهد، وشيخ وشاب كل يعمل ليحمدعلى ذاك إما عند الله، وإما عند الناس، وكـذلك يترك المعـاصي خوفًـا من ازدراء الناس له لا خوفًـا من الله تعـالى، ومن ذا الذى لا يغضب منا ممن ذكـره بسـوء بين الناس، اصطلحنا والله على المداهنة، وتحابينا بالألسن، وتباغـضنا بالقلوب، وطلبنا العلم لغير العـمل بل للتـزين والمباهاة والرياسـة على الناس لنحـن أول من تسعـر بهم النار. وقد بلغنا أن الله تعالى أوحى إلى داود عليـه الصلاة والسلام: يا دواد إن أردت محبتي لك، فـعاد نفسك، وودني بعداوتها. وكان عـبد العزيز بن أبي روّاد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا ذكـرت أحوال السلف بيننا افتضحنا كلنا. وكـان مـالك بن دينار ـ رحـمــه الله ـ يقـول: والله لو أنكم تجـدون للعاصي ريحًـا لما استطاع أحد منكم أن يجلس إليّ من خـبث ريحي. وكان عطاء السلمي ـ رحمه الله تعالى ـ إذا أصاب أهل بلد ريح أو غلاء أو فناء أو بلاء يقول: كل هذا من أجل ذنوب عطاء لو مات عطاء لاستراح الناس منه.

وكان سفيان بن عيينة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ينبغي للعبد أن يكون عند الله من أجلّ الناس، وعند نفـسه من أشـرهم، وكان يحـيى بن مـعاذ ـ رحمه الله تعـالى ـ يقول: كل من ادعى درجة سقط منـها، وإذا كان الرجل في أعلى درجة، فمن حقه أن يحقر نفسه. وكان أبو معاوية الأسود ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كل من فـضلني على نفسه من أصحابي فهـو خير مني. وكان أبو سليـمان الداراني ـ رحـمــه الله تعالى ـ إذا جلس إليـه أحد، وثقل على قلبه يوبخ نفـسه ويقول لها: إنك لاتحـبين الصالحين، ولما رأيـت خيراً منك كرهتـه، وثقل عليك مجالسـتـه. وكان الفـضيل بن عياض ـ رحـمه الله تعالى ـ كثـيراً ما يقول: من أحب أن ينظر إلى مـراء، فلينظر إليّ ثم يمسك

لحيته بيده ويبكى، ويقول: كنت يا فضيل فى شبابك فاسقًا، ثم صرت فى كهولتك مرائيًا، والله للفسق أهون من الرياء. وقد قال شخص مرة لمالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يا مرائى، فقال له مالك: لقد عرفت يا أخى لقبى الذى أضله أهل البصرة. وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كل من زعم أنه يحب الله وهو يحب نفسه، فقد كذب. وقد كان الفضيل ابن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا يكمل العابد حتى يصير يرى إخلاصه رياء، والله لو قيل لى: إن الخليفة داخل عليك الساعة، فسويت لحيتى بيدى لقدومه لخفت أن أكتب فى جريدة المنافقين.

وأما ترك القوم ـ رضي الله عنهم ـ للشهوات فدليلهم فى ذلك الأخبار من الكتاب والسنة. وقد كان وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: تصدى الشيطان لعنه الله لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام، فقال له: ما أنت صانع بأمة محمد ـ ﷺ ـ إن أنت أدركتهم؟ فقال: أزين لهم الدنيا حتى يكون الدينار والدرهم أشهى إلى أحدهم من شهادة أن لا إله إلا الله. وكان وهيب بن الورد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من غلب شهوته، فهو خير من الملائكة لأنهم عليهم الصلاة والسلام عقول بلا شهوة، ومن غلبته شهوته فهو شر من البهائم لأنهم شهوة بلا عقول. وكان الأحنف بن قيس ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من أكل الشهوات، وطلب حفظ فرجه فقد رام المحال. وقد كان أبو حازم ـ رحمه الله تعالى ـ يمر على الجزار فيقول له الجزار: خذ لك لحمًا، وأنا أصبر عليك، فيقول له: أنا أولى منك بالصبر على نفسى. وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: محاربة الزاهدين تكون مع الشهوات، ومحاربة التوابين تكون مع السيئات، ومن أراد حماية نفسه من دخول النار، فليترك سائر ما تشتهيه نفسه فى الدنيا، وقد قال عتبة الغلام يومًا لعبد الواحد بن زيد ـ رحمهما الله تعالى ـ إن فلانًا يصف نفسه بأخلاق لا تذوقها وهو صادق عندنا، فما سبب عدم فهمنا بحاله؟ قال: لأنه يأكل خبزه بلا إدام، وأنتم تأكلوه بالإدام، وكل ما زاد على الخبز فهو شهوة. وكان أبو العباس الموصلى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من زعم أن أكل الشهوات لا يضره، فقد أعظم

الفرية على الله تعالى. وكان الداراني ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من المحال أن يجد أحد لذة الطاعات وهو يتناول الشهوات. وقد كان طاوس ـ رحمه الله ـ يصف للمريض قلة الأكل، ويقول: لم يجعل الله تعالى لصحيح ولا لمريض دواء أعظم من ترك الأكل، وما أتى المرض لمريض إلا من جهة الأكل، لذلك كانت الملائكة لا تمرض لعدم أكلهم عليهم الصلاة والسلام. وكان أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من نظر إلى قصر أو بستان أو غير ذلك فاستحسنه إلا نقص من عقله بقدر ما استحسن.

وكان وهيب بن الورد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من تناول الشهوات، فليتهيأ للذل في الدنيا والآخرة. وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: شهوات النفس نيرانها، وحطبها لذتها، والجوع ماؤها التي تطفأ به. وقد كان يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام من أطيب الناس طعامًا كان يأكل الجراد، وقلوب النخل، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يجوع نفسه ويميتها ويقول لها: الأكل أمامك. وكان بشر بن السرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لأن أترك ذرة من غداى أو عشاى أحب إلى من عبادة العابدين، وصلاة المصلين وحج الحاجين، وصوم الصائمين، وجهاد المجاهدين.

وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: مذهب جميع الصالحين الجوع، فمن فرّ منه فهو من الفاسقين، ولقد أدركنا العلماء وهم ربيع، فصاروا الآن مزابل للدنيا، وإذا رأيتم الزاهد يرخص بأكل الشهوات: فاعلموا أنه قد رجع عن الزهد لأن التبسط في الدنيا معدود من فسق العارفين، ووالله ما بقى أحد من زهاد هذا الزمان تقرّ العين برؤيته ولقد أدكنا أقوامًا كانوا يحرصون على ترك الدنيا أكثر مما يحرص هؤلاء على تحصيلها. واعلموا أن من كان شبعه بالطعام لم يزل جائعًا، ومن كان استناده إلى الخلق دون الله تعالى لم يزل مخذولاً، وقد كان يزيد الرقاشى ـ رحمه الله تعالى ـ لا يشرب الماء البارد أبدًا ويقول: أخاف أن أحرم شربه غدًا إن شربته اليوم يعنى فى الآخرة. وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ

يقول: النـاس يقولون: إن من ترك اللحم أربعـين يومًا قلّ عقـله، وإنى قد تركتـه سنين، وما نقص من عـقلى شىء، ولله الحمـد. وكان ـ رحـمه الله تعالـى ـ لا يأكل من رطب البصـرة شيئًـا، وإذا مضى زمنه يقـول: يا أهل البصـرة هذا بطنى ما نقص ترك أكل الرطب منه شيـئًا، ولا زاد فى بطونكم شيئًـا. وكان يحيى بن معاذ ـ رحـمه الله تعالى ـ يقول: صـاحب الشهوات معذب فى الدنيا والآخرة، فى الدنيا فى تحـصيلها، وفى الآخرة فى الحساب عليهـا. واعلموا أن من كثر أكله كـثر لحم بطنه، ومن كثر لحم بطنـه كثرت شهواته، ومن كثرت شهواته كثـرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه قسا قلبه، ومن قسا قـلبه غرق فى الذنوب والآفات، ومن غـرق فى الذنوب والآفات دخل النار. وقد اشتـهى مالك بن دينار ـ رحمه الله ـ فى مرض مـوته خبزاً أبيض ولبنًا، فلما أتوه به نظر إليـه وقال: دافعت نفسى عن الشهـوات طول عمرى أفأوافقها فى آخره، ثم قـال: اذهبوا به إلى يتيم بنى فلان. ولم يأكله. وقد مكث معـروف الكرخى ـ رحمه الله تعـالى ـ ثلاثين سنة يشتـهى أن يغمس جزرة فى دبس، ثم مـات ـ رحمه الله تعالى ـ ولم يفـعل ذلك. قال: وقدم بين يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إناء فيه لبن وعسل، فردّه ولم يأكل منه، وقال: تذهب لذته وتبقى تبعته.

وقد رأى ابنه عـبد الله ـ رضي الله عنه ـ يومًـا يأكل خبـزًا وسمنًا فـعلاه بالدرة، وقـال له: كل خبـزًا وملحًـا، واترك السمن لغـيـرك. اهـ. فتـأمل يا أخى نفسك، وابك على حالك، فـإن سداك ولحمتك شهوات، فـأنت محجوب عن ربك فى عموم الأوقات ، لا تلتذ بشىء من العبادات، ولا تراقب ربك فى الخلوات، فكيف تدعى أنك من الصالحين، وأنت قد خالفتهم فى جميع أحوالهم، فإن لم توافقـهم فى الأمور الباطنة، وإلا أخى فانزع زيهم الظاهر من عمامة صوف وجبة وعذبة. وقد رأيت مرة شخصًا بهذه الصفة فى وليمة يمد يده يمينًا وشمالاً، فيلتقط اللحم، وأطايب الطعام من بين إخوانه، وربما يدعى إلى أكلة واحدة إلى المطرية خارج مصر أو بلبيس، فيسافر إليها، وربما يدعى أنه يفعل ذلـك جبرًا لخاطر مـن يدعوه لا لأجل شهـوة بطنه، والناقد بصير، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله تعالى عنهم-: شدة اجتهادهم فى العبادة ليلاً ونهاراً، رجالاً ونساءً ودوام مواظبتهم على قيام الليل لا سيما فى ليالى الشتاء، وعدم رؤيتهم نفوسهم بذلك على أحد من النائمين، أو أنهم قاموا بذرة واحدة من واجب حقوق الله تعالى عليهم، بل يرون جميع عباداتهم من النعم التى لا يطيقون لها شكراً كما سيأتى بسطه فى أماكن من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. وقد كان رسول الله -ﷺ- يقول: «**رحم الله أقوامًا يحسبهم الناس مرضى وما هم بمرضى**» قال الحسن: يعنى أجهدتهم العبادة، وكانوا يعملون أعمال البر، ويخافون عليها الردّ، وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى يقول: لقد أدركت أقوامًا وصحبت طوائف فما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يحزنون على شيء أدبر، وكانت فى أعينهم أهون من التراب الذى يطئون عليها، كان أحدهم يعيش طول عمره لا يطوى له ثوب، ولا يأمر أحداً من أهله بصنعة طعام، ولا يجعلون بينهم وبين الأرض شيئًا إذا ناموا، وكانوا عاملين بكتاب الله تعالى وسنة نبيه -ﷺ-، وكانوا إذا جنهم الليل قاموا على أقدامهم، وافترشوا وجوههم، وجرت دموعهم على خدودهم حتى كان يظن الداخل لهم أن هذا من ماء الوضوء. وقد دخل جماعة على عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ فى مرضه يعودونه فرأوه ناحل الجسم جداً، فقالوا له: ما الذى بلغ بك إلى ما نرى؟ فقال: هموم وأحزان تولدت من خوف الحساب، وسوء المنقلب. ولما مات منصور بن المعتمر ـ رحمه الله تعالى ـ قال رجل لأمه: ما فعل منصور؟ فقالت: إن منصوراً ـ رحمه الله تعالى ـ صام فلم يفطر إلا عند ربه عز وجل، وقد كانت ابنة جاره تراه دائم القيام بالليل على سطح داره، فكانت تظن أنه عمود لطول قيامه، فلما مات فقدته، فقالت لأهله: ما صنع ذلك العمود الذى كان فوق سطحكم؟ فقالوا لها: قدم على ربه عز وجل، فقالت: كيف؟ قالوا: لم يكن فى سطحنا عمود وإنما ذلك منصور كان يقوم طول الليل، وقد كان الإمام أحمد بن حنبل -رضي الله عنه- دائمًا يذكر ذلك، ويبكى حتى تبتل لحيته. وكان داود الطائى ـ رحمه الله تعالى ـ يواصل العبادة ليلاً ونهاراً حتى لم يبق له وقت يأكل فيه لا يشرب، فكان يأكل السويق والفتيت

دون الخبز ويقول: بين مضغ اللقمة وبلعها قراءة كذا وكذا آية. قال ودخل رجل يومًا يزوره، فرأى في سقف بيته جزعًا مكسورًا، فأخبره بذلك، فقال: والله يا أخي إن لي في هذا البيت عشرين سنة ما رفعت رأسي إلى سقفه حياء من الله تعالى. وقد كان الناس يجلسون إلى أحمد بن رزين ـ رحمه الله تعالى ـ فما يرونه يلتفت يمينًا ولا شمالاً، فقالوا له في ذلك، فقال: إن الله تعالى إنما خلق العينين للاعتبار، فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة. وقد كانت امرأة مسروق ـ رحمهما الله تعالى ـ تقول: والله ما كان مسروق يصبح من ليلة من الليالي إلا وساقاه منتفختان من طول القيام، وكنت أجلس خلفه، فأبكي رحمة له. وكان ـ رحمه الله ـ إذا طال عليه الليل وتعب صلى جالسًا، ولا يترك الصلاة، وكان إذا فرغ من صلاته يزحف كما يزحف البعير من الضعف. وكان أبو الدَّرداء ـ رضي الله عنه ـ يقول: لولا ظمأ الهواجر، وقيام الليل ما أحببت البقاء في هذه الدار.

وقد صام الأسود بن زيد ـ رحمه الله تعالى ـ في الحر حتى اخضر جسده واصفر، وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يصلي حتى يسقط من قيامه. وقد قالوا مرة لعلقمة بن قيس ـ رحمه الله تعالى ـ إلى كم تعذب هذا الجسد؟ فقال: إنما أريد كرامته غدًا، وقد صام العلاء بن زياد ـ رحمه الله تعالى ـ حتى اخضر جسده، وصلى حتى سقط، فدخل عليه الحسن البصري، ومالك بن دينار ـ رحمهما الله ـ فقالا له: إن الله لم يأمرك بكل هذا، فقال: إنما أنا عبد مملوك، والله لو أني سجدت على الجمر عمري كله، بل منذ خلق الله الدنيا إلى قيام الساعة ما أديت شكر عافية ساعة واحدة، ولا شربة ماء. وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يصلي كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجليه، فصار يصلي خمسمائة ركعة قائمًا، ومثلها جالسًا.

وكان علي بن الفضيل ـ رحمه الله تعالى ـ لا يستطيع أن يقرأ سورة القارعة، ولا يسمعها من غيره، قال: فهجم عليه شخص مرة، فقرأ بها في صلاة المغرب فغشي عليه ثلاثة أيام بلياليها لا يفيق. وقد كان الحرث بن سعيد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: مررنا يومًا براهب، فرأينا شدة اجتهاده،

ومايصنع بنفسه، فلمناه على ذلك، فقال: وما هذا الأمر بالنسبة لما نلاقيه يوم القيامة مما نحن عنه غافلون، فقال له بعضنا: نريد نسألك عن أمر، فهل أنت مخبرنا عنه؟ فقال: سلوا ولا تكثروا، فإن الوقت لن يعود، والعمر لن يرجع، والطلب حثيث، فعجبنا من كلامه، ثم قلنا له: ماذا حكم الخلق غدًا عند ربهم فقال: يكونون على قدر نياتهم، فقلنا له: أوصنا، فقال: تزودوا على قدر سفركم، ثم أدخل رأسه فى صومعته وتركنا. وكان عبد الواحد بن زيد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: مررت يومًا براهب من رهبان الصين، فقلت له: ياراهب فلم يجبنى، فقلت له: لم لا تجيبنى؟ فقال: خفت أن أقول نعم فأكذب لأن الراهب هو من رهب من الله فى سمائه، وعظمه فى كبريائه، وصبر على بلائه، ورضى بقضائه، وحمده على نعمائه، وتواضع لعظمته، وذل لعزته، واستسلم لقدرته، وخضع لمهابته، وتفكر فى حسابه وعقابه، وظل نهاره صائمًا، وليله قائمًا قد أسهره ذكر النار. ومساءلة الجبار فهذا هو الراهب، وأما أنا فكلب عقور حبست نفسى فى هذه الصومعة لئلا أعقر الناس. قال: فتعجبت من كلامه، ثم قلت له: أخبرنى ما الذى قطع الناس عن ربهم بعد أن عرفوه، فقال: قطعهم عنه حب الدنيا لأنها محل المعاصى، فالعاقل من رمى بها عن قلبه، وتاب إلى الله من ذنبه وأقبل على ما يقربه من حضرة ربه.

قال: وقيل لداود الطائى يومًا: ألا تسرح لحيتك، فإنها قد تلبدت. فقال: إنى إذًا لفارغ. وكان أويس القرنى ـ رحمه الله تعالى ـ يحيى الليل كله بسجدة واحدة. ولما تاب عتبة الغلام ـ رحمه الله تعالى ـ كان لا يتفرغ لأكل ولا شرب، فقالت له أمه: لو رفقت بنفسك يا ولدى، فقال: دعينى يا أماه أتعب فى عمر قصير ليوم طويل. ولما حج مسروق ـ رحمه الله تعالى ـ كان لم ينم قط فى الطريق إلا ساجدًا على وجهه. وكان عبد الله بن هلال ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: أرجو من الله تعالى ـ أن لا يشهد علىّ ليل بنوم، ولا نهار بفطر. وكان عبد الله بن داود ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا الناس وأحدهم إذا دخل على الليل يصلى منه جانبًا، فإذا بلغ الأربعين طوى فراش النوم إلى أن يموت. وكان كهمس بن الحسين ـ رحمه الله تعالى ـ

يصلى كل يوم ألف ركعة، فإذا تعب قال لنفسه: قومى يا مأوى كل شر فلما عجز كان يصلى كل يوم خمسمائة ركعة، ثم يبكى ويقول: يا ويلى نقص نصف عبادتى.

وقد كانت ابنة الربيع بن خيثم ـ رحمهما الله تعالى ـ تقول: يا أبت ما لى أرى الناس ينامون وأنت لا تنام؟ فيقول لها: لأن أباك يخاف أن يموت فى نومه، فيدخل النار. قال: ولما سافر مالك بن دينار لزيارة أويس القرنى ـ رحمهما الله تعالى ـ فدخل عليه بعد صلاة الصبح، فوجده جالسًا، فسلم عليه، فردّ عليه السلام، ثم لم يتكلم إلى الظهر، فصلى الظهر ولم يتكلم إلى العصر فصلى العصر ولم يتكلم إلى المغرب، فصلى المغرب ولم يتكلم إلى العشاء، ثم صلى ولم يتكلم إلى الصبح، فلما صلى الصبح غلبته عينه وهو جالس، فانتبه فزعًا وهو يقول: اللهم إنى أعوذ بك من عين نوامة، ومن بطن لا يشبع. قال مالك فقلت فى نفسى: حسبى هذا من شهود أحواله، ثم رجعت ولم أكلمه. وقد نظر رجل إلى أويس ـ رحمه الله تعالى ـ فقال له: مالى أراك مريض الدهر؟ فقال: وما لأويس لا يكون مريضًا إن المريض يطعم، وأويس غير طاعم، وينام المريض وأويس غير نائم، ثم قال: يا عجبًا ممن يعلم أن الجنة تزين فوقه، وأن النار تسعر تحته كيف ينام من هو بينهما ينظر إليهما؟

وقد دخل رجل على إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ فوجده قد صلى العشاء، فجلس الرجل يرقبه إلى الفجر وإبراهيم مضطجع، فلما طلع الفجر قام إبراهيم إلى الصلاة، فقال له الرجل: كيف تصلى وقد كنت نائمًا؟ فقال: لم يأخذنى نوم بل كنت جائلاً فى أودية النار أنظر عذاب أهلها فكيف أنام.

وقد كان ثابت البنانى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا الناس وأحدهم يصلى، فلا يأتى فراشه إلا زاحفًا، وكان عامر بن عبد الله ـ رحمه الله تعالى ـ يصوم الدهر، ويقوم الليل كله فقيل له فى ذلك، فقال: وما هذا إن هو إلا أنى جعلت النهار طعامًا إلى الليل، ونوم الليل إلى النهار وليس

في ذلك كبير أمر. وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يصبحون شعثًا غبرًا قد باتوا سجدًا وقيامًا يراوحون بين أقدامهم وجباههم وكانوا إذا ذكر الله عز وجل يميدون كما تميد الشجرة في يوم الريح، وتهمل أعينهم حتى تبتل ثيابهم وتصير دموعهم كآثار ماء الوضوء، فإذا كان وقت السحر يدهنون وجوههم، ويكتحلون كأنهم باتوا نائمين غافلين.

وكان أبو مسلم الخولاني ـ رحمه الله تعالى ـ قد وضع في مكان تهجده سوطًا، فكان كلما أخذته فترة ضرب نفسه بالسوط، ويقول لها: قومي لعبادة ربك والله لأزحفن بك زحفًا حتى يكون الكلال منك لا مني، وإنك أولى بالضرب من الدابة لموضع عقلك، وكثرة دعاويك. وقد تعبد ضيغم العابد ـ رحمه الله تعالى ـ قائماً حتى أقعد، وتعبد قاعداً حتى استلقى وتعبد مستلقيًا حتى مات ـ رحمه الله ـ وكان أبو حازم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا قومًا كانوا في العبادة على حد لا يقبل الزيادة. قال: وتعقد ساقا صفوان بن سليم ـ رحمه الله تعالى من طول القيام حتى لو قيل له: إن الساعة تقوم غداً ما وجد زيادة على ما هو فيه. وكان إذا جاء الشتاء يتهجد فوق السطح حتى مات وهو ساجد لله وكان القاسم بن محمد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: رأيت أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ تصلي الضحى، وهي تردد قوله تعالى: ﴿**فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم**﴾ [الطور:٢٧]، إلى قرب الزوال وهي تبكي. وكان أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ يقول: علامة الصالحين صفرة الألوان من طول السهر، وعمش العيون من طول البكاء، وذبول الشفاه من كثرة الصوم، وقد كان الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لمجتهدي زمانه في العبادة: والله إن اجتهادكم كاللعب بالنظر لمن كان قبلكم، وكان عتبة الغلام ـ رحمه الله تعالى ـ يقطع الليل بثلاث صيحات، فكان يضع رأسه في طوقه يتفكر، فإذا مضى كل ثلث من الليل يصيح صيحة، فقالوا لجعفر بن محمد الصادق ـ رضي الله عنه ـ على ذلك، فقال: لا تنظروا إلى صياحه، ولكن انظروا ما صاح منه. وقد كانت حبيبة العدوية ـ رحمها الله تعالى ـ إذا صلت العتمة قامت على سطح لها، وشدت عليها درعها

وخمارها. ثم تقبل على صلاتها إلى الفجر، وكانت تقول فى مناجاتها: اللهم اغفر لى سوء أدبى فى صلاتى. وقد كانت عجرة العابدة ـ رحمها الله تعالى ـ تحيى الليل كله وهى مكفوفة، ثم تنادى بصوت محزون: إلهى سار العابدون إلى حضرتك وأنا خامدة العزيمة. وقد كانت عفيرة العابدة ـ رحمها الله تعالى ـ لا تضع جنبها إلى الأرض فى ليل ولا نهار، وتقول: أخاف أن أؤخذ على غرة وأنا نائمة. وقد كانت شعوانة العابدة ـ رحمها الله تعالى ـ تنوح كل ليلة، وتبكى إلى الصباح، فدخل عليها جماعة يومًا فقالوا لها: ارفقى بنفسك، فقالت: والله لقد وددت أن أبكى الدم فضلاً عن الدموع حتى لا يبقى فى جسدى قطرة من دم، وكانت تقول: اللهم اغفر لكل من تعرض لمعصيتك بعد معرفتك، وقد قالت مرة: اللهم بحبك لى إلا ما غفرت لى فقالوا لها: ومن أين عرفت أنه يحبك؟ فقالت: لولا محبته لى ما أقامنى بين يديه فى الظلام والناس نيام.

وقد كانت مُعاذة العابدة ـ رحمها الله تعالى ـ تحيى الليل كله بالصلاة، فإذا غلب عليها النوم قامت فجالت فى الدار وهى تقول: يا نفس النوم أمامك فى القبر إما فى سرور وفرح، وإما فى عذاب وحسرة. وقد أرادت أم إبراهيم العابدة ـ رحمها الله تعالى ـ أن تجاوز بمكة، ثم تركت ذلك، فقالوا لها فى ذلك؟ فقالت: علم أنى لا أصلح لخدمته فطردنى من حضرته. وقد كان ذو النون المصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: خرجت ليلة من وادى كنعان، فلما علوت الوادى إذا سواد مقبل، فحققت النظر، فإذا هى امرأة فقلت: من هذا السواد؟ فقالت: ومن هذا الرجل؟ فقلت: غريب، فقالت: سُبحان الله وهل مع الله غربة؟ قال ذو النون: فبكيت من قولها، فقالت: لو كنت صادقًا ما بكيت، فقلت: وهل عدم البكاء من الصدق؟ قالت: نعم لأن البكاء راحة للقلب، والصادق لا يطلب راحة فى هذه الدار، قال ذو النون: فعجبت من قولها، وقلت لها: عظينى بموعظة؟ فقالت لى: عليك بالحياء من الله تعالى، فإن عطاء السلمى مكث أربعين سنة لا يرفع طرفه إلى السماء حياء من الله. وقد سمعت رابعة العدوية سفيان الثورى ـ رحمهما الله تعالى ـ يقول: واحزناه، فقالت له: يا سفيان لا تقل ذلك لو كنت حزينًا

ماتفرغت لهذا القول قل: واقلة حزناه، فإنه إلى الصدق أقرب، وقد كانت عفيرة العابدة ـ رحمها الله تعالى ـ لا تمل من البكاء فقيل لها: أما تسأمين من كثرة البكاء؟ فقالت: كيف يسأم إنسان من دوائه وشفائه. وقد كانت أم العلاء السعدية ـ رحمها الله تعالى ـ تبكى وتصلى طول ليلها، وتقول: ذنوبى كثيرة، فلم تزل تبكي حتى ذهب بصرها، وقد بكت بردة العابدة ـ رحمها الله تعالى ـ حتى ذهب بصرها، فلاموها على ذلك. فقالت: لو رأيتم بكاء العصاة يوم القيامة لقلتم إن هذا البكاء كاللعب. وقد مكثت ابنة محمد بن سيرين ـ رحمهما الله تعالى ـ عشرين سنة في مصلاها لا تقوم إلا للوضوء والصلاة فقط. وقد كانت مُعاذة العدوية ـ رحمها الله تعالى ـ تصلى فى الليل الطويل، فكانت تكل الرجال وهى لا تكل. وقد كانت رابعة العدوية ـ رحمها الله تعالى ـ لا تهدأ ولا تنام ولا تفطر حتى ماتت، قال الداراني رحمه الله: صليت معها ليلة، فلما كان الصباح قلت لها: يا رابعة ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة؟ قالت: أن نصوم له النهار، ونقوم له الليل حتى نموت. وقد كانت رملة العابدة ـ رحمها الله ـ تكثر الصوم حتى اسود جلدها، وبكت حتى عميت، وصلت حتى أقعدت، قال إبراهيم الخواص ـ رحمه الله ـ صليت معها ليلة، فلما كان السحر سمعتها تقول: يا ليتنى لم أخلق، ثم تبكى. وكان صالح المري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: قرأت مرة قوله تعالى: ﴿**يوم تقلب وجوههم في النار**﴾ [الأحزاب:٦٦]، فسمعها عابد، فصعق، ثم أفاق فقال: أعدها على، فأعدتها عليه فخر ميتًا. وقد وعظ عبد الواحد بن زيد ـ رحمه الله ـ الناس مرة، فصاح رجل من ناحية المسجد: كف عن كلامك يا واعظ فقد كشفت قناع قلبى، فلم يقف عبد الواحد، فصرخ الرجل ثم خرجت روحه. قال ابن القاسم: وأنا ممن شهد جنازته ـ رحمه الله تعالى ـ.

وقد قرأ زرارة بن أبى أوفى ـ رضي الله عنه ـ قوله تعالى: ﴿**فإذا نقر في الناقور (٨) فذلك يومئذ يوم عسير**﴾ [المدثر:٨، ٩]، وكان فى الصلاة فخر ميتًا، وكان عمرو بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ يعصب عينيه إذا خرج إلى السوق لا يرى كافرًا ولا غافلاً عن الله تعالى وكان له غلام يقوده، فقال لغلامه

يومًا: أين نحن؟ قال: فى المقابر، فحلّ العصابة عن عينيه فوقع بصره على القبور فخر ميتًا.

وقد كان إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام إذا ذكر النار بكى حتى يسمع وجيب قلبه من مسيرة ميل فقال له جبريل عليه الصلاة والسلام يومًا: هل رأيت خليلاً يعذب خليله؟ فقال: يا جبريل إذا ذكرت خطيئتى نسيت خلتى. وكان ميمون بن مهران ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: بلغنا أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وإنَّ جهنَّم لموعِدهم أجمعِين﴾ [الحجر:٤٣]، صاح سلمان الفارسى ـ رضي الله عنه ـ ووضع يده على رأسه، وخرج هائمًا، فمكث ثلاثة أيام لا يعى شيئًا. وكان محمد بن المنكدر ـ رحمه الله تعالى ـ إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول: بلغنى أن النار لا تأكل موضعًا مسه الدموع. وقد كان الإمام أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ يقول: من استطاع أن يبكى فليبك، ومن لم يستطع فليتباك. وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من كان يريد القرب من المحبوب فليكثر من البكاء على الذنوب. وكان محمد بن عثمان ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما شبهت عينى الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ إلا كأنهما ميزابان. وقد قال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يومًا لثابت البنانى ـ رحمه الله تعالى ـ ما أشبه عينيك بعينى رسول الله ـ ﷺ ـ، قال: فبكى ثابت حتى عمشت عيناه غيرة على عينى رسول الله ـ ﷺ ـ أن يشبه بهما غيرهما. وقد بكى فتى من الأنصار ـ رضي الله عنه ـ حتى أظلم بصره فعوتب على ذلك، فقال: والله لأبكين ما عشت، فإذا مت فعند الله أحتسب تقصيرى فى مرضاته. ولما بكى الحسن البصرى على ابنه سعيد ـ رحمهما الله تعالى ـ لاموه على ذلك. فقال: رحم الله سعيدًا، والحمد لله الذى لم يجعل بكاء يعقوب على يوسف عليهما الصلاة والسلام عارًا ولم يعاتبه الله على ذلك، وإلا لو كان عارًا كان الأمر قد ضيق علينا. وكان العتبى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ فاطلع عليهم من كوة وهو يبكى، والدموع تتقاطر على وجهه ولحيته وهو يضطرب، فقال لهم: ما بالكم؟ فقالوا له: عظنا يا أبا على،

فقال: عليكم بالقرآن، عليكم بالسنة، عليكم بالصلاة، ويحكم هذا الزمان ليس بزمان حديث، إنما هو زمان: احفظ لسانك، وأخف مكانك، وعالج الليل، وخذ ما تعرف ودع ما تنكر. وكان أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: بلغنا أنه ما سالت قطرة من عين قبل الرواح إلى الجمعة إلا أوحى الله تعالى إلى كاتب الشمال أن أطو صحيفة عبدي فلان، ولا تكتب عليه خطيئة إلى مثلها من الجمعة الأخرى. وكان منصور ابن زاذان ـ رحمه الله تعالى ـ يصلي ويبكي ويحل عمامته كورة كورة يمسح بها دموعه حتى تبتل، ثم ينشرها في الشمس. وقد كان كعب الأحبار ـ رضي الله عنه ـ يقول: والذي نفسي بيده لأن أبكي من خشية الله تعالى حتى تسيل دموعي على وجهي أحب إلي من أن أتصدق بجبل من ذهب. وكان ذر بن عمرو ـ رحمه الله ـ يقول لأبيه: يا أبت مالي أرى المتكلمين يتكلمون، فلا يبكي أحد، فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من ههنا، ومن ههنا؟ فقال: يا بني ليست النائحة بالأجرة كالنائحة الثكلى. وقد كان كعب الأحبار ـ رضي الله عنه ـ يقول: مرّ زكريا عليه الصلاة والسلام بولده يحيى مكبًا على قبر يبكي، فقال له: ما الذي يبكيك يا ولدي؟ فقال: أخبرني جبريل عليه الصلاة والسلام أن بين الجنة والنار مفاوز لايطفيء حرها إلا الدموع، فقال له: عليك بالبكاء يا بني، ثم أكب على القبر يبكي معه حتى بل الثرى.

وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: اللهم ارزقني عينين هطالتين تبكيان من خشيتك قبل أن تكون الدموع دمًا، والأضراس جمراً، وكان ذو النون المصري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: وقفت مرة على عابد في جبل وهو يبكي، فقلت له: علام تبكي؟ فقال: لست أبكي على فوات شيء وإنما هي روعة يجدها الخائفون في قلوبهم من هيبة الله تعالى لا يمكنهم التلفظ بها. وكان إبراهيم الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ يكثر من البكاء أواخر عمره ويقول: يا رب قد كبرت، وقد ضعف جسمي، وقلت عبادتي فأعتقني بفضلك من النار، فإني لا أقدر أن أمكث فيها لحظة. وقد كان نافع ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كان بوجه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ خطان

أسودان من مجرى الدموع، ولما رمدت عينا ثابت البناني ـ رحمه الله تعالى ـ وضعف بصره قال له الحكيم: إن تركت البكاء والسجود أمكنني مداواتك، فقال ثابت: وما حياتي في الدنيا بغير هذين اذهب فلا حاجة لي بمداوتك. وقد قالوا لمالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ ههنا شخص حسن الصوت بالقرآن أفلا تأتيه فتسمعه؟ فقال: إن الثكلى لا تحتاج إلى نائحة. وقد كان الضحاك بن مُزاحم ـ رحمه الله تعالى ـ يبكي كل ليلة عند الغروب حتى تبتل لحيته ويقول: إني أخاف أن يكون قد صعد من عملي في هذا اليوم ما يسخط ربي، وكان مكحول الدمشقي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا رأيتم أحداً يبكي، فظنوا به خيراً، فإني نظرت مرة إلى رجل يبكي، فظننت به أنه مراء، فعوقبت بحرماني البكاء سنة. وكان يزيد بن ميسرة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: البكاء يكون من خمسة أشياء: من الفرح، والحزن، والوجع، والفزع والرياء،. وسادسها البكاء من خشية الله تعالى، وهو يأتي صاحبه بغتة ولا يكون بالتفعل، وهذا هو الذي تطفئ الدمعة منه أمثال الجبال من النار.

وكان كعب الأحبار ـ رضي الله عنه ـ يقول: إن العبد ليبكي حتى يرسل له الله عز وجل ملكًا، فيمسح عينيه بجناحيه وحينئذ يبكي العبد من خشية الله تعالى. وكان مجاهد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: بكى داود عليه الصلاة والسلام أربعين يومًا لا يرفع رأسه من السجود حتى نبت المرعى من دموعه، وغطى رأسه حياء من الله عز جل، فنودي: يا داود أجيعان أنت فتطعم، أم ظمآن فتسقى، أم عريان فتكسى؟ فأجيب داود من غير ما طلب حتى تبلغ المؤاخذة حدها. قال: ثم نحب داود نحبة هاج منها العفود، فاحترق من حر جوفه، ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة فقال: يارب اجعل خطيئتي في كفي، فصارت خطيئته منقوشة في كفه، فكان لا يبسط كفه لطعام ولا شراب ولا غيرهما إلا رآها وبكى. وكان يؤتى القدح من الماء ليشربه، فما يضعه على شفتيه حتى يقبض من دموعه، ولم يرفع بصره إلى السماء بعد ذلك حياء من الله تعالى إلى أن مات عليه الصلاة والسلام.

وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: بلغني أن داود عليه الصلاة والسلام ذكر ذنبه ذات يوم، فذهب صارخًا واضعًا يده على

رأسه حتى لحق بالجبال، فاجتمعت إليه السباع. فقال: ارجعوا لست أريدكم إنما أريد كل بكاء على خطيئته مثلى، ومن لم يكن بذا خطيئة فماذا يصنع بداود الخطاء؟ وقال كعب الأحبار -رضي الله عنه- كان الناس إذا لاموا داود عليه الصلاة والسلام على طول البكاء يقول: ذرونى أبكى قبل بكاء اليوم الطويل، قبل تحريق العظام، واشتعال اللحى بالنار، قبل أن يؤمر بالعبد إلى جهنم فتسحبه ملائكة غلاظ شداد. وقد كان عبد العزيز بن عمير - رحمه الله تعالى - يقول: لما أصاب داود عليه الصلاة والسلام الخطيئة نقصت قوته، وبحّ صوته. فقال: إلهى قد بحّ صوتى فى صفاء أصوات الصديقين، فأوحى الله إليه إن الصديقين لا يخطئون. وقد كان وهب بن منبه - رحمه الله تعالى - يقول: كان داودعليه الصلاة والسلام قبل وقوعه فى الخطيئة يقول: اللهم لا تغفر لمن عصاك غيرة لجناب الحق عز وجل. فلما وقع فى الخطيئة صار يقول: اللهم اغفر لكل خطاء حتى تغفر لعبدك داود معهم، وكان مجاهد - رحمه الله تعالى - يقول: لما اشتد البكاء على داود عليه الصلاة والسلام ولم يرالبكاء ينجح قال: يا رب أما ترحم بكائى؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود نسيت ذنبك وذكرك بكاءك؟ فقال: إلهى كيف أنسى ذنبى، وكنت إذا تلوث الزبور كف الماء الجارى عن جريه، وسكن هبوب الريح، وأظلنى الطير، وأنست الوحوش إلى محرابى فما هذه الوحشة التى بينى وبينك يا رب؟ فأوحى الله إليه: يا داود ذاك أنس الطاعة، وهذه وحشة المعصية. يا داود آدم خلقته بيدى، ونفخت فيه من روحى، وأسجدت له ملائكتى، وألبسته ثوب كرامتى وتوجته بتاج وقارى، وشكا إلىّ الوحدة فزوجته بحواء أمتى، وأسكنته جنتى، فلما عصانى مرة واحدة بأكله من الشجرة طردته من جوارى عريانًا ذليلاً، يا داود اسمع منى ما أقول والحق أقول: أطعتنا فأطعناك، وسألتنا فأعطيناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن عدت إلينا قبلناك.

قلت: اعلم أن الذى يجب على كل مسلم أن يعتقد أن خطايا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا تعقل لأمثالنا، بل ربما تقرب أحدنا بها إلى الله تعالى، ولا يجوز حملها على ما نتعقله نحن من المعاصى التى نهانا الله عنها. فاحفظ يا أخى نفسك ولسانك فى حق أكابر حضرة الله تعالى

وخواص خلقه من أنبيائه وأصفيائه. وقد ذكرنا في كتابنا الأجوبة عن الأكابر أن معاصي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام صورية لا حقيقية أجراها الله تعالى على أيديهم تعليمًا لهم بالفعل ليعلموا قومهم كيفية الخروج من المعاصي الحقيقية إذا وقعوا فيها، وكان بكاؤهم أيضًا صوريًا.

فاعلم ذلك يا أخي، وابك على قلة بكائك، وادخل من الباب الذي دخل منه البكاؤون من خشية الله تعالى وهوالجوع، وعدم أكل الحرام والشبهات، فإن من شبع من ذلك قسا قلبه ضرورة كما قدم لك بسطه مرارًا، وكان عبد الرحمن بن الأسود إذا اعتلت رجله قام على رجل واحدة إلى الصباح، ولا يترك قيام الليل. وقيل للحسن البصري مرة: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهًا؟ فقال: لأنهم خلوا بالرحمن، فألبسهم نورًا من نوره.

وكانت شعوانة تقول لأصحابها: ألزموا قلوبكم الحزن، ومحبة الله ثم لا يبالي أحدكم حين مات. وكان لأبي بكر بن عياش خطان أسودان في خديه من الدموع، ولما سرق مصحف مالك بن دينار كان إذا وعظ الناس بكوا، فيقول: كلنا نبكي، فمن سرق المصحف؟ والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله تعالى عنهم-: كثرة الاستغفار، وخوف المقت كلما قرءوا القرآن لشهودهم عدم عملهم به. وكان عبد الله بن المبارك - رحمه الله تعالى - يقول: كم من حامل للقرآن والقرآن يلعنه من جوفه، وإذا عصى حامل القرآن ربه ناداه القرآن من جوفه والله ما لهذا حملت، ألا تستحي من ربك؟ واعلم أنه يجب على تالي القرآن أن يروّض نفسه على يد شيخ صادق حتى يلطف كثائفه وحجبه المانعة من العمل بالقرآن، وعن شهود عظمة الله تعالى، فإنه لو شهد عظمته عز وجل ما عصاه كما عليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكمل ورثتهم، إذا لا يقع أحد في معصية قط إلا مع الحجاب.

وقد كان يوسف بن أسباط - رحمه الله تعالى - كلما ختم القرآن يستغفر الله تعالى سبعمائة مرة ثم يقول: اللهم لا تمقتني بما قرأته من غير

عمل سبعين مرة. وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: حامل القران مقامه يجل عن أن يعصي ربه، وكيف يصح له أن يعصى ربه، وكل حرف من القرآن يناديه بالله عليك لا تخالف ما أنت حامله مني؟ فلا ينبغى لحامل القرآن أن يلهو مع اللاهين، ولا يسهو مع الساهين، ولا يغفل مع الغافلين، وقد كان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: يا أهل القرآن ماذا زرع القرآن فى قلوبكم. فإن القرآن ربيع القلب كما أن الغيث ربيع الأرض. وكان عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول: ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس ناموا، وبنهاره إذا الناس أفطروا، وبحزنه إذا الناس ضحكوا، وبصمته إذا الناس لغوا، وبخشوعه إذا الناس يختالون يعنى فى ثيابهم ومشيهم.

وقد كان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لا ينبغى لحامل العلم والقرآن أن يكون جافيًا ولا مماريًا، ولا رافعا صوته بالحديث والعلم، ولا راغبًا فى الدنيا لأن كل كلمة مما هوحامله تقول له: ازهد فى الدنيا. وقد سمعت سيدى عليا الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من تأمل وجد كل كتاب أنزل يقول له: اتق الله سبحانه وتعالى. وكان صالح المرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: قرأت القرآن على رسول الله ـ ﷺ ـ فى المنام، فلما ختمته قال لى ـ ﷺ ـ: «**هذا القرآن فأين البكاء؟**»[1] وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما ثم مصيبة أعظم من مصيبتنا يتلو أحدنا القرآن ليلاً ونهارًا ولا يعمل به، وكله رسائل من ربنا إلينا. وكان ولده على ـ رحمهما الله تعلى ـ يقول: من لم يبك على نفسه عند تلاوة القرآن فهو مغرور لأن المراد منه العمل لا التلاوة. وكان إذا قرأ القرآن يبكى حتى يكاد لا يقدر على إتمام السورة، ويقول: إنى لأتعجب ممن يفرح كلما ختم القرآن تلاوة. ولا يطالب نفسه بشيء من مواعظه وزواجره وقوارعه. وقد كان أبو سليمان الدارانى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ربما أنى أقوم خمس ليال متوالية بآية واحدة أرددها وأطالب نفسى بالعمل بما فيها، ولولا أن الله تعالى يمن

(١) لم أجده، ولوائح الوضع ظاهرة عليه.

على بالغفلة لما تعديت تلك الآية طول عمرى لأن لى فى كل تدبر علمًا جديدًا، والقرآن لا تنقضى عجائبه. وقد سمعت سيدى علياً الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لولا أن الله تعالى يعطى لكل من الأولياء معانى القرآن هبة منه تبارك وتعالى حال تلاوتهم له لما قدر أحد منهم على تلاوته كله فى ليلة واحدة إذ الكمل ليست علمهم المتعلقة بالقران مستنبطة بفكر ولا إمعان نظر، إنما هى مواهب يهبها لهم حال تلاوتهم، فتكون عين التلاوة هى عين المعانى ومتى تخلفت المعانى عن النطق، فذلك من نتيجة الفكر. قال: ـ رحمه الله ـ وعليه يحمل قول الحق عز وجل للإمام أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ حين رآه فى المنام وقال له: يا رب بم يتقرب إليك المتقربون؟ قال: بكلامى يا أحمد، قال: يارب بفهم أم بغير فهم؟ قال تعالى: بفهم وبغير فهم، فالمراد من قوله: وبغير فهم أن معانيه تأتى إليهم من طريق الكشف لا بواسطة الفكر، وهذا هو اللائق بشرح هذا الكلام، وإن كان تالى القرآن له الثواب على كل حال.

قلت: هو كلام غريب فليتأمل، وكان أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يقول: رب تال للقرآن والقرآن يلعنه. وكان أبو ميسرة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الغريب هو القرآن فى جوف الفاجر. وكان أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الزبانية إلى حملة القرآن أسرع منهم إلى عبدة الأوثان أى لكونهم خالفوا ماحملوا. وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إذا قرأ العبد كلام الله، ثم تكلم بلغو ثم عاد إلى القرآن قال الله تعالى له: ما لك ولكلامى؟ قلت: ومن هنا كان سيدى على الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ إذا كان يقرأ ثم كلمه أحد فى حاجة يقول بقلبه: دستور يا رب أكلم فلانًا[١]، ثم يكلمه.

وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن حملة القرآن يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يعنى يسألون

---

(١) هذا الكلام لا يصح، وإنما الصحيح أن القارئ إذا كان فى قراءة القرآن، وألقى عليه السلام فيجب عليه قطع التلاوة ورد السلام، لأن رد السلام واجب، أما قوله: (دستور يا رب) بقلبه فهو من البدع المحدثات، والله أعلم.

عن العمل بالقرآن أو غيره كاملاً لأنهم مأمورون أن لا يخلوا منه بحكم واحد. وفي الحديث: «أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها». وقد أخبرني سيدي الشيخ أبوالسعود الجارحي ـ رحمه الله ـ أنه مكث عشرين سنة يتلو في النهار ختمًا، وفي الليل ختمًا، وذلك قبل اجتماعه بشيخه في الطريق سيدي أحمد المرحومي ـ رحمه الله تعالى ـ فلما اجتمع به وأخبره بذلك قال له: ما حصلت شيئًا لأنك كنت تفرح بعدد الختوم، ولا تطالب نفسك بالعمل بشيء منه فقال: نعم. قال: ثم أمرني الشيخ بعد ذلك بالتدبر، ومطالبة نفسي بالعمل بكل آية، فما قدرت بعد ذلك على عشر ما كنت أقرأ، فاعلم ذلك يا أخي، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله تعالى عنهم-: التهيؤ للوقوف بين يدي الله تعالى في كل صلاة من أول الوقت، فكان أحدهم يستشعر عظمة الله تعالى شيئًا فشيئًا من حين وضوئه، أو من حين ينادي بحي على الصلاة حتى يصل إلى الحضور مع الله تعالى بحسب مقامه لا سيما إن كان أحدهم يطالع علمًا قبل الصلاة، أو في خصومة، أو نحو ذلك، فإن استجلاب الحضور عليه بعيد إلا إن كان يستعد له من قبل دخول الوقت.

وقد كان أخي الشيخ أفضل الدين ـ رحمه الله ـ يستعد للوقوف في الصلاة قبل دخول الوقت بعشر درج. فقلت له يومًا: أنت بحمد الله ليس لك علاقة دنيوية تمنعك من الحضور، فقال: إن لكل إنسان عوائق بحسب مقامه، ولولا الحجاب الذي لهم قبل الصلاة لما اصفرت ألوانهم عند القيام إليها، فلا بد لكل ولي من حجاب ينكشف له عند القيام إلى الصلاة، فيزداد بذلك تعظيمًا لربه عز وجل، ولولا وجود الحجاب النسبي لما كان الخليل عليه الصلاة والسلام إذا دخل في الصلاة يسمع لجوفه ضجيج من مسيرة ميل، وإنما نقل عن الأكابر زيادة التعظيم لله تعالى في الصلاة لأنه يقفون فيها بين يدي الحق عز وجل كما يقف غلام الملك بين يديه، ولله المثل الأعلى.

وفي الحديث: «**خمس صلوات كتبهن الله تعالى على العباد، فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئًا استخفافًا بحقهن كان له عهد عند الله أن يدخله الجنة**»[١] وفي الحديث أيضًا: «**أول مايحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن وجدت تامة قبلت منه سائر أعماله، وإن وجدت ناقصة رد عليه سائر عمله**»[٢] . وفي الحديث أيضًا: «من لم يتم ركوع الصلاة ولا سجودها ولا خشوعها خرجت وهي سوداء مظلمة تقول لصاحبها: ضيعك الله كما ضيعتني حتى إذا كانت حيث شاء الله تعالى لفت كما يلفّ الثوب الخلق فيضرب بها وجهه». وكان سيعد التنوخي ـ رحمه الله تعالى ـ كلما صلى تصير دموعه تتناثر على خده ولحيته. قال: ورأى الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ رجلاً يصلي وهو يعبث بلحيته فسمعه وهو يقول في سجوده: اللهم زوجني في الجنة من الحور العين ما تقر به عيني. فقال له الحسن: يا هذا مارأيت خاطبًا للحور أقلّ حياء منك تخطب الحور من الله تعالى وأنت تلعب. وكان مسلم بن يسار إذا دخل في الصلاة لا يدري أي شيء يكون عن حوله. وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يقول لأهله: لا ترفعوا أصواتكم عندي إلا إذا رأيتموني دخلت في الصلاة فإني إذا كنت فيها لا أسمع شيئًا من كلامكم. وقد سقط جانب المسجد وهو يصلي فيه، فوقعت ضجة عظيمة، وخرج الناس مسرعين منه وهو لا يعلم بذلك حتى سلم من الصلاة. وكان أمير المؤمنين على ـ رضي الله عنه ـ إذا حضرت الصلاة يصفر لونه ويتغير ويقول: إنها أمانة وأنها عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وحملتها أنا فلا أدري هل أوفي بآدابها أم لا.

وكان وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: قال داود عليه الصلاة والسلام: يا رب من الذي تقبل صلاته، وينبغي له أن يدخل

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٢٠) في الصلاة، باب: فيمن لم يوتر، وابن ماجه (ح ١٤١) في إقامة الصلاة، باب: ما جاء في فرض الصلوات، والنسائي (١/ ٢٣٠) في الصلاة، باب: المحافظة على الصلوات الخمس، من حديث عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (ح ١٢٥٨).

(٢) صحيح: انظر صحيح الجامع (ح ٢٥٧٤).

بيتك؟ يعنى المسجد، فأوحى الله تعالى إليه من تواضع لعظمتى، وقطع نهاره بذكرى، وكف نفسه عن الشهوات من أجلى، وأطعم الجائع وآوى الغريب ورحم المصاب، فذلك الذى ينبغى له أن يدخل بيتى، وأجيب دعاءه. وكان حاتم الأصم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما صليت صلاة قط إلا ورأيت ما أتيت به فيها من سوء الأدب أكثر مما فعلت فيها من الطاعة. وكان عبد الله بن عباس ـ ﷺ ـ يقول: ركعتان مع حضور قلب خير من ألف ركعة والقلب ساه. وقد كان على بن عبد الله بن عباس ﷺ ـ يسمى السجاد لكثرة سجوده، وكان يقول: إن الخضوع فيه أفضل من الخضوع فى الركوع، فلذلك كنت أكثر منه. قيل: كان ورده كل يوم ألف ركعة. وكان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ يسجد فى صلاته على التراب دون الحصير ويقول: إن ذلك أقرب إلى الخضوع بين يدى الله تعالى. وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا الناس وأحدهم إذا دخل المسجد ارتعد وتغير من شدة هيبة الله تعالى حتى لا يعى شيئًا من أمور الدنيا، ويذهل عن كل شىء. وقد كان شيخنا سيدى على الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ آخر من أدركته من رجال هذا المقام، كان ـ رحمه الله ـ لا يتجرأ أن يدخل المسجد إلا تبعًا للناس. وكان سعيد بن المسيب ـ رحمه الله تعالى ـ يقول من جلس فى المسجد، فإنما يجالس ربه عز وجل، وسيأتى على الناس زمان يجلسون فى المسجد حلقًا حلقًا حديثهم فيه الدنيا، فلا تجالسوهم، قلت: هذا فى الحديث المباح، فما بالك بمن يجلس فى المسجد يستغيبون فيه العلماء والصالحين نسأل الله العافية، فاعلم ذلك يا أخى، وتخاشع عسى تصير من الخاشعين، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم- رضى الله تعالى عنهم-: العمل على كشف حجابهم حتى يصير أحدهم يصلى خلف رسول الله -ﷺ- فى قبره الشريف كلما شاء، وكذلك يصلى خلف كل نبى عليهم الصلاة والسلام لما ورد أنهم عليهم الصلاة والسلام يصلون فى قبورهم بأذان وإقامة، وقد كان سيدى الشيخ أبو العباس المرسى قدس الله سره يصلى الصلوات

الخمس خلف رسول الله -ﷺ- كما أخبر بذلك عن نفسه، وكذلك كان أخي الشيخ أفضل الدين ـ رحمه الله تعالى ـ وقد قال سيدى أبوالعباس ـ رحمه الله ـ يومًا لأصحابه: أيكم يجالس رسول الله -ﷺ- ولا يحتجب عنه في ليل ولا نهار؟ فقالوا كلهم: ليس منا أحد يقع له ذلك فقال لهم: ابكوا على قلوب محجوبة عن أسرار الكون والملكوت، والله لو احتجب عنى رسول الله -ﷺ- لحظة ما عددت نفسى من المسلمين. قلت: وهو مقام شريف لا يصل إليه السالك إلا بعد مجاوزة مائة ألف حجاب، وسبع وأربعين ألف حجاب، وتسعمائة وتسعة وتسعين حجابًا فليس ذلك لكل ولى كما أوضحنا ذلك فى كتابنا (العهودالمحمدية) وتقدم أيضًا فى أوائل هذا الكتاب، فاعلم ذلك[1]، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم -: مراعاتهم الأدب فى الصوم والحج زيادة على آدابهم فى القربات الشرعية، وذلك ليحفظ أحدهم من وصول إبليس إليه بالوسوسة من العام إلى العام أو من بعد حجه إلى أن يموت، كما أنه إذاحضر قلبه فى صلاة الجمعة يحفظ من إبليس الجمعة الآتية، كما أنه إذاحضر قلبه فى صلاة من الخمس يحفظ من إبليس إلى الصلاة التى بعدها كما يعرف ذلك من أطلعه الله تعالى على أسرار الشريعة ممن يصلون الصلاة المأمور بها شرعًا، بخلاف من كانت صلاته عادية. وقد سمعت شخصًا مرة يقول لسيدي على الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ أصليتم العصر؟ فسكت الشيخ، ولم يجبه لحظة، ثم قال له: لا تعد تقل لى مثل ذلك فتوقعنى فى الكذب، إذا لا تسمى صلاة إلاما حضر العبد فيها مع ربه عز وجل من أولها إلى آخرها بحيث لا يمر بخاطره فيه إلا حب الله تعالى وكونه بين يديه، وما يتلفظ به ويفعله من قراءة وذكر وركوع وسجود ونحو ذلك، فقال الرجل: فماذا أقول لكم إذا أردت أن أسألكم عن مثل ذلك؟

---

(١) قلت: هذا الكلام لا يصح، ولم يثبت من كتاب ولا سنة ولا عن أحد من سلف الأمة الصالحين، ولعله مما يلقى به الشيطان فى قلوب الناس.

فقال له: قل لي: هل قمت وقعدت مع الناس في الوقت أم لا؟ وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا الناس وهم ينزهون صومهم عن الضحك فيه، ويقولون: إنه شهر المسابقة إلى الخيرات لا شهر الضحك واللعب والغفلة.

وكان الأحنف بن قيس ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إنه شهر الصوم شهر الجوع، فمن لم يجع فيه حتى يتغيرجلده لا يحصل على طائل من صومه. وقد كان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من لم يحبس جميع جوارحه عن المعاصي فهومفطر وإن جاع، ومن حبس جوارحه فهو الصائم حقيقة. قلت: والمراد به كالمفطر فينقص الأجر في أحكام الآخرة حين يوفى العامل أجره. وكان سفيان بن عيينة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: حج علي بن الحسين ـ رضي الله عنه ـ فلما أحرم واستوت به راحلته اصفر لونه وتغاير وانتفض، ووقعت عليه الرعدة، ولم يستطع أن يلبي من الهيبة، فقالوا له: ألا تلبي؟ فقال: أخشى أن نقول: لبيك فيقال لي: لا لبيك ولا سعديك، فقيل له: لا بد من قولك، فلما لبى غشي عليه، وسقط عن راحلته، ولم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه، ولما قبل الحجر الأسود قال: لولا أن رسول الله ـ ﷺ ـ قبلك وكذا أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ ما قبلتك. قلت: وهذا يفهم أن عدم تقبيل أضرحة المشايخ أولى من تقبيلها لكون النبي لم يثبت عنه أنه قبل شيئًا من قبور إخوانه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا بلغنا أنه ـ ﷺ ـ أقر أحدًا على ذلك يعني على تقبيل قبر أحد من صالحي أمته، فلذلك كان من الأدب التوقف عن تقبيل أضرحة المشايخ وأعتابهم، ويجعل بدل ذلك الاقتداء بأخلاقهم[1].

ولما أحرم أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله تعالى ـ بالحج لم يقدر أن يلبي حتى سار الركب ميلاً، وأخذته كالغشية في المحمل ثم فاق، فقال

---

(١) قلت: ليت الإمام الشعراني يشاهد ما يحدث اليوم عند قبورهم من دعاء واستغاثة وذبح ونذر، وكل هذه الأشياء من الشركيات التي قد تخرج الإنسان من الملة وهو لا يشعر.

لأحمد بن أبي الحوارى ـ رحمه الله ـ وكان معه، ياأحمد إن الله عز وجل أوحى إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن مر ظلمة بنى إسرائيل أن يقلوا من ذكرى، فإنى أذكر من ذكرنى منهم باللعنة حتى يسكت عن ذكرى ويحك يا أحمد ما يؤمننا أن الله تعالى يلعننا وقد ظلمنا أنفسنا وظلمنا غيرنا.

وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله ـ يقول: رأيت شابًا محرمًا وهو ساكت، فقلت له: لم لا تلبى يا غلام؟ فقال لى: يا شيخ وما تغنى عنى التلبية، وقد سبق منى ذنوب وجرائم وقبائح وفضائح لا تحصى، فأخاف إذا أنا لبيت أن يقال لى: لا لبيك ولا سعديك لا أسمع كلامك، ولا أنظر إليك، قال مالك فقلت له: يا ولدى إن الله تعالى كريم غفور، فقال: أو تشير علىّ بالتلبية؟ قلت: نعم، فوقع جنبه على الأرض وقال: لبيك فشهق وخرجت روحه ـ رحمه الله تعالى ـ وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: حج سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ ماشيًا من البصرة، فقيل له: أم لك ظهر تركبه؟ فقال: أما يرضى العبد الآبق أن يأتى إلى مصالحة سيده إلا راكبًا، والله إنى لفى غاية الخجل من مجيئى إلى تلك الأرض، وقد كان أبو سليمان الدارانى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: رأيت شابًا مصفراللون وهو متعلق بأستار الكعبة، وهو يقول: اللهم إن لك على حقوقًا، فتصدق بها على، وإن لعبادك علىّ حقوقًا فتحملها عنى من فضلك، وقد تم فضلك على، وقد سمعت سيدى عليًا الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا الناس وهم يحجون على الراحلة من غير محمل ولا مظلة ويقولون: المحرم أشعث أغبر، وهذا ينافى ذلك. وكان أحدهم إذا أراد الحج يمكث سنين يحصل فى الدراهم الحلال التى ينفقها فى حجه، وكانوا لايستعينون فى حجهم بشىء من أموال الولاة ولا أعوانهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضى الله تعالى عنهم-: شدة الحياء من رؤية الخلق فضلاً عن شدة حيائهم من ربهم سبحانه وتعالى، وفى الحديث:

«الحياء من الإيمان، ولكل دين خلق، وخلق الإسلام الحياء»(١)، وكان بشر الحافي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لكل شيء زينة، وزينة الحياء ترك الذنوب، ولكل شيء ثمرة وثمرة الحياء اكتساب الخير .وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما عاقب الله تعالى قلبًا بأشد من أن يسلب منه الحياء. وكان يوسف بن أسباط ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا الناس وهم يستحيون من الله تعالى أن يسألوه رضاه والجنة، وإنما يسألونه العفو والصفح.

وقد كان الإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ يقول: أول من ضرب الأخبية في سفره أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ قال: إني رجل شديد الحياء من الناس، فاستروني من رؤيتهم لي، وكان ـ رضي الله عنه ـ لا يذهب إلى الخلاء إلا وهو مغط رأسه حياء من الملائكة عليهم الصلاة والسلام، قلت: ولذلك جوزي ـ رضي الله عنه ـ باستحياء الملائكة منه دون غيره كما أشار إليه الحديث، وهو قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«ألا أستحي ممن تستحيي منه ملائكة السماء»**(٢)، وكان إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: بلغنا أن عثمان ـ رضي الله عنه ـ يفرش للملائكة عليهم الصلاة والسلام رداءه على باب الخلاء، ويقول: اجلسا ههنا حتى أخرج إليكما. فاعلم ذلك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله تعالى عنهم-: شدة التقوى لله تعالى، ورؤيتهم نفوسهم بعد ذلك أنهم غير متقين، وحبهم لله ولرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول لنفسه: والله

---

(١) حسن: أخرجه ابن ماجه (٤١٨٤) في الزهد، باب: الحياء من حديث أبي بكرة بلفظ «الحياء من الإيمان، والإيمان من الجنة» وصححه الشيخ الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣٧٣).

وأخرج شطره الثاني ابن ماجه أيضًا (٤١٨١) من حديث أنس، و(٤١٨٢) من حديث ابن عباس بلفظ: «إن لكل دين خلق وخلق الإسلام الحياء» وحسنه الشيخ الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣٧٠)، (٣٣٧١)، وانظر الصحيحة (٩٤٠).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٠١) في فضائل الصحابة باب: فضل عثمان بن عفان، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهو بلفظ «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة».

لتتقين الله يابن الخطاب، أو ليعذبنك ثم لا يبالي بك، وكان -رضي الله عنه- يقول: من اتقى الله لم يصنع كل ما تريده نفسه من الشهوات، وفي الحديث: «**من قيل له: اتق الله فغضب أوقف يوم القيامة، فلم يبق ملك إلا مرّ به وعاتبه، وقال له: أنت الذي قيل لك: اتق الله فغضبت؟**» يعني يوبخونه بذلك.

وقد قيل لعمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: لا يزال الناس بخير ما دمت فيهم يا أمير المؤمنين، فقال: لا يزال الناس بخير ما أرضوا ربهم، وكان الحسن البصري - رحمه الله تعالى - إذا قرأ قوله تعالى: ﴿**واتقون يا أولي الألباب**﴾ [البقرة:١٩٧]، يقول: عاتبهم لحبه إياهم، وكان عروة الرقي - رحمه الله - يقول: محبة العبد لربه حب القرآن والعمل به، وحبه لرسوله -ﷺ- هو عمله بسنته، وكان مطرف بن عبد الله - رحمه الله تعالى - يقول: محبة العبد لربه أن لا يمل من تلاوة كتابه، وكان سعيد بن جبير - رحمه الله تعالى يقول: من علامة محبة العبد لربه كثرة النصب والتعب في عبادته، فإن حب الله تعالى لا ينال بالراحة. وكان عبد الواحد بن زيد - رحمه الله تعالى - يقول: مررت برجل نائم في الثلج، فقلت له: ما تحس بألم البرد؟ فقال: من ذاق طعم محبة الله لم يجد للبرد ولا للنار ألمًا، ومراده المحبة الكاملة بالنسبة لكل مقام، وكان محمد بن واسع - رحمه الله تعالى - يقول: كم ممن يزعم أنه صحب لله تعالى، والله له يبغض. اهـ.

فاعلم ذلك يا أخي، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله تعالى عنهم-: الزهد في الدنيا وذمهم لكل من طلبها ومبالغة أحدهم في ذلك حتى يصير ينطق بالحكمة كأنبياء بني إسرائيل عليهم الصلاة والسلام. وقد كان رأسهم في الزهد رسول الله -ﷺ-، كان يأتي عليه أربعون ليلة ما يوقد في بيته نار ولا مصباح فقيل لعائشة -رضي الله عنها- كيف كنتم تعيشون؟ قالت: بالأسودين التمر والماء. وكانت تقول: قبض رسول الله -ﷺ- في كساء ملبد أي مرقع. وإزار عرني غليظ. وقد

كان -ﷺ- يقول: **«إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل رجل استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»**[١].

وقد كان سفيان بن عيينة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الزهد ثلاثة أحرف، فمعنى الزاي أن تترك زينة الدنيا، ومعنى الهاء أن تترك هوى نفسك، ومعنى الدال أن تترك الدنيا بأسرها، فإذا فعلت ذلك فأنت زاهد. وكان إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الزهد على ثلاثة أصناف: فرض ويكون في الحرام، وواجب ويكون في الشبهات، وسنة ويكون في الحلال، قال: ولذلك كان الزهد في الرياسة أشد من الزهد في الذهب والفضة لأنك تبذلهما في تحصيلها. وقد كان أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ليس للرجل أن يحمل أهله وعياله على الزهد في الدنيا وإنما عليه أن يدعوهم إليه. فإن أجابوه وإلا زهد في نفسه وأتاهم بما يصلحهم، وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كل ما أشغلك عن ربك من أهل أو مال أو غير ذلك فهو مشؤوم عليك.

قلت: وذلك لأن الله تعالى جعل الموجودات كلها مذكرة للعبد بربه عز وجل، وهناك تكون مباركة عليه بخلافها إذا حجبت العبد عن ربه، ومن هنا كان الولد والمال أعظم فتنة للعبد لأنه لا يصح الإقبال على الله تعالى مع الميل إليهم فافهم وقد بلغ وكيعًا ـ رحمه الله تعالى ـ أن سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ أكل الطباهيج، فعاب ذلك عليه وقال: إن الناس يقتدون بك في أكل الشهوات. وكان بلال بن سعد ـ رحمه الله ـ يقول: لو لم يكن لنا إلا رغبتنا في الدنيا بعد أن زهدنا الله فيها لكان في ذلك كفاية من الذنب، وقد كان أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: قد سمعنا في الزهد كلامًا كثيراً، وأحسن ما رأيناه فيه أنه الزهد في كل شيء يشغل عن الله تعالى حتى العلم والعمل.

---

(١) تقدم وهو في ابن حبان بلفظ: «ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها».

قلت: يعني بأن دخل فيهما الرياء والعجب، أو حب ثناء الناس، أو نحو ذلك، وإلا فمن أخلص في علمه وعمله لا يصلح في حقه الزهد في ذلك، لأن الإخلاص فيهمـا مما يجمع قلب العبد على ربه عز وجل، والله أعلم، وقد قال رجل مرة لسفيـان بن عيينة ـ رحمه الله تعالى ـ دلني على زاهد أجلس إليه من العلماء، فقال له: يا هذا تلك ضالة لا توجد، وكان يحيى بن معـاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الزهد كـله تعب نفس، فمتى مال صاحبه إلى الراحة في الدنيا، فقد رجع عن الزهد حينئذ. وكان محمد ابن سيرين ـ رحمـه الله تعالى ـ يقول: قد طلبوا الإمام أبا حنـيفة للدنيا، فهـرب منها، وطلبنا نحـن الدنيا فهـربت منا. فانظروا مـا بين الرجلين، وكان يوسف بن أسـباط ـ رحمه الله ـ يقـول: طلبت من الله تعالى ثلاث خـصـال: أن أمـوت وليس ملكي درهم ولاعلي درهـم، ولاعلي عظمي لحم، قال: فمات ـ رحمه الله ـ كذلك. وقد أرسل الخليفة مرة بجوائز إلى الفقهاء فقبلوها، وأرسل إلى الفضيل بن عياض عشرة آلاف درهم فردها، فقال له أولاده: قـد قبل الفقهاء ذلك، وهم قدوة الناس فـهلا قبلت أنت الآخر؟ فـبكى وقال: ما مـثلي ومثلكم إلا كـمثل قوم لهم بقـرة يحرثون عليهـا، فلما هرمت قـالوا لبعضـهم: اذبحوها قبل أن لا تـنتفعـوا بجلدها ولحمها، وكذلك أنتم تريدون ذبحي على كـبر سني، فاصبروا على الجوع خيراً لكم من أن تذبحوني، فقالوا: مـا عندنا شيء نتقوت به اليوم، قال: فأخذ سكينًا وقطع لهم قطعة من بساط بال كـان تحته، وقال: اشتروا بثمن هذه شيئًا تأكلونه. وقد كان عيسى عليه الصلاة والسلام من رءوس الزهاد، فكان يلبس الشعر، ويأكل من ورق الأشـجار، وليس له ولد يموت، ولا بيت يخرب، ولا يدخر قوت غد، وأي مكان أدركـه المساء نام فيه. وقيل له مرة: يا روح الله ألا تتخذ لك حماراً تـركبه؟ فقال: إني أكرم على الله من أن يشغلني بخدمة حمار وكـان عليه الصلاة والسلام يقول للحواريين: بحق أقول لكم: إن أكل نخالة الشعـير مخلوطة بالرماد والنوم على المزابل مع الكلاب، ولبس المسوح الخشنة لكثير على من يموت، قال: ولم يتخذ له عليه السلام فرشًا ولا مخدة ولا قـصعة، وقد وضع مرة لبنة تحت رأسه

فجاءه جبريل -عليه السلام- وقال له: يا عيسى ركنت إلى الدنيا بعد زهدك فيها، وجعلت تحت رأسك مخدة من لبن؟ قال: فمن ذلك الوقت صار ينام جالسًا إلى أن رفع عليه الصلاة والسلام، وكان يقول: لبنى إسرائيل: عليكم بالماء القراح، والبقل البرى، ونخالة الشعير، وإياكم وخبز البر فإنكم لن تقوموا بشكر نخالة الشعير.

وقد اشترى أمير المؤمنين على -رضي الله عنه- قميصًا بثلاثة دراهم وهو إذ ذاك خليفة، وقطع كميه من موضع الرسغين ولبسه وقال: الحمد لله الذى هذا من رياشه. وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ إذا لبس القميص لا ينزعه حتى يخلق. وقيل له مرة: ألا تغسل قميصك؟ فقال: الأمر أعجل من ذلك. وقد كان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لو أن الدنيا كانت بأسرها تحت يدى ما فرحت بها، ولو أن أحدًا أخذها كلها من يدى ما تبعته ولا حزنت عليها. وكان ـ رحمه الله ـ يتقوت من سقاية الماء بمكة كان له جمل ينقل عليه الماء ويبيعه ويتقوت هو وعياله منه. وكان عبد الواحد بن زيد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من ضبط بطنه ضبط دينه، وقد كانت بلية أبيكم آدم عليه الصلاة والسلام أكلة واحدة، وهى بليتكم إلى يوم القيامة، فاعلموا ذلك.

قلت: المراد بالبلية هنا الاختبار، وهو اختبار الحق سبحانه بنى آدم هل يصبرون على ترك شهواتهم أو يقعون فيها، وأما اختبار آدم -صلى الله عليه وسلم- فإنما كان صوريًا أوقعه الحق تعالى على يديه ليعرف ما يقع من بنيه إذا وجدوا من باب إطلاع رسله على الغيب، وليعرفه بما وقع على يديه كيف يتوب بنوه إذا وقعوا فيه، فالخطاب له والحكم لغيره كما أوضحنا ذلك فى كتاب الأجوبة عن الأكابر. ومن نطقه بالحكمة يعنى القوم -رضي الله عنهم- لما أحكموا الزهد فى الدنيا قول إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ ليس بعاقل من ارتكب الذنب، ومنه قول وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ من قال فيك من الخير ما ليس فيك، فلابد أن يقول فيك من الشر ما ليس فيك، ومن عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من ساء به الظن، وقوله: إياكم وما يعتذر منه. وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ يقول: ما رأيت يقينًا

أشبه بالكذب من يقين الناس بالموت مع غفلتهم عنه. وكان الأحنف بن قيس - رحمه الله - يقول: لا يرجع الشباب بالخضاب ولا الصحة بالدواء. وكان معاوية - رضي الله عنه - يقول: أنت الزمان فإن صلحت صلح، وإن فسدت فسد.

وقد قال معاوية - رضي الله عنه - مرة لرجل من سبأ: ما كان أجهل قومك حتى ملكوا عليهم امرأة فقال له الرجل: قومك أجهل، فإن الله تعالى لما بعث محمداً - ﷺ - قالوا: ﴿ **وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [الأنفال: ٣٢]، هلا قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له، قال: فسكت معاوية، وفي الحديث: «**لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء**»(١) وفي الحديث أيضًا: «**الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادى من لا علم له، وعليها يحسد من لا فقه له،وعليها يسعى من لا يقين له**»(٢) وكان الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى - يقول: إن الله تعالى جعل الشر كله في بيت، وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا. وكان مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - يقول: حب الدنيا يخرج حلاوة الإيمان من القلب، وقد كان وهب بن منبه - رحمه الله تعالى - يقول: من ملك الدنيا تعب، ومن أحبها صار عبداً لها، قليلها يكفي وكثيرها لا يغني. وكان أبوسليمان الداراني - رحمه الله تعالى - يقول: ليس لطالب الدنيا غاية يقف عندها كما أنه ليس لطالب الآخرة غاية. وقد روى أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يقول: لايستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب، كما أنه لا يستقيم جعل الماء والنار في إناء واحد، وكان أبو حازم - رحمه الله تعالى - يقول: من أخذ الدنيا من حلها وأنفقها في مرضاة الله عز وجل فقد أرضى ربه سبحانه وتعالى.

---

(١) تقدم.

(٢) ضعيف: انظر ضعيف الجامع (١٢ - ٣٠).

وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الدنيا حانوت الشيطان، فلا تسرق من حانوته شيئًا، فيأت في طلبك، فيأخذك، وقد روى أنه لما مات نوح -عليه السلام- قال له جبريل عليه الصلاة والسلام: يا أطول النبيين عمرًا كيف وجدت الدنيا؟ قال: كدار لها بابان دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر، وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الدنيا عروس ومحبها ماشطتها، والزاهد فيها يمزق شعرها، ويسود وجهها، ويقطع ثيابها، ويكسر حليها. وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من علامة محبة العبد لربه عز وجل أن يبغض ما أبغضه الله، فمن ادعى أنه يحب الله وهو يحب الدنيا فهو كاذب في دعواه لأن الله يبغضها. وكان إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول في دعائه: اللهم يا حابس السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه احبس عن إبراهيم الدنيا، وكان وهب ابن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كنا معاشر بنى آدم نسلاً من نسل الجنة، فسبانا إبليس وأخرجنا منها إلى دار الفناء والبوار فلا ينبغي لعاقل أن يفرح ويطمئن إلا بعد عوده إلى الدار التى خرج منها.

وقد دخل جماعة على رابعة العدوية ـ رحمها الله تعالى ـ فأكثروا من ذم الدنيا عندها، فقالت لهم: كفوا عن ذكرها، فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها، وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إن الجسم إذا تكامل سقمه لا ينجح فيه طعام ولا شراب، وكذلك القلب إذا علق فيه حب الدنيا لا تنجح فيه المواعظ. وكان الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره، والمنافسة المفاخرة، وقد كان كعب الأحبار ـ رضي الله عنه ـ يقول: مر عيسى عليه الصلاة والسلام يومًا على رجل نائم، فقال له: ألا تقوم يا هذا فتعبد الله عز وجل؟ فقال له الرجل: إنى قد عبدته بأفضل العبادة، قال عيسى: وما هى؟ قال: تركت الدنيا لأهلها، فقال له عيسى: صدقت نم، فقد فقت العابدين.

وكان وهب بن منبه ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الدنيا جيفة فمن أراد منها شيئًا فليصبر على مخالطة الكلاب له. وكان مسلم النحات ـ رحمه الله

تعالى - يقول: والله لجراب بعر أوقد به تحت التنور أحب إلى من جراب ذهب. فاعلم ذلك يا أخى، واعمل عليه إن طلبت النجاة، فقد ورد فى الحديث: «**إن بين يديكم عقبة كئودًا لا ينجو منها إلا المخفون، فقال رجل: يا رسول الله أمن المثقلين أنا أم من المخفين؟ فقال له: النبى -ﷺ-: أعندك قوت يومك؟ قال: نعم وغد يا رسول الله، فقال -ﷺ-: لو كان عندك قوت بعد غد كنت من المثقلين**» فهذا ميزان الشريعة وأنت أعلم بنفسك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضى الله تعالى عنهم-: تقديمهم عمل الحرفة والصنعة التى تكفهم عن سؤال الناس على سائر نوافلهم وواجباتهم الموسعة. وقد سُئل الحسن البصرى - رحمه الله تعالى - عن رجل يحتاج إلى الكسب، فلو ذهب لصلاة الجماعة احتاج ذلك النهار إلى سؤال الناس، فقال: يتكسب ويصلى منفردًا، وفى الحديث: «**إن الله عز وجل علم آدم عليه الصلاة والسلام ألف حرفة، وقال: قل لولدك يتعلمون هذه الحرف، ويأكلون بها، ولا يأكلون بدينهم**»، وفى الحديث أيضًا: «**إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسًا لن تموت حتى تستوفى رزقها، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب، ولا يحملكنم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فإن الله لا ينال ما عنده بمعصية**»[1] وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يقول: لا يقعد أحدكم فى المسجد ويترك طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقنى، فإن ذلك خلاف السنة، وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة.

وقد سُئل الإمام أحمد بن حنبل -رضي الله عنه- عن رجل جلس فى بيته أو فى المسجد، وقال: لا أعمل شيئًا حتى يعطينى الله تعالى رزقى، فقال: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبى -ﷺ-: «**جعل الله رزقى تحت**

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١٠/ ٢٦، ٢٧)، والبغوى فى شرح السنة (١٤/ ٣٠٤) من حديث أبى أمامة -رضي الله عنه- وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٨٥) وانظر أيضًا تعليق الشيخ شعيب الأرنؤوط فى شرح السنة حيث ذكر شواهده.

ظل سيفي»(١). يعني الغنائم، قلت: ويشهد لذلك أيضًا حديث الطبراني في الطير، وأنها تغدو خماصاً وتروح بطانًا فقد ذكر فيها أنها تغدوفي طلب الرزق. وكان الصحابة -رضي الله عنهم- يتجرون برا وبحرًا، والقدوة بهم أولى، وقد قال تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [النور: ٣٧]، فسماهم رجالاً لما قاموا في الأسباب، ولم يشغلوا بها عن ذكر الله، وهذا هو الكمال.

وقد روى أن عيسى عليه الصلاة والسلام مر يومًا برجل جالس، فقال له: ما تفعل ههنا؟ فقال: أتعبد يا روح الله، قال: فمن يعولك؟ قال: أخي، فقال له: أخوك أعبد منك، وفي الحديث: أنهم ذكروا للنبي -ﷺ- رجلاً وصاروا يثنون عليه خيرًا، ويذكرون من عبادته سفرًا وحضرًا، فقال -ﷺ-: «فمن كان يطعمه ويسقيه ويعلف دابته ويكفيه صنيعته؟ قالوا: نحن يا رسول الله، فقال-ﷺ-:كلكم خير منه»، وكان حذيفة -رضي الله عنه- يقول: خيركم من عمل لآخرته ودنياه، وقد كان عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- يقول: إني لأكره أن أرى رجلاً فارغًا من أعمال الدنيا والآخرة. وكان أبو قلابة -رضي الله عنه- يقول: إذا كان الرجل في معاشه ساعيًا، فهو أفضل من الجالس في المسجد.

وقد كان أبو سليمان الداراني - رحمه الله تعالى - يقول: ليس الشأن أن تصف قدميك للعبادة وغيرك يتعب لك، إنما الشأن أن تحوز رغيفك في بيتك، ثم تعلقه وتصلي فلا تبالي بعد ذلك بأي داق دق الباب، بخلاف من قام في بيته يصلي، وليس عنده شيء يأكله، فيصير كل داق دق الباب يقول: إن معه رغيفًا. وكان سفيان الثوري - رحمه الله تعالى - يقول

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٥٠-٩٢) من حديث ابن عمر بلفظ: «بعثت بين يدى الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الزل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم».
وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٣١) والإرواء (١٢٦٩)، ولابن رجب الحنبلي رسالة موجزة حول شرح هذا الحديث بعنوان «الإذاعة في شرح حديث بعثت بين يدى الساعة» فانظرها لعظيم فائدتها.

لأصحابه: عليكم بالحرفة، فإن عامة من أتى أبواب الأمراء إنما أتاهم من حاجة. اهـ.

فاعلم ذلك يا أخي واعمل عليه، واتبع سلفك، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله تعالى عنهم-: حب المساكين والتواضع لهم والنفرة من مجالسة الأغنياء من غير احتقار لهم عملاً بقوله -ﷺ-: **«اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين»**[1]. وقد كان سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام مع ما أوتيه من الملك إذا دخل المسجد يجالس المساكين، ويقول: مسكين جالس مساكين. وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يحب أن ينادى يا مسكين. ولم يكن يحب إلا هذا الاسم. وكان سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: يختبر عقل الرجل بما إذاجلس بجنبه على بساطه مسكين رث الهيئة بغير إذنه، فإن تكدر منه فهو ناقص العقل. وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: بلغنا أن نبيًا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قال: يا رب كيف لي أن أعلم رضاك عني؟ فأوحى الله تعالى إليه أن انظر رضا المساكين عنك. وروى أن أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- زجر جماعة من أهل الصفة في أمر بلغه عنهم -رضي الله عنهم- فبلغ ذلك رسول الله-ﷺ-، فقال له: **«لعلك يا أبا بكر أغضبتهم، إن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك»**[2] قال: فذهب إليهم أبو بكر، وتعطف بهم، وقال: لعلي أغضبتكم فقالوا: لا ويغفر الله لك يا أبا بكر. وقد كان عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- يقول: أتباع الأنبياء في كل زمان الفقراء والمساكين دون الأغنياء والمتكبرين، وقد كان رسول الله-ﷺ- أشد الناس تواضعًا للفقراء، وكان إذا جلس عندهم يضع الركبة على الركبة، ويقول: **«إنما أنا عبد أجلس**

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٤١٢٦٦) في الزهد، باب: منزلة الفقراء وصححه الألباني في الإرواء (٨٦١).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٠٤) في فضائل الصحابة باب: من فضائل سلمان وصهيب وبلال، من حديث عائذ بن عمرو -رضي الله عنه-.

كما يجلس العبد»[١]، وفي الحديث: «**من سره أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار**».

قلت: معنى الحديث كما قاله بعض العلماء: أن يحب وقوف الناس بين يديه وهو جالس كما يفعل الملوك وبعض مشايخ العجم، والله أعلم. وكان أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يقول: لم يكن أحد أحب إلينا من النبي ـ ﷺ ـ، وكنا إذا ورد علينا لا نقوم له لما نعلم من كراهيته لذلك إلا حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ كان يقوم له، ولا يتمالك الصبر عن ذلك ويقول: لا يليق بمن له دين وعقل أن يراك يا رسول الله ،ولا يقوم، وكان ـ ﷺ ـ يقره على ذلك. وقد كان أبا الدرداء ـ رضي الله عنه ـ يقول: لا يزداد عبد يمشي الناس معه إلا بعداً من الله تعالى. وفي رواية: لا يزداد العبد بالمشي خلفه من الله تعالى إلا بعداً. وقد قيل ليونس بن عبيد ـ رحمه الله تعالى ـ لما انصرف من الموقف بعرفة: كيف كان الناس؟ قال: بخير إلا أني كنت فيهم، ولولا أن الله تعالى لطف بهم لما أنزل عليهم رحمة بسببي. وكان زياد النميري ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر.

وكان عبد العزيز بن أبي روّاد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: والله لا أعرف على وجه الأرض الآن رجلاً أشر مني، وكان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ يخدم الضيوف بنفسه، ويقوم بصلح المصباح فإذا قيل له في ذلك؟ يقول: قمت وأنا عمر، وجلست وأنا عمر، وكان ميمون بن مهران ـ رحمه الله تعالى ـ إذا دعى إلى وليمة يجلس بين المساكين، ويلحس الأواني معهم، قال: وثارت ريح حمراء فسألوا عبد الله بن مُقاتل ـ رحمه الله ـ أن يدعو لهم؟ فقال: يا ليتني لا أكون سبباً لهلاكهم. قال: فرأى بعضهم النبي ـ ﷺ ـ تلك الليلة في منامه، وقال له: إن الله تعالى دفع عنكم شر ذلك الريح بدعاء عبد الله بن مُقاتل حين هضم نفسه، وقد صلى بشر بن منصور ـ رحمه الله تعالى ـ مرة وأطال فيها، وكان ذا خشوع، وكان

(١) ضعيف: سبق تخريجه.

خلفه رجل لم يعلم به، فلما سلم من صلاته قال له: يا أخى لا يعجبنك ما رأيت منى، فإن إبليس قد عبد الله تعالى مع الملائكة آلافًا من السنين، ثم صار إلى ما تعلم. وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا الناس وهم ينفرون من مجالسة الأغنياء، ومن مجالسة كل غافل عن الله تعالى، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: لا تدخلوا على هؤلاء الذين يجمعون الدنيا ولا ينفقونها فى سبيل الله تعالى، فإن ذلك مسخطة للرب عز وجل، وربما ازدرى أحدكم ما هو فيه من النعم برؤية أمتعتهم. وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كم من عالم يدخل على السلطان ومعه دينه، فيخرج وليس معه من دينه شىء، والعياذ بالله تعالى، وكان عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: التعزز على الأغنياء تواضع. وقد كان حذيفة ـ رضي الله عنه ـ يقول: اتقوا الوقوف على أبواب السلاطين، فإنه مواضع الفتن، وكان أبوالدرداء ـ رضي الله عنه ـ يقول: ما أنصفنا إخواننا الأغنياء يقول لى أحدهم: إنى أحبك فى الله يا أبا الدرداء، فإذا طلبت من أحدهم شيئًا من الدنيا فارقنى وهرب، ويكفينا من الأغنياء فى الشرف فرارهم إلينا عند الشدائد وعدم فرارنا نحن إليهم.

وقد كان سعيد بن المسيب ـ رحمه الله تعالى ـ يتجر فى الزيت ويقول: إن فى هذا الغنى عن الوقوف على أبواب الأمراء. وكان ميمون بن مهران ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: صحبة السلطان خطر عظيم، فإنك إن أطعته خاطرت بدينك، وإن عصيته خاطرت بنفسك، فالسلامة أن لا تعرفه ولا يعرفك. ولما خالط الزهرى السلطان كتب إليه مالك بن دينار يقول: عفانا الله يا أخى مما وقعت أنت فيه من الفتن بعد أن كنت شيخًا عالمًا ختمت عمرك بصحبة الظالمين، وصرت تحاجج عنهم إذا أنكر أحد عليهم، ولو لم يكن فى قربك منهم إلا أنك آنستهم وطردت وحشتهم لكفاك ذلك من الإثم، ثم إن مالكًا هجره إلى أن مات. اهـ.

فاعلم يا أخى ذلك، وإياك ومجالسة الأغنياء وأبناء الدنيا إلا لضرورة شرعية يسوغ لك معها ذلك، والحمد لله رب العالمين.

من أخلاقهم -رضى الله تعالى عنهم-: محبة المال للإنفاق لا للإمساك، وتقديمهم الخوف من الحاجة إلى الناس على خوف الحساب من جهة ذلك المال الذى ربما دخلته الشبهة، وقد كان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لأن أخلف بعدى أربعين ألف دينار أسأل عنها يوم القيامة أحب إلى من أن أقف على باب أحد أسأله حاجتى. وفى حكمة لقمان عليه السلام قال لابنه: يابنى استغن بالكسب الحلال عن الفقر، فإنه ما افتقر أحد إلا وأصابته ثلاث خصال، الأولى: رقة الدين، والثانية: ضعف العقل، والثالثة: ذهاب المروءة، وهى أعظمها، وأعظم من هؤلاء الثلاثة استخفاف الناس به. وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: حفظك لما فى يدك لتقضى به حاجتك أول من تصدقك به، وطلبك لمافى يد غيرك، فإن العبد لايزال بخير ما حفظ خصلتين درهمه لمعاشه ودينه لمعاده. وكان قيس ابن عاصم مع شدة زهده وورعه ـ رحمه الله تعالى ـ يقول لبنيه: عليكم بجمع المال الحلال، فإنه يسر الصديق، ويكمد العدو، وتستغنوا به عن سؤال الناس لا سيما اللئيم، وإياكم وسؤال الناس، فإنه كسب العاجزين.

وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لقد أدركنا الناس وهم يبيعون فى السوق، وعلى أحدهم الزحام من الناس، فإذا سمع الأذان للصلاة نهض مسرعًا، وترك البيع، وأما أهل زماننا فإن نفق السوق أخروا الصلاة، وإن كسد ندموا.

وكان أبو قلابة ـ رضي الله عنه ـ يقول: عليكم بملازمة السوق والصنعة فإنكم لن تزالوا كرماء على إخوانكم ما لم تحتاجوا إليهم وقد وقف سائل مرة على باب مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ فخرج إليه برغيف فأعطاه له، فقال له: زدنى فأعطاه آخر فلم يزل يسأل ويستزيد ومالك يعطيه حتى أخرج إليه جميع ما عنده فى البيت حتى الأوانى والفرش وغير ذلك، فقال له: زدنى، فقال مالك: والله يا أخى لم يبق عندى شىء إلا أن تأخذنى وتبيعنى وتقبض ثمنى، قال: فتركه السائل وذهب ولم يأخذ شيئًا مما أعطاه، قال بعضهم: ويقال: إنه كان ملكًا جاء ليختبره. وقد كان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: من رد سائلاً خائبًا لم تغش الملائكة

بيته سبعة أيام عقوبة له. قلت: ومحل ذلك ما إذا رده مع القدرة وأما العاجز فلا والله أعلم.

وقد سئل سحنون - رحمه الله تعالى - عن الرجل يسأله السائل فيخرج له بصدقته فيجده قد ذهب فماذا يفعل بتلك الصدقة؟ فقال: أحب أن يتصدق بها على غيره، وإن أعادها إلى ماله فلا بأس. اهـ.

فاعلم ذلك يا أخي، أنفق كل ما دخل في يدك وفضل عن حاجتك، ولاتدخر شيئًا إلا على اسم غيرك من العائلة ونحوهم، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله تعالى عنهم-: كثرة الصدقة ليلاً ونهارًا بكل ما فضل عن حاجتهم بشرط الحل في ذلك كما تقدم مرارًا فقد ورد في الحديث: «**ولا يكسب عبد مالاً من حرام فيتصدق به فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار**».

وقد كان سيدي على الخواص - رحمه الله تعالى - يقول: ترك قبول الشبهات وعدم التصدق بها أولى، وهذا الخلق قد كثر تخلق الفقراء به في هذا الزمان فيأخذ أحدهم الشبهات ويتصدق بها ويعمل منها مواليد، ويطعم الناس تأليفًا لقلوبهم أو لتعظم له عليهم الرياسة، وبعضهم يقبل الشبهات على اسم الفقراء ويأكلها وحده، وهذا أقبح حالاً من الأول.

وقد حث رسول الله -ﷺ- على الصدقة وقال: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة**»[1]، ومعلوم أن الصدقة من الشبهات لا تقي صاحبها من النار.

وقد كانت عائشة -رضي الله عنها- تقول: قال لي رسول الله-ﷺ-: «**يا عائشة إذا طبختم قدرًا فأكثروا من مرقتها وتعاهدوا الجيران**»[2]، وكذلك قال -

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤١٣) في الزكاة، باب: الصدقة قبل الرد. ومسلم (١٠١٦) في الزكاة باب: الحث على صدقة ولو بشق تمرة، النسائي (٥/ ٧٥) في الزكاة، باب: القليل من الصدقة. جميعًا من حديث عدي بن حاتم -رضي الله عنه-.

(٢) صح الحديث من حديث أبي ذر عند مسلم (٢٦٢٥) في البر والصلة باب: الوصية بالجار. والبخاري في الأدب المفرد (١١٤) بلفظ: «يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر =

ﷺ- لأبي الدرداء -رضي الله عنه- «يا أبا الدرداء إذا صنعت طعامًا فأكثر المرق وتعاهد جيرانك».

وقد تصدقت عائشة -رضي الله عنها- بسبعين ألف درهم وإن درعها لمرقع، وكان مجاهد - رحمه الله تعالى - يقول: لا يتصدق أحدكم إلا بما يشتهيه فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ [الإنسان:٨]، أي وهم يشتهونه.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يقول: اللهم اجعل الفضل عند خيارنا فلعلهم يعودون على أولي الحاجة منا، وكان عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - يقول: تصدقوا فإنه بلغنا أن الصلاة تبلغ العبد نصف الطريق، والصوم يبلغه باب الملك، والصدقة تدخله على الملك.

وفي الحديث: «أن عابدًا عبد الله سبعين سنة ثم أصاب فاحشة فأحبط عمله بها، ثم نزل يغتسل فمر به مسكين فتصدق عليه برغيف فغفر الله له ذنبه وردّ عليه عمله»، وفي الحديث أيضًا: «باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتجاوزها»[1] وقد كان الصحابة -رضي الله عنهم- لا يخرجون لصلاة الصبح إلا بشيء يتصدقونه على أول مسكين يلقونه، ولو بلقمة أو بصلة أو زبيبة، وكان يحيى ابن معاذ - رحمه الله تعالى - يقول: تصدقوا بالسليم فإنه لا ينبغي أن يكون فيما يخرجه المرء لله تعالى عيب أو نقص، وقد سئل الإمام مالك -رضي الله عنه- عن شرب الأغنياء من الماء الذي يسيل في المسجد؟ فقال: لا بأس به لأنه إنما جعل للعطشان كائنًا ما كان ولم يرد صاحبه تخصيص أهل الحاجة به.

وكان الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى - يقول: اكتسبوا من الحلال وتصدقوا منه، فإن رسول الله -ﷺ- قال: «من لم يبال من أين اكتسب المال

= ماءها وتعاهد جيرانك». وفي الباب عن جابر عند البزار (١٠٩١)، وانظر صحيح الجامع (٦٧٦، ٦٧٧) والصحيحة (١٣٦٨).

(١) ضعيف جدًا: ذكره الشيخ الألباني في ضعيف الجامع (٢٣١٧) وعزاه إلى الطبراني في الأوسط من حديث علي -رضي الله عنه-، والبيهقي من حديث أنس -رضي الله عنه- وقال رحمه الله تعالى: ضعيف جدًا.

لم يبال الله به من أين يدخله النار» وفى الحديث: «من أصاب مالاً من مأثم فوصل به رحمًا أو تصدق به أو أنفقه فى سبيل الله جمع له ذلك جميعًا ثم قذف به فى نار جهنم». وقد كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول: إنكم لتغفلون عن الورع وهو أفضل العبادة، وقد كان عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول: لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا وصمتم حتى تكونوا كالأوتار ما تقبل الله تعالى ذلك منكم إلا بورع حاجز.

وكان إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: ما أدرك من أدرك من القوم إلا لكونه يعقل ما يدخل جوفه -يعنى رغيفه من الحلال-، وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من عرف كل ما يدخل فى جوفه كتب عند الله صديقًا، ومن لم يصحبه الورع فى فقره أكل الحرام المحض ولا يشعر، وكان بشر الحافى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: الورع هو ترك التأويل وترك الأخذ بالرخص عند الضرورات، وكان يونس بن عبيد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لو أنا نجد درهمًا من حلال لكنا نشترى به قمحًا ونطحنه ونحوزه عندنا، فكل من عجز الأطباء عن مداواته داويناه به فخلص من مرضه لوقته، وكان مسعر بن كدام ـ رضي الله عنه ـ يقول: ما أعلم اليوم فى زماننا هذا حلالاً إلا ما يشربه الرجل من النهر بكفه، وكان عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: كسب الحلال أشد من نقل جبل إلى جبل.

وكان وهب بن الورد ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لو قام أحدكم حتى صار مثل هذه السارية ما تقبل الله منه ذلك حتى يعلم ما يدخل فى جوفه، وكان سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من تصدق من حرام أو أنفقه فى طاعة فهو كمن يطهر ثوبه بالبول، وكان يقول: لا تكف الصدقة شيئًا من الذنوب إلا إن كانت من حلال، وكان عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: لا يقبل الله صلاة أحدكم وفى جوفه شىء من الحرام، وقد أقام إبراهيم بالشام أربعًا وعشرين سنة لأجل طلب القوت الحلال ولم يقم لجهاد ولا غيره، وكانت إقامته فى جبل لبنان فكان يأكل من فواكهه المباحة التى لم تدخل فى ملك أحد من الخلق ـ رحمه الله تعالى ـ كان بشر الحافى يقول: بلغنا أن معبداً ـ رحمه الله تعالى ـ ترب مرة كتاب من حائط

جاره بغير إذنه فرأى تلك الليلة فى منامه قائلاً يقول له: سيعلم المستخف بالتراب ما يلقاه غداً من سوء الحساب، وقد كان السلف يسافرون لتلعم الورع كما يسافرون لطلب العلم والحج -ﷺ- فاعلم ذلك يا أخى ودقق فى الورع، وهيهات أن تصل إلى شبهات السلف الصالح، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضى الله تعالى عنهم-: عدم حبهم للرياسة فى شىء من أمور الدنيا لما فيها من كثرة الآفات.

وقد كان الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى - يقول: ما أحب أحد الرياسة على الناس إلا أحب ذكر عيوب الناس ونقائصهم، وكره ذكرهم بخير لتتم له الرياسة عليهم، وكأن محل ذلك فيمن طلب الرياسة بغيرحق أما الطالب بالله فلا، وكان يقول: من أحب الرياسة على الناس لم يرتفع أبداً.

وكان الإمام الشافعى -رضي الله عنه- يقول: من طلب الرياسة قبل حينها فرّت منه ومن تركها اتبعته، وكان يحيى بن الحسين -رضي الله عنه- يقول: سمعت سفيان الثورى يقول: من طلب الرياسة قبل وقتها فاته علم كثير، وتقدم بسط الكلام على الرياسة فى هذا الكتاب فراجعه، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضى الله تعالى عنهم-: سرورهم بالفقر وضيق المعيشة، وغمهم بالغنى إذا أقبل وهذا الخلق لا يوجد اليوم إلا فى بعض أفراد من الفقراء الذين صدقوا فى محبة رسول الله -ﷺ-. وقد أدركت بحمد الله تعالى جماعة من أشياخ مصر كانوا -رضي الله عنهم- ينشرحون للفقر وضيق المعيشة، ويكثرون من الحمد والشكر على ذلك منهم شيخنا سيدى على الخواص وسيدى الشيخ محمد بن عنان، وسيدى محمد المنير، والشيخ محمد العدل وغيرهم، ولهذا الخلق لذة عظيمة أشد من لذة الغنى كما ذقنا ذلك ولله الحمد، ولكن لا تحصل تلك اللذة إلا لمن كمل زهده فى الدنيا كما تقدم بسطه مراراً، وقد كان رسول الله -ﷺ- رأس

الزاهدين، وكان يقول: **«اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا»**[١]، وفي رواية **«كفافًا»** وهو الذي لا يفضل عن غدائهم ولاعشائهم شيء منه وفي الحديث: **«من أصبح آمنًا في سربه - أي نفسه - معافى في جسمه عنده قوت يومه فكأنه حيزت له الدنيا بحذافيرها»**[٢]. وقد قيل مرة لمحمد بن واسع - رحمه الله - ألا تأتي السلطان فتسأله شيئًا تأكله فإنا نخاف عليك أن تموت مهزولاً فقال: لأن ألقى الله تعالى مؤمنًا مهزولاً خير لي من أن ألقاه منافقًا سمينًا، وقيل مرة لإبراهيم بن أدهم - رحمه الله تعالى - بم نلت هذه الحكمة التي نراك تنطق بها؟ فقال: ببدن عار، وقلب خائف، وبطن جائع، وفي رواية قال: نلتها بقلة الأكل وقلة النوم، وقلة الكلام، وعدم ادخار شيء لغد، وقد سئل ذو النون المصري - رحمه الله تعالى - من أقرب الناس إلى الوقوع في الكفر؟ فقال: شخص ذو فاقة وعيال ولا صبر له. قلت: ووقوع مثل هذا الكفر يكون بالألفاظ التي ظاهرها السخط على مقدور الله تعالى والله أعلم.

وكان أبو الدرداء - رضي الله عنه - يقول: صاحب الدرهمين أشد حبًا للدنيا من صاحب الدرهم الواحد، وكان الفضيل بن عياض - رحمه الله - يقول: إن افتقر أحدكم فلا يجعل فقره بينه وبين الناس وليجلعه فيما بينه وبين الله.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٥٥) في الزكاة باب: الكفاف القناعة، والبخاري (٦٤٦٠) في الرقاق باب: كيف كان عيش النبي - ﷺ -، والترمذي (٢٣٦١) في الزهد: باب: ما جاء في معيشة النبي - ﷺ - وابن ماجه (٤١٣٩) في الزهد: باب القناعة، جميعًا من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -.

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٢٣٤٦) في الزهد، وابن ماجه (٤١٤٢) في الزهد باب: القناعة وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٤٤)، صحيح ابن ماجه (٣٣٤٠).

الحديث الأول: أخرجه مسلم (١٠٥٥) في الزكاة: باب الكفاف والقناعة. وأخرجه البخاري (٦٤٦٠) في الرقاق: باب كيف كان عيش النبي - ﷺ -، والترمذي (٢٣٦١) في الزهد: باب ما جاء في معيشة النبي - ﷺ -، وابن ماجه (٤١٣٩) في الزهد: باب القناعة. كلهم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -.

الحديث الثاني: أخرجه الترمذي (٢٣٤٦) في الزهد، وابن ماجه (٤١٤١) في الزهد، باب: القناعة، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٦٠٤٢)، صحيح ابن ماجه (٣٣٤٠).

لئلا يهون فى أعين الناس، ولو كشف الله الحجاب عن قلب العبد إذا ضيق عليه المعيشة، ورأى ما أعد الله تعالى له فى الجنة لسأله أن يزيده من الضيق فى الدنيا، وقد جاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ بعشرة آلاف درهم فلم يقبلها منه، وقال له: تريد أن تمحو اسمى من ديوان الفقراء بدراهمك هذه وتحبسنى عن دخول الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام اذهب عافاك الله تعالى، وقد روى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه الصلاة والسلام يا موسى إذا رأيت الدنيا مقبلة عليك فقل: ذنب عجلت لى عقوبته.

وكان أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول: ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب: رجل أراد أن يغسل ثوبه فلم يجد له خلقة يلبسها، ورجل لم ينصب على مستوقده قدرين، ورجل طلب شرابه فلا يقال له: أيهما تريد.

وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: رأيت فى منامى محمد بن واسع ويوسف بن أسباط ـ رحمهم الله ـ واقفين على باب الجنة فنظرت أيهما يدخل أولاً فإذا هو يوسف بن أسباط فقلت للملك كان هناك: لم دخل هذا قبل هذا؟ فقال: لأنه كان له قميص واحد وكان لهذا قميصان.

وقد وقع مرة حريق بالبصرة فخرج الناس بما لهم من الأمتعة، وخرج مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ ومصحفه معلق فى عنقه، وقال: هكذا نخرج من قبورنا غداً، وقد كان عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: من أكرم الغنى وأهان الفقير فهو ملعون، فإن حب الفقراء من أخلاق المرسلين، والفرار من صحبتهم من صفات المنافقين، وكان إبراهيم ابن أدهم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كان الفقراء فى مجلس سفيان الثورى ـ رحمه الله تعالى ـ كالأمراء وقد جاءه مرة رجل فقير فجلس بعيداً عنه فقال له: تقرب يا أخى، فلو كنت غنيًا ما قربتك، وكان أبوحازم ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: من خاف من الفقر لم يرفع له عمل إلى السماء لأنه ما خاف الفقر إلا لتهمته لربه عز وجل، والمتهم لله عدو لله وفى الحديث: **«جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فإن الأجر فى ذلك كأجر المجاهد فى**

سبيل الله»[1]، وفي الحديث: «**لا تميتوا القلب بالطعام والشراب، فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء**»[2]، وفي الحديث أيضًا: «**أذيبوا طعامكم بذكر الله**»[3] وفي رواية: «**والصلاة ولا تناموا عليه - يعني من غير ذكر - فتقسوا قلوبكم**»، وفي الحديث: «**شرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة**».

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يقول: إياكم والبطنة فإنه ثقل في الحياة ونتن في الممات.

وكان شقيق البلخي - رحمه الله تعالى - يقول: آلة العبادة الجوع، فإن المعدة إذا امتلأت قعدت الأعضاء عن العبادة، وكان فتح الموصلي - رحمه الله تعالى - إذا اشتد به المرض والجوع يفرح بذلك ويكثر من الشكر.

وكان مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - يقول: قلت لمحمد بن واسع - رحمه الله - طوبى لمن كان له قوت يغنيه عن الناس فقال لي: طوبى لمن أصبح جائعًا وأمسى جائعًا وهو راض عن ربه عز وجل ثم أخرج خبزًا يابسًا فبله بالماء وأكله بالملح وقال: من رضي من الدنيا بهذا فلا يحتاج إلى الناس.

---

(١) قال الشيخ الألباني في الضعيفة (٢٤٧): باطل لا أصل له. وقد ذكره الغزالي في الإحياء (٣/ ٦٩) مجزومًا برفعه إلى النبي ﷺ- ولوائح الوضع عليه ظاهرة. وقد قال الحافظ العراقي في تخريجه: «لم أجد له أصلاً». وكذا قال السبكي في «الطبقات الكبرى» (٤/ ٦٢).

(٢) لا أصل له: قال الشيخ الألباني: لا أصل له، وإن جزم الغزالي بعزوه إلى النبي -ﷺ-! فقد قال مخرجه العراقي (٣/ ٧٠) لم أقف له على أصل. وانظر الضعيفة (٧٢١).

(٣) موضوع: قال الشيخ الألباني في الضعيفة (١١٥): موضوع، أخرجه العقيلي في الضعفاء (ص ٥٧) وابن عدي في الكامل (٤٠/ ٢) وأبو نعيم في أخبار أصبهان (١/ ٩٦) وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص ١٥٦ رقم ٤٨٢)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٢١١/ ١) وابن نصر في قيام الليل (ص ١٩، ٢٠).

وأورده ابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ٦٩) وقال: موضوع.

فاعلم ذلك يا أخي واقتد بسلفك الصالح والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم - رضي الله تعالى عنهم -: كثرة الحزن على تفريطهم في جنب الله لا سيما عند رؤيتهم القبور وتذكرهم أهوال يوم القيامة، وخوفهم من الفتنة ما داموا في هذه الدار. وفي الحديث: «**لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر**»[١].

فخاف القوم أن يدركوا ذلك الزمان فلا يصبح لهم فيه صبر ويقع منهم سخط فيهلكوا، قال: ولما رأى رسول الله -ﷺ- قبر أمه بكى فقيل له في ذلك، فقال: «**أخذني ما يأخذ الولد من الرقة**»[٢]. وكان -ﷺ- قد استأذن ربه في أن يستغفر لها فلم يأذن له. قلت: وقد نقل الحافظ الجلال السيوطي - رحمه الله تعالى - وغيره من الحفاظ إحياء أبوي النبي -ﷺ- حتى آمنا به ثم رجعا إلى القبر[٣].

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (٧١١٥) في الفتن: باب لا تقوم الساعة حتى يغبط أهل القبور، وأخرجه مسلم (٩/ ٢٦١) نووي، في الفتن: باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل..، وأخرجه ابن ماجه (٤٠٣٧) في الفتن، باب: شدة الزمان بلفظ: «والذي نفسي بيده، لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه، ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر وليس به الدين إلا البلاء». جميعًا من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، ولكن صح زيارة النبي -ﷺ- قبر أمه وبكاءه وبكاء من حوله لبكائه كما في مسلم (ح ٩٧٦) في الجنائز، باب: استئذان النبي -ﷺ- ربه عز وجل في زيارة قبر أمه. من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-. وأخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٣٥٥-٣٥٧-٣٥٩) من حديث بريدة -رضي الله عنه- أنه قال: كنا مع النبي -ﷺ- في سفر وفي رواية في غزوة الفتح فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب فصلى ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان فقام إليه عمر بن الخطاب ففداه الأب والأم يقول: يا رسول الله مالك. قال: إني سألت ربي عز وجل في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي فنصعت عيناي رحمة لها من النار... إلخ. صححه الشيخ الألباني في أحكام الجنائز ص١٠٨.

(٣) لم يصح ما ذكره الشعراني رحمه الله والسيوطي وهو يخالف قول الله عز وجل: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ وقوله: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ الآيات. ويخالف أيضًا ما ورد في الحديث الصحيح السابق ذكره=

وكان أمير المؤمنين عثمان بن عفان -رضي الله عنه- إذا مر بقبر بكى حتى يبل لحيته. وقد مر عمرو بن العاص -رضي الله عنه- يومًا على مقبرة فنزل وصلى ركعتين قريبا من القبور فسئل عن ذلك، فقال: إني رأيتهم قد حيل بينهم وبين الصلاة فأحببت أن أتقرب بينهم بركعتين استغنامًا للعمر، وقد كان مجاهد - رحمه الله تعالى - يقول: أول من يكلم الميت حفرته فتقول له: أنا بيت الغربة، أنا بيت الظلمة، أنا بيت الدود، هذا ما أعددته لك فأين ما أعددت لي؟ وقد كان الحسن البصري - رحمه الله تعالى - يقول: لما مات هرم بن حبان -رضي الله عنه- جاءت سحابة فظللت على سريره فلما واريناه رشت على قبره حتى ساح الماء ولم ينزل على ما حول قبره قطرة، وكان أبو ذر -رضي الله عنه- يقول: : ألا أخبركم بيوم فقري يوم أوضع في قبري.

وكان أبو الدرداد -رضي الله عنه- يقعد بين القبور كثيراً فسئُل عن ذلك. فقال: إنهم يذكروني معادي وإذا قمت وفارقتهم لم يغتابوني.

وكان جعفر بن محمد -رضي الله عنه- يأتي المقابر ويناديهم فلا يجيبونه فيقول لنفسه: يا جعفر كأنك وقد صرت مثلهم لا يتجيب المنادي ثم يصف قدميه للصلاة فلا يزال كذلك إلى الفجر. وفي الحديث: «ما من ليلة إلاومناد ينادي يا أهل القبور من تغبطون اليوم فيقولون: نغبط أهل المساجد لأنهمَ يصومون ولا نصوم ويصلون ولا نصلي ويذكرون الله ولا نذكره»، وكان عطاء السلمي - رحمه الله تعالى - إذا جنه الليل يخرج إلى المقابر فلا يزال يناجيهم إلى الفجر. وكان أحمد بن حرب - رحمه الله - يقول: إن الأرض لتعجب من رجل يمهد فراشه للنوم في دار الدنيا وتقول له: ألا تذكر طول رقادك في بطني من غير أن يكون بيني وبينك فراش.

وكان ثابت البناني - رحمه الله تعالى - يقول: دخلت المقابر فلما أردت الخروج منها إذ أنا بصوت حزين يقول: يا ثابت لا يغرنك صموت أهلها

= من قوله - ﷺ - استأذنت ربي أن استغفر لأمي فلم يأذن لي. واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي». وليت شعري من هؤلاء الحفاظ الذين عزا إليهم الشعراني هذا الكلام الذين خالفوا النصوص الواردة في ذلك.

فكم من نفس معذبة فيها وقد وقف محمد بن سليمان على قبر ابنه ـ رحمهما الله تعالى ـ وقال: اللهم أصبحت أرجوك وأخاف عليه كما أخاف على نفسي فحقق رجائي فيك يا أرحم الراحمين.

وقد وقف أبو سنان على قبر ولده ـ رحمهما الله ـ فقال: اللهم إني قد عفوت عنه وغفرت له ما وجب لي عليه فأسألك أن تغفر له ما وجب لك عليه يا كريم.

وكان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: رأيت محمد بن يسار بعد موته ـ رحمه الله تعالى ـ فقلت له: ماذا فعل الله تعالى بك؟ فدمعت عيناه وقال: رأيت والله أهوالاً وزلازل عظامًا شدادًا، ثم خرّ مالك مغشيًا عليه، وكان يقع له ذلك كلما حكى هذه الحكاية ثم حكاها يومًا فغشى عليه ومرض ثم مات بعد ثلاثة أيام ـ رحمه الله تعالى ـ ولما مات منصور بن عمار ـ رحمه الله تعالى ـ رآه بعض أصحابه في المنام فسأله عن حاله وما فعل الله تعالى به؟ فقال: قال لي عز وجل: يا منصور قد غفرت لك على تخليط كثير كان منك لأنك كنت تحرض الناس على كثرة ذكرى.

وقد كان الحرث المحاسبي ـ رحمه الله تعالى ـ لا يزال يذكر أهوال يوم القيامة ويقول لأصحابه: اجعلوا الأهوال التي بين أيديكم على بالكم لعل أن تتوبوا عن المعاصي قبل موتكم فإنه ما من أحد يعصي ربه عز وجل إلا وهو ناس للحساب ومقاساة الأهوال وإني أحذركم وأحذر نفسي من يوم آل الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدًا حتى يسأله عن عمله كله دقيقه وجليله سره وعلانيته، فانظروا بأي بدن تقفون بين يديه مع هول ذلك الموقف وبأي لسان تجيبون؟ فأعدوا للسؤال جوابًا وللجواب صوابًا.

وكان يحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: كم من فضيحة يكشفها الحساب غدًا، وكان أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ يقول: يؤتى بالنار يوم القيامة تقاد بسبعين ألف زمام في صورة الجاموس يقود كل زمام منها سبعون ألف ملك مغلقة أبوابها عليها ملائكة سود معهم السلاسل الطوال والأنكال الثقال وسرابيل القطران ومقطعات النيران، لأعينهم لمعان كلمح البرق

الخاطف، ولوجوههم لهب كالنار شاخصة أبصارهم لا ينظرون إلى ذى العرش جل جلاله تعظيمًا له، فإذا دنت النار وكان بينهما وبين الخلائق خمسمائة عام زفرت زفرة فلا يبقى أحد إلا جثا على ركبتيه وأخذته الرعدة فصار قلبه معلقًا إلى حنجرته لا يخرج ولا يرجع إلى مكانه وذلك قول الله تعالى: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ [غافر:١٨]، وينادى إبراهيم الخليل وغيره من الأنبياء اللهم لا تهلك عبادك بخطيئاتنا، ثم توضع النار عن يسار العرش، ثم يؤتى بالميزان فيوضع بين يدى الجبار جل جلاله ثم يدعى الخلائق للحساب، فلو أن للرجل مثل عمل سبعين نبياً ما ظن أنه ينجو من شدة ذلك اليوم.

ومكث عتبة الغلام يأكل الخبز بالماء ثلاثين سنة، وكان يأتدم فى بعض الأحيان بالملح أو البقل أوالخل. وكان يعجن عجينه ويقرصه فى الشمس فإذا جمد أكله ويقول: المراد بالأكل أن يرد عنى كلب الجوع، وكان يحيى بن معاذ يقول: جوع الصديقين كرامة لهم وجوع الزاهدين جوع حكمة.

وكان أبو سليمان الدارانى يقول: الجوع عند الله فى خزائنه لايعطيه إلا لمن أحب وكان يقول: أحلى ما تكون العبادة لى إذا لصق بطنى على ظهرى. وكان يقول: لأن أترك لقمة من عشاى أحب إلى من قيام ليلة إلى الصباح.

وكان وهب بن منبه -ﷺ- يقول: التقى ملكان فى السماء الرابعة. فقال: أحدهما للآخر: من أين أتيت؟ فقال: أمرت بسوق حوت فى البحر إلى فلان اليهودى ليأكله. فقال الآخر: ومن أين جئت؟ قال: أريق زيتًا اشتهاه محمد العابد خوفًا أن يأكله فينقص من حظه فى الآخرة. وفى الحديث: «**طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافًا وقنع**»[(١)]. ورأى بعض

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذى (٢٣٤٩) فى الزهد، باب: ما جاء فى الكفاف والصبر عليه. وأخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ١٩)، والحاكم فى المستدرك (١/ ٣٤، ٣٥) وابن حبان فى صحيحه (٧٠٥). من حديث فضالة بن عبيد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١١٣٨).

الملوك فقيراً جلس فى ظل قصره فأكل كسرة يابسة بلها بالماء ثم شرب ونام، فلما استيقظ طلبه السلطان وقال: لما أكلت الكسرة وشربت الماء عليها ونمت كنت راضيا عن ربك؟ فقال: نعم فدارت الكلمة فيه، ثم خرج من ملكه ولبس المسوح وخرج سائحًا.

ومرّ رجل بعامر بن قيس وهو يأكل ملحًا وبقلاً، فقال له: يا قيس رضيت من الدنيا بهذا؟ فقال: نعم ولكن أدلك على من رضى بأيسر من هذا، فقال: نعم فقال: من رضى بالدنيا عن الآخرة. وكان محمد بن واسع يخرج خبزاً يابسًا ويبله بالماء والملح ويأكله ويقول: من رضى من الدنيا بهذا لا يحتاج إلى الناس، ودق هارون الرشيد باب الفضيل بن عياض بمكة لما حج هارون فلم يفتح له. فقال جعفر البرمكى: افتح لرجل يجب عليك طاعته فعلم الفضيل أنه الرشيد ففتح له فتحادثا طويلاً، ثم أمر له بعشرة آلاف دينار فلم يقبلها الفضيل. فقال له: فرقها على المساكين، فقال من جمعها فهو أحق بتفريقها ثم غافله وهرب وترك الرشيد فى البيت، فما ظهر الفضيل حتى خرج الرشيد من مكة. وتقدم قول سفيان الثورى: تعففوا عن الأكل من أطعمة الناس جهدكم فإنه ما وضع رجل يده فى قصعة رجل إلا ذل له.

وكان يزيد الرقاشى إذا وقع بصره على قبر يصرخ كما يصرخ الثور، وكان حاتم الأصم يقول: من مر بالمقابر ولم يتفكر فى نفسه ولم يدع لنفسه ولهم فقد خان نفسه وخانهم.

وكان كرز بن وبرة إذا رأى قبراً بكى، وقال: ليت أمي كانت عقيمًا فإن لولدها فى القبر حبسًا طويلاً. ومن بعد ذلك أهوالاً عظامًا يشيب منها الأطفال. وكان الحسن بن صالح إذا رأى القبور يقول: ما أحسن ظواهركم وإنما الدواهى فى بواطنكم. وكان شقيق البلخى يقول: القبر روضة من رياض الجنة على من كان يذكره وحفرة من حرف النار على من نسيه، وحفر الربيع بن خيثم قبراً فى داره فكان كلما وجد فى قلبه قساوة ينزل فيه ويتفكر فى أمره وما يلاقيه من أهوال يوم القيامة فلا يزال كذلك حتى يصبح، ونزل

فيه مرة وصار يردد قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾ [المؤمنون:٩٩، ١٠٠]، ثم قال: يا ربيع قد ارتجعناك وها أنت في الدنيا فقم للصلاة فيقوم، وخرج الحسن البصري في جنازة امرأة الفرزدق الشاعر فقال الحسن للفرزدق: ماذا أعددت لهذا اليوم؟ فقال: أعددت له شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله منذ ستين سنة فقال: أفلحت يا فرزدق إن مت عليها، وجاء حوشب بن مالك إلى مالك بن دينار. فقال: إني رأيت البارحة كأن مناديًا ينادي أيها الناس الرحيل الرحيل فما رأيت أحدًا ارتحل سريعًا سوى محمد بن واسع، فصاح مالك صيحة وخر مغشيًا عليه.

وكان سفيان بن عيينة يقول: مات أخ لي فرأيته بعد موته فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي كل ذنب استغفرته منه، وما لم أستغفره منه لم يغفره لي، وكان صالح بن بشر يقول: رأيت عطاء السلمي بعد موته، فقلت له: يرحمك الله لقد كنت طويل الحزن في دار الدنيا فما فعل الله بك؟ فقال: أعقبني ذلك الحزن راحة طويلة وفرحًا شديدًا.

قال: ورأيت الفضيل بن عياض بعد موته، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: لم أر شيئًا أفضل من تأدية الفرائض فعليكم بها، وكان عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول: إني لأود أن حسناتي تفضل على سيئاتي، ولو مثقال ذرة، ولو أنهم أوقفوني بين الجنة والنار وقالوا لي: تمن ما تريد؟ لتمنيت أن أكون ترابًا، وقد كان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: لو أني خيرت بين أن أبعث وأحاسب ثم أدخل الجنةبعد لك لاخترت أن لا أبعث، وكان أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ يقول: إن خوف الحساب لم يترك على بدني لحمًا.

وقد كان أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول: إذا سيق العصاة إلى جهنم وهم عطاش فأول ما يتحفون في النار بسم العقارب والحيات فتذوب أبدانهم والعياذ بالله تعالى، وقد كان عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية:٦]، إنه الشوك اليابس الذي يقف في حلوقهم.

وكان عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: يرسل الله تعالى

على العصاة البكاء، فلو أن السفن أجريت في دموعهم لجرت، وقد تقدم أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يقول: كم من وجه صبيح ولسان فصيح بين أطباق الثرى يصيح، وأقاويل السلف في الخوف كثيرة والحمدلله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله تعالى عنهم-: كثرة استشهادهم في تربية المريدين بما أدب الله تعالى به عباده المقربين من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، والأولياء والصلحاء -ﷺ- في الكتب السالفة، وذلك ليعلم المريدون أن تقوى الله تعالى لم يزل مأموراً بها في كل شريعة.

وقدكان شيخنا سيدي علي الخواص - رحمه الله تعالى - أكثر استشهاده لشريعتنا بما في الزبور من القوارع والزواجر، وكثيراً ما يخاطب الله تعالى فيه نبيه داود عليه الصلاة والسلام والمراد بذلك غيره، نظير ذلك قوله تعالى لنبينا محمد -ﷺ-: ﴿**لئن أشركت ليحبطن عملك**﴾ [الزمر:٦٥]، و﴿**يا أيها النبي اتق الله**﴾ [الأحزاب:١]، ونحو ذلك، فكان الشيخ - رحمه الله تعالى - يقول لنا: إياكم أن تجالسوا المغتابين أو تصاحبوا النمامين فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: يا داود طوبى لمن لا يقف في مواقف الخطائين ولا يجلس في مجالس المتسهزئين، ولا يجالس المغتابين، ولايصاحب النمامين، يا داود من ذكر عيوب الناس أو هم أن يذكر عيوبهم فضحته على رءوس الأشهاد يوم القيامة، يا داود من غض طرفه وصان فرجه وحفظ لسانه فهو عندي من المقربين، وقد سمعته - رحمه الله تعالى - يقول لبعض العلماء: يا أخي عليك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن ذلك من زكاة العلم، فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: يا داود إذا ترك العلماء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذهبت الهيبة منهم وصارت في السفهاء والأشرار، طوبى للمنفردين عن الناس الصامتين عن عيوبهم، طوبى لمن ترك فراشه في الليل وقام يناجيني في شدة البرد والناس نائمون تحت لحفهم، طوبى لقوم عظموني ولم ينظروا إلى الفروج الحرام خوفًا مني، يا داود أهون ما أنا صانع بالزناة أن أذهب بهجة النضارة من وجوههم وأمحق بركة عمرهم، يا داود قل لبني إسرائيل: تغفلون عني والأقلام جارية

لا تغفل وقل للذين أغلقوا أبوابهم وأرخوا ستورهم عند المعاصى إنى لو شئت أهلكتهم وخسفت بهم الأرض، يا داود قل لبنى إسرائيل: يخافونى ألبس وجوههم الهيبة والقبول وأجعل عدوهم تحت قدمهم كالكبش تحت السكين، يا داود علامة من أحببته أن يقل كلامه، ويكثر استغفاره، يا داود غض طرفك عن حرم المؤمنين تأتك الدنيا وهى راغمة، يا داود قد أحاط سخطى بالزناة الذين يفسدون حرم المؤمنين، يا داود قل لبنى إسرائيل: لا يعصونى سراً ويجعلونى فى أعينهم أهون من عبادى فإنى أعذبهم بالنار.

وقد سمعته ـ رحمه الله تعالى ـ كثيراً يقول: ربما كانت النعم على العبد استدراجًا لهم، فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام يا داود قل للعقلاء: يخافون منى إذا ترادفت عليهم نعمتى، ويكثرون من النوح كلما زادت عليهم النعم فإن ذلك استدراج لهم ولو أنى أحببتهم لجردتهم عن الدنيا، يا داود كن لليتيم كالأب الشفيق أكثر رزقك وأكفر ذنبك، يا داود ما عظمنى من عصانى، يا داود إذا مر بك امرأة جميلة فاذكر عرضك على يوم القيامة، يا داود من لقينى وهو يراعى غيرى سقط من رعايتى، يا داود غض طرفك وصن لسانك فإنى لا أحب الفاسقين، يا داود قل لبنى إسرائيل: لا يقعوا فى أعراض الناس فإن الوقيعة فيهم تزيد القلب عمى وموتًا، طوبى لمن نظر فى عيب نفسه فأصلحه، يا داود انقطع إلى أنكس لك رءوس الملوك وألبس وجهك المهابة، يا داود طهر ثيابك الباطنة فإن الظاهرة لا تنفعك عندى.

وقد سمعته ـ رحمه الله تعالى ـ يقول لتاجر تحولت عنه الدنيا: أبشر بخير فإن الله تعالى قد أحبك، فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: يا داود لا تقوم الساعة حتى يذل الأشراف وترتفع الأذلة ويهجر كتابى فلا يتلى ويكثر فيه رزق العاصى والفاجر، ويقل فيه رزق المؤمن الطائع الفاضل، فإذا صار الأمر إلى ذلك حببت الدنيا إلى أهل ذلك الزمان ومنعتهم من محبة الآخرة، فإذا فعلوا ذلك سلطت عليهم سيف النقمة، وأعليت أسعارهم، وجعلت الصغير لا يوقر الكبير وابتليتهم بالفسق والفجور، وذلك جزاؤهم عندى، يا داود كم من لسان فصيح أخرسته عن

النطق بالشهادة عند الموت لكثرة وقيعته فى الناس، يا داود قل لبنى إسرائيل: إن لم تهجروا أباكم وأخاكم وولدكم من أجلى فلا أقبل لكم صلاة، يا داود قل لبنى إسرائيل: يردوا التبعات التى عليهم قبل الموت فإنى أقسمت على نفسى أن أبعث صاحب التبعات وفى عنقه طوق من نار يكويه بكل تبعة كية، يا داود ليس كل من صلى قبلت صلاته ولا كل من عبد رفعت عبادته.

وقد سمعته ـ رحمه الله تعالى ـ يقول لبعض الإخوان: عليك يا ولدى بتقوى الله وإياك أن تعصى ربك عز وجل وتقول ربنا غفور رحيم، فإن ذلك من تسويلات النفس وكيد إبليس، وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام يا داود قل لبنى إسرائيل: كم من ليلة جاهرتمونى بالمعاصى ثم أصبحتم تخادعونى بالاستغفار من غير إقلاع عنها كأنكم تعاملون من يغيب عنه مكركم وخداعكم، يا داود قل لبنى إسرائل: صونوا أحداقكم فكم من ناظر نظر إلى أخيه وهو فى فاحشة فأشاعها عنه وقد أتى هو أكبر منها ولم أفضحه ولو شئت لفضحته، يا داود من طلب العلم لغير وجهى أدخلته النار، يا داود من عمل بالمعاصى وسترها عن المخلوقين هل يقدر على سترها منى؟ يا دواد طوبى للذين يستحيون منى أن يعصونى فى الخلوات، يا داود اصحب النواحين واترك البطالين وقل لعصاة بنى إسرائيل كيف تستحيون من عبادى دونى وجلالى لكم أظهر من جلالتهم لأنى سيدهم.

ولقد سمعته ـ رحمه الله تعالى ـ مرة أخرى يقول لشخص لا يعيش له ولد: قل الحمد لله الذى لم يشغلنى بأهل ولا ولد، فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام ياداود لا تطلب الأولاد فليس كل الأولاد ينفع رب ولد أشغل والده عن ربه وأشعل عليه قبره نارًا، يا داود احفظنى بظهر الغيب أحفظك فى الملأ، وأكثر من ذكرى أكثر لك من الرزق، يا داود لا تبغ على من بغى عليك فتتخلف نصرتى عنك، يا داود قل لبنى إسرائيل: كم تعلمون أن الدنيا فانية وتتعبون جوارحكم فى جمعها، يا داود قل لبنى إسرائيل: أما يخشى أحدكم إذا عصى أن أقبضه على تلك الحالة قبل التوبة

فيلقانى وأنا غضبان عليـه فأورده النار وبئس المصير، يا داود لو شئت لأمرت السمـاء أن تقع على العاصى أو أمـرت الأرض أن تبتلعـه، يا داود قل لبنى إسرائيل إذا أردتم المعـصية فاذكـروا صولة الزبانية وضيق الأغـلال فى طباق النيران، يا داود لو اطلع عبادى على غضبى عليهم إذا عصونى لماتوا ولكنى خبأت عنهم غضبى رحـمة بهم، يا داود ضع خدك على التراب وناجنى، يا دواد أبوك آدم من أكرم الناس على لم يمس فرجه الحرام ولم يقتل نفسًا، وإنما نهيتـه عن الأكل من الشجرة فأكل منها ناسيًـا فتطايرت الحلل من على بدنه وسقط التـاج عن رأسه وأوقفـته موقف النـدم فكيف بمن مس فرجه حـرامًا وقتل نفسًا سبحانى ما أرأفـنى بكم أيها الخلق وما أقل حياءكم منى تعصونى وعـينى ترعـاكم ولو أن أحدًا مـن عبـادى رآكم لذبتم حـيـاء منه وأنا أولى بالحياء، يا داود ما لى أراك مطمئنا لا تبكى مع الباكين ولا تنوح مع النائحين فلو رأيت النار وزبانيتهـا وما أعددت للزناة فيها لذبت كـما يذوب الرصاص فى النار، يا داود لخدمـتك على وجهك فى الثلج أهون عليك من مناقـشتى لك فى الحساب، وعـزتى وجلالى لأوقفن الخصـوم وأسأل أحدهم عن وزن الخردلة، يا داود قل لبنى إسـرائيل: ترمقون وترنون كأنكم بأعـيانكم تظنون أنى لا أراكم، يا داود من عـصـانى فى الخلوات أطلعت المخلـوقـين على مساوئ أعـماله وفضحته وأدخلتـه النار. انتهى ما سمعـته من مواعظ الزبور وقد جمعت مواعظها كلها فى جزء فاطلبه، والحمد لله رب العالمين.

وليكن ذلك آخـر كتاب تنبـيه المغـترين أواخر القـرن العاشـر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، ولما شـرعت فى خطبة الكـتاب كنت فى حـصر عظيم من عـدم وجود المواد التى أستمد منها فى الكتـاب فدخل على شخص بكتاب عـتيق محـروم من الأول بخط كوفى تاريخ كتـابته خمـسمائة سنة وشىء فـوجدته مشحونًا بأحوال السلف الصالح من الـصحابة والتابعين، ورأيت مولفه يروى عن وكيع بن الجراح من أقران الإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ ففرحت بذلك أشد الفرح فشيـدت به أخلاق هذا الكتاب وكأن من طالـعه صحب الصحابة والـتابعين وتابع التابعين، ورأى أقوالهم وأفعالهم وورعهم وزهدهم وخوفهم وخشيتهم

ـ ﷺ ـ رضى الله تعالى عنهم أجمعين، وقد ذكرنا فى خطبته أن من طالعه بإتصاف رأى نفسه فد انسلخت من أخلاق القوم كما تنسلخ الحية من ثوبها فنسأل الله تعالى من فضله أن ينفع به الإخوان ومن بعدهم ويختم لنا ولهم الحسنى وأن يجعل آخر كلامنا من هذه الدار أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله -ﷺ- وصلى على سيدنا محمد آله وصحبه أجمعين، وسنذكر من كلام المؤلف من الأخلاق المتبولية من آخر الكتاب الخاتمة وما يتعلق بها إن شاء الله تعالى، وكان الحسن البصرى يقول: إن الله عز وجل يقول لآدم: أنت يوم القيامة عدل بين ذريتك وبينى، فمن رجح خيره على شره مثقال ذرة دخل الجنة حتى تعلم أني لا أعذب إلا ظالمًا لنفسه. وكان مجاهد يقول فى قوله تعالى: ﴿**تتقلب فيه القلوب والأبصار**﴾ [النور:٣٧]، أن تقلب القلوب هو انتزاعها من أماكنها وأن تقلب الأبصار هو أن تتقلب من الكحل إلى الزرقة، ومن الإبصار إلى العمى. والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضى الله تعالى عنهم-: حملهم لمن يكرههم على أنه إنما يكرههم بحق وصدق خوفًا من تزكية نفوسهم وتبرئتهم من العيب إذا حمولهم على أنهم كرهوهم بغير حق.

وقد كان أخى الشيخ أفضل الدين ـ رحمه الله تعالى ـ إذا بلغه على أحد أنه يكرهه وينكرعليه يقول: والله إن قلب هذا نير الذى أدرك نقصى الباطل وما أنا منطو عليه من الفواحش التى أخادع بها ربى عز وجل.

وكذلك كانوا يناقشون نفوسهم إذا كرهت هى أحدًا من المسلمين ويقول أحدهم لنفسه: إن كراهتك لأخيك بغير حق ولم لا حملتيه على المحامل الحسنة فيكون أحدهم على نفسه إذا كرهها أحد أو كرهت هى أحدًا، وعلى ذلك درج السلف الصالح كلهم فكانوا يتهمون نفوسهم فى كل شيء ادعت الصدق فيه من مقام أو حال ويقول أحدهم لنفسه هى: أننى أكذب عليك فى نسبتك إلى الرياء والنفاق مثلاً فما تقولين فى هذا الغريب الذى وصفك بذلك: فإنه لا يجوز لك نسبته إلى الكذب إلا بطريق شرعى وليس معك طريق؟ وقد كان مالك بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ

يقـول: مكثت سنة ونفـسى تنازعنى فى دعـوى الإخـلاص وأنا أقول لهـا: تكذبين حتى مررت يومًا فى أزقة البصرة فإذا بامرأة تقول لأخرى: إن أردت أن تنظرى إلى رجل مـراء فـهذا مـالك بن دينار فـانظرى إليـه قال مـالك: ففرحت بالذى انتصرت على نفسى وقلت لها: يا نفس اسمعى لقبك القبيح من هذه المرأة الصالحة.

وكان بعد ذلك يقول: من أراد أن ينظر إلى مراء فلينظر إلى.

وكان الفضـيل بن عياض ـ رحمه الله تعـالى ـ يقول: لأن أحلف أنى مراء أحب إلى من أن أحلف أنى لسـت بمراء، وكان كثيـرًا ما يعاتب نفـسه ويوبخهـا ويقول: كنت يا فضـيل فى شبيـوبتك فاسقًـا عاصيًـا وصرت فى كهوليـتك مرائيًا منافقًا والله للفاسـق والعاصى أخف إثما عند الله من المرائى المنافق لأن العاصى ينتظر من الله المغـفرة ولا كذلك المرائى والمنافق لأنه ذنب قل أن يشعر به صاحبه حتى يتوب منه، فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضى الله تعالى عنهم-: ذكرهم لمناقب أقرانهم الذى يكرهونهم ويحسـدونهم ولا يصـدهم حسـدهم لهم وعـداوتهم عن ذكرهم بخير.

وقد كان بيـن عمرو بن العاص وخالد بـن الوليد رحمهمـا الله تعالى بعض شيء فذكـروا عمـرًا عند خالد يومًا فـأثنى عليه خـيرًا فـقيل له: إنه يكرهك فقال: إن الذى كان بيننا لم يبلغ إلى ديننا.

وقد تخلقت أنا بذلك بحمد الله وذكرت مناقب أعدائى وحسادى من الفقراء والعلماء بالنظر إلى جانبـهم لا إلى جانبى فإنى لا أعادى أحدًا من المسلمين لحظ نفسى وإنما هم الذين يـعادونى لعدم تظاهرى لهم بما يوجب العدواة من ترك صلاة أو شرب خمـر أو تعاون الناس إذا ذكروا بالنقائص من ورائهم، أو مـزاحـمـتهم فى أمـور الدنيـا ونحـو ذلك هذا مع شـدة عداوتهم لى، وقـد جعلت ذلك كالبرهان على عناية الله تعـالى بى، فإن غالب الـناس لا ينشرح لذكـر اسم عدوه على لسـانه فضلاً عن أن يـنشر محاسنه بين الأقران.

وقد ذكرنا فى كتاب المنن جمل من إيذائهم لى فبعضه سعى فى قتلى مرات وبعضهم سعى فى إخراجى من مصر، وبعضه دس فى كتبى عقائد مخالفة لأهل السنة والجماعة وأشاعها عنى فى مصر والحجاز كما أشرنا إليه فى خطبة هذا الكتاب ،وبعضهم افترى على عند الباشا على الوزير باشت مصر أموراً لا ينبغى لمؤمن أن يتلفظ بها ومدار جميع الأذى الذى وقع لى من ثلاثة أنفس من أهل مصر ممن ينسب إلى العلم والصلاح، وقد درج الثلاثة إلى رحمة الله تعالى وأبرأت ذمتهم فى الدارين، وإنما ذكرت ذلك لتتأسى بى إخوانى فى تحمل الأذى من أهل عصرهم مع أن هؤلاء الثلاثة الأنفس كانوا يكرهون بعضهم بعضًا، ولكن اجتمعوا كلهم على لمزاحمتى لهم بالدعوة فى اسم الصلاح والعلم لا غير، فصنعوا لى الأذى على صنوف وسار أهل مصر برد وسلام على، وقد بالغت فى ذكر مناقب هؤلاء الثلاثة فى طبقات العلماء والصوفية، وذكرتهم بأحسن الذكر بضد ما فعلوه معى إظهاراً لما منّ الله تعالى به على من العفو والصفح والمسامحة، وليقتدى بى الإخوان ولم أعلم أن أحدًا سبقنى إلى مثل ذلك من أقرانى، بل المنقول عن بعضهم مقابلة الأعداء بنظير ما فعلوا، والحمد لله الذى خلقنا بهذا الخلق المحمدى، وجعلنا ممن لم يجز بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح، والحمد لله رب العالمين الغفور الرحيم.

ومن أخلاقهم -رضى الله تعالى عنهم-: طرح نفوسهم بين يدى الله تعالى إذا اطلعوا من طريق كشفهم على وقعهم فى شيء من المعاصى فى المستقبل، وتبريهم من حولهم وقوتهم ويصيرون يقولون فى دعائهم وفى سجودهم وغيره: اللهم إن كان ما اطلعت عليه قد حق به التقدير الإلهى فاسترنا فيه بين الناس ولا تؤاخذنا به فى الدنيا ولا فى الآخرة صدقة من صدقاتك علينا، وإن لم يكن ذلك قد حق به التقدير الإلهى فنسألك من فضلك أن تزيله من شهودنا، فإنه قد كدر وقتنا، فإن الله تعالى ربما أجاب دعاء العبد وستره وغفر له أو محاه من ألواح المحو والإثبات الثلاثمائة والستين لوحًا، وإيضاح ذلك من أتى المخالفات بحكم التقدير الإلهى من غير ميل ولا شهوة ربما يكون أخف عقوبة ممن أتاه بالميل والشهوة، وكان

بعضهم يقول في سجوده: اللهم إنك تعلم عجزي عن رد شيء من أقدارك النافذة في، فاغفر لي ما قد جنيته صدقة من صدقاتك عليّ يا أرحم الراحمين فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاعلم ذلك واعمل عليه والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم -رضي الله تعالى عنهم-: عدم إتعاب سرهم في تنميق ألفاظ في تأليف وكثرة تحريره إلا بنية صالحة ليمدحهم الناس على ذلك ويقولون: ما قصر فلان في هذا التأليف.

واعلم يا أخي أن البشر ولو بالغ في تحرير كتابه حتى حرره أشد تحرير فلابد له غالبًا من نسيان شرط للمسألة في بعض الأوقات أو إطلاق في محل التفصيل. قال تعالى: ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾ [النساء:٨٢]، وكان الشيخ محيي الدين بن العربي -رضي الله عنه- يقول: ما صنفت كتابا قط عن تدبير ولا اختيار إنما كنت أكتب في مؤلفي ما يلهمني الله تعالى إياه. وكان سيدي علي الخواص - رحمه الله - يقول: سبب كون كلام البشر لا يسلم من الخطأ أو التحريف أو التناقض عدم اليقظة الدائمة، فلذلك كان يقع في الغفلات والسهو.

وكان سيدي أحمد الزاهد -رضي الله عنه- يقول: من الأدب أن لا يطلب العبد الاعتراض عليه مطلقًا بل يهرب من مضاهاة كلام الله عز وجل ما أمكن.

تم تنبيه المغترين

أواخر القرن العاشر

على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر

للشعراني

الكشف والتبيين فى غرور الخلق أجمعين
للإمام محمد بن محمد بن محمد الغزالى

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾

[قرآن كريم]

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم آمين وبه ثقتى

الحمد لله وحده وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

[وبعد] فهذا كتاب [الكشف والتبين فى غرور الخلق أجمعين].

اعلم أن الخلق قسمان: حيوان وغير حيوان، والحيوان قسمان: مكلف وغير مكلف، فالمكلف من خاطبه الله بالعبادة، وأمره بها ووعده بالثواب عليها، ونهاه عن المعاصى، وحذره العقوبة، وغير المكلف من لم يخاطبه بذلك. ثم المكلف قسمان: مؤمن، وكافر. والمؤمن قسمان: طائع وعاص، وكل واحد من الطائعين والعاصين ينقسم إلى قسمين: عالم وجاهل، ثم رأيت الغرور لازما لجميع المكلفين المؤمنين والكافرين إلا من عصمه الله رب العالمين. وأنا إن شاء الله تعالى أكشف عن غرورهم، وأبين الحجة فيه وأوضحه غاية الإيضاح وأبينه غاية البيان بأوجز مايكون من العبارة وأبدع مايكون من الإشارة.

فأقول وما توفيقى إلا بالله: واعلم أن المغرورين من الخلق ما عدا الكافرين أربعة أصناف: صنف من العلماء، وصنف من العباد، وصنف من أرباب الأموال، وصنف من المتصوفة. فأول ما نبدأ به غرور الكفار،

وهم فى غرورهم قسمان: منهم من غرته الحياة الدنيا، ومنهم من غره بالله الغرور. فأما الذين غرتهم الحياة الدنيا فهم الذين قالوا: النقد خير من النسيئة ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك، ولا يترك اليقين بالشك وهذا قياس فاسد، وهو قياس إبليس لعنه الله فى قوله ـ أنا خير منه ـ فظنّ أن الخيرية فى السبب. وعلاج هذا الغرور شيئان: إما بتصديق وهو الإيمان وإما ببرهان. أما التصديق فهو أن يصدق الله تعالى فى قوله ﴿وما عند الله خير وأبقى﴾ وقوله تعالى ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ وتصديق الرسول فيما جاء به. وأما البرهان فهو أن يعرف وجه فساد قياسه أن قوله الدنيا نقد والآخرة نسيئة مقدمة صحيحة، وأما قوله النقد خير من النسيئة فهو محل التلبيس، وليس الأمر كذلك بل إن كان النقد مثل النسيئة فى المقدار والمقصود فهو خير، وإن كان أقل منها فالنسيئة خير منه، ومعلوم أن الآخرة أبدية، والدنيا غير أبدية. وأما قولهم لذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك فهو أيضًا باطل، بل ذلك يقين عند المؤمنين. وليقينه مدركان: أحدهما الإيمان والتصديق على وجه التقليد للأنبياء والعلماء كما يقلد الطبيب الحاذق فى الدواء. والمدرك الثانى الوحى للأنبياء والإلهام للأولياء، ولا تظن أن معرفة النبى-ﷺ- لأمور الآخرة ولأمور الدنيا تقليد لجبريل عليه السلام، فإن التقليد ليس بمعرفة صحيحة والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حاشاه الله من ذلك بل قد انكشفت له الأشياء وشاهدها بنور البصيرة كما شاهد المحسوسات بالعين الظاهرة.

[فصل] والمؤمنون بألسنتهم وعقائدهم إذا ضيعوا أوامر الله وهى الأعمال الصالحة وتدنسوا بالشهوات فهم مشاركون الكفار فى هذا الغرور، فالحياه الدنيا للكافرين والمؤمنين جميعًا غرور. فأما غرور الكافرين بالله فمثاله قول بعضهم فى أنفسهم بألسنتهم: إنه إن كان الله معيدنا فنحن

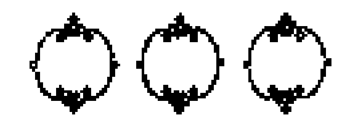
أحق به من غيرنا كما أخبر الله عنهم فى صورة الكهف حيث قال **﴿ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة﴾** الآية. وسبب هذا الغرور قياس من أقيسة إبليس لعنه الله وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم فى الدنيا فيقيسون عليها نعم الآخرة، ومرة ينظرون إلى تأخير عذاب الله عنهم فى الدنيا فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما أخبر الله عنهم إنهم - يقولون **﴿لولا يعذبنا الله بما نقول﴾** ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء فيزدرونهم ويقولون **﴿أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا﴾** ويقولون - **﴿لوكان خيرًا ماسبقونا إليه﴾** وترتيب القياس الذى نظم فى قلوبهم أنهم يقولون قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا وكل محسن فهو محب وكل محب فهو محسن، وليس كذلك بل يكون محسنا ولا يكون محبًا بل ربما يكون الإحسان سبب هلاكه على التدريج، وذلك محض الغرور بالله تعالى ولذلك قال-ﷺ-« **إن الله يحمى عبده المؤمن من الدنيا كما يحمى أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه**» وكذلك كان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا، وإذا أقبل الفقر عليهم فرحوا وقالوا مرحبًا بشعار الصالحين، وقد قال تعالى **﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه﴾** - الآية، وقال تعالى **﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لايشعرون﴾** - وقال تعالى **﴿نستدرجهم من حيث لايعلمون وأملى لهم إن كيدى متين﴾** - وقال تعالى - **فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾** - فلم يؤمن بالله من آمن بهذا الغرور، ومنشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته، فمن عرف الله فلا يأمن من مكره ولا ينظرون إلى فرعون وهامان والنمروذ ماذا حلّ بهم مع ما أعطاهم الله من المال، وقد حذر الله تعالى من مكره فقال تعالى **﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾** - وقال تعالى **﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾**

وقال تعالى ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويدا﴾ - فمن أولاه الله نعمة فليحذر أن تكون نقمة.

{ فصل} وأما غرور العصاة من المؤمنين فقولهم غفور رحيم وإنما نرجو عفوه، فاتكلوا على ذلك وأهملوا الأعمال، وذلك من قبل الرجاء محمود فى الدين، وإن رحمة الله واسعة ونعمته شاملة وكرمه عميم وإنا موحدون مؤمنون نرجو بوسيلة الإيمان والكرم والإحسان، وربما كان منشأ حالهم التمسك بصلاح الآباء والأمهات وذلك نهاية الغرور، فإن آباءهم مع صلاحهم وورعهم كانوا خائفين، ونظم قياسهم الذى سوّل لهم الشيطان أن من أحب إنسانا أحب أولاده، فإن الله قد أحب آباءكم فهو يحبكم، فلا تحتاجون إلى الطاعات فاتكلوا على ذلك واغتروا بالله ولم يعلموا أن نوحا عليه السلام أراد أن يحمل ابنه فى السفينة فمنع وأغرقه الله بأشدّ ما أغرق به قوم نوح، وأن النبى-ﷺ- استأذن فى زيارة قبر أمه وفى الاستغفار لها، فأذن له فى الزيارة ولم يؤذن له فى الاستغفار، ونسوا قوله تعالى - ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ - وقوله تعالى - ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ فإن من ظن أنه ينجو بتقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه أو يروى بشرب أبيه، والتقوى فرض عين لا يجزى فيها والد عن ولده، وعند جزاء التقوى يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه إلا على سبيل الشفاعة، ونسوا قوله-ﷺ-« الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله » وقوله تعالى ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾ وقال تعالى ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ وهل يصح الرجاء إلا إذا تقدمه عمل، فإن لم يتقدمه عمل فهو غرور لا محالة وإنما ورد الرجاء لتبريد حرارة الخوف واليأس، ولتلك الفائدة نطق به القرآن والترغيب فى الزيادة لامحالة.

[فصل] ويقرب منهم غرور طوائف لهم طاعات ومعاص، إلا أن معاصيهم أكثر، وهم يتوقعون المغفرة ويظنون أن ترجح كفة حسناتهم وكفة سيئاتهم أكثر، وهذا غاية الجهل فترى الواحد يتصدق بدراهم عديدة من الحلال والحرام، ويكون ما يتناوله من أموال الناس والشبهات أضعافه، فهو كمن وضع فى كفة الميزان عشرة دراهم ووضع فى الكفة الأخرى ألفا وأراد أن تميل الكفة التى فيها العشرة وذلك غاية الجهل.

[فصل] ومنهم من يظن أن طاعته أكثر من معاصيه لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيها وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها، كالذى يستغفر الله بلسانه ويسبح بالليل والنهار مثلا مائة مرة أو ألف مرة ثم يغتاب المسلمين ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار، ويلتفت إلى ما ورد من فضل التسبيح ويغفل عما ورد فى عقوبة الكذابين والنمامين والمنافقين، وذلك إلى محض الغرور. فحفظ لسانه عن المعاصى آكد من تسبيحه، فسبحان من صدنا عن التنبيه.



فصل
فى بيان أصناف المغرورين
وأقسام كل صنف

الصنف الأول من المغرورين العلماء. وهم فرق: فرقة منهم لما أحكمت العلوم الشرعية والعقلية تعمقوا فيها واشتغلوا بها، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصى، وإلزامها الطاعات واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان، وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم بل يقبل شفاعتهم فى الخلق، ولا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم وهم مغرورون، فإنهم لو نظروا بعين البصيرة لعلموا أن العلم علمان علم معاملة وعلم مكاشفة وهو العلم بالله تعالى وبصفاته فلابد من علوم المعاملة لتتم الحكمة المقصودة ،وهى المعاملة بمعرفة الحلال والحرام ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة ومثلهم مثل طبيب يطبب غيره وهو عليل قادر على طب نفسه فلم يفعل وهل ينفع الدواء بالوصف؟ هيهات لا ينفع الدواء إلا من شربه بعد الحمية وغفلوا عن قوله تعالى ﴿**قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها**﴾ ولم يقل من يعلم تزكيتها وكتب علمها وعلمها الناس وغفلوا عن قوله- ﷺ - «من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعدا» وقوله- ﷺ - «**إن أشدّ الناس عذابًا يوم القيامة عالمًا لم ينفعه الله بعلمه**» وغير ذلك كثير وهؤلاء مغرورون نعوذ بالله من حالهم وإنما غلب عليهم حب الدنيا وحب أنفسهم وطلب الراحة والعاجلة وظنوا أن علمهم ينجيهم فى الآخرة من غير عمل.

وفرقه أخرى: أحكموا العلم والعمل الظاهر وتركوا المعاصى الظاهرة وغفلوا عن قلوبهم فلم يمحوا منها الصفات المذمومة عند الله كالكبر

والرياء والحسد وطلب الرياسة والعلو وإرادة السوء بالأقران والشركاء وطلب الشهرة فى البلاد والعباد وذلك غرور سببه غفلتهم عن قوله-ﷺ- «الرياء الشرك الأصغر» وقوله-ﷺ-« الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» وقوله-ﷺ-« حب المال والشرف ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل» إلى غير ذلك من الأخبار وغفلوا عن قوله تعالى ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ فغفلوا عن قلوبهم واشتغلوا بظواهرهم، ومن لا يصفى قلبه لا تصح طاعاته وهو كمريض ظهر به الجرب فأمره الطبيب بالطلاء وشرب الدواء فاشتغل بالطلاء وترك الدواء فأزال ما بظاهره ولم يزل ما بباطنه وأصل ما على ظاهره مما فى باطنه فلا يزال جربه يزداد أبدا مما فى باطنه، فلو زال ما فى باطنه استراح الظاهر فكذلك الخبائث إذا كانت كامنة فى القلب يظهر أثرها على الجوارح.

وفرقة أخرى: علموا هذه الأخلاق الباطنة وعلموا أنها مذمومة من جهة الشرع إلا أنهم لأجل تعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنهم وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك وإنما يبتلى به العوام دون من بلغ مبلغهم فى العلم فأما هم فهم أبلغ عند الله من أن يبتليهم بذلك وظهرت عليهم مخايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف وغرورهم أنهم ظنوا أن ذلك ليس بكبر وإنما هو عز الدين وإظهار لشرف العلم ونصرة دين الله وغفلوا عن فرح إبليس به وعن نصرة النبى-ﷺ- بماذا كانت وبماذا أرغم الكافرين وغفلوا عن تواضع الصحابة وتذللهم وفقرهم ومسكنتهم حتى عوتب عمر رضي الله عنه على بذاذته عند قدومه الشام فقال: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام لا نطلب العز فى غيره. ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرفيعة ويزعم أنه يطلب عز العلم وشرف الدين، ومهما أطلق اللسان بالحسد فى أقرانه أو فى من رد عليه شيئًا من كلامه لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ويقول إنما هو غضب للحق ورد على المبطل فى عداوته وظلمه وهذا

مغـرور فإنه لو طعن على غيـره من العلماء من أقـرانه ربما لم يغضب بل يفرح وإن أظهر الغضب عند الناس فقلبه ربما يحبه وربما يظهر العلم ويقول غرضى بـه أن أفيد الخلـق وهو به مراء لأنه لو كـان غرضه صـلاح الخلق لأحب صلاحـهم على يد غيره ممن هو مثله أو فـوقه أو دونه وربما يدخل على السـلاطين ويتودد إلـيهم ويثنى عليـهم فـإذا سئل عن ذلك قـال إنما غرضى أن أنفع المسلمـين وأدفع عنهم الضرر وهو مغرور فلو كـان غرضه ذلك لفرح به إذا جـرى على يد غيره ولو رأى من هو مـثله عند السلطان يشفع فى أحد لغضب وربما أخذ من أمـوالهم فإذا خطر بباله أنه حرام قال له الشيطان هذا مـال بلا مالك وهو لمصالح المسلمين وأنت إمـام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين. وهذه ثلاث تلبيـسات: أحدها أنه مال لا مالك له والثانى أنه لمصـالح المسلمين والثالث أنه إمام وهل يكـون إمامًا إلا من أعرض عن الدنيا كالأنبياء والصحـابة وأفاضل علماء هذه الأمة ومثله كما قال عيسى علـيه السلام: العالم السوء كصخـرة وقعت فى فم الوادى فلا هى تشرب الماء ولا هى تتـرك الماء يخلص إلى الزرع، وأصناف غرور أهل العلم كثيرة وما يفسد هؤلاء أكثر مما يصلحونه.

وفرقـة أخرى: أحكمـوا العلوم وطهروا الجوارح وزينوهـا بالطاعات واجتنبوا ظاهر المـعاصى وتفقدوا أخلاق النفس وصـفات القلب من الرياء والحسـد والكبر والحـقد وطلب العلو وجـاهدوا أنفسـهم فى التبـرى منها وقلعوا من القلب منابتها الجلية القوية ولكنهم مغروررون إذ فى زوايا القلب بقـايا من خفـايا مكايد الشيطان وخـبايا خـدع النفس مادق وغـمض فلم يتفطنوا لهـا وأهملوها، ومثلهم كمـثل الزرع من يريد تنقيته من الحـشيش فدار عليـه وفتش عن كل حشيش فـقلعه إلا أنه لم يفتش عمـا لم يخرج رأسـه بعد من تحت الأرض ويظن أن الكل ظـهر وبرز، فلمـا غفل عنهـا ظهرت وأفسدت عليـه الزرع فهؤلاء إن غيروا تغيـروا وربما تركوا مخالطة

الخلق استكباراً عنهم وربما نظروا إلى الخلق بعين الحقارة وربما يجتهد بعضهم فى تحسين منظره كيلا ينظر إليه بعين الركاكة.

وفرقة أخرى: تركوا المهم من العلوم واقتصروا على علم الفتاوى فى الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح المعايش وخصصوا اسم الفقيه وسموه الفقه وعلم المذهب وربما ضيعوا مع ذلك علم الأعمال الظاهرة والباطنة ولم يتفقدوا الجوارح ولم يحرسوا اللسان عن الغيبة والبطن عن الحرام والرجل عن السعى إلى السلاطين وكذا سائر الجوارح ولم يحرسوا قلوبهم من الكبر والرياء والحسد وسائر المهلكات وهؤلاء مغرورون من وجهين: أحدهما من حيث العمل، وذكرنا وجه علاجه فى كتاب[الإحياء] وأن مثلهم كمثل المريض الذى تعلم الدواء من الحكماء ولم يعلمه فهؤلاء مشرفون على الهلاك من حيث أنهم تركوا تزكية أنفسهم وتخليها واشتغلوا بكتاب الحيض والديات واللعان والظهار وضيعوا أعمارهم فيها، وإنما غرهم تعظيم الخلق لهم وإكرامهم ورجوع أحدهم قاضيًا ومفتيًا ويطعن كل واحد منهم فى صاحبه فإذا اجتمعوا زال الطعن. والثانى من حيث العلم وذلك لظنهم أنه لاعلم إلا بذلك وأنه الموصل المنجى وإنما الموصل المنجى حب الله تعالى ولا يتصور حب الله تعالى إلا بمعرفته ومعرفته ثلاث: معرفة الذات ومعرفة الصفات ومعرفة الأفعال، وهؤلاء مثل من اقتصر على بيع الزاد فى طريق الحاج ولم يعلموا أن الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المخوفة والزاجرة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى كما قال تعالى **﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾** الآية، ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات ولم يهمه إلا تعلم طريق المجادلة والإلزام وإفحام الخصم ودفع الحق لأجل الغلبة والمباهاة فهو طول الليل والنهار فى التفتيش فى مناقضات أرباب المذاهب والتفقد لعيوب الأقران وهؤلاء لم يقصدوا العلم

وإنما قصدوا مباهاة الأقران، ولو اشتغلوا بتصفية قلبهم كان خيراً لهم من علم لا ينفع إلا فى الدنيا ونفعه فى الدنيا التكبر وذلك ينقلب فى الآخرة ناراً تلظى. وأما أدلة المذهب فيشتمل عليها كتاب الله وسنة رسوله -ﷺ- فما أقبح غرور هؤلاء..

وفرقة أخرى: اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة والردّ على المخالفين وتتبع مناقضاتهم واستكثروا من علم المقولات المختلفة واشتغلوا بتعليم الطريق فى مناظرة أولئك وإفحامهم ولكنهم على فرقتين إحداهما ضالة والأخرى محقة. أما غرور الفرقة الضالة فلغفلتها عن ضلالتها وظنها بنفسها النجاة وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضا وإنما ضلوا من حيث إنهم لم يحكموا لشروط الأدلة ومنهاجها فرأوا الشبهة دليلاً والدليل شبهة. وأما غرور الفرقة المحقة فمن حيث أنهم ظنوا بالجدل أنه أهم الأمور وأفضل القربات فى دين الله وزعموا أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يبحث وأن من صدق الله من غير بحث وتحرير لدليل فليس بمؤمن ولا بكامل ولا بمقرب عند الله تعالى ولم يلتفتوا إلى القرن الأول وأن النبى -ﷺ- شهد لهم بأنهم خير الخلق ولم يطلب منهم الدليل. وروى أبو أمامة الباهلى -رضي الله عنه- عن النبى -ﷺ- أنه قال« **ماضل قوم قط إلا أوتوا الجدل**».

وفرقة أخرى: اشتغلوا بالوعظ وإعلاء رتبة من يتكلم فى أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص والصدق وهم مغرورون لأنهم يظنون أنهم اذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها فقد اتصفوا بها وهم منفكون عنها إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين، وغرور هؤلاء أشد الغرور لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب ويظنون أنهم ما تبحروا فى علم المحبة إلا وهم من الناجين عند الله وأنهم مغفور لهم بحفظهم لكلام الزهاد مع

خلوهم من العمل، وهؤلاء أشد غروراً ممن كان قبلهم لأنهم يظنون أنهم يحبون في الله ورسوله وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم مخلصون ولا وقفوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزهون وكذلك جميع الصفات وهم أحب في الدنيا من كل أحد ويظهرون الزهد في الدنيا لشدة حرصهم عليها وقوة رغبتهم فيها ويحثون على الإخلاص وهم غير مخلصين ويظهرون الدعاء إلى الله وهم منه متباعدون ويذمون الصفات المذمومة وهم بها متصفون ويصرفون الناس عن الخلق وهم على الخلق أشدهم حرصا ولو منعوا عن مجالسهم التي يدعون فيها الناس إلى الله لضاقت عليهم الأرض بما رحبت ويزعمون أن غرضهم إصلاح الخلق ولو ظهر من أقران أحدهم من إقبال الخلق عليه ومن صلحوا على يديه لمات غمًا وحسدا ولو أثنى واحد من المترددين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله إليه فهؤلاء أعظم غرورا وأبعد عن التنبيه والرجوع إلى السداد.

وفرقة أخرى: عدلوا عن المهم الواجب في الوعظ وهم وعاظ أهل هذا الزمان كافة إلا من عصمه الله فاشتغلوا بالطاعات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعدل طلبًا للإغراب وطائفة اشتغلوا بطيارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها وأكثر همهم في الإسجاع والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق وغرضهم أن يكثر في مجلسهم التواجد والزعقات ولو على أغراض فاسدة فهؤلاء شياطين الإنس ضلوا وأضلوا فإن الأولين إن لم يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم، وأما هؤلاء فإنهم يصدون عن سبيل الله ويجرون الخلق إلى الأغراض والغرور بالله بلفظ الخرافة جراءة على المعاصي ورغبة في الدنيا لا سيما إذا كان الواعظ متزينا بالثياب والخيلاء والمرائي ويعظهم بالقنوط من رحمة الله حتى ييأسوا من رحمته.

وفرقة أخرى: منهم قنعوا بكلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا فيعيدونها على نحو ما يحفظون من كلام حفظوه من غير إحاطة بمعانيه فيعظهم الواحد منهم بذلك على المنابر وبعضهم يعظون الناس في الأسواق مع الجلساء ويظن أنه ناج عند الله وأنه مغفور له بحفظه كلام الزهاد مع خلوه من العمل وهؤلاء أشد غروراً ممن كان قبلهم.

وفرقة أخرى: استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث أعني في سماعه وجمع الروايات الكثيرة منه وطلب الأسانيد الغريبة العالية فهم أحدهم أن يدور في البلاد ويروى عن الشيوخ ليقول: أنا أروى عن فلان ولقيت فلانا ومعي من الأسانيد ما ليس مع غيري. وغرورهم من وجوه: منها أنهم كحملة الأسفار فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم السنة وتدبر معانيها، وإنما هم مقتصرون على النقل ويظنون أن ذلك يكفيهم وهيهات بل المقصود من الحديث فهمه وتدبر معانيه فالأول في الحديث السماع ثم الحفظ ثم الفهم ثم العمل ثم النشر، وهؤلاء اقتصروا على السماع ثم لم يحكموه وإن كان لا فائدة في الاقتصار عليه والحديث في هذا الزمان يقرؤه الصبيان وهم غرة غافلون والشيخ الذى يقرأ عليه ربما يكون غافلا حتى يصحف الحديث ولا يعلم وربما ينام ويروى عنه الحديث وهو لايعلم وكل ذلك غرور وإنما الأصل في استماع الحديث أن يسمعه من رسول الله -ﷺ- فيحفظه كما سمعه ويؤديه كما حفظه فتكون الرواية عن الحفظ والحفظ عن السماع فإن عجز عن سماعه من رسول الله -ﷺ- وهو أن يصغى ويحفظ ويرويه كما حفظه حتى لا يشك في حرف واحد منه وإن شك فيه لم يجز له أن يرويه أو يعلّم به ويخطئ به إن أخطأ، وحفظ الحديث يكون بطريقين أحدهما بالقلب مع الاستدامة والذكر والثاني يكتب ما يسمع ويصحح المكتوب ويحفظه كيلا تصل إليه يد من يغيره ويكون حفظه للكتاب أن يكون في خزانته محروسا حتى لا تمتد إليه يد غيره أصلا ولا يجوز أن يكتب سماع الصبي والغافل والنائم ولو جاز أن يكتب سماع

الصبي في المهد وللسماع شروط كثيرة والمقصود من الحديث العمل به ومعرفته وله مفهومات كثيرة كما للقرآن وروى عن أبي سفيان بن أبي الخير المنهى أنه حضر في مجلس زاهر بن أحمد السرخسي فكان أول حديث روى قوله-ﷺ-« **من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه**» فقام وقال: يكفيني هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره، فهكذا هو سماع الناس.

وفرقة أخرى: اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغتروا به وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الأمة إذ قوام الدين والسنة بعلم النحو واللغة فأفنوا أعمارهم في دقائق النحو واللغة وذلك غرور عظيم، فلو عقلوا لعلموا أن لغة العرب كلغة الترك والمضيع عمره في لغة العرب كالمضيع عمره في لغة الترك والهند وغيرهم وإنما فارقهم من أجل ورود الشرع، وكفى من اللغة علم الغريبين في الكتاب والسنة ومن النحو ما يتعلق بالكتاب والسنة وأما التعمق فيه إلى دزجه لا تتناهى فهو فضول مستغنى عنه وصاحبه مغرور.

الصنف الثاني من المغرورين أصحاب العبادات والأعمال والمغرورون منهم فرق كثيرة: منهم من غروره في الصلاة، ومنهم من غروره في تلاوة القرآن، ومنهم من غروره في الحج، ومنهم من غروره في الجهاد، ومنهم من غروره في الزهد، ومنهم فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالنوافل، وربما تعمقوا فيها حتى يخرجوا إلى السرف والعدوان، كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ، ولا يرتضي الماء المحكوم بطهارته في الشرع ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة، وإذ آل الأمر إلى أكل الحرام قدر الاحتمالات القريبة بعيدة وربما أكل الحرام المحض، ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أولى بدليل سير الصحابة -رضي الله عنهم- فقد توضأ عمر -رضي الله عنه- بماء في جرة نصرانية مع احتمال ظهور النجاسة وكان مع هذا يدع أبوابا من الحلال خوفا من الوقوع في الحرام.

وفرقة أخرى: غلبت عليهم الوسوسة فى نية الصلاة فلا يدعه الشيطان يعقد نية صحيحة بل يوسوس عليه حتى تفوته الجماعة وربما أخرج الصلاة عن الوقت وإن تم تكبيرة الإحرام يكون فى قلبه تردد فى صحة نيته وقد يتوسوس فى التكبير حتى يغير صفة التكبير لشدة الاحتياط ويفوته الاستماع للفاتحة ويفعل ذلك فى أول الصلاة ثم يغفل فى جميعها ولا يحضر قلبه ويغتر بذلك ولم يعلم أن حضور القلب فى الصلاة هو الواجب وإنما غره إبليس وزين له ذلك وقال له ذلك الاحتياط تتميز به عن العوام وأنت على خير عند ربك.

وفرقة أخرى: غلبت عليهم الوسوسة فى إخراج حروف الفاتحة من مخارجها وكذلك سائر الأذكار فلا يزال يحتاط فى التشديدات والفرق بين الضاد والظاء لا يهمه غير ذلك ولا يتفكر فى أسرار فاتحة الكتاب ولا فى معانيها ولم يعلم أنه لم يكلف الخلق فى تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم فى الكلام وهذا غرور عظيم، ومثلهم من حمل الرسالة إلى مجلس السلطان وأمر أن يؤديها على وجهها فأخذ يؤدى الرسالة ويتأنق فى مخارج الحروف ويعيدها مرة بعد أخرى وهو مع ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس، فهذا لا شك أنه تقام عليه السياسة ويرد إلى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل.

وفرقة أخرى: اغتروا بتلاوة القرآن فيهدروا به هدرا ربما يختمون فى اليوم والليلة ختمة وألسنتهم تجرى به وقلوبهم تتردد فى أودية الأمانى والتفكر فى الدنيا ولا تتفكر فى معانى القرآن لينزجر بزواجره ويتعظ بمواعظه ويقف عند أوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع الاعتبار منه ويتلذذ به من حيث المعنى لا من حيث النظم، فمن قرأ كتاب الله فى اليوم والليلة مائة مرة ثم ترك أوامره ونواهيه يستحق العقوبة وربما كان له صوت طيب فهو يقرأ ويتلذذ به ويغتر باستلذاذه ويظن أنه ذلك لذة مناجاة الله سبحانه

وسماع كلامه، وهيهات ما أبعده إذ لذته فى صوته فلو أدرك لذة كلام الله ما نظر إلـى صوته وطيبـه ولا تعلق خاطره به ولذة كـلام الله إنما هى من حيث المعنى فهو فى غرور عظيم.

وفرقـة أخرى: اغـتروا بالصـوم وربما صامـوا الدهر وصامـوا الأيام الشريفة وهم فى ذلـك لا يحفظون ألسنتهم عن الغيـبة ولا خواطرهم عن الرياء ولا بطونهم عن الحـرام عند الإفطار ولا من الهذيان بأنواع الفـضول فهـؤلاء تركوا الواجب واتبعـوا المندوب وظنوا أنهم يسلمون وهيـهات إنما يسلم من أتى الله بقلب سليم فهم مغرورون أشد الغرور.

وفرقة أخرى: اغتروا بالحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضـاء الوالدين وطلب الزاد الحلال وربما ضيعـوا الصلاة المكتوبة فى الطريق وربما عجـزوا عن طهارة الثوب والبـدن ويتعرضـون لمكس الظلمة حتى يؤخـذ منه ولا يحترزون فى الطريق من الرفث والخصـام وربما جمع بعضهم الحرام فأنفقه على الرفقاء فى الطريق وهو يطلب به الرياء والسمعة فيعصى الله فى كسب الحرام أولا وفى إنفاقه للرياء ثانيا ثم يبلغ إلى الكعبة ويحضرها بقلب ملوث برذائل الأخلاق وذميم الصفات وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه وهو مغرور.

وفرقة أخرى: أخذت فى طريق الخشية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وينكر أحدهم على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه وإذا أمرهم بالخـير عنف وطلب الـرياسة والعـز وإذا باشر منـكرًا وأنكر عليه أحـد غـضب وقال أنا المحـتسب فكيف تنـكر علىّ، وقد يجـمع الناس فى المسجد ومن تأخـر عنه أغلظ عليه القول وربما عرض له الرياء والسـمعة والرياسة وعـلامته أنه لوقـام بالمسجد غـيره تجرأ علـيه ومنهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله ولوجاء غيره وأذن فى وقت غيبته قامت عليه القيامة وقال لم آخذ حـقى وزوحمت، ومنهم من يتقيد إمام مـسجد ويظن أنه

خير وغرضه أن يقال إنه إمام مسجد كذا وكذا وعلامته أنه لو قدم غيره وإن كان أورع منه وأعلم ثقل عليه ذلك.

وفرقة أخرى: جاوروا بمكة والمدينة واغتروا بهما ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظواهرهم وبواطنهم وربما كانت قلوبهم متعلقة ببلادهم ومنازلهم وتراهم يتحدثون بذلك ويقولون جاورت بمكة كذا وكذا سنة وهذا مغرور لأن الأقوم له أن يكون في بلده وقلبه متعلق بمكة وإن جاور فليحفظ حق الجوار، فإن جاور بمكة حفظ حق الله وإن جاور بالمدينة حفظ حق النبي -ﷺ- ومن يقدر على ذلك، وهؤلاء مغرورون بالظواهر فظنوا أن الحيطان تنجيهم وهيهات وربما لم تسمح نفسه بلقمة يتصدق بها على فقير وما أصعب المجاورة في حق الخلق فكيف مجاورة الخالق وما أحسن مجاورته بحفظ جوارحه وقلبه.

وفرقة أخرى: زهدت فى المال وقنعت من الطعام واللبس بالدون، ومن المسكن بالمساجد وظنوا أنهم أدركوا رتبة الزهاد وهم مع ذلك راغبون فى الرياسة والجاه والرياسة إنما تحصل بأحد أشياء إما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد، فقد تركوا أهون الأمرين وبادروا إلى أعظم المهلكات، لأن الجاه أعظم من المال، ولو ترك أحدهم الجاه وأخذ المال كان إلى السلامة أقرب، وهؤلاء مغرورون ظنوا أنهم من الزهاد في الدنيا وهم لم يعلموا معنى الدنيا وربما يقدم الأغنياء على الفقراء، ومنهم من يعجب بعلمه، ومنهم من يؤثر الخلوة والعزلة وهو عن شروطها خال، ومنهم من يعطى له المال فلا يأخذه خيفة أن يقال بطل زهده وهو راغب فى المال والناس خائف من ذمهم، ومنهم من شدد على نفسه فى أعمال الجوارح حتى يصلى فى اليوم والليلة مثلا ألف ركعة ويختم القرآن وهو فى جميع ذلك لا تخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات. وربما يظن أن العبادات الظاهرة ترجح بها كفة الحسنات

وهيهات ذرّة من ذى تقوى وخلق واحد من خلق الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملا بالجوارح ثم قد يغتر بقول من يقول له إنك من أوتاد الأرض أو من أولياء الله وأحبابه فيفرح بذلك ويظهر له تزكية نفسه ولو شوتم يوما واحدا مرتين أو ثلاثا لكفر وجاهد من فعل ذلك به وربما قال لمن سبه لا يغفر الله لك أبدا.

وفرقة أخرى: حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض، فترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وصلاة الليل وأمثال هذه النوافل ولا يجد لصلاة الفرض لذة ولا خيرا من الله تعالى لشدة حرصه على المبادرة بها فى أول الوقت وينسى قوله-ﷺ-« **ما تقرب المتقربون بأفضل من أداء ما افترضه الله عليهم**» وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور بل قد يتعين على الإنسان فرضان أحدهما يفوت والآخر لا يفوت أو نفلان أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته فإن لم يحفظ الترتيب كان مغرورا ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى فإن المعصية ظاهرة وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض كتقديم الفرائض كلها على النوافل وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفايات التى لا قائم بها على ماقام بها غيره وتقديم الأهم من فروض العيان على ما دونه وتقديم ما يفوت مثل تقديم حق الوالدة على الوالد وتقديم نفقة الأبوين على الحج وتقديم الجمعة إذا حضر وقتها على العيد وتقديم الدين على فروض غيره وما أعظم العبد أن ينفذ ذلك ويتنبه له ولكن الغرور فى الترتيب دقيق خفى لا يقدر عليه إلا العلماء الراسخون فى العلم.

الصنف الثالث من المغرورين أرباب الأموال وهم فرق كثيرة: فرقة منهم يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر والصهاريج للماء وما يظهر للناس ويكتبون أسماءهم بالآجر عليه ليتخلد ذكرهم ويبقى بعد الموت أثرهم وهم يظنون أنهم استحقوا المغفرة بذلك. وقد

اغتروا فيه من وجهين: أحدهما أنهم اكتسبوها من الظلم والشبهات والرشا والجاهات المحظورة فهؤلاء قد تعرضوا لسخط الله فى كسبها فإذا عصوا الله فى كسبها فالواجب عليهم التوبة ورد الأموال إلى أهلها إن كانوا أحياء وإلى ورثتهم إن لم يبق منهم أحد وانقرضوا فإن لم يبق لهم ورثة فالواجب عليهم أن يصرفوها فى أهم المصالح وربما يكون الأهم التفرقة على المساكين فأى فائدة فى بنيان يستغنى عنه ويموت ويتركه وإنما غلب على هؤلاء الرياء والشهرة ولذة الذكر. والوجه الثانى أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير فى الإنفاق وعلوّ الأبنية ولو كلف واحد منهم أن ينفق دينارًا على مسكين لم تسمح نفسه بذلك لأن حب المدح والثناء مستكن فى باطنه.

وفرقة أخرى: ربما اكتسبوا المال الحلال واجتنبوا الحرام وأنفقوه على المساجد وهم أيضا مغرورون من وجهين: أحدهما الرياء وطلب السمعة والثناء فإنه ربما يكون فى جواره أو بلده فقراء وصرف المال إليهم أهم فإن المساجد كثيرة والغرض منها الجامع وحده فيجزى عن غيره وليس الغرض بناء مسجد فى كل سكة وفى كل درب والمساكين والفقراء محتاجين وإنما خف عليهم دفع المال فى بناء مسجد لظهور ذلك بين الناس ولما يسمع من الثناء عليه من عند الخلق فيظن أنه يعمل لله وهو يعمل لغير الله ونيته أعلم بذلك، وإنما نيته عليه غضب، وقال إنما قصدت الله عز وجل. والثانى أنه يصرف ذلك فى زخرفة المساجد وتزيينها بالنقوش المنهىّ عنها الشاغلة قلوب المصلين لأنهم ينظرون إليها فتشغلهم عن الخشوع فى الصلاة وعن حضور القلب، وهو المقصود من الصلاة فكل ما طرء فى صلاتهم وفى غير صلاتهم فهو فى ميزان الذى بناه إذ لا يحل تزيين المسجد بوجه. قال الحسين ﷺ: لما أراد رسول الله -ﷺ- أن يبنى مسجده بالمدينة أتاه جبريل وقال ابنه: سبعة أذرع طولا فى السماء فلا

تزخرفه ولا تنقشه، فهؤلاء رأوا المنكر معروفا واتكلوا عليه فهم مغرورون فى ذلك.

وفرقة أخرى: ينفقون الأموال فى الصدقات على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة، ومن الفقراء من عادته الشكر وإفشاء المعروف فيكرهون التصدق فى السر ويرون إخفاء الفقير لما يأخذه منهم خيانة عليهم وكفرانًا للمعروف وربما تركوا جيرانهم جائعين ولذلك قال ابن عباس -ﷺ-: فى آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب يهوى لهم السفر ويبسط لهم فى الرزق ويرجعون مجرمين مسلوبين يهوى بأحدهم بعيره بين القفار والرمال وجاره مأسور إلى جنبه فلا يواسيه ولا يتفقده.

وفرقة أخرى: من أرباب الأموال يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ويشتغلون بالعبادة البدنية التى لا يحتاجون فيها إلى نفقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهم محتاجون إلى قمعه بإخراج المال فاشتغلوا بطلب فضائل وهم مشتغلون عنها ومثلهم كمثل من دخلت فى ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك فاشتغل بطلب السكنجبين ليسكن به الصفراء ومن لدغة الحية كيف يحتاج إلى ذلك. وقيل لبشر الحافى: إن فلانا كثير الصوم والصلاة. فقال ترك حاله ودخل فى حال غيره، إنما حال هذا إطعام الطعام للجائع والإنفاق على المساكين فهو أفضل له من تجويع نفسه ومن صلاته مع جمعه الدنيا ومنعه الفقراء.

وفرقة أخرى: غلب عليهم البخل فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط ثم إنهم يخرجونها من المال الخبيث الردىء الذى يرغبون عنه ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد فى حوائجهم أو من يحتاجون إليه فى المستقبل للاستئجار له فى الخدمة ومن لهم فيه على الجملة غرض ويسلمونها إلى شخص يعينه واحد من الكبار ممن يستظهر بخشيته لينال

بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجته وكل ذلك مفسد للنية ومحبط للعمل وصاحبه مغرور ويظن أنه مطيع لله وهو فاجر إذ يطلب بعبادة الله غرضا من غيره فهذا وأمثاله مغرورون بالأموال.

وفرقة أخرى: من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم فاتخذوا ذلك عادة ويظنون أن لهم أجرا على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ وهم مغرورون لأن فضل مجالس الذكر إنما تحصل لكونها مرغبة فى الخير فإن لم تهيج الرغبة فلا خير فيها، والرغبه محمودة لأنها تبعث على العمل فإن لم تبعث على العمل فلا خير فيها، وربما يغتر بما يسمعه من الوعظ وربما تداخله رقة كرقة النساء فيبكى وربما يسمع كلاما مخوفا فلا يزال يصفر بين يديه ويقول ياسلام سلم ونعوذ بالله وحسبى الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور، وإنما مثله كمثل المريض الذى يحضر مجالس الأطباء ويسمع ما يصفونه من الأدوية ولا يفعلها ولا يشتغل بها ويظن أنه يجد الراحة، وكذلك الجائع الذى يحضر عند من يصف الأطعمة اللذيذة. فكل وعظ لا يغير منك صفة تتغير بها أفعالك حتى تقبل إلى الله عز وجل وتعرض عن الدنيا وتقبل إقبالا قويا فإن لم تفعل بذلك الوعظ كان زيادة حجة عليك، فإن رأيته وسيلة لك كنت مغرورا.

الصنف الرابع: من المغرورين المتصوفة وما أغلب الغرور على هؤلاء منهم متصوفة أهل هذا الزمان إلا من عصمه الله واغتروا بالزى والمنطق والهيئة فشابهوا الصادقين من الصوفية فى زيهم وهيئتهم وألفاظهم وآدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم وأحوالهم والظاهرة فى السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادة مع إطراق الرأس وإدخاله فى الجيب كالمتفكر مع تنفيس الصعداء وفى خفض الصوت فى الحديث وفى

الصياح إلى غير ذلك، فلما تعلموا ذلك ظنوا أن ذلك ينجيهم فلم يتعبوا أنفسهم قط بالمجاهدة والرياضة والمراقبة للقلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الجلية والخفية وكل ذلك من منازل التصوف، ثم إنهم يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويتنافسون فى الرغيف والفلس والحبة ويتحاسدون على النقير والقطمير ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه في شيء من غرضه فهؤلاء غرورهم ظاهر، فمثلهم كمثل عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال والمقاتلين تثبت أسماؤهم فى الديوان فتزيت بزيهم ووصلت إلى الملك فعرضت على ميزان العرض فوجدت عجوز سوء، فقيل لها أما تستحيى فى استهزائك بالملك اطرحوها حول الفيل فطرحت حول الفيل فركضها حتى قتلها.

وفرقة أخرى: زادت على هؤلاء فى الغرور إذ صعب عليها الاقتداء فى بذالة الثياب والرضا بالدون فى المطعم والمنكح والمسكن وأرادت أن تتظاهر بالتصوف ولم تجد بدا من التزين بزيهم فتركت الخز والإبريسم وطلبت المرقعات النفيسة والفوط الرفيعة والسجادات المصبوغات وقيمتها أكثر من قيمة الخز والإبريسم ولا يجتنبوا معصية ظاهرة فكيف بالباطنة، وإنما غرضهم رغد العيش وأكل أموال السلاطين وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير وضرر هؤلاء على المسلمين أشد من ضرر اللصوص لأن هؤلاء يسرقون القلوب بالزى فيقتدى بهم غيرهم فيكونون سبب هلاكهم، فإن اطلع على فضائحهم فيظنون أن أهل التصوف كذلك فيصرحون بذم الصوفية على الإطلاق.

وفرقة أخرى: ادعت علم المكاشفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والوصل والملازمة فى عين الشهود والوصول إلى القرب، ولا يعرف ذلك الوصول إليه إلا باللفظ والاسم، فتلقف من الألفاظ الطامة كلمات، فهو يرددها، وهو يظن أن ذلك من أعلى علم الأولين والآخرين،فهو ينظر إلى

الفقهاء والمقرئين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء فضلا عن العوام، حتى إن الفلاح ليترك فلاحته، والحائك حياكته ويلازمهم أياما معدودة فيتلقف تلك الكلمات الزائفة فتراه يرددها كأنه يتكلم عن الوحى ويخبر عن أسرار ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء، فيقول فى العباد: أجراء متعبون، ويقول في العلماء: إنهم بالحديث محجوبون ويدعى لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقربين، وهو عند الله من الفجار المنافقين، وعند أباب القلوب من الحمقاء الجاهلين، لم يحكم قط علما، ولم يهذب خلقا، ولم يرتب علما ولم يراقب قلبا سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان، ولو اشتغل بما ينفعه كان أحسن له.

وفرقة أخرى: جاوزت هؤلاء فأحسنت الأعمال، وطلبت الحلال، واشتغلت بتفقد القلب، وصار أحدهم يدعى المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحبّ من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها، فمنهم من يدعى الوجد ويحب الله ويزعم أنه واله بالله ولعله قد يخيل بالله خيالات فاسدة هى بدعة أو كفر، فيدعى حب الله قبل معرفته، وذلك لا يتصور قط، ثم إنه لا يخلو قط ما يفارقه ما يكرهه الله وإيثار هوى نفسه على أوامر الله وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق، ولو خلا بنفسه لما تركها حياء من الله، وليس يدرى أن كل ذلك يناقض الحب، وبعضهم يميل إلى القناعة والتوكل فيخوض البوادى من غير زاد ليصحح التوكل وليس يدرى أن ذلك بدعة لم تنقل عن الصحابة وسلف هذه الأمة، وقد كانوا أعلم بالتوكل منه ما فهموا من التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد، بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله لا على الزاد، وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب واثق به، وما مقام من المقامات المنجية إلا وفيه غرور وقد اغترّ بها قوم. وقد ذكرنا مداخل الآفات فيها فى ربع المنجيات من كتاب الإحياء.

وفرقة أخرى: ضيقت على أنفسها أمر القوت حتى طلبت من الحلال الخالص وأهملت تفقد القلب والجوارح من غير هذه الخصلة الواحدة. ومنهم من استعمل الحلال فى مطعمه وملبسه ومكسبه ويتعمق فى ذلك ولم يدر أن الله لم يرض العباد إلا بالكمال والطاعات، فمن اتبع البعض وأهمل البعض فهو مغرور.

وفرقة أخرى: ادعت حسن الخلق والتواضع والسماحة، فقصدوا لخدمة الصوفية، فجمعوا قوما وتكلفوا خدمتهم، واتخذوا ذلك شبكة لحطام الدنيا، وجمعا للمال، وإنما غرضهم التكثير والتكبير، وهم يظهرون الخدمة والتواضع ويطلبون أن غرضهم الارتفاق، وغرضهم الاستتباع ويظهرون أن غرضهم الخدمة، وهم يجمعون الحرام والشبهات لينفقوا عليهم فتكثر أتباعهم وينتشر بتلك الخدمة ذكرهم، ومنهم من يأخذ من أموال السلاطين وينفق عليهم، ومنهم من يأخذ من أموال السلاطين والظلمة لينفق ذلك بطريق الحج على الصوفية ويزعم أن غرضه البر والإنفاق والباعث للجميع إنما هو الرياء والسمعة وذلك إهمالهم لجميع أوامر الله ورضاهم بأخذ الحرام والإنفاق منه، ومثال الذى ينفق المال الحرام فى طريق الحج، كمن يعمر مسجدا ويطينه بالعذرة وغيرها من النجاسات ويزعم أن قصده العمارة.

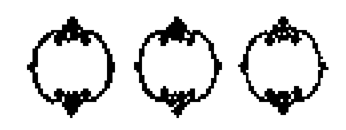
وفرقة أخرى: اشتغلت بالمجاهدة وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس من عيوبها فصاروا يتعمقون فيها فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علما وحرفة لهم فهم فى جميع أحوالهم مشتغلون بالتحفظ من عيوب النفس باستنباط دقيق الكلام فى آفاتها فيقولون هذا فى النفس عيب والغفلة عن كونه عيبا عيب ويستعفون فيه بكلمات مسلسلة فضيعوا فى ذلك أوقاتهم لأنهم وقعوا مع أنفسهم ولم يتعلقوا بخالقهم، ومثلهم من

اشتغل بأوقات الحج وعوائقه ولم يسلك طريق الحج وذلك لا يغنيه عن الحج فهو مغرور.

وفرقة أخرى: جاوزت هذه المرتبة وابتدءوا سلوك الطريق وانفتحت لهم أبواب المعرفة فلما شموا من مبادئ المعرفة رائحة تعجبوا منها وفرحوا بها، وأعجبتهم غرائبها فتعلقت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكير فيها، وفى كيفيه انفتاح بابها عليها واستداده على غيرها، وذلك غرور لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية، فمن وقف مع كل أعجوبة وتقيد قصرت خطاه وحرم الوصول إلى المقصد، ومثال ذلك كمن قدم ملك فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار ولم يكن قد رآها قبل ذلك ولا رأى مثلها فوقف ينظر إليها حتى فاته الوقت الذى يكون فيه لقاء الملك فانصرف خائبا.

وفرقة أخرى: جاوزت هؤلاء ولم تلتفت إلى ما يفيض عليها من الأنوار فى الطريق ولا إلى ما يتيسر لهم من العطايا الجزيلة ولم يلتفتوا إليها ولا عرجوا عليها، بل جادين فى السير فلما قاربوا الوصول ظنوا أنهم وصلوا فوقفوا ولم يتعدوا ذلك فغلطوا، فإن لله سبحانه وتعالى سبعين حجابا من نور وظلمة ولا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب إلا ويظن أنه قد وصل وإليه الإشارة بقوله تعالى إخبارا عن إبراهيم -عليه السلام- ـ **فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا** ـ الآية وما أكثره فى هذا المقام فأول الحجب بين العبد وربه نفسه فإنه أمر ربانى عظيم وهو نور من أنوار الله أعنى سر القلب الذى تتجلى فيه حقيقة الحق كما هى حتى إنه ليشح بحمله العالم كله ويحيط به صور الكل فعنده يشرق نوره إشراقًا عظيمًا إذ يظهر فيه الوجود كله على ماهو عليه وهو فى أول الأمر محجوب بمشكاة هى الساترة له فإذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب إلى القلب فرأى من جماله

الفائق ما يدهشه فربما صرخ وقال أنا الحق فإن لم يتضح له ما وراء ذلك وقف عنده هلك، وبهذا المعنى نظر النصارى إلى المسيح -عليه السلام- لما رأوا من إشراق نور الله عليه فغلطوا، كمن رأى كوكبًا فى مرآة أو فى ماء فيظن أن الكوكب فى المرآة أو فى الماء، فيمد يده إليه ليأخذه فهو مغرور، وأنواع الغرور فى طريق السلوك إلى الله لا تحصى فى مجلدات ولا تستقصى إلا بعد شرح جميع العلوم الخفية وذلك مما لا رخصة فى ذكره وقد يجوز إظهارها حتى لا يقع المغرور فيها. وبالله التوفيق، وهو حسبى ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



فهرس المحتويـات

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الباب الثانى

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الباب الثالث

الموضـــــوع	الصفحة

الباب الرابع

الموضـــــوع	الصفحة

